



جَامِعَةُ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ السَّنُوسِيِّ الْإِسْلَامِيَّةِ
Mohmmad Bin Ali Assanosi University



كلية التاريخ والحضارة



المجلة العلمية للدراستات التاريخية والحضارية

Scientific Journal of Historical and Civilizational Studies

المجلد الخامس عشر - العدد الأول

يونيو / 2026 م

ت	المحتويات	رقم الصفحة
1.	فن الفسيفساء خلال العصور الثلاثة الكلاسيكية والهلينستية والرومانية دراسة أثرية وصفية مقارنة إعداد: أ. أكرم علي حمد علي، جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية	35 - 6
2.	"الخصائص الأثرية والسماط الفنية للوحات الرسم المحفوظة بالمتحف المصري والمتحف اليوناني الروماني": إعداد: د. منى محمد موسى نوح، كلية السياحة والآثار - سوسة جامعة عمر المختار	66 - 36
3.	تقييم المخاطر البيئية والبشرية واستراتيجيات الصون المستدام : دراسة تحليلية لمسرح ابولونيا الأثري في مدينة سوسة - ليبيا : إعداد : أ. العبد محمد العبد بوهيسه، كلية السياحة والآثار، جامعة عمر المختار	90 - 67
4.	روايات الإخباريين عن وفود المعارضة في أحداث الفتنة الكبرى (32 - 37 هـ / 652 - 657 م) إعداد د. وليد موسى إبراهيم محمد د. أحمد على صالح الحسنوني د. عبد السلام سالم سعيد محمد كلية التاريخ والحضارة جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية	111 - 91
5.	الاستعانة بنصارى الأندلس في عصر الولاة والإمارة الأموية (وظيفة القومس أنموذجاً) إعداد : د. هدى حسن النيهوم ، قسم التاريخ - جامعة بنغازي	139 - 112
6.	التأثيرات العلمية بين المسلمين والبيزنطيين (41 - 232 هـ / 661 - 847 م) إعداد : أ. خطاب علي عطية؛ أ. د. انتصار خالد هزاوي؛ د. فرج إبراهيم العقوري ، جامعة عمر المختار	176 - 140
7.	التعليم العثماني الحديث في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني (1835-1911م) إعداد : د. جميلة مفتاح الجنزوري جامعة بنغازي /كلية الآداب/قسم التاريخ	207 - 177
8.	المرحلون الليبيون إلى الجزر الإيطالية 1911-1931م، جزيرة تريميتي، وبونزا ،واوستيكا "أنموذجاً" إعداد : د. علي عيسى علي الدعب د. سعد إدريس سعيد آدم د. عبد الرحيم عبداللطيف مفتاح عبدالقادر كلية التاريخ والحضارة جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية	233 - 208
9.	الدولة الليبية والنفط: بداية التغيير في العهد الملكي إعداد : منى عبدالرازق موسى بوبكر باحثة ، الأكاديمية الليبية للدراسات العليا - طبرق	254 - 234
10.	تاريخ السياسات الاقتصادية في ليبيا من 1979 إلى 2003م، دراسة تحليلية لتاريخ السياسات الاقتصادية وأثرها على التحولات التنموية، إعداد : أ. حسين فرج حسين آدم باحث أكاديمي، الأكاديمية الليبية، بنغازي	284 - 255
11.	الحرف الصناعية وأنواعها في مدينتي البصرة والكوفة (40 - 132 هـ / 660 - 750 م) ، اعداد الطالب: عبدالباسط حسن الكيلاني	310 - 285
12.	التنظيم المالي لبيت المال في البصرة والكوفة في العصر الأموي الموارد وأوجه الإنفاق من (40 - 132 هـ / 660 - 750 م) ، إعداد : أ. مجدي سليمان إبراهيم علي	341 - 311

المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية

Scientific Journal of Historical and Civilizational Studies

المشرف العام		
د. الشريف امراجع		
هيئة التحرير		
1	د. حمدي سعد علي	رئيس هيئة التحرير
2	د. أكرم علي حمد الحمروش	عضو
3	د. سعد صالح عوض	عضو
4	د. حمدي خليفه الصادق	عضو
5	أ. علي مفتاح عبدربه حوبلن	عضو

اللجنة الاستشارية للمجلة:

م	الاسم	الدرجة العلمية	م	الاسم	الدرجة العلمية
1	أ.د. سعد صالح الدلال	أستاذ دكتور	10	د. وليد موسى إبراهيم	أستاذ مشارك
2	أ.د. الشريف امراجع حامد	أستاذ دكتور	11	د. عبد الرحيم عبد اللطيف	أستاذ مشارك
3	أ.د. المبروك محمود صالح سليمان	أستاذ دكتور	12	د. إدريس محمد حسين	أستاذ مشارك
4	أ.د. سعيد محمد غريده	أستاذ دكتور	13	د. فرج إبراهيم محمد العقوري	أستاذ مشارك
5	د. أحمد علي صالح الحسنوني	أستاذ مشارك	14	د. علي عيسى علي الدعب	أستاذ مساعد
6	د. علي بالقاسم راشد الحرابي	أستاذ مشارك	15	د. سعد إدريس آدم قدير	أستاذ مساعد
7	د. عبدالسلام سالم سعيد	أستاذ مشارك	16	د. إدريس عبد النبي حامد الجوير	أستاذ مساعد
8	د. يونس علي صالح الجوير	أستاذ مشارك	17	أ. صالح عيسى صالح	أستاذ مساعد
9	أ. علي مفتاح عبدربه حوبلن	أستاذ مساعد	18	د. عبد الباسط عبدربه محمد	محاضر

الإشراف على التنسيق والتصميم

د. سعيد رشوان

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 2018/225

ISSN:2789-018X

رابط المجلة : fhci@jus.edu.ly أو موقع الجامعة الإلكتروني : jus.edu.ly

كلمة رئيس تحرير

السادة الباحثين والباحثات، السادة القراء الكرام،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

يسر هيئة تحرير مجلة الدراسات التاريخية والحضارية أن تضع بين أيديكم المجلد الخامس عشر، العدد الأول، الصادر في يونيو 2026، والذي يأتي استمراراً لمسيرة علمية تسعى إلى ترسيخ قيم البحث الرصين، وتعزيز الإنتاج المعرفي في مجالات الدراسات التاريخية والحضارية، وقد جاء هذا العدد ثمرةً لجهود علمية متضافرة شارك فيها نخبة من الباحثين والمحكمين والأكاديميين، في إطار من الالتزام بالمعايير العلمية والمنهجية الدقيقة التي تتبناها المجلة في سبيل الارتقاء بمستوى النشر الأكاديمي وتجويد مخرجاته.

يضم العدد مجموعة من الدراسات والأبحاث التي تتناول قضايا تاريخية وحضارية متنوعة، وتعكس ثراء الحقول المعرفية واتساع آفاق البحث العلمي في هذه التخصصات، وانطلاقاً من رسالتها العلمية، تواصل المجلة سعيها إلى الإسهام في إحياء التراث التاريخي والحضاري، وإعادة قراءته قراءة نقدية وإعنية، تستند إلى المناهج العلمية، بما يعزز فهم الظواهر التاريخية وتحليل التحولات الحضارية في سياقاتها المختلفة، كما تؤمن المجلة بأن دراسة الماضي ليست غاية في ذاتها، وإنما هي سبيل إلى تعميق الوعي بالواقع، واستلهام الخبرات الإنسانية، واستشراف آفاق المستقبل برؤية علمية مستنيرة، وإذ تؤكد المجلة انفتاحها على مختلف الجهود البحثية الجادة، فإنها تجدد دعوتها للباحثين والأكاديميين من الجامعات والمؤسسات العلمية داخل ليبيا وخارجها للمساهمة في إثراء صفحاتها بأبحاث أصيلة ودراسات نوعية تسهم في تطوير المعرفة التاريخية والحضارية، وتعزز مناخ الحوار العلمي البناء.

وفي ختام هذه الكلمة، نتقدم بخالص الشكر والتقدير لجميع الباحثين والمحكمين وأعضاء هيئة التحرير وكل من أسهم في إخراج هذا العدد إلى النور. كما نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لخدمة العلم والمعرفة، وأن ينفع به الباحثين والدارسين، ويسهم في تعزيز مكانة البحث العلمي وخدمة تراث أمتنا وحضارتها. والله ولي التوفيق،

د. حمدي سعد علي

رئيس تحرير مجلة الدراسات التاريخية والحضارية
 جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

بحث بعنوان :

فن الفسيفساء خلال العصور الثلاثة الكلاسيكية والهلينستية والرومانية

دراسة أثرية وصفية مقارنة

Mosaic Art Through the Three Eras (Classical, Hellenistic, and Roman): A
Comparative Descriptive Archaeological Study

إعداد :

أ. أكرم علي حمد علي

Dr. Akram Ali Hamad Ali

محاضر بقسم الآثار كلية التاريخ والحضارة

جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

akram.a.ali@ius.edu.ly

المدقق اللغوي : منير سعيد حامد - جامعة السيد محمد بن علي السنوسي

ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة المسار التطوري لفن الفسيفساء عبر أطواره الثلاثة المتميزة: الكلاسيكي، والهلينستي، والروماني، مستندة إلى منهج أثري تحليلي يزوج بين الوصف والمقارنة. يركز البحث على تتبع التحولات الجوهرية في التقنيات الصناعية والجماليات التشكيلية، بدءاً من السيادة المبكرة لـ "فسيفساء الحصى" في الحقبة الكلاسيكية، والتي تجلت براعتها في مكتشفات مدينة أولينثوس، وصولاً إلى الثورة التقنية في العصر الهلنستي؛ إذ استُحدثت تقنيات المكعبات، والقطع الصغيرة؛ مما أتاح للفنان بلوغ محاكاة تصويرية دقيقة، كالتي في جزيرة ديلوس ومدينة بيللا.

وتحلل الدراسة استمرارية هذا الفن وتطوره في السياق الروماني، إذ أصبحت الفسيفساء ركيزة معمارية لا غنى عنها، مع التركيز على الجانب الهندسي لطبقات التحضير التي كفلت بقاء هذه الأرضيات، فقد خلُصت الدراسة إلى اعتبار الفسيفساء وثيقة تاريخية وتقنية تعكس تطور الوعي الجمالي والتفاعل الحضاري في حوض البحر المتوسط، متجاوزة كونها مجرد أداة للتزيين لتصبح سجلاً مادياً للهوية الثقافية في العالم القديم. الكلمات المفتاحية: الفسيفساء، العصر الكلاسيكي، الهلنستي، الروماني، دراسة مقارنة.

Research Abstract:

This study examines the evolutionary path of mosaic art through its three distinct phases: Classical, Hellenistic, and Roman, employing an analytical archaeological approach that integrates description and comparison. The research focuses on tracing the fundamental shifts in industrial techniques and plastic aesthetics, beginning with the early dominance of "Pebble Mosaics" in the Classical era, exemplified by the discoveries at Olynthus. It progresses to the technical revolution of the Hellenistic period, which introduced "Tessellatum" and "Vermiculatum" techniques, enabling artists to achieve precise pictorial mimicry comparable to oil paintings, as evidenced in Delos and Pella.

Furthermore, the study analyzes the continuity and development of this art within the Roman context, where mosaics became an indispensable architectural staple, with emphasis on the engineering aspects of the preparatory layers that ensured the durability of these pavements. The study concludes that mosaics serve as historical and technical documents reflecting the evolution of aesthetic consciousness and cultural interaction in the Mediterranean basin. They transcend being mere decorative tools to become a material record of cultural identity in the Ancient World.

Keywords : Mosaics, Classical Era, Hellenistic Era, Roman Era, Comparative Study.

المقدمة:

يُمثل فن الفسيفساء (Mosaic) أحد أعرق الفنون البصرية التي استقطبت اهتمام الباحثين؛ نظراً لقيمتها الجمالية ولكونه سجلاً تاريخياً يوثق تفاصيل الحضارات القديمة¹، وقد شهد هذا الفن تطورات فنية وتقنية متلاحقة منذ بداياته الأولى؛ إذ تُرجع الأدلة الأثرية ظهور أولى نماذج الفسيفساء الجدارية إلى مدينة الوركاء (Uruk) جنوب بلاد الرافدين، وهي عبارة عن مخاريط طينية ملونة تعود إلى العصر السومري (Sumerian Period) في الألف الرابع قبل الميلاد².

انتشر هذا الفن في مراكز العالم القديم ببلاد الشام، ومصر، واليونان، حتى بلغ ذروة نضجه في العصر الهلنستي (Hellenistic Period). وبالرغم من ريادة اليونانيين في تزيين الأرضيات، إلا أن الرومان (Romans) طوروا هذا الإرث بأساليب معمارية مبتكرة، ليصل الفن إلى أوج انتشاره في العصر الروماني³. وتعتمد الفسيفساء تقنياً على رصف قطع صغيرة (Tesserae) من الحصى، أو الرخام، أو الزجاج لتزيين المباني العامة والمنازل، مما عكس بوضوح الذوق الفني والتراتب الاجتماعي⁴.

تاريخياً، عُثر على أقدم النماذج اليونانية في مدينة أولينثوس (Olynthus)* وتؤرخ بالقرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، مع وجود أمثلة في أوليمبيا (Olympia)*، ومقدونيا

¹ Hinks, Roger P., 1933: Catalogue of the Greek, Etruscan and Roman Paintings and Mosaics in the British Museum, British Museum Press, London, p. 31.

² Woolley, C. Leonard, 1935: The Development of Sumerian Art, Faber and Faber, London, p. 114.

³ سعيد محمود، عزيزة 2003: التصوير والزخارف الجصية البارزة والموزايكو في الفن الروماني، الإسكندرية، ص 127؛ Blake, Marion Elizabeth, 1930: The Pavements of the Roman Buildings of the Republic and Early Empire, Memoirs of the American Academy in Rome, Rome, p. 12.

⁴ Fischer, Peter, 1971: Mosaic: History and Technique, McGraw-Hill Book Company, New York, p. 15.

* تقع مدينة أولينثوس (Olynthus) شمال اليونان، تحديداً في شبه جزيرة هالكيدكي (Chalcidice)، على تلتين قريبتين من خليج توروني، ومن أبرز المعالم تشتهر بالحي السكني الشمالي المصمم وفق "المخطط الهيبودامي" المنظم، وتعد "بيوت الفسيفساء" (مثل بيت بيليروفون) أبرز معالمها، حيث تضم أقدم الأرضيات المزدانة بالحصى التي تمثل مشاهد ميثولوجية وهندسية، للمزيد انظر:

Cahill, Nicholas. 2002: Household and City Organization at Olynthus, Yale University Press, p. 180.

* أوليمبيا (Olympia) تقع في شبه جزيرة (Peloponnese) المورة حالياً في وادي "ألفيوس" الخصيب بمنطقة "إليس" غرب اليونان والتي كانت مكاناً للألعاب الأولمبية سنة 776 ق.م، ومن أبرز المعالم: تضم معبد زيوس (الذي كان يحوي إحدى عجائب الدنيا السبع) والمنتزه الأولمبي (Stadium). أما معمارياً وفنياً، فيبرز فيها مبنى "الليونيدايون" (Leonidaion) الذي خصص لاستضافة كبار الزوار، ويحتوي على أرضيات فسيفسائية تعد نموذجاً لتطور التزيين في المنشآت العامة، للمزيد انظر:

Salzmann, Dieter. 1982: Untersuchungen zu den antiken Kieselmosaiken, Gebr. Mann Verlag, Berlin, p. 102.

(Macedonia)*، وسوريا (Syria). ومع حلول العصر الهلينستي، برزت مراكز متطورة في ديلوس (Delos)*، والإسكندرية⁵ (Alexandria)، وتلا ذلك هيمنة الفسيفساء الرومانية التي اجتاحت كافة أقاليم الإمبراطورية (Empire)، من بلاد الغال (Gaul) إلى شمال أفريقيا (North Africa)، وذلك بين القرنين الأول والثالث الميلاديين⁶.

التقنيات التي استخدمت لإعداد لوحات فسيفسائية

تعتمد تقنية صناعة لوحات الفسيفساء على تغطية الأسطح بشبكة من الأحجار مكعبة الشكل، مركبة وملتصقة بجانب بعضها البعض، حيث يتم تقطيعها بقياسات صغيرة تتفاوت فيما بينها من حيث الحجم واللون والنوع⁷.

يُعد الحصى أول مادة خام يتم استخدامها في صناعة لوحات الفسيفساء، إذ كان أصحاب السبق في هذا الاستخدام هم اليونانيون، وربما كان محصوراً عليهم، إذ كانوا يستخدمون الحصى الأبيض والأسود اللون في تشكيل لوحات الأرضيات (لتحقيق مفهوم الضوء والظل)⁸، بالإضافة إلى استخدام شرائط من الرصاص على هيئة خطوط تحدد الملامح والتفاصيل الداخلية للأشكال المصورة، وكان الحصى دائري الشكل تقريباً يبلغ قطره 7 سم، ثم تم إضافة الحصى الأحمر والأصفر لتلك اللوحات مع نهاية القرن الرابع ق.م⁹.

* مقدونيا (Macedonia) تمثل الإقليم الشمالي لليونان القديمة، وتتركز أهم مدنها (بيللا وفيرجينا) في السهل الوسطى شمال خليج ثيرميك، وتُعد العاصمة بيللا (Pella) المركز الأهم، وتبرز فيها "المنازل الأرستقراطية" الضخمة مثل "بيت ديونيسوس" و"بيت اختطاف هيلين". تشتهر فسيفساء هذه المنطقة بواقعتها المفرطة واستخدام خيوط الرصاص والصلصال لتحديد الملامح الحركية والتشريحية بدقة مذهلة، للمزيد انظر: Cohen, Ada. 2010: Art in the Era of Alexander the Great, Cambridge University, Press, p. 32.

* ديلوس (Delos) تقع في قلب بحر إيجه، وهي أصغر جزر أرخبيل الكيكلاديس (Cyclades)، وتعتبر المركز الجغرافي والمقدس لهذا الأرخبيل، تضم "طريق الأسود" الشهير ومعبد أبولو، لكن معالمها الأبرز في العصر الهلينستي هي "الأحياء السكنية" الفاخرة مثل "حي المسرح"، و"بيت القناع"، و"بيت ديونيسوس". تمثل هذه المنازل قمة الفخامة المعمارية حيث تتوسطها أفنية معمدة (Peristyle) مرصوفة بفسيفساء المكعبات الدقيقة، للمزيد انظر: Trümper, Monika. 1998: Wohnhausformen in Delos, Limes Verlag, p. 64.

⁵ Robinson, David M., 1933: Excavations at Olynthus, Johns Hopkins University Press, Baltimore, p. 5.

⁶ Levi, Doro, 1947: Antioch Mosaic Pavements, Princeton University Press, Princeton, p. 9.

⁷ Dunbabin, Katherine M. D. 1999: Mosaics of the Greek and Roman World, Cambridge University Press, Cambridge, p. 5.

⁸ Westgate, Ruth. 2000: Pavimenta Atque Emblemata: The Development of Mosaic in Greece and Italy, Bulletin of the Institute of Classical Studies, London, p. 255.

⁹ Galli, Giovanna. 1991: L'art de la mosaïque, Solar, Paris, p. 29.

يعود الفضل للرومان في إطلاق هذه التسميات، وقد وضعت تبعاً لتسلسلها التاريخي:

1- Opus Signinum: وهي أرضية مكونة من خليط من مادة الكلس مع قطع الفخار وحجر الطوب المشوي المطحون، بشكل غير منتظم ومطعمة بمكعبات من الحجر الموزعة بترتيب معين ليؤلف شكلاً نموذجاً بناءً على تصميم هندسي أو لشكل ذي رمز محدد¹⁰.

2- Opus Incertum: وهي عبارة عن قطع حجرية موضوعة بطريقة عشوائية غير منتظمة¹¹.

3- Opus Lapilli: وهي تقنية تنفيذ الفسيفساء بمادة الحصى النهري أو الحصى البحري الملون¹².

4- Opus Scutulatum: وهي عبارة عن تصميم مكون من قطع من لون واحد يتداخل فيه قطع من ألوان أخرى وأحجام مختلفة¹³.

5- Opus Tessellatum: وهي الفسيفساء المنفذة بواسطة قطع أو مكعبات مربعة السطح أو مستطيلة السطح وقياسها تقريباً 1 سم، وترتب بخطوط طبيعية، وهي عادة مستقيمة وأحياناً منحنية، وقد يصل قياس المكعبات أحياناً إلى 4 سم مربع¹⁴.

6- Opus Reticulatum: وهي عبارة عن صفوف منحنية أو مائلة من مكعبات الـ tessellatum لتشكل مظهراً شبكياً¹⁵.

7- Opus Vermiculatum: وهي مكونة من مكعبات صغيرة جداً 50 ملم (أو 5 ملم في العمل الدقيق) وما دون، ومقطوعة بعناية فائقة، وهي تستعمل في الأعمال التصويرية المعقدة أو في تفاصيل الوجوه والأشخاص والمناظر المعقدة والدقيقة وتنفيذ مشاهد الحيوانات¹⁶.

8- Opus Sectile (Marmorum): الأرضيات الرخامية المرمية (sectelia pavimenta)، وهي عبارة عن أرضيات رخامية تعتمد على التضارب اللوني للقطع، المبنية على تصميم هندسي منظم، موحد أو متكرر، إذ يعني في اللغة الأثرية الأرضيات الناتجة عن تنظيم قطع (sectelia)

¹⁰ Vitruvius, The Ten Books on Architecture, Trans. Morris Hicky Morgan, 1914: Book VII, Ch. 1, Sec. 4-5.

¹¹ Fischer, Peter. 1971: p. 21.

¹² Westgate, Ruth. 2000: p. 255.

¹³ Dunbabin, Katherine M. D. 1999: p. 5.

¹⁴ Ling, Roger. 1998: Ancient Mosaics, Princeton University Press, New Jersey, p. 11.

¹⁵ Fischer, Peter. 1971: p. 21.

¹⁶ Pliny the Elder, Natural History, Trans. D. E. Eichholz, 1962: Book XXXVI, Sec. 184-185;

Dunbabin, Katherine M. D. 1999: p. 5.

رخامية (marmoreae) مقطعة بأشكال هندسية (crustae) مثل: مربع، مثلث، دائري، مستطيل، سدس، مثنى، إلخ، للوصول إلى تشكيل تصميم بسيط أو معقد من خلال التضارب اللوني (كروماتيزم) للقطع الرخامية¹⁷.

الفسيفساء في العصر اليوناني: الجذور، التطور، وأبرز المدارس الفنية:

تُعد الفسيفساء اليونانية (Greek Mosaics) بمثابة السلف الشرعي لهذا الفن في حوض البحر المتوسط، إذ تحولت من مجرد وسيلة تقنية لحماية الأرضيات من الرطوبة إلى وسيلة تعبيرية رفيعة تنافس الرسم الجداري، وقد شهدت هذه الصناعة تطوراً مذهلاً بدءاً من العصر الكلاسيكي (Classical) وصولاً إلى الذروة في العصر الهيلينستي (Hellenistic)¹⁸.

أولاً: البدايات ومراكز الانتشار المبكرة:

كشفت الحفريات الأثرية عن نماذج رائدة تعود إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، لا سيما في مدينة أولينتوس، التي تعد مختبراً حقيقياً لفهم بدايات الفسيفساء التصويرية. كما عُثر على نماذج موازية في أولمبيا، والمدينة الساحلية الإسكندرية في مصر، ومدينة بيلا (Pella) عاصمة المملكة المقدونية القديمة¹⁹، والتي اشتهرت بلوحات الصيد الأسطورية التي تعكس مهارة فائقة في التكوين والحركة²⁰.

ثانياً: التقنيات والمواد المستخدمة:

تميزت الفسيفساء اليونانية في مراحلها الأولى بعدم الاعتماد على الحجارة المقطوعة، بل استخدمت تقنية الحصى الطبيعي المعروفة بـ (Opus Lapilli). حيث كان الحرفيون يجمعون

¹⁷ سعيد محمود، عزيزة 2003: ص ص 127-135 ؛ Vitruvius, Architecture: Book VII, Ch. 1, Sec. 4.; Brown, B., 1957: Ptolemaic Paintings and Mosaics and the Alexandrian Style, Cambridge. p. 70-74; Smith, D.J., 1983: Mosaics in hand book of Roman Art, Edited by Martin Henning, Phaidon press, Oxford, p.116; Guimier-Sorbets, Anne-Marie. 2004:L'art de la mosaïque, Edition Citadelles & Mazenod, Paris, p. 42.

¹⁸ Dunbabin, Katherine M. D. 1999: p. 18.

¹⁹ Andronicos, M. 1964: Ancient Greek Painting and Mosaics in Macedonia. Volume 5, Issue 2, Thessaloniki: Institute for Balkan Studies, P.288-296.

²⁰ Dunbabin, Katherine M. D. 1999: p. 18.

الحصى من شواطئ البحار وضفاف الأنهار، ويختارون الألوان الأساسية كالأصفر والأبيض والرمادي، مع إدخال درجات محدودة من الأحمر والأصفر لاحقاً.

أما من حيث المواضيع، فقد استلهم الفنان اليوناني عناصره من الميثولوجيا (Mythology) والفنون التشكيلية الأخرى؛ فظهرت المخلوقات الخرافية مثل القنطور (Centaurus) والجريفين (Griffin)، بالإضافة إلى المشاهد الأسطورية والزخارف النباتية الغنية مثل "أوراق الأكانثوس" (Acanthus) و"زهرة اللوتس" (Lotus)²¹.

ثالثاً: مدرسة برجامون (Pergamon) والنضج الهيلينستي:

أصبحت مدينة برجامون الواقعة في آسيا الصغرى في العصر الهيلينستي*، مركزاً عالمياً للإبداع الفني، ففي هذه المدينة، انتقلت الفسيفساء من الأرضيات الوظيفية إلى تغطية أفخم القصور والمباني العامة بأسلوب هندسي وتصويري معقد²².

لم تكن لوحات برجامون بالأشكال التقليدية، بل جسدت قصصاً ملحمة ومناظر طبيعية دقيقة تعكس تفاصيل الحياة اليومية (Genre Scenes) بدقة عالية²³.

وقد أثبتت الدراسات الأثرية المقارنة أن العديد من التصميمات الشهيرة التي عُثر عليها لاحقاً في مدينة بومبي (Pompeii)* الإيطالية لم تكن سوى نسخ (Replicas) عن نماذج أصلية صُممت في برجامون، وهو ما يُعرف اصطلاحاً بـ الـ (Emblemata)؛ وهي لوحات مركزية تُصنع في الورش ثم تُنقل لتُثبت في وسط الأرضيات²⁴.

²¹ جانسون، هورست، 1995، تاريخ الفن (العالم القديم) الجزء الأول، ت: عصام التل، عمان، ص 116 ؛ Westgate, Ruth. 2000: p.255.
* العصر الهيلينستي (Hellenistic Period): هي الحقبة التاريخية الممتدة من وفاة الإسكندر الأكبر (323 ق.م) حتى معركة أكتيوم البحرية وسقوط دولة البطالمة في مصر عام (31 ق.م). تميزت هذه الحقبة بامتزاج الثقافة الإغريقية بالتقاليد المحلية في حوض المتوسط، ولا سيما في إقليم قوريناية الذي شكّل جزءاً حيوياً من المنظومة البطلمية وشهد طفرة حضارية وفنية تجلت في تطور تقنيات صناعة الفسيفساء، واستمر هذا النفوذ السياسي البطلمي في ليبيا حتى عام (96 ق.م) عندما أوصى الملك بطليموس أفيون بضم الإقليم إلى الجمهورية الرومانية، ليتحول رسمياً إلى ولاية رومانية عام (74 ق.م). للمزيد انظر: Tarn, W.W., 1952: Hellenistic Civilisation, 3rd ed, Edward Arnold, London, pp. 1-46, 16-17.

²² Athenaeus. The Deipnosophists, Trans. Charles Burton Gulick, 1928: Volume II: Books 3-5, Harvard University Press, Cambridge, Book V, 206-213 (d-e); Pollitt, Jerome Jordan. 1986: p. 222.

²³ Pollitt, Jerome Jordan. 1986: Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, Cambridge, p. 222.

* بومبي تقع في إقليم كامبانيا (Campania) بجنوب إيطاليا، على سفح بركان فيزوف (Mount Vesuvius) وبالقرب من خليج نابولي. في عام 79م، تعرضت المدينة لثوران بركاني كارثي غطاها بطبقة سميكة من الرماد والحمم البركانية (الخفاف)، مما أدى إلى عزلها عن الهواء والرطوبة لقرون، وهو ما حفظ هياكلها العظمية، ومبانيها، وحتى اللوحات الجدارية والفسيفساء بحالة مذهلة من الكمال حتى اكتشافها في القرن الثامن عشر. للمزيد انظر: Beard, Mary. 2008: Pompeii: The Life of a Roman Town, Profile Books, London, p. 52.

²⁴ عكاشة، ثروت، 1982: الفن الإغريقي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ص 561 Dunabin, Katherine M. D. 1999: p. 18.

رابعاً: سوسس وبرجامون في المصادر الكلاسيكية

تُدين معرفتنا بجزء كبير من تاريخ هذا الفن للمؤرخ الروماني بليني (Pliny)²⁵ في موسوعته "التاريخ الطبيعي"، حيث يشير بوضوح إلى أن الفنان سوسس (Sosos) هو أشهر وأمهر صانع فسيفساء في العصور القديمة، وكان مركز نشاطه في برجامون، ويُنسب إلى سوسس ابتكاران فنيان غيرا مجرى هذا الفن: لوحة "الغرفة غير المكنوسة (Asarotos Oikos): وهي أرضية فسيفسائية تصور بقايا مأدبة عشاء، مثل قشور الفواكه، وعظام الأسماك، والدواجن، متناثرة على الأرض لإيهام الناظر بواقعية المكان، وتضمنت لمسة عبقرية تمثلت في فأر يقرض جوزة، مما يعكس دقة الـ (Opus Vermiculatum) أو المكعبات الدقيقة جداً، ولوحة "الحمام على الإناء" (Doves on a Bowl): التي تصور طيور الحمام وهي تشرب من إناء معدني وتنعكس ظلالها على الماء²⁶.

كما تزدان أرضيات قصر الملك أيومينيس الثاني (Eumenes II)* ومذبح برجامون العظيم بفسيفساء تحمل توقيع الفنان هيفايستون (Hephaistion)، الذي يُعد من القلائد الذين خلدوا أسماءهم في هذا الفن، مما يؤكد أن فناني الفسيفساء في العصر اليوناني نالوا شهرة تضاهي كبار النحاتين والرسامين²⁷.

²⁵ Pliny the Elder, Book XXXVI, Sec. 184-185.

²⁶ Westgate, Ruth. 1997: Greek Mosaics in their Architectural Context, Bulletin of the Institute of Classical Studies, Vol. 42, pp. 93-115.

* حكم أيومينيس الثاني مملكة برغامون الواقعة في غرب آسيا الصغرى (تركيا الحالية). تميزت سياسته بالتحالف الاستراتيجي المتين مع روما ضد القوى المنافسة مثل السلوقيين والمقدونيين، مما مكنه من توسيع رقعة مملكته لتشمل معظم أراضي آسيا الصغرى بعد معاهدة "أباميا" (188 ق.م)، إذ ازدهرت مدينة برجامون في عهد خلفائه غير أن اتالوس الثالث سلم هذه المملكة العظيمة لروما عام 133 ق.م، للمزيد انظر: Hansen, Esther V. 1971: The Attalids of Pergamon, Cornell University Press, Ithaca, p. 94.

²⁷ Pollitt, Jerome Jordan. 1986: p. 222.

الفسيفاء خلال العصر الهيلينستي (النهضة، التقنية، والتحويلات الفنية)

يُمثل العصر الهيلينستي ذروة النضج الفني لصناعة الأرضيات في العالم القديم؛ حيث انتقل الحرفي من استخدام الحصى العشوائي إلى تقنية المكعبات المقطوعة هندسياً (Tesserae). ويُعزي الباحثون هذا التطور المنمق والمنظم إلى التأثير بالتقاليد الفنية الشرقية التي تدفقت نحو اليونان عقب فتوحات الإسكندر الأكبر (Alexander the Great)، مما سمح بظهور لوحات تحاكي الرسم الزيتي في دقتها وتدرجاتها اللونية²⁸.

أولاً: ديلوس (Delos) كمركز إشعاع حضاري:

تُعد جزيرة ديلوس المختبر الأثري الأهم لدراسة هذا الفن، حيث يعود تاريخ معظم الفسيفاء الباقية فيها إلى الفترة الممتدة بين النصف الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد وأوائل القرن الأول قبل الميلاد. وتتفرد ديلوس بكونها تحتوي على أكبر تجمع من أعمال الفسيفاء المكتشفة في اليونان الهيلينستية، إذ تشير الإحصائيات الأثرية إلى أن ما يقرب من نصف إجمالي الفسيفاء اليونانية الباقية من هذا العصر قد عُثر عليه في هذا الموقع تحديداً²⁹.

ثانياً: الأنماط الزخرفية:

تميزت فسيفاء ديلوس بابتكار أنماط بصرية معقدة، أبرزها المعينات ثلاثية الألوان التي وظفت لخلق "وهم ثلاثي الأبعاد، يوحي للمشاهد بوجود مكعبات بارزة، إذ شملت الزخارف نمط "الموجة الواحدة" (Single Wave Pattern)، وهو النموذج الأكثر شيوعاً وتكراراً في الفن الهيلينستي. أما المواضيع، فقد تجاوزت الزخرفة الصرفة لتشمل توثيق التاريخ البحري، وفنون المسرح، والميثولوجيا الإغريقية (Greek Mythology)³⁰.

²⁸ Dunbabin, Katherine M. D. 1999: p. 38.

²⁹ Westgate, Ruth. 2000: p. 255.

³⁰ Ling, Roger. 1998: p. 24.

ثالثاً: التقنيات المتقدمة والمواد المبتكرة:

شهد هذا العصر ظهور تقنيات بالغة الدقة مثل (Opus Vermiculatum)، التي استخدمت مكعبات مجهرية الحجم لرسم تفاصيل دقيقة جداً ولتعزيز القيمة الجمالية، استخدم الفنانون مواداً ثمينة مثل عجينة الزجاج الملون (Glass Pasta) للحصول على تدرجات لونية حادة، والقيشاني (Faience)، والكريستال، مما أضفى بريقاً خاصاً على اللوحات المركزية المعروفة بالـ (Emblemata)³¹.

رابعاً: السياق الاجتماعي والوظيفة المعمارية:

عكست الفسيفساء الهيلينستية بشكل مباشر الوضع الاقتصادي والطبقي لمستخدميها؛ إذ كانت تُوظف لتزيين المنازل الخاصة كأداة لاستعراض الثراء والمكانة الاجتماعية، وقد تركز وجود هذه الأرضيات الفاخرة في غرف الطعام (Andron) أو غرف الانتظار المجاورة لها، وهي الأماكن المخصصة لاستقبال الضيوف، بهدف إثارة إعجاب الزوار وإبراز تطلعات صاحب المنزل³²، مما حول الفسيفساء من رصف وظيفي إلى بيان اجتماعي يعكس القوة الاقتصادية للنخبة³³.

الفسيفساء خلال العصر الروماني: التطور التصويري والنهضة التقنية:

يُعد فن الفسيفساء الرومانية في جوهره تطوراً حيويًا لفن التصوير الجداري ومحاكاة المناظر الطبيعية؛ إذ استمد الرومان فكرة تصوير الطبيعة من شغفهم المتأصل بالبيئة المحيطة، وهو ما انعكس في رغبتهم في نقل الفضاءات الخارجية إلى داخل جدران منازلهم، وقد تزايد هذا الاهتمام بتصوير الطبيعة على الحوائط والأرضيات بشكل متوازي مع ظهور وتطور الطرز البومبية الأربعة (Four Pompeian Styles) التي أحدثت ثورة في مفهوم الفراغ المعماري³⁴:

³¹ Pollitt, Jerome Jordan. 1986: p. 222.

³² Westgate, Ruth. 2000: p. 257.

³³ Dunbabin, Katherine M. D. 1999: p. 40.

³⁴ القاسم، عبيد، 1999، فن الفسيفساء الروماني (المناظر الطبيعية)، الإسكندرية، ملتنقي الفكر، ص ص 25-31.

أولاً: أثر الطراز البومبية في صياغة المشهد الفني:

الطراز الأول (Incrustation Style): ويمتد من القرن الثاني ق.م وحتى 80 ق.م. يتلخص هذا الطراز في محاولة محاكاة وتقليد ألواح الرخام الثمينة بتدرجاتها وألوانها وعروقها الطبيعية، وذلك من خلال الرسم والتلوين على الجدران مباشرة، مما مهد الطريق لاحقاً لاستخدام قطع الرخام الحقيقية في الفسيفساء الأرضية³⁵.

الطراز الثاني (Architectural Style): ويبدأ من عام 90 ق.م إلى عام 14 ق.م، حيث ظهر هذا الطراز في روما وفي الإمبراطورية الرومانية الشرقية (سوريا تحديداً)، حيث زينت الحوائط بزخارف ورسوم معمارية تضم أعمدة وأفاريز أفقية تمنح شعوراً بالاتساع. ومع تطوره، ظهرت الصور المستقاة من الطبيعة مصاحبة لتصوير الأشخاص، فكانت تصور الحقائق والمراعي الخلابية وبها أشخاص، ومن هنا أصبحت الطبيعة تلعب دوراً مهماً وامتزجت مع الأفراد والأساطير لتخلق مشهداً متكامل³⁶.

الطراز الثالث (Ornamental Style): بدأ مع أوائل الإمبراطورية الرومانية وحتى زلزال كامبانيا الشهير عام 62-63 م*، في هذا الطراز، استخدمت الأشكال المتصلة بالطبيعة بشكل أكثر تنميماً، وتميزت بالأشكال الزخرفية الدقيقة وظهور الشمعدانات الرفيعة، لعب فيه اللون دوراً محورياً في إبراز التفاصيل، وأصبح المنظور في هذا الطراز جزئياً ولم يعد هو الهدف الأساسي للفنان، بل التركيز على الأناقة الزخرفية³⁷.

الطراز الرابع (Intricate Style): ظهر في منتصف القرن الأول الميلادي، حافظ هذا الطراز على الهيكل المعماري العام، لكنه توسع في تصوير "الطبيعة الصامتة" (Still Life) والمناظر الطبيعية الخلوية الواسعة، معتمداً على دمج العناصر الخيالية بالواقعية في تكوينات معقدة³⁸.

³⁵ Ling, Roger. 1991: Roman Painting, Cambridge University Press, p. 12.

³⁶ Pollitt, Jerome Jordan. 1986: p. 228.

* يرجع الاختلاف في تحديد سنة وقوع هذا الزلزال بين عامي (62 م) و(63 م) إلى تعارض المصادر الرومانية الكلاسيكية؛ حيث أرّخه الفيلسوف "سينيكا" المعاصر للحدث في عام 62 م، بينما ذكره المؤرخ "تاكيتوس" ضمن أحداث عام 63 م، وللاستزادة انظر:

Seneca, the Younger, Naturales Quaestiones, Trans. Thomas H. Corcoran, 1971: Book VI, Ch.

1, Sec. 1-2, 13; Tacitus, Annales, Trans. John Jackson, 1937: Book XV, Ch. 22, Sec. 2.

³⁷ Dunbabin, Katherine M. D. 1999: p. 53.

³⁸ Ling, Roger. 1991: p. 166.

ثانياً: براعة التنفيذ وتقنية (Opus Vermiculatum)

بناءً على أنواع الفسيفساء المتعددة، فإن طريقة (Opus Vermiculatum) هي التقنية التي استعملها القدماء لتنفيذ الأعمال عالية الجودة والرفيعة المستوى، وهي الأعمال التي تُعرف باسم (Emblema)، ويُعد هذا النوع هو الأقرب شَبْهاً بالأعمال المصورة (الرسم الجداري) نظراً لجماله الفائق ودقة تنفيذه المتناهية.

وكي يصل الفنان الفسيفسائي إلى هذه الدرجة من البراعة والمحاكاة، كان يستخدم مكعبات ذات مقاسات متباينة وغير متساوية ومتناهية الصغر، وذلك لتنفيذ الرسم الذي يحدده بدقة مذهلة تسمح بتتبع الخطوط المنحنية وتدرجات الظلال، وقد اعتمد الفنان الروماني في هذه اللوحات على خامات ثرية تشمل: الرخام والعاج: لتشكيل الأجسام والمساحات اللونية الأساسية.

الأحجار الكريمة: مثل حجر "اللازورد" (Lapis Lazuli) والعقيق في بعض الأحيان لزيادة القيمة المادية للعمل.

عجينة الزجاج: ولإضفاء اللمعان والبريق، كانوا يطعمون العمل بالقطع الزجاجية الملونة، مما يؤدي في نهاية الأمر إلى عمل متكامل يتميز بالثراء اللوني والأشكال البديعة التي تنافس اللوحات الزيتية³⁹.

ثالثاً: الانتشار الجغرافي والوظيفة المعمارية:

تُعد أقدم النماذج المكتشفة للفسيفساء الجدارية الرومانية هي تلك التي تعود إلى القرن الأول الميلادي في مدينة بومبي (Pompeii)، حيث عُثر عليها في أساسات إحدى الحدائق. ومع اتساع الإمبراطورية وازدهارها الاقتصادي، انتشرت اللوحات الفسيفسائية المركزية (Emblemata) التي

³⁹ Westgate, Ruth. 2000: p. 264.

نفذها فنانون محترفون في ورش متخصصة على مستوى عالٍ من المهارة، مما جعل هذه الأعمال تُوزع وتُقتنى في شتى الأماكن والمتاحف اليوم⁴⁰.

نظراً لأهميتها الفنية، كانت نماذج الـ (Emblema) تُخصص لتزيين المواقع الحيوية في المسكن، مثل: ترصيع مركز صالة الطعام (Triclinium) أو صالات الاستقبال، تزيين الجدران أو وضعها بالقرب من الفناء الأوسط (Atrium)، وكانت هذه اللوحات تُعامل كتحف فنية مميزة ومنفصلة تُبرز ذوق صاحب المنزل وثراءه.

رابعاً: الفسيفساء في الحمامات والبيئات المائية:

كانت الفسيفساء هي الوسيلة المفضلة والمثلى لتزيين الحمامات الرومانية بشكل عام؛ حيث كانت تصور الموضوعات المتعلقة بالبيئة البحرية، خاصة داخل حمامات الفيلات الفاخرة⁴¹. فكانت أحواض الحمامات تُؤطر بأشكال تمثل الإله نبتون وزوجته أمفيتريت، بالإضافة إلى الحوريات، والدراويل، ومخلوق "التريتون" الخرافي، مما يخلق تمازجاً بصرياً فريداً بين واقعية الماء المنهمر وخيال الكائنات البحرية المصورة⁴².

نتائج الدراسة التحليلية المقارنة:

أسفرت الدراسة التحليلية والمقارنة لفن الفسيفساء عبر العصور اليوناني، الهيلينستي، والروماني، عن مجموعة من النتائج الجوهرية التي تلخص مسار هذا الفن وتطوره التقني والموضوعي:

التطور المادي والتقني (الخامات وأساليب التنفيذ)

التدرج في استخدام المواد الخام: كشفت الدراسة أن الفنان القديم طوّر ذائقته المادية بالتوازي مع تطور أدوات القطع؛ فبدأ بالحصى الطبيعي والأحجار الملونة والرخام، وصولاً إلى توظيف

⁴⁰ Ling, Roger. 1998: p. 32.

⁴¹ القاسم، عبير، 1999، ص 25-31.

⁴² Pliny the Elder, Natural History, Book XXXVI, Sec. 189; Dunbabin, Katherine M. D. 1999: p. 61.

الأصداف والعاج، وفي مراحل النضج الفني أدخلت عجينة الزجاج والسياليكات، فضلاً عن تطعيم اللوحات بمواد نفيسة كالكريستال والمعادن، وأحجار شبه كريمة مثل اللازورد (Lapis Lazuli) والعقيق والكوارتز واللؤلؤ، مما أضفى طابعاً "جواهرجياً" على الأرضيات الفاخرة.

أسبقية الحصى الطبيعي (Pebble Mosaics): يُعد الحصى المادة الخام الريادية التي شكلت البدايات الأولى لهذا الفن، حيث اعتمد الفنان على فرز الحصى حسب الحجم واللون الطبيعي دون تدخل ميكانيكي بقطعها، وهو ما يفسر الطابع العفوي والخطوط المنحنية في النماذج المبكرة.

الطفرة التقنية في العصر الهيلينستي: يمثل هذا العصر نقطة التحول من "العفوية" إلى "الهندسة"؛ حيث ظهرت التقنيات المختلطة التي زاوجت بين الحصى لملء المساحات الثانوية والمكعبات المقطوعة (Tesserae) للمساحات المركزية، مما أدى إلى الحصول على سطح مستو تماماً ومنمق يسمح بتفاصيل مجهرية.

السيادة الرومانية لتقنية المكعبات: خلصت الدراسة إلى أن العصر الروماني شهد ذروة التنوع التصنيفي للمكعبات، حيث تعددت المسميات والأنواع وفقاً لقياسات المكعبات (مثل Opus Vermiculatum للأعمال الدقيقة)، مما مكن الفنان من محاكاة "التدرج الظلي" الذي تمنحه الفرشاة في الرسم الزيتي.

التطور الموضوعي والجمالي (المضامين والفلسفة الفنية):

الريادة التاريخية والموضوعية لليونان: أكدت الدراسة أن مدينة أولينثوس (القرنين 4-5 ق.م) هي المرجعية الأقدم للفسيفساء اليونانية، حيث تركزت الموضوعات حول الميثولوجيا والحيوانات الخرافية والزخارف النباتية، مع ابتكار تقني تمثل في استخدام شرائط الرصاص أو الصلصال لتحديد الملامح الكنتورية بدقة.

العصر الهيلينستي كقنطرة ثقافية: انتشرت في هذا العصر الموضوعات البحرية المعقدة والزخارف الهندسية ذات المنظور البصري، مما عكس حالة الانفتاح الحضاري التي أعقبت فتوحات الإسكندر الأكبر وتمازج الفنون الشرقية باليونانية.

المحاكاة التصويرية في العصر الروماني: تحول فن الفسيفساء الروماني من مجرد زخرفة معمارية إلى "تصوير فني" متكامل. فقد استمد الرومان إلهامهم من الطبيعة الخلوية، مما أدى إلى ظهور لوحات تمثل الحقائق والمراعي والمناظر الطبيعية الصامتة، متأثرين في ذلك بتطور الطرز البومبية الأربعة في الرسم الجداري.

الوظيفة المعمارية والسياق الاجتماعي:

الفسيفساء كبيان اجتماعي: بينت النتائج أن اللوحات المركزية (Emblemata) كانت تُعامل كقطع فنية مستقلة تُصنع في ورش تخصصية وتُباع كتحف لتزيين مراكز صالات الطعام أو الفناء الأوسط (Atrium)، مما يعكس المكانة الطبقية والقدرة الاقتصادية لصاحب المسكن.

التوظيف المتخصص في العمارة الرومانية: تزايد الاهتمام بالفسيفساء الجدارية في العصر الروماني، ولم تعد تقتصر على الأرضيات، مما فتح آفاقاً جديدة لتزيين الواجهات والأسقف الفولتية.

ارتباط البيئة البحرية بالمنشآت المائية: أثبتت الدراسة وجود علاقة عضوية بين وظيفة المكان وموضوع الفسيفساء؛ حيث كانت الحمامات الرومانية تُزين حصراً بموضوعات بحرية (نبتون، الحوريات، الدرافيل) لخلق وحدة موضوعية وجمالية بين العنصر المائي الحقيقي في الحمام والمشهد الفني المصور.

التمايز البنائي بين الفنين اليوناني والروماني:

تتميز الفسيفساء اليونانية بكونها "خطية" تعتمد على الكنتور وتحديد الأشكال، بينما الفسيفساء الرومانية "كتلية وتصويرية" تعتمد على توزيع الألوان والظلال لخلق المجسمات والعمق البصري، مما يجعلها أقرب إلى اللوحات الجدارية منها إلى الأرضيات الزخرفية التقليدية.

الخلاصة: إن التحول من الحصى الطبيعي في أولينثوس إلى المكعبات الزجاجية والرخامية الدقيقة في بومبي، يمثل رحلة ارتقاء الوعي الجمالي والتقني للإنسان القديم، الذي نجح في تحويل أفسى المواد الحجرية إلى لوحات نابضة بالحياة والواقعية.

قائمة المصادر المراجع

أولاً: المصادر الأدبية:

- Athenaeus. *The Deipnosophists*. Trans. Charles Burton Gulick, 1928: Volume II, Harvard University Press, Cambridge.
- Pliny the Elder. *Natural History*. Trans. D. E. Eichholz, 1962: Volume X (Libri XXXVI-XXXVII), Harvard University Press, Cambridge.
- Seneca, the Younger. *Naturales Quaestiones*. Trans. Thomas H. Corcoran, 1971: Volume II, Harvard University Press, Cambridge.
- Tacitus. *Annales*. Trans. John Jackson, 1937: Volume IV, Harvard University Press, Cambridge.
- Vitruvius, Pollio. *The Ten Books on Architecture*. Trans. Morris Hicky Morgan, 1914: Harvard University Press, Cambridge.

ثانياً: المراجع العربية:

- جانسون، هورست 1995: تاريخ الفن (العالم القديم)، الجزء الأول، ترجمة عصام التل، عمان.
- سعيد محمود، عزيزة 2003: التصوير والزخارف الجصية البارزة والموزايكو في الفن الروماني، الإسكندرية.
- عكاشة، ثروت 1982: الفن الإغريقي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة.
- القاسم، عبيد 1999: فن الفسيفساء الروماني (المناظر الطبيعية)، ملتقى الفكر، الإسكندرية.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- Andronicos, M. 1964 :*Ancient Greek Painting and Mosaics in Macedonia* . Volume 5, Issue 2, Thessaloniki: Institute for Balkan Studies.
- Barsanti, Claudia. 2012 :*The Fate of the Antioch Mosaic Pavements: Some Reflections* .Sapienza University of Rome. Rome.
- Beard, Mary. 2008 :*Pompeii: The Life of a Roman Town* ,Profile Books, London.
- Belis, Alexis. 2016 :*Roman Mosaics in the J. Paul Getty Museum* .Yale University Press. London.
- Blake, Marion Elizabeth, 1930 :*The Pavements of the Roman Buildings of the Republic and Early Empire* ,Memoirs of the American Academy in Rome.
- Brown, B., 1957 :*Ptolemaic Paintings and Mosaics and the Alexandrian Style* ,Cambridge.



- Cahill, Nicholas. 2002 :*Household and City Organization at Olynthus* ,Yale University Press.
- Carr-Howard, Taylor. 2017 :*The Cultural Mosaic Under the Tesserae: Local Identity in the Iconography and Compositions of Roman Floor Mosaics* . Wesleyan University. Middletown, Connecticut.
- Cohen, Ada. 2010 :*Art in the Era of Alexander the Great* ,Cambridge University Press.
- Dunbabin, Katherine M. D. 1999 :*Mosaics of the Greek and Roman World* , Cambridge University Press, Cambridge.
- Fischer, Peter, 1971 :*Mosaic: History and Technique* ,McGraw-Hill Book Company, New York.
- Galli, Giovanna. 1991 :*L'art de la mosaïque* ,Solar, Paris.
- Guimier-Sorbets, Anne-Marie. 2004 :*L'art de la mosaïque* ,Edition Citadelles & Mazenod, Paris.
- Hallager, Erik. and Riisager, Sine. 2009 :*Macedonian Craftsmanship in Crimean Tombs from Late 4th Century BC to Early 3rd Century BC* .Aarhus University Press. Denmark.
- Hansen, Esther V. 1971 :*The Attalids of Pergamon* ,Cornell University Press, Ithaca.
- Hinks, Roger P., 1933 :*Catalogue of the Greek, Etruscan and Roman Paintings and Mosaics in the British Museum* ,British Museum Press, London.
- Lane Fox, Robin J. 2011 :*Studies in the Archaeology and History of Macedon, 650 BC-300 AD* .Brill. Leiden-Boston.
- Latsis, Marianna J. 1993 :*The Archaeological Museum of Pella* .John S. Latsis Public Benefit Foundation. Athens.
- Levi, Doro, 1947 :*Antioch Mosaic Pavements* ,Princeton University Press, Princeton.
- Ling, Roger. 1991 :*Roman Painting* ,Cambridge University Press.
- :1998_____ *Ancient Mosaics* ,Princeton University Press, New Jersey.
- Ogden, Daniel. 2002 :*The Hellenistic World: New Perspectives* .Duckworth with The Classical Press of Wales. London.
- Ogden, Daniel.& Westgate, Ruth 2002 :*Hellenistic Mosaics* .Gomer Press. Llandysul, Wales.
- Pollitt, Jerome Jordan. 1986 :*Art in the Hellenistic Age* ,Cambridge University Press, Cambridge.
- Robinson, David M., 1933 :*Excavations at Olynthus* ,Johns Hopkins University Press, Baltimore.

- Rossi, Ferdinando 1947 :*Mosaics : a survey of their history and techniques* , Marquetry, Mosaics, Carving, Pall Mall Press, London.
- Salzmann, Dieter. 1982 :*Untersuchungen zu den antiken Kieselmosaiken* , Gebr. Mann Verlag, Berlin.
- Smith, D.J., 1983 :*Mosaics in hand book of Roman Art* ,Edited by Martin Hening, Phaidon press, Oxford.
- Tarn, W.W.,1952 :*Hellenistic Civilisation* 3rd ed, Edward Arnold, London.
- Trümper, Monika. 1998 :*Wohnhausformen in Delos* ,Limes Verlag.
- Walter-Karydi, Elena. 1998 :*The Greek House: The Rise of Noble Houses in Late Classical Times* .The Archaeological Society at Athens Library. Athens.
- Welch, Zografia.1992 :*Mosaic Pavements in Classical and Hellenistic Dining-Rooms* .Master of Arts Thesis, McMaster University. Hamilton, Ontario.
- Westgate, Ruth. 2000 :*Pavimenta Atque Emblemata: The Development of Mosaic in Greece and Italy* ,Bulletin of the Institute of Classical Studies, London.
- Wohlgemuth, Kevin A. 2008 :*A Survey and History of the Conservation of the Opus Vermiculatum Mosaics of Pompeii* .Florida State University. Tallahassee, Florida.
- Woolley, C. Leonard, 1935 :*The Development of Sumerian Art* ,Faber and Faber, London.

رابعاً: المواقع الإلكترونية:

- <https://www.esag.swiss/eretria/monuments/> (Accessed: 7/4/2021).
- https://www.wikiwand.com/en/Stag_Hunt_Mosaic (Accessed: 9/4/2021).
- <https://sights.seindal.dk/italy/campania/naples/museo-archeologico-nazionale/mosaic-with-street-musicians/> (Accessed: 10/4/2021).
- https://en.wikipedia.org/wiki/Alexander_Mosaic (Accessed: 14/4/2021).
- [suspicious link removed] (Accessed: 9/4/2021).
- <https://www.getty.edu/publications/romanmosaics/catalogue/> (Accessed: 5-12/4/2021).



- [https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Hatay_Archaeology_Museum_\(7471577636\).jpg](https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Hatay_Archaeology_Museum_(7471577636).jpg) (Accessed: 9/4/2021).

(اللوحة رقم 1)

سجادة من الحصى (الفسيفساء اليونانية)

مادة الصنع: الحصى الطبيعي (باللونين الأبيض والأسود).

مكان العثور: أحد المنازل في مدينة أولينثوس (Olynthus).

مكان الحفظ: الموقع نفسه (متحف أولينثوس الأثري / اليونان).

تاريخ اللوحة: الربع الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد.

الأبعاد: اللوحة المركزية (1.85 م × 1.60 م) - منطقة المدخل (1.00 م × 0.95 م).

وصف اللوحة: تُعد هذه اللوحة نموذجاً مبكراً لفسيفساء الحصى اليونانية، حيث تعتمد في تكوينها البصري على التضاد اللوني بين الحصى الأبيض والأسود. نجد في مركز السجادة تصويراً لـ "عجلة رباعية" (Quadrige) نُفذت داخل إطار مستطيل الشكل، يحيط به إطار خارجي مزين بحواف متموجة (Wave pattern) تضفي حيوية على المشهد. أما عند عتبة المدخل المؤدي للغرفة، فقد رُيّنت الأرضية بتصوير لمثلثين متقابلين، وهو نمط زخرفي هندسي شائع في تلك الفترة لربط الفراغات المعمارية وتوجيه النظر نحو المركز.

المراجع التي تناولت الموضوع :

- Dunbabin, Katherine M. D. 1999: p. 6.



(اللوحة رقم 2)

فسيفساء ذات مشاهد أسطورية (الفسيفساء اليونانية)

مادة الصنع: الحصى الطبيعي (الأبيض، والأسود، والأحمر، والأصفر).

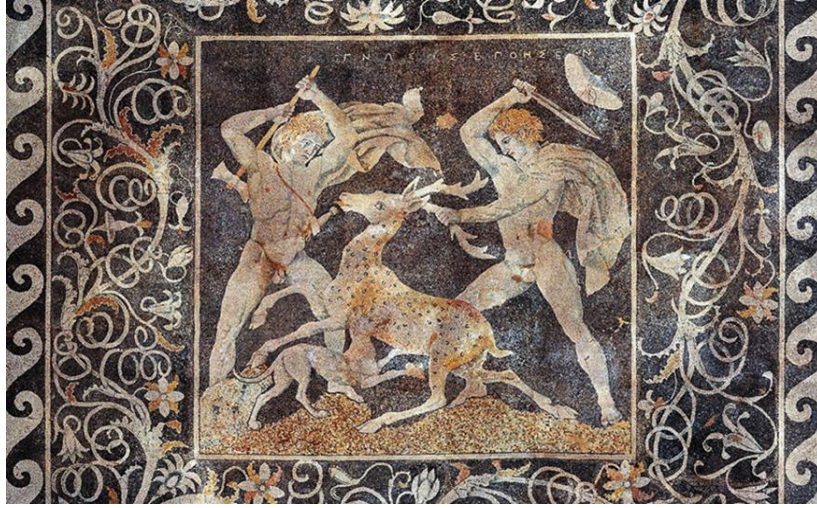
مكان العثور: غرفة في "بيت الفسيفساء" بمدينة إريتريا (Eretria).

تاريخ اللوحة: الثالث الأول من القرن الرابع قبل الميلاد.

وصف اللوحة: لقد تم رصف أكثر من موضع داخل الغرفة بالفسيفساء، حيث تبلغ المساحة الإجمالية لها 4.68 × 2م؛ ويحيط بالطابق المركزي إطار يبلغ عرضه 0.95م ويرتفع بمقدار 0.03 سم، وهو مرصوف بحصى صغيرة لا تتبع نمطاً زخرفياً ثابتاً، مع ملاحظة أن مدخل الغرفة يقع بعيداً عن المركز جهة اليسار. وتزدان السجادة المركزية (2.70 × 2م) بتشكيلة غنية من الزخارف الهندسية والتصويرية والنباتية، حيث يبرز مشهد قتال حيوان "الغريفين" الأسطوري مع "الأريماسبيين" (Arimaspians)، إلى جانب تصوير لأسود تهاجم الخيول. يحيط هذا التكوين بحقل مربع مساحته 1.12 م² يشتمل على دائرتين متحدتي المركز؛ الخارجية منهما مزينة بزخارف "السعيفات" المتناوبة مع زهرة اللوتس، بينما يتكون الجزء الداخلي من وردة بصفين من ثماني بتلات حول برعم مركزي، وتكتمل حواف المربع بزخارف "البكرانية" (رؤوس الثيران) والنسور، وقد نُفذ العمل بالكامل باستخدام الحصى الطبيعي بألوان الأبيض والأسود والأحمر والأصفر.

المراجع التي تناولت الموضوع :

- Dunbabin, Katherine M. D. 1999: pp. 10-11.
- Walter-Karydi, Elena. 1998: The Greek House: The Rise of Noble Houses in Late Classical Times. The Archaeological Society at Athens Library. Athens. p. 56. fig. 44.
<https://www.esag.swiss/eretria/monuments/>



(اللوحة رقم 3) فسيفساء "اختطاف هيلين" (الفسيفساء اليونانية)

مادة الصنع: الحصى الطبيعي الملون. مكان العثور على اللوحة: "منزل اختطاف هيلين" - مدينة بيلا (Pella)، مقدونيا. مكان حفظ اللوحة: متحف بيلا الأثري - اليونان.

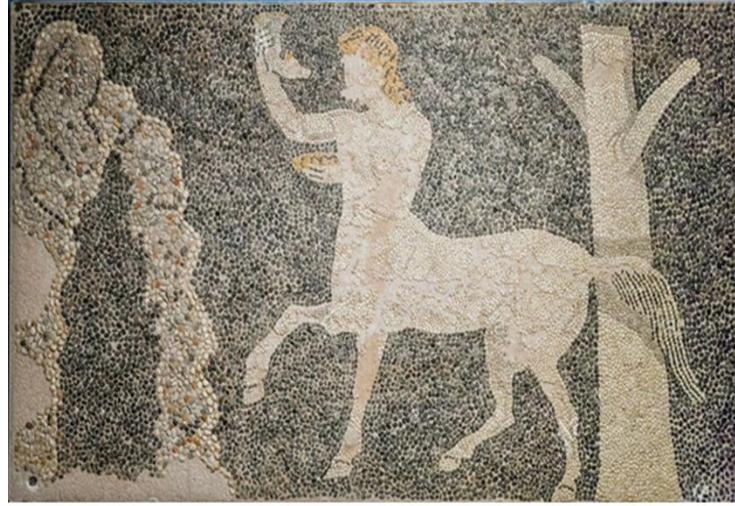
تاريخ اللوحة: الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد.

أبعاد اللوحة: 3.24 م × 3.17 م.

وصف اللوحة: تصور اللوحة مشهداً يحمل توقيع الفنان اليوناني القديم "غنوسيس" (Gnosis)، وتتألف السجادة المركزية لغرفة تبلغ مساحتها الإجمالية 8.15 م²، من تكوين فني محاط بعدة أشرطة زخرفية؛ يبدأ بشريط يبلغ عرضه 0.33 م بنمط "الموجة الإغريقية"، تتبعه شريحة بيضاء، ثم شريط نباتي (زهري) متقن الصنع يتراوح عرضه ما بين 1.04 و 1.07 م، وينتهي بشريحة بيضاء أخرى. يصور المشهد المركزي مطاردة الأيل، وقد وضع الفنان توقيعه بوضوح في أعلى الزاوية اليسرى من اللوحة بالصيغة اليونانية: "ΓΝΩΣΙΣ ΕΠΟΙΗΣΕΝ" (بمعنى: غنوسيس صنعها). وقد استُخدم في تنفيذ العمل الحصى الطبيعي بألوان الأسود، الأبيض، الأحمر، البني، الرمادي، والأصفر، وبأحجام وظلال متفاوتة لخلق تدرج لوني دقيق، حيث تشير الأشكال المضيئة على الخلفية الداكنة إلى أسلوب "الرسم أحمر الأرقام". كما برع الفنان في استخدام تقنيات "التظليل" لتجسيم العضلات وثنائيا العباءات، بالإضافة إلى توظيف الأشكال المتداخلة لخلق عمق فراغي، مما منح الصورة بعداً ثلاثي الأبعاد يعكس دقة التكوين الفني.

المراجع التي تناولت الموضوع :

- Welch, Zografia.1992: Mosaic Pavements in Classical and Hellenistic Dining-Rooms. Master of Arts Thesis, McMaster University. Hamilton, Ontario. pp. 174-175. Fig. 108.
- Westgate, Ruth. 2002: Hellenistic Mosaics. Gomer Press. Llandysul, Wales. p. 223. Fig. 1.
https://www.wikiwand.com/en/Stag_Hunt_Mosaic



(اللوحة رقم 4)

فسيفساء أنثى القنطور (العصر الهيلينستي)

مادة الصنع: الحصى الطبيعي الملون.

مكان العثور على اللوحة: أحد منازل مدينة بيلا (Pella) - مقدونيا.

مكان حفظ اللوحة: متحف رودس الأثري.

تاريخ اللوحة: أوائل القرن الثالث قبل الميلاد.

وصف اللوحة: تزين هذه الفسيفساء أرضية المنطقة الواقعة أمام مدخل "قاعة الندوة" (Symposium) في مبنى تم تحديده كقاعة للطعام. يجسد المشهد أنثى قنطور (Centauress) مصورة في وضعية الحركة نحو جهة اليسار، حيث تظهر وهي ترفع رجلها اليمنى قليلاً. تظهر الشخصية وهي تقوم بصب سائل أمام ما يبدو أنه كهف، ممسكةً بيدها اليمنى المرتفعة جسماً يشبه رأس كلب يتجه بنظره إلى الأسفل، بينما تحمل بيديها اليسرى إناءً أو ربما ورقة نباتية عريضة، ويبرز خلف أنثى القنطور جذع شجرة صغير يضيف واقعية على المشهد الطبيعي. وقد أظهر الفنان دقة عالية في استخدام الألوان عبر توظيف الحصى الطبيعي باللون الأبيض، والأصفر، والأسود، والرمادي، والبني، مما خلق تبايناً لونياً ساعد في إبراز التفاصيل التشريحية والظلال في اللوحة.

المراجع التي تناولت الموضوع :

- Latsis, Marianna J. 1993: The Archaeological Museum of Pella. John S. Latsis Public Benefit Foundation. Athens. p. 187.
- Welch, Zografia. 1992: Mosaic Pavements in Classical and Hellenistic Dining-Rooms. Master of Arts Thesis, McMaster University. Hamilton, Ontario. pp. 101-102. fig. 114.



(اللوحة رقم 5)

إطار الزخارف النباتية (الفسيفساء اليونانية)

مادة الصنع: الحصى الطبيعي.

تاريخ اللوحة: الثالث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد.

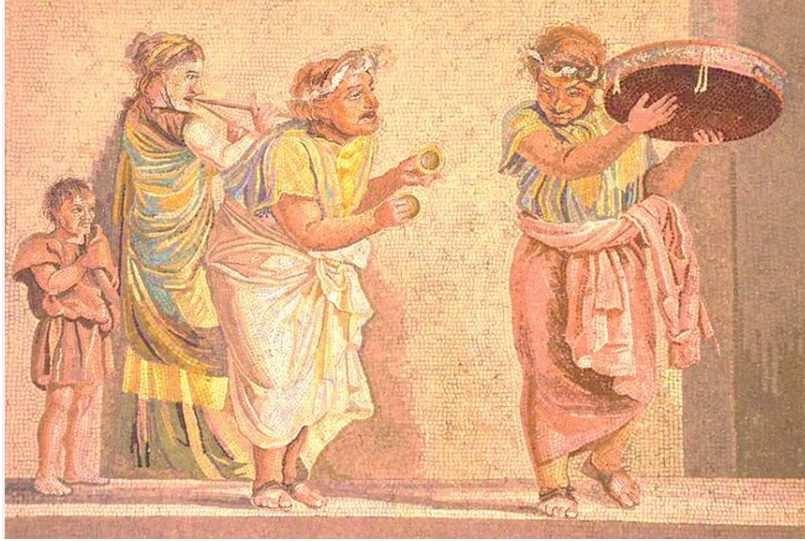
سياق الاكتشاف: مدينة بيللا (Pella)، مقدونيا.

وصف اللوحة: تجسد هذه اللوحة الفسيفسائية نموذجاً رفيعاً للأرضيات المزينة بالزخارف الزهرية، وهي مماثلة لتلك الموجودة على لوحة مربعة مجاورة لفسيفساء "أنثى القنطور" في إحدى قاعات الطعام بمدينة بيللا. وتتميز هذه التصاميم الزهرية بقابلية مقارنتها بالأنماط النباتية التي كانت تزين أعناق "الكرات الحلزونية" (Volute Kraters) العائدة لأواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وكذا بأسلوب الرصف الفسيفسائي الشائع في النصف الثاني من القرن ذاته.

وقد طُرح مقترح علمي، يتسم بالوجاهة والإقناع، يشير إلى أن هذه الزخارف الزهرية المعقدة تعكس تأثراً مباشراً بأسلوب رسام الزهور الشهير (بوزياس Pausias)، مما يربط بين فن الفسيفساء وفن التصوير اليوناني القديم في تلك الفترة.

المراجع التي تناولت الموضوع :

- Lane Fox, Robin J. 2011: Studies in the Archaeology and History of Macedon, 650 BC-300 AD. Brill. Leiden-Boston. p. 489. fig. 59.
- Hallager, Erik. and Riisager, Sine. 2009: Macedonian Craftsmanship in Crimean Tombs from Late 4th Century BC to Early 3rd Century BC. Aarhus University Press. Denmark, p. 192. fig. 6.



(اللوحة رقم 6)

فسيفاء موسيقيو الشوارع (العصر الهيلينستي)

مادة الصنع: أحجار ملونة دقيقة نُفذت بتقنية "أوبوس فيرميكولاتوم" (Opus Vermiculatum). مكان العثور على اللوحة: فيلا شيشرون (خارج بوابة هيركولانيوم) بمدينة بومبي؛ حيث عُثر عليها في عام 1764م.

مكان حفظ اللوحة: المتحف الوطني للآثار في نابولي، إيطاليا.

تاريخ اللوحة: القرن الأول قبل الميلاد (تحديداً ما بين 80 - 50 ق.م).

أبعاد اللوحة: 30 سم × 35 سم.

وصف اللوحة: تُعد هذه اللوحة واحدة من أروع الأعمال الفنية الباقية من العالم القديم، وهي تحمل توقيع الفنان "ديوسكوريدس الساموسي" (Dioscurides of Samos). يصور المشهد ثلاث شخصيات يرتدون أفنعة المسرح الكوميدي أثناء عزفهم على آلات موسيقية تشمل الدف، والصنج الصغيرة، والناي المزدوج. كما يظهر في الخلفية طفل صغير يرتدي قناعاً أيضاً، ممسكاً ببوق ومستعداً للعزف عليه. يعود أصل هذا التكوين الفني إلى نماذج من القرن الثالث قبل الميلاد، مما يعكس استمرارية التقاليد الفنية الهيلينستية وتطورها في العصر الروماني.

المراجع التي تناولت الموضوع :

- Wohlgemuth, Kevin A. 2008: A Survey and History of the Conservation of the Opus Vermiculatum Mosaics of Pompeii. Florida State University. Tallahassee, Florida. pp. 115-116. <https://sights.seindal.dk/italy/campania/naples/museo-archeologico-nazionale/mosaic-with-street-musicians/>



(اللوحة رقم 7)

فسيفساء الإسكندر الأكبر (العصر الهيلينستي)

مادة الصنع: الحجر الملون (مكعبات حجرية بألوان: الأبيض، والأصفر، والأحمر، والأسود).
مكان العثور على اللوحة: منزل الفاون (House of the Faun) -أكبر منازل مدينة بومبي- وذلك خلال أعمال التنقيب عام 1831م، في غرفة (Exedra) تطل على حديقة المنزل.
مكان حفظ اللوحة: متحف نابولي الوطني للآثار، إيطاليا.
تاريخ اللوحة: يُرجح أن النص الأصلي يشير إلى فترة تاريخية قريبة من 60-70 ق.م.
وصف اللوحة: تجسد اللوحة مشهد "معركة أسوس" الشهيرة التي وقعت عام 333 ق.م بين جيش الإسكندر الأكبر والملك الفارسي داريوس الثالث. يصور المشهد اللحظة الدرامية الحاسمة التي أدرك فيها الملك داريوس هزيمته أمام زحف الإسكندر وجيشه، محققاً بذلك رغبة والده (فيليب الثاني) التاريخية في دحر الفرس. من الناحية الحالية، تعاني اللوحة من بعض الأضرار المفقودة في إحدى زواياها جهة الإسكندر، وتُعد هذه القطعة الفنية دليلاً قاطعاً على الثراء الفاحش والمكانة الاجتماعية الرفيعة لأصحاب هذا المنزل.

المراجع التي تناولت الموضوع :

- Wohlgemuth, Kevin A. 2008: A Survey and History of the Conservation of the Opus Vermiculatum Mosaics of Pompeii. Florida State University. Tallahassee, Florida. pp.140-141.
https://en.wikipedia.org/wiki/Alexander_Mosaic



(اللوحة رقم 8)

فسيفساء إيروس (العصر الهيلينستي)

مادة الصنع: الحصى، والحجر، والرخام.

مكان العثور على اللوحة: منطقة الشاطبي - الإسكندرية.

مكان حفظ اللوحة: المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية.

تاريخ اللوحة: القرن الثالث قبل الميلاد.

وصف اللوحة: تصور اللوحة الفسيفسائية في مركزها مشهداً لثلاثة من الصيادين في هيئة "إيروس" (Eros) مجنحين، وهم في حالة انقضاء على أيل. يحيط بهذا المشهد المركزي إطار من الزخارف النباتية (الأوراق)، بينما يمتد مشهد آخر بين الإطارين يصور مجموعة من الحيوانات. وعند مدخل الغرفة، تظهر زخرفة "الميander" (Meander) متجاورة مع زخرفة "الضفيرة"؛ وتُعد هذه المشاهد الفنية مقاربة لتلك النماذج التي عُثر عليها في مدينة "بيلا" (Pella) بمقدونيا، مما يعكس وحدة الأسلوب الفني في العصر الهيلينستي.

المراجع التي تناولت الموضوع :

- Ogden, Daniel. 2002: The Hellenistic World: New Perspectives. Duckworth with The Classical Press of Wales. London. p.232. fig. 8.
<https://www.jstor.org/stable/3047914>



(اللوحة رقم 9)

فسيفساء الميدوسا (العصر الروماني) مادة الصنع: الحجر .

مكان العثور على اللوحة: اكتشفت في "طريق إيمانويل فيليبوتو" (Via Emanuele Filiberto) داخل

فيلا رومانية، بواسطة المنقب "أنجيلو باسكي" (Angelo Pasqui) في عام 1910م.

مكان الحفظ: روما إيطاليا، ثم انتقلت إلى متحف (J. Paul Getty Museum) عام 1971م.

تاريخ اللوحة: الفترة ما بين 115 - 150م.

أبعاد اللوحة: 270.5 سم × 270.5 سم.

الوصف : تصور اللوحة الفسيفسائية تمثالاً نصفياً لـ الجورجون وهي الميدوسا (Medusa) في "ميداليون" دائري وسط اللوحة، حيث تظهر خصلات شعرها كثعابين وهي تنظر إلى أعلى ناحية اليمين. هناك نمط هندسي متقن يحيط باللوحة؛ حيث تتناقص نطاقات متحدة المركز من المثلثات المتناوبة باللونين الأبيض والأسود مع دورانها نحو المركز، مما يخلق الوهم البصري لحركة الدوران، مع وضع الحدود حول الدائرة داخل قطعة مربعة ثانية تحدد التكوين بالكامل. كما تملأ الفراغات المثلثة في كل ركن من الزوايا الأربع أوانٍ ذات مقابض من نوع الكانثاروس (Kantharoi)، اعتمد الفنان في تنفيذ اللوحة على ألوان متعددة شملت الأبيض والأسود، وتدرجات البني الفاتح والداكن، مما أضفى عمقاً وتشريحاً دقيقاً للوجه والعناصر الزخرفية.

المراجع التي تناولت الموضوع :

- Belis, Alexis. 2016: Roman Mosaics in the J. Paul Getty Museum. Yale University Press. London. p. 6.
<https://www.getty.edu/publications/romanmosaics/catalogue/1/#fn:10>



(اللوحة رقم 10)

لوحة فسفساء (أوكيانوس وتيثيس) (العصر الروماني)

مادة الصنع: الحجر الملون والزجاج (فسفساء).

مكان العثور: مدينة دافني (Daphne).

مكان الحفظ: متحف هاتاي للآثار (متحف أنطاكية للفسفساء)، جنوب غرب تركيا.

تاريخ اللوحة: العصر الروماني - القرن الرابع الميلادي.

الموضوع المصور للوحة : يتوسط المشهد المصور الآله أوكيانوس أو أقيانوس إله البحر العظيم ومن خلفه تظهر الربة ميتيس أو تيثيس. حيث يُعد الإله أوكيانوس الذي يرمز في الاسطورة اليونانية للنهر الكبير الذي يحيط بالأرض، كما نجد تصوير للإسماء والأحياء البحرية، كما نجد تصوير لطفل صغير مجنح (ربما يمثل إيروس إله الحب) في الأركان الأربعة للوحة في حالت صيد، تارا نجدة يصتاد بالشبكة وتارا آخر نجدة يصتاد بالصنارة، ويركب الدولفين كنوع من الدعابة والتسلية .

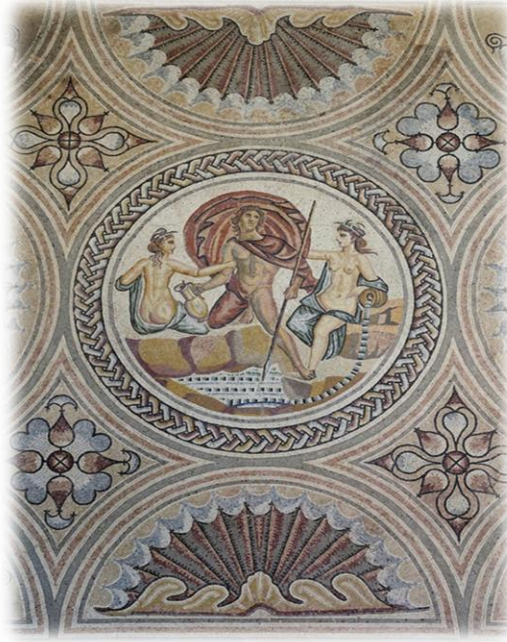
المراجع التي تناولت الموضوع :

- مقدار ، خليل 2008: الفسيفساء السورية والمعتقدات الدينية القديمة والميثولوجيا، المديرية العامة للآثار

والمتاحف، دمشق، ص 32 .

- Carr-Howard, Taylor. 2017: The Cultural Mosaic Under the Tesserae: Local Identity in the Iconography and Compositions of Roman Floor Mosaics. Wesleyan University. Middletown, Connecticut. p.84.

[https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Hatay_Archaeology_Museum_\(7471577636\).jpg](https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Hatay_Archaeology_Museum_(7471577636).jpg)



(اللوحة رقم 11)

فسيفساء هليوس والحوريات (العصر الروماني) مادة الصنع : الحجر الملون والزجاج (فسيفساء).

مكان العثور: "سان رومان أون غال" (Saint-Romain-en-Gal)، فرنسا.

مكان الحفظ: المتحف "الجالو-روماني" في سان رومان أون غال، فرنسا.

تاريخ الصنع: الفترة ما بين 150 - 200 م. أبعاد اللوحة: 480 × 480 سم.

الوصف : تُصوّر اللوحة هليوس والحوريات؛ حيث يظهر هليوس ممسكاً بيده اليمنى إناءً فخارياً، بينما تمسك يده الأخرى عصاً، ويلتف حول عنقه رداءً يتطاير إلى الخلف كدلالة رمزية على هبوب الرياح، في حين يوجه نظره إلى الأعلى جهة اليمين. أما الحوريات، فيجلسن على صخرة بوضعية متقابلة (عكس بعضهن البعض)؛ حيث تمسك الحورية التي في الواجهة إناءً ينسكب منه الماء ليشكّل جدولاً يصب في البحر، بينما تظهر الحورية الأخرى جالسة بظهرها للمشاهد وهي تمسك ذراعاً بيدها. تظهر كلتا الحوريتين برداء يلتف حولهما وينسدل على ذراعيهما. وفي مركز اللوحة، يحيط بالمشهد سلسلة من أنصاف الدوائر والركنيات المزينة بالأصداق والزخارف النباتية.

المراجع التي تناولت الموضوع :

- Belis, Alexis. 2016: Roman Mosaics in the J. Paul Getty Museum. Yale University Press. London. p. 21.
<https://www.getty.edu/publications/romanmosaics/catalogue/3/>



(اللوحة رقم 12)

فسيفساء منزل مسابقة حفل الشرب بين هرقل وديونيسوس (العصر الروماني)

مكان العثور على اللوحة : أنطاكية

مكان حفظ اللوحة : متحف برينستون للفنون - نيو جيرسي ، الولايات المتحدة

تاريخ اللوحة : أوائل القرن الثالث الميلادي.

الموضوع المصور للوحة : يصور المشهد حفلاً ضخماً داخل غرفة الطعام (Triclinium)، حيث يظهر الأخوان غير الأشقاء، هيراكليس وديونيسوس (ابنا زيوس)، وهما يخوضان مسابقة للشرب. تحضر المشهد هيبتي، ساقية الآلهة، وهي تقف أمامهما في وضعية حركة ضاربة على الدف، مرتدية رداءً فضفاضاً يغطي كامل جسدها باستثناء اليدين والساقين، وتضع على رأسها إكليلاً من الغار.

يمكن التعرف على هرقل من خلال جلد الأسد الذي يميزه، بينما يظهر ديونيسوس متكئاً، مرتدياً إكليلاً من الغار وحاملاً قرن شراب، في حين يظهر أمامه قرن آخر فارغ ملقى على الأرض. ويضيف الإطار المعماري المنقن، والستارة المرتفعة، والقناع الموضوع على المنصة، أجواءً مسرحية على المشهد.

بحث بعنوان :

**”الخصائص الأثرية والسمات الفنية للوحات الرسم المحفوظة بالمتحف المصري
والمتحف اليوناني الروماني”**

Archaeological Characteristics and Artistic Features of the Painted Panels
"Preserved in the Egyptian Museum and the Greco-Roman Museum

إعداد الباحثة :

د.منى محمد موسى نوح

Dr. Mona Muhammad Mosa Nohe

محاضر ورئيس قسم الآثار بكلية السياحة والآثار-سوسة جامعة عمر المختار

monamsa835@gmail.com

المدقق اللغوي : منير سعيد حامد - جامعة السيد محمد بن علي السنوسي

ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة جداريات "تونة الجبل" والإسكندرية كنموذج للتفاعل الثقافي المصري والإغريقي خلال العصرين البطلمي والروماني، ويحلل البحث نشأة "المدرسة السكندرية" التي دمجت التيارات الهلنستية بالتقاليد المحلية؛ حيث وظفت الأساطير اليونانية برؤية درامية مستمدة من المسرح، مما أضفى واقعية حركية على التعبير الإنساني.

أثبتت النتائج قدرة الفن المصري على الحفاظ على هويته الجنازية مع تبني النزعة الطبيعية، وتجسد ذلك في تطور تقنيات "الفرسكو" والعمق الفراغي، كما في "لوحة الساقية".

تخلص الدراسة إلى أن هذه الجداريات تمثل سجلاً بصرياً للتحويلات الفكرية وتعددية المجتمع السكندري، بدمجها للأساطير الكلاسيكية والرموز المصرية وبوادر الفن المسيحي، مما يرسخ دور الإسكندرية كمركز إشعاع فني أثر في ثقافة حوض المتوسط.

الكلمات المفتاحية: التصوير الجداري، المدرسة السكندرية، الفن الهلنستي، التفاعل الحضاري، تونة الجبل.

Research Abstract

This study examines the murals of Tuna el-Gebel and Alexandria as a primary model for Egyptian-Greek cultural synthesis during the Ptolemaic and Roman eras. The research analyzes the emergence of the "Alexandrian School", which integrated Hellenistic trends with local traditions. This fusion utilized Greek mythology through a dramatic, theatrical lens, imparting dynamic realism to human expression.

The findings demonstrate the resilience of Egyptian art in preserving its funerary identity while adopting Hellenistic naturalism, evidenced by advancements in fresco techniques and spatial depth—notably in the "Sakiya (Waterwheel) Painting". The study concludes that these murals serve as a visual record of intellectual shifts and Alexandrian social plurality, merging classical myths with Egyptian symbols and early Christian motifs, thereby cementing Alexandria's role as a pivotal artistic hub influencing Mediterranean culture.

Keywords :Mural Painting, Alexandrian School, Hellenistic Art, Cultural Interaction, Tuna el-Gebel.

التصوير الجداري:

يرجع ارتباط الإنسان بفن التصوير الجداري إلى العصور الحجرية القديمة، إذ مارس إنسان تلك العصور الرسم على جدران الكهوف بصورة بدائية، معبراً عن الحيوانات التي كانت تثير خوفه ورهبته، وقد ارتبط هذا النشاط الفني بمعتقدات سحرية بدائية، حيث اعتقد الإنسان أن تصوير الحيوان يمنحه قدرة رمزية تساعد على السيطرة عليه والتغلب عليه أثناء الصيد¹. واعتمدت هذه الرسوم على استخدام الخطوط التحديدية الخارجية للأشكال، ثم ملء المساحات الداخلية بالألوان الطبيعية المستخرجة من البيئة المحيطة، وهو ما يعكس اعتماد الفنان البدائي على البعدين؛ الطول والعرض، دون إدراك واضح لقواعد العمق والمنظور.

وفي الحضارة المصرية القديمة، اكتسب التصوير الجداري أهمية كبيرة، إذ استُخدم في تزيين جدران المعابد والمقابر، وارتبط بالمعتقدات الدينية والطقوس الجنائزية، كما خضع لقواعد فنية ثابتة استمر الالتزام بها عبر مختلف العصور التاريخية المصرية²، إذ استخدم الفنان المصري القديم أسلوب (الفرسكو الجاف) في تنفيذ الرسوم الجدارية، وذلك من خلال تغطية الجدران بطبقة من الجص، ثم تركها حتى تجف قبل رسم الأشكال بخطوط محفورة أو مرسومة، ثم تلوينها بالألوان المناسبة ذات الدرجات الموحدة³.

كما عُرِفَت تقنية التمبرا (Tempera)، التي استُخدمت بصورة أساسية في التصوير على الألواح الخشبية والكتانية بدلاً من الجدران، وتعتمد هذه التقنية على خلط الألوان بمواد رابطة مثل زلال البيض أو الأصماغ الطبيعية، بهدف تثبيت الألوان والمحافظة عليها، ثم تغطية السطح بطبقة من الشمع لإضفاء اللمعان والحماية على العمل الفني⁴، واقتصر تصوير الأشخاص

¹ سعيد محمود، عزيزة 2003: التصوير والزخارف الجصية البارزة والموزايكو في الفن الروماني، الحضري للطباعة، ص 11، 12.

² Honour, Hugh & Fleming, John, 2009: A World History of Art, Laurence King Publishing, London, p. 61.

³ Vitruvius, Pollio, The Ten Books on Architecture, Trans. Morris Hicky Morgan, 1914: Book VII, Ch. 3, Para. 5-7; Kleiner, Fred S., 2016: Gardner's Art Through the Ages, Cengage Learning, Boston, p. 72.

⁴ Pliny the Elder, Natural History, Trans. John Bostock and H. T. Riley, 1855: Book XXXV, Ch. 25, 39, 41; Mayer, Ralph, 1991: The Artist's Handbook of Materials and Techniques, Viking Press, New York, p. 211.

والحيوانات على البعدين فقط، دون محاولة تجسيد العمق أو البعد الثالث، وقد شكّل هذا التوجّه سمةً عامة في الفنون المصرية القديمة، كما ظهر أيضاً في فنون حضارات الشرق الأدنى القديم، حيث غلب الطابع الرمزي والتعبيري على الدقة الواقعية في التمثيل البصري⁵.

مقدمة عن الفن المصري في العصر المتأخر:

شهد الفن المصري بعد عصر الرعامسة (1308-1027 ق.م) حالة من التراجع والضعف، نتيجة استنزاف الدولة لجزء كبير من مواردها المادية والبشرية خلال المراحل الأخيرة من الدولة الحديثة، إضافةً إلى الاضطرابات السياسية والتدهور الاقتصادي الذي أصاب البلاد منذ أواخر القرن الثامن عشر قبل الميلاد⁶، ومع ذلك، استمرت دوافع الإنتاج الفني بفضل استمرار العقيدة الدينية المصرية وارتباط الفن بالطقوس والشعائر الدينية، الأمر الذي حافظ على استمرارية النشاط الفني، وإن اتسم في أغلب مراحله بال محاكاة والتقليد أكثر من الابتكار والإبداع⁷، وعلى الرغم من هذا التراجع، شهدت الفنون المصرية في أواخر العصور الفرعونية ثلاث فترات من البعث الفني، عبّرت عن حيوية الفن المصري وقدرته على استعادة بعض عناصره الأصيلة. وقد بدأت أولى هذه النهضةات خلال عصر الأسرة الخامسة والعشرين (716-663 ق.م)، التي حكمها ملوك من أصول نوبية ارتبطوا بكهنة آمون وحافظوا على ولائهم للعقيدة المصرية القديمة ولغتها وتراثها الحضاري⁸.

وقد شجع الاستقرار السياسي النسبي الذي تحقق في عهدهم على محاولة إحياء الفن المصري، فعمد الفنانون إلى استلهام أساليب فنون الدولة القديمة والدولة الوسطى وعصر الرعامسة، ثم مزجها بأسلوب جديد اتسم بقدر من الواقعية والتجديد بما يتناسب مع ظروف عصرهم⁹، والتي من خلالها مهدت لظهور نهضة فنية ثانية في العصر الصاوي، حيث اهتم ملوك الأسرة السادسة والعشرين بإحياء التراث الفني المصري القديم، ولاسيما فنون الدولة القديمة

⁵ Frankfort, Henri, 1970: The Art and Architecture of the Ancient Orient, Yale University Press, New Haven, p. 89.

⁶ صالح، عبد العزيز 1970: الفن المصري القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 365؛ Frankfort, Henri, 1970: The Art and Architecture of the Ancient Orient, Yale University Press, New Haven, p. 231.

⁷ Honour, Hugh & Fleming, John, 2009: A World History of Art, Laurence King Publishing, London, p. 83.

⁸ Robins, Gay, 2008: The Art of Ancient Egypt, Harvard University Press, Cambridge, p. 241.

Robins, Gay, 2008: p. 245.

⁹ صالح، عبد العزيز 1970: ص 367؛

والدولة الوسطى¹⁰، وقد اتجه الفنانون في هذه المرحلة إلى تقليد النماذج الفنية القديمة في تكويناتهم التصويرية، فاستوحوا مناظرهم من الرسوم الجنائزية القديمة، كما اقتبسوا الأزياء والزينة وهيئات الأشخاص، بالإضافة إلى تصوير مشاهد الصيد ومواكب تقديم الهدايا بأسلوب يعكس تأثرهم الواضح بالفنون التقليدية المصرية¹¹.

أما النهضة الفنية الثالثة فقد ظهرت بين عهدي الأسرة الثامنة والعشرين والأسرة الثلاثين (404-341 ق.م)، حيث سعى الفنانون خلالها إلى تطوير التراث الفني المصري للمرة الأخيرة، وبذلوا جهوداً واضحة للارتقاء بالأساليب الفنية التقليدية والحفاظ على الهوية المصرية القديمة¹². ومع نهاية حكم الأسرة الثلاثين انتهى العصر الفرعوني المستقل، ودخلت إلى مصر التأثيرات الفنية البطلمية ثم الرومانية، وعلى الرغم من قوة هذه الفنون الوافدة، فإنها لم تستطع القضاء على الطابع المصري الأصل بصورة كاملة، بل ظل الفن المصري محتفظاً بخصوصيته وأثره الواضح خلال تلك المرحلة الانتقالية¹³.

التأثيرات الأجنبية على الفن المصري في العصر المتأخر:

من أبرز التأثيرات التي ظهرت على الفن المصري خلال فتراته المتأخرة تأثره ببعض الاتجاهات الفنية الوافدة من العالم الإغريقي، ولاسيما ما يتعلق بالنزعة الواقعية ومحاولة إظهار الحركة والتعبير الإنساني بصورة أكثر حيوية. ومع ذلك، ظل الفن المصري محتفظاً بخصائصه التقليدية وقواعده الراسخة، إذ عاش قروناً طويلة معتمداً على تقاليده الفنية الخاصة التي اختلفت بصورة واضحة عن الفن الإغريقي القائم على المحاكاة الطبيعية والتشريح الدقيق للأجسام¹⁴.

وقد تجلت الأنماط الجديدة التي أثرت في الفن والآثار المصرية خلال العصر البطلمي في عدد من المقابر الخاصة، خاصة في منطقة تونة الجبل بمدينة هرموبوليس في مصر الوسطى، حيث اكتُشف قبر الكاهن بيتوزوريس (Petosiris)، الكاهن الأكبر للمعبود تحوت. ويرجع تاريخ تشييد هذا القبر إلى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وقد صُمم على هيئة معبد صغير يضم رواقاً

¹⁰ Wilkinson, Richard H., 1999: The Complete Temples of Ancient Egypt, Thames & Hudson, London, p.154.

¹¹ Wilkinson, Richard H., 1999: p. 158.

¹² Kleiner, Fred S., 2016: Gardner's Art Through the Ages, Cengage Learning, Boston, p. 97.

Frankfort, Henri, 1970: p. 248.

¹³ صالح، عبد العزيز 1970: ص 369، 370؛
¹⁴ سيريل ألريد، ت: أحمد زهير، الفن المصري القديم، سلسلة الثقافة الأثرية 13، ص 296.

محمولاً على أعمدة تؤدي مباشرة إلى حجرة الدفن التي تحتوي على التابوت¹⁵، وزُينت الأجزاء الخارجية للمقبرة بمناظر تمثل جوانب من الحياة اليومية، وقد نُفذت هذه المشاهد بأسلوب يجمع بين التأثيرين المصري والبطلمي، في حين جاءت الزخارف الدينية على قواعد الأعمدة منفذة وفق الأسلوب المصري التقليدي الخالص، وهو ما يعكس حالة التفاعل الفني بين الحضارتين المصرية والإغريقية خلال العصر البطلمي¹⁶.

ويبدو أن الكاهن بيتوزوريس كان من أوائل الشخصيات المصرية التي أدخلت عناصر فنية أجنبية إلى فنون المقابر الجنائزية في تونة الجبل، ويُرجَّح أنه استعان بفنان يوناني لتنفيذ مشاهد الحياة اليومية على الجدران الخارجية للمقبرة. وقد استُوحيت هذه المشاهد من الحياة المعاصرة في العصر البطلمي، مما منحها طابعاً واقعياً يختلف عن التقاليد المصرية القديمة المعتادة¹⁷.

فن الرسم عند المصريين القدماء :

استعمل المصريون القدماء الرسم بوصفه أحد أهم وسائل التعبير البصري، إذ إن الكتابة الهيروغليفية نفسها نشأت في أصلها من صور ورموز تشكيلية تمثل عناصر طبيعية وإنسانية¹⁸، فقد ارتبط الفن المصري ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات الدينية والوظائف الاجتماعية، حيث غطت الرسوم الجدران الداخلية والخارجية للمعابد والمقابر، وعكست موضوعات ذات طابع ديني ورمزي، إلى جانب مشاهد من الحياة اليومية¹⁹.

وقد امتاز الفن المصري القديم بدقة عالية في تمثيل الكائنات، إلا أن هذه الدقة لم تكن قائمة على المحاكاة الطبيعية بالمعنى الحديث، بل خضعت لقواعد فنية صارمة ومحددة سلفاً تهدف إلى التعبير الرمزي أكثر من الواقعي²⁰؛ ولذلك لم يكن الهدف من الرسم هو تمثيل الواقع كما يُرى بصرياً، بل كما يُفهم فكرياً ودينيّاً، وأظهر الفنان المصري القديم قدرة على التوازن بين الالتزام

¹⁵ Wilkinson, Richard H., 1999: p. 193.

¹⁶ Woldering, Irmgard, 1963: Egypt: The Art of the Pharaohs, Methuen, London: pp. 224,226.

¹⁷ Robins, Gay, 2008: pp.267, 269.

¹⁸ بيك، وليم هـ، 1997: فن الرسم عند قدماء المصريين، ت: مختار السويدي، سلسلة الثقافة الأثرية (8)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 27؛ Breasted, James H., 1930: The Dawn of Conscience, Charles Scribner's Sons, New York, p. 45.

¹⁹ Frankfort, Henri, 1958: The Birth of Civilization in the Near East, Indiana University Press, Bloomington, p. 102.

²⁰ Aldred, Cyril, 1980: Egyptian Art, Thames & Hudson, London, p. 38.

بالقواعد التقليدية وبين بعض مظاهر الحرية التعبيرية، كما يتضح في رسوم الأوستراكا وبعض المشاهد غير الرسمية التي تعكس خروجاً جزئياً عن النمط التقليدي²¹، ومع ذلك ظل الفنان الماهر ملتزماً بالمعايير الجمالية والدينية، رافضاً النقل الحرفي أو الإهمال الفني.

وتؤكد الدراسات أن الفن المصري القديم لم يكن نظاماً جامداً، بل نظاماً مرناً داخل إطار من القواعد، سمح بدرجات محدودة من الابتكار، مما يعكس فهماً عميقاً للطبيعة وتحويلها إلى صياغة رمزية منظمة²²، كما أن الرسم في مصر القديمة لم يكن فناً مستقلاً بذاته، بل كان جزءاً تمهيدياً لفنون أخرى مثل النحت والتصوير الجداري والعمارة²³، وقد ظهرت بداياته منذ عصور ما قبل التاريخ، حيث عُثر على رسوم صخرية في مناطق الصحراء الشرقية ووادي النيل، تمثل البدايات الأولى للتعبير البصري عند الإنسان المصري القديم²⁴.

استمر الفن المصري القديم معتمداً على النظام الثنائي الأبعاد (الطول والعرض)، مع استخدام الخط بوصفه العنصر الأساسي في بناء التكوين الفني، دون الاهتمام بالمنظور أو العمق البصري²⁵، فقد كان الجدار يُعامل كسطح منظم يُقسم إلى شرائط أفقية، ويتم ضبط عناصره باستخدام شبكات هندسية دقيقة لضمان التناسب²⁶، وكانت الأعمال الفنية تتجزأ عبر مراحل متعددة تشترك فيها فرق من الفنانين؛ تبدأ برسم الخطوط التمهيديّة، ثم تلوين المساحات، ثم إضافة التفاصيل، وأخيراً تحديد الخطوط النهائية لإبراز العناصر²⁷، حيثُ استخدمت الألوان الطبيعية الممزوجة بمواد رابطة لضمان ثباتها واستمرارها عبر الزمن.

يرتبط الفن المصري ارتباطاً وثيقاً بالوظيفة الدينية، حيث صُورت الآلهة والطقوس الجنائزية، إلى جانب مشاهد الحياة اليومية مثل الزراعة والصيد والرعي، والتي لم تكن تمثل أحداثاً واقعية محددة بقدر ما كانت رموزاً للحياة المستمرة في العالم الآخر²⁸. وتُرجع الدراسات أصول هذا الفن

²¹ بيك، وليم هـ، 1997: ص 29، Robins, Gay, 1997: The Art of Ancient Egypt, Harvard University Press, Cambridge, p. 41.

²² Schäfer, Heinrich, 1974: Principles of Egyptian Art, Oxford University Press, London, p. 56.

²³ Wilkinson, Richard H., 2000: The Complete Temples of Ancient Egypt, Thames & Hudson, London, p. 22.

²⁴ Clark, Grahame, 1977: World Prehistory, Cambridge University Press, Cambridge, p. 88.

²⁵ Schäfer, Heinrich, 1974: p. 60.

²⁶ Aldred, Cyril, 1980: p. 44.

²⁷ Quintilian, The Institutes of Oratory, Trans. John Selby Watson, 1856: Book XII, Ch. 10, Para. 3-7; Robins, Gay, 1997: p. 55.

Frankfort, Henri, 1958: p. 118.

²⁸ بيك، وليم هـ، 1997: ص 31.

إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث ترك الصيادون الأوائل رسومهم على الصخور، مما يمثل البذور الأولى للفن المصري القديم²⁹، وفي المجلد، فإن ثبات الفن المصري عبر آلاف السنين لا يعكس الجمود بقدر ما يعكس التزاماً بنظام بصري وفكري قائم على الرمزية والتجريد، بعيداً عن المنظور الواقعي كما تطور لاحقاً في الفن الإغريقي والروماني³⁰.

مقدمة عن الفن الهلنستي في الإسكندرية:

تُعد مدرسة الإسكندرية الفنية إحدى أبرز المراكز الفنية في العصر الهلنستي، إذ تميزت بقدرتها على دمج العناصر الإغريقية ذات الجذور الكلاسيكية مع الإرث الفني المصري الممتد لآلاف السنين³¹، وقد نتج عن هذا التفاعل الحضاري تكوين مدرسة فنية ذات طابع خاص، لا يمكن وصفها بأنها إغريقية خالصة ولا مصرية خالصة، بل مزيجاً متوازناً بين تقاليد فنية متعددة.

وقد أسهمت البيئة الاجتماعية والثقافية المتنوعة لمدينة الإسكندرية في تشكيل ملامح هذا الفن، حيث تألف المجتمع من ثلاث طبقات رئيسية: الطبقة المقدونية الحاكمة، واليونانيون الذين مارسوا الفنون وفق التقاليد الإغريقية الكلاسيكية³²، والمصريون الذين حافظوا على أساليبهم الفنية الفرعونية التقليدية³³، وقد أدى هذا التعدد إلى نشوء حالة من التفاعل الفني، نتج عنها أسلوب هجين احتفظ كل عنصر فيه بخصائصه الأصلية مع وجود قدر من التداخل والتأثير المتبادل.

وفي عهد الملوك البطالمة الأوائل، وبعد تأسيس الحكم البطلمي في مصر، استقطبت الإسكندرية عدداً كبيراً من الفنانين الإغريق الذين وجدوا في المدينة مركزاً حضارياً مزدهراً يتمتع بالاستقرار والثراء الثقافي³⁴، وقد اتسمت الأعمال الفنية في المراحل الأولى بوضوح التأثير الأثيني، غير أن هذا الطابع بدأ يتغير تدريجياً مع تزايد التفاعل بين الإغريق والمصريين، مما أدى إلى ظهور أسلوب فني جديد يجمع بين عناصر المدرستين.

²⁹ Clark, Grahame, 1977: p. 91.

³⁰ Breasted, James H., 1930: p. 62.

³¹ Pollitt, J. J., 1986: Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, Cambridge, p. 112.

³² شاهين، بهية، 1993: النحت الهلنستي، مكتب اللورد للتوزيع والكمبيوتر، القاهرة: ص ص 95، 96.

³³ Smith, R. R. R., 1991: Hellenistic Sculpture, Thames & Hudson, London, p. 67.

³⁴ Fraser, P. M., 1972: Ptolemaic Alexandria, Oxford University Press, Oxford, p. 54.

ومع مرور الوقت، خاصة خلال حكم البطالمة الأوائل، تبلورت ملامح مدرسة الإسكندرية الفنية بشكل أوضح³⁵، حيث أصبحت تعكس طبيعة المدينة متعددة الثقافات، وتميزت عن باقي المراكز الهلينستية مثل برجامة ورودس وأنطاكية³⁶، وقد ساهمت البيئة المصرية، بما تحمله من خصائص جغرافية وثقافية، في إضفاء طابع خاص على هذا الفن، مما جعله أكثر تنوعاً وخصوصية داخل الإطار الهلينستي العام.

فن الرسم والتصوير في العصر الهلينستي في مصر:

يمثل التصوير في العصر الهلينستي امتداداً تاريخياً لتطور طويل بدأ في العالم اليوناني منذ الحضارات الإيجية، ولا سيما الحضارة المينوية في الألف الثاني قبل الميلاد، حيث اتسم التصوير الجداري باستخدام تقنية الفرسكو في تزيين جدران القصور الملكية بمشاهد مستمدة من الحياة اليومية، مثل الاحتفالات الاجتماعية ومصارعة الثيران³⁷؛ إذ اعتمد هذا الفن على الخط التحديدي كعنصر بنائي أساسي، مع توظيف الألوان لملء المساحات الداخلية، دون اهتمام واضح بتمثيل العمق أو الخلفيات، مما جعل التكوين الفني محصوراً في بعدين رئيسيين هما الطول والعرض³⁸.

ومع بداية ما يُعرف بـ (الفترة الغامضة 800-1230 ق.م) في اليونان، شهد الفن التصويري تحولات مهمة، إذ انتقل في القرن الثامن قبل الميلاد إلى الأواني الفخارية ذات الطراز الهندسي، واستمر هذا الاتجاه حتى القرن السادس قبل الميلاد تقريباً، مع تطور تدريجي نحو مزيد من الطبيعية والاستدارة في تمثيل الأشكال³⁹، وفي العصر الكلاسيكي، برز تطور نوعي في أساليب التصوير، حيث ظهرت معالجة أكثر دقة للأجسام من خلال اعتماد منظور الثلاثة أرباع، إلى جانب إدخال عناصر خلفية بسيطة في المشاهد الجدارية، مثل التلال والفضاءات الطبيعية، مما مثّل خطوة أولى نحو إدراك العمق البصري⁴⁰.

³⁵ عبدالفتاح، أحمد، 2002: لمحة عن مدرسة فن الإسكندرية، مطبعة المجلس الأعلى للآثار، الإسكندرية: ص 79.

³⁶ Pollitt, J. J., 1986: p. 118.

³⁷ Boardman, John, 1998: Early Greek Art, Thames & Hudson, London, p. 74.

³⁸ Hurwit, Jeffrey M., 1985: The Art and Culture of Early Greece, Cornell University Press, Ithaca, p. 92.

³⁹ Robertson, Martin, 1975: A History of Greek Art, Cambridge University Press, Cambridge, p. 61.

⁴⁰ Pollitt, J. J., 1986: Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, Cambridge, p. 33.

كما شهد هذا العصر تقدماً ملحوظاً في تقنيات التمثيل، إذ انتقل الفنانون من الاعتماد على الخط الخارجي إلى استخدام الظل والتدرج اللوني، الأمر الذي أتاح إبراز الكتل والأحجام بصورة أكثر واقعية، إلى جانب تحسين العلاقات النسبية بين العناصر داخل التكوين الفني الواحد، وتطوير مفهوم التوازن البصري والعمق⁴¹.

أما في مصر خلال العصر الهلنستي*، فقد تميزت مدرسة الإسكندرية بوضوح النزعة الطبيعية وميولها نحو تصوير المناظر الخلوية والطبيعة الحية، وهو ما يعكس الطابع الثقافي والاجتماعي للمدينة متعددة الأعراق⁴²، وقد انعكس هذا الاتجاه في الأدب السكندري أيضاً، كما في الشعر الرعوي لثيوكريتوس، الذي عبّر عن الحياة الريفية والطبيعة بوصفها موضوعاً فنياً قائماً بذاته⁴³.

وتكشف الشواهد الأثرية أن الفن السكندري الهلنستي اتسم بتنوع موضوعاته، حيث شمل تصوير الحياة اليومية لسكان المدينة، إلى جانب مشاهد من البيئة النيلية مثل الطيور المائية والزواحف والتدييات النهرية، فضلاً عن الاهتمام بتجسيد تأثيرات الضوء على الأسطح اللامعة، وهو ما يعكس تطور الحس الواقعي لدى الفنان السكندري⁴⁴.

كما استُخدمت هذه الأعمال في تزيين القصور الملكية والمعابد والمباني العامة، إلى جانب توظيف تقنية الفرسكو الرطب في زخرفة جدران المقابر، مع استخدام الألوان أحياناً لإخفاء عيوب الأسطح ومحاكاة الأحجار الكريمة مثل الرخام والجرانيت والألباستر، عبر تقسيم الجدران إلى مساحات لونية منظمة⁴⁵.

⁴¹ Robertson, Martin, 1975: p. 78.

* يُطلق على الفترة التي تلت موت الإسكندر الأكبر عام 323 ق.م وحتى معركة أكتيوم عام 31 ق.م اسم العصر الهلنستي؛ وذلك بسبب امتزاج حضارة الشرق (East) بالحضارة الغربية (West) الإغريقية، مما نتج عنه عصر جديد بمظاهره ثقافية وأدبية وفنية عُرف باسم العصر الهلنستي (Hellenistic). للمزيد انظر:

Tarn, W.W., 1952: Hellenistic Civilisation, 3rd ed, Edward Arnold, London, pp.1-46.

⁴² Fraser, P. M., 1972: Ptolemaic Alexandria, Oxford University Press, Oxford, p. 143.

⁴³ Hunter, Richard, 1996: Theocritus and the Archaeology of Greek Poetry, Cambridge University Press, Cambridge, p. 18.

⁴⁴ Smith, R. R. R., 1991: Hellenistic Sculpture, Thames & Hudson, London, p. 102.

⁴⁵ Kleiner, Fred S., 2016: Gardner's Art Through the Ages, Cengage Learning, Boston, p. 145.

وقد أظهرت المقارنات الأسلوبية بين فن الإسكندرية والفنون خارجها وجود تشابهات واضحة مع الفن الأثيني في القرن الرابع قبل الميلاد، وكذلك مع الفن الجنائزي في مقابر تاركونيا بإيطاليا، خاصة في الطابع التعبيري والنحافة النسبية للأشكال⁴⁶.

وفي أواخر العصر الهلنستي، ظهرت اتجاهات فنية جديدة اتسمت بتصغير حجم الأشكال وتحريرها داخل الفراغ، مع منح التكوين قدرًا أكبر من الحركة والانسياب، وهو أسلوب انتشر في نطاق واسع من حوض البحر المتوسط⁴⁷، كما برزت أساليب أبسط وأكثر بساطة في بعض مقابر الإسكندرية خلال القرن الثاني قبل الميلاد، بما يعكس الطابع الاجتماعي للطبقات الشعبية⁴⁸.

وبوجه عام، لم يعرف الفن السكندري أسلوبًا واحدًا ثابتًا، بل تميز بتعدد الاتجاهات وتزامنهما، مع استمرار الطابع الحيوي والطبيعي، وظهور تفاعل واضح بين العناصر المصرية والإغريقية ضمن إطار فني واحد متكامل⁴⁹.

لوحتا الرسم الجداري المحفوظتان بالمتحف المصري*:

تُعد منطقة تونة الجبل من أهم المواقع الأثرية التي كشفت عن مظاهر التفاعل الحضاري بين الفن المصري والفن الهلنستي خلال العصرين البطلمي والروماني، لما تحتويه من مقابر ومنشآت جنائزية زخرفت بمناظر وأساليب فنية تجمع بين التقاليد المصرية القديمة والعناصر الإغريقية الوافدة⁵⁰، إذ ساهمت الحفائر العلمية التي أُجريت بالموقع خلال النصف الأول من القرن العشرين في الكشف عن عدد كبير من المقابر ذات الطابع المعماري والفني المميز، والتي عكست بصورة واضحة طبيعة المجتمع المصري في تلك المرحلة التاريخية، ومدى انتشار الثقافة الهلنستية داخل الأقاليم المصرية⁵¹.

⁴⁶ Pollitt, J. J., 1986: p. 58.

⁴⁷ Robertson, Martin, 1975: p. 119.

⁴⁸ Kleiner, Fred S., 2016: p. 152.

⁴⁹ Smith, R. R. R., 1991: p. 118.

* قامت الباحثة بتوثيق اللوحتين فوتوغرافياً بعد الحصول على كافة الموافقات والتصاريح الرسمية من إدارة المتحف المصري بالقاهرة عام 2009م، وذلك في إطار الدراسة الميدانية.

⁵⁰ Fraser, P. M., 1972: Ptolemaic Alexandria, Oxford University Press, Oxford, p. 312.

⁵¹ Pollitt, J. J., 1986: Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, Cambridge, p. 210.

ومن بين أهم المكتشفات الفنية التي عُثِرَ عليها في تونة الجبل لوحتان جداريتان محفوظتان حالياً بالمتحف المصري بالقاهرة، وتمثلان نماذج مهمة لفن التصوير الجداري ذي الطابع الأسطوري خلال العصر البطلمي، إذ تكتسب هاتان اللوحتان أهمية خاصة لكونهما تكشفان عن مدى التأثير بالموضوعات الأدبية والأسطورية اليونانية، إلى جانب ما تعكسه من تطور في أساليب التصوير والتكوين الفني في مصر الهلنستية⁵².

أولاً: ظروف اكتشاف اللوحتين:

عُثِرَ على هاتين اللوحتين الجداريتين خلال أعمال الحفائر التي أُقيمت بمنطقة تونة الجبل تحت إشراف عالم الآثار المصري سامي جبرة، بالتعاون مع جامعة القاهرة، وذلك خلال خمسة مواسم متتالية امتدت من عام 1931م حتى عام 1935م⁵³، وقد أسفرت هذه الحفائر عن الكشف عن مدينة جنائزية متكاملة تتمحور حول مقبرة «بيتوزيريس»، والتي تضم مجموعة كبيرة من المقابر التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد وما تلاه من عصور⁵⁴.

وقد اتخذت هذه المقابر شكلين رئيسيين؛ أولهما المقابر المشيدة على هيئة معابد جنائزية، ومن أبرز أمثلتها مقبرة «بيتوزيريس»، التي تُعد من أهم الشواهد على امتزاج العناصر المصرية والإغريقية في العمارة والزخرفة الجنائزية⁵⁵، أما الشكل الثاني فتمثل في المقابر المشيدة على هيئة منازل سكنية، والتي بُنيت بالطوب اللبن وغطيت بطبقة من الملاط، وجاء تخطيطها المعماري مماثلاً إلى حد بعيد لمنازل الطبقة الوسطى في العصرين البطلمي والروماني⁵⁶.

وقد زخرفت جدران هذه المنازل الجنائزية بمناظر مستوحاة من الأدب والأساطير اليونانية، وهو ما يُعد دليلاً واضحاً على انتشار الثقافة الهلنستية داخل المجتمع المصري⁵⁷، كما تعكس هذه الرسوم طبيعة التفاعل الحضاري الذي شهدته مصر بعد دخول الإغريق، حيث امتزجت الموضوعات اليونانية بالأساليب الفنية المحلية في إطار فني جديد⁵⁸.

⁵² Smith, R. R. R., 1991: Hellenistic Sculpture, Thames & Hudson, London, p. 138.

⁵³ Saad, Z. Y., 1967: The Excavations at Tuna el-Gebel, Cairo University Press, Cairo, p. 27.

⁵⁴ Fraser, P. M., 1972: p. 315.

⁵⁵ Pollitt, J. J., 1986: p. 214.

⁵⁶ Saad, Z. Y., 1967: p. 31.

⁵⁷ Fraser, P. M., 1972: p. 318.

⁵⁸ Smith, R. R. R., 1991: p. 141.

وقد بلغ عدد هذه المقابر المنزلية أربعاً وعشرين وحدة معمارية، تتكون كل منها من صالة أمامية وحجرة دفن تضم السرير الجنائزي. ومن أشهر هذه المقابر: منزل أيزيدورا، ومنزل البستاني، ومنزل أوديب، ومنزل حصان طروادة وغيرها⁵⁹.

اللوحة الأولى:

عُثر على هذه اللوحة داخل المقبرة المعروفة باسم «منزل أوديب»، وقد استمدت المقبرة اسمها من موضوع اللوحة التي كانت تزين جدرانها الداخلية، والتي تمثل تسجيلاً لأحداث أسطورة أوديب اليونانية الشهيرة⁶⁰، واللوحة محفوظة حالياً بالمتحف المصري تحت رقم (63610)، وقد اكتُشفت عام 1934م، وهي منفذة على طبقة من البلاستر باستخدام تقنية الفرسكو، ويبلغ عرضها 103 سم، بينما يبلغ ارتفاعها 185 سم⁶¹، هذه اللوحة تُعد من النماذج المهمة التي توضح مدى انتشار الموضوعات الأسطورية اليونانية في الفن الجنائزي بمصر خلال العصر البطلمي، كما تعكس استمرار الاهتمام بالمضامين الدرامية والرمزية في التصوير الجداري⁶².

وصف اللوحة:

تمثل اللوحة منظرًا يُحتمل أن يكون مستوحى من إحدى الأساطير اليونانية، ويرجع إلى العصر البطلمي، ويظهر في الجانب الأيمن من اللوحة حيوان في وضع القفز أو الحركة السريعة، يُرجح أنه قط بري أو وعل، وقد لُوّن باللون البني مع تحديد أجزاء جسمه بخطوط داكنة واضحة⁶³، ويعكس هذا الأسلوب اعتماد الفنان على الخط التحديدي بوصفه العنصر الأساسي في بناء الشكل، وهي سمة استمرت في كثير من الفنون الهلينستية المتأثرة بالتقاليد الشرقية⁶⁴.

وفي وسط اللوحة، وأمام الحيوان مباشرة، يظهر ديك واقف في مواجهة الحيوان السابق، ويلاحظ أن الفنان لم يلتزم بالنسب الواقعية بين العناصر، إذ جاء حجم الديك أكبر من الحجم الطبيعي مقارنة بالحيوان الآخر، وربما كان ذلك بقصد إبراز العنصر الرئيس داخل التكوين الفني

⁵⁹ Saad, Z. Y., 1967: p. 33.

⁶⁰ Pollitt, J. J., 1986: p. 221.

⁶¹ Saad, Z. Y., 1967: p. 41.

⁶² Fraser, P. M., 1972: p. 322.

⁶³ Robertson, Martin, 1975: A History of Greek Art, Cambridge University Press, Cambridge, p. 233.

⁶⁴ Pollitt, J. J., 1986: p. 225.

أو لتحقيق نوع من التوازن البصري داخل المشهد⁶⁵، وقد استخدمت درجات اللون البني في تلوين الديك، مع تحديد الجناحين بخطوط داكنة لإبراز التفاصيل.

وفي الجزء العلوي من اللوحة تظهر بقايا الأجزاء السفلى لشخصيتين عاريتين يُرجح أنهما لامرأتين، بينما اختفت الأجزاء العلوية بفعل عوامل التلف والزمن. وقد لُوِّنت الأجساد بدرجات برتقالية داكنة، ويبدو أن الفنان حاول الإيحاء بالبعد المكاني من خلال تصغير حجمهما مقارنة بحجم الديك، أو ربما أراد تصويرهما في مستوى أكثر بعداً داخل المشهد⁶⁶.

أما في الجانب الأيسر من اللوحة، فتظهر كتلة معمارية غير واضحة المعالم يُحتمل أن تكون مقبرة أو بناءً جنائزياً، وخلفها تظهر أشجار نخيل منفذة باللون الأسود، في إشارة واضحة إلى البيئة المصرية المحلية⁶⁷، وإلى جوار هذه الأشجار تظهر امرأة جالسة تضع يدها اليسرى على خدها، في وضعية تعبر عن الحزن أو التأمل أو الانتظار، وترتدي ثوباً طويلاً لَوْنٌ باللون الأسود، كما لَوْنُ شعرها باللون ذاته، بينما صُوِّرَ الوجه واليدان بدرجات بنية فاتحة⁶⁸.

ويلاحظ في التكوين الفني للوحة الجمع بين العناصر الطبيعية والعناصر الرمزية، مع غياب واضح لقواعد المنظور الواقعي، وهو ما يتفق مع كثير من أساليب التصوير الهلينستي المبكر في مصر⁶⁹.

موضوع اللوحة:

تصور اللوحة مشهداً أسطورياً يُعتقد أنه يمثل «إلكترا» ابنة أجامنون وهي جالسة أمام قبر والدها في حالة من الحزن العميق، وقد نُقش اسمها أعلى الشكل باللغة اليونانية⁷⁰، ويُعد هذا الموضوع من الموضوعات الشائعة في الأدب والمسرح الإغريقي، لما يحمله من أبعاد درامية مرتبطة بمأساة أسرة أجامنون⁷¹.

⁶⁵ Robertson, Martin, 1975: p. 235.

⁶⁶ Smith, R. R. R., 1991: p. 145.

⁶⁷ Fraser, P. M., 1972: p. 326.

⁶⁸ Pollitt, J. J., 1986: p. 228.

⁶⁹ Smith, R. R. R., 1991: p. 148.

⁷⁰ Boardman, John, 1998: Early Greek Art, Thames & Hudson, London, p. 201.

⁷¹ Pollitt, J. J., 1986: p. 229.

وعلى الجانب الآخر من المقبرة صُورت شخصيتان عاريتان اختفت أسماؤهما بفعل التلف، ويُعتقد أنهما يمثلان «أوريستيس» و«بيلاديس»، وهما من الشخصيات المرتبطة بأسطورة إكثرا وأجاممنون.⁷²

أما في الجزء السفلي من اللوحة فقد صُوّر ديك يقف أمام حيوان في وضع حركة وهجوم، يُرجح أنه وعل أو قط بري، وربما حمل هذا المشهد دلالات رمزية مرتبطة بالصراع أو الحراسة أو الطقوس الجنائزية (الصورة رقم 1)⁷³.

اللوحة الثانية:

عُثر على هذه اللوحة داخل المقبرة المعروفة باسم «منزل حصان طروادة»، وقد استمدت المقبرة اسمها من موضوع اللوحة التي زينت جدرانها، والتي تسجل مشهد خديعة الطرواديين بالحصان الخشبي الشهير.⁷⁴ اللوحة محفوظة بالمتحف المصري تحت رقم (63611)، وقد اكتُشفت عام 1934م، وهي منفذة على طبقة من البلاستر، ويبلغ عرضها 48 سم، بينما يبلغ ارتفاعها 89 سم.⁷⁵

وتُعد هذه اللوحة من أبرز الشواهد التي توضح انتشار موضوعات الملاحم والأساطير اليونانية في الفن الجنائزي المصري خلال العصرين البطلمي والروماني.⁷⁶

وصف اللوحة:

تمثل اللوحة منظراً أسطورياً يرجع إلى العصر البطلمي، ويظهر في الجانب الأيمن منها بقايا رسوم تعرضت للتلف بمرور الزمن، الأمر الذي أدى إلى فقدان كثير من تفاصيل المشهد الأصلي⁷⁷، أما في وسط اللوحة فتظهر صورة لفارس يتضح من خلال ملابسه، وخلفه يقف جواده ذو القوائم الطويلة، بينما اختفى رأس الجواد نتيجة تهشم أجزاء من طبقة الجص.⁷⁸

وتظهر الألوان واضحة نسبياً في بعض أجزاء اللوحة، حيث لَوّن الجواد باللون البني، بينما لَوّن رداء الفارس باللون الأحمر، مع تحديد الخطوط الخارجية بدرجات داكنة، كما تظهر بقايا

⁷² Robertson, Martin, 1975: p. 241.

⁷³ Smith, R. R. R., 1991: p. 149.

⁷⁴ Fraser, P. M., 1972: p. 329.

⁷⁵ Saad, Z. Y., 1967: p. 44.

⁷⁶ Pollitt, J. J., 1986: p. 232.

⁷⁷ Robertson, Martin, 1975: p. 244.

⁷⁸ Smith, R. R. R., 1991: p. 146.



للون الأخضر في أجزاء من الخلفية⁷⁹، وخلف الفارس تظهر هيئة يُحتمل أن تكون لعمود معماري منفذ باللون البني، وربما كان جزءاً من تكوين معماري أوسع داخل المشهد⁸⁰.

موضوع اللوحة:

تمثل اللوحة مشهد «حصان طروادة» المرتبط بالأسطورة الإغريقية الشهيرة كما وردت في الملاحم الهومييرية، وخاصة ملحمة الإلياذة⁸¹، ويظهر الحصان الخشبي في الجانب الأيسر من اللوحة منفذاً باللون الأحمر، إلا أن طبقة الجص التي كانت تحمل رأس الحصان تعرضت للتهشم⁸².

وقد صُورت الأرجل الأمامية للحصان بصورة جامدة نسبياً دون تحديد واضح لمفصل الركبة، بينما بدت الأرجل الخلفية أكثر واقعية من حيث التكوين العضلي وتحديد المفاصل، في حين جاء الذيل بعيداً عن الدقة التشريحية⁸³، ويعكس هذا التفاوت في التنفيذ اختلاف مستوى العناية الفنية بين أجزاء التكوين.

وبجوار الحصان تظهر شخصية يُحتمل أنها لفارس يرفع يديه إلى أعلى، بينما كانت تواجهه شخصيات أخرى اختفت معالمها نتيجة التلف. وفي خلفية المشهد، بين الإغريق الذين يحاولون اقتحام طروادة، تظهر مبخرة مستديرة منفذة باللون الأصفر⁸⁴.

ورغم سوء حالة اللوحة واختفاء أجزائها العلوية، فإن ما تبقى منها يشير بوضوح إلى موضوع خديعة الإغريق للطرواديين باستخدام الحصان الخشبي، وهي لوحة مستوحاة من رواية هوميروس في الإلياذة⁸⁵، ويُعتقد أن الحصان الخشبي من صنع (إيببوس)، بينما تمثل الشخصيتان الإغريقيتان شخصين يلتزمان الإذن من الطرواديين لتقديم النذور إلى بوسيدون وهيليوس تكفيراً عن خطاياهم، كما يُرجح أن المبخرة الصفراء ترمز إلى الطقوس الدينية المرتبطة ببوسيدون، وهو ما يتفق مع النصوص الهومييرية المتعلقة بهذه الأسطورة⁸⁶.

⁷⁹ Pollitt, J. J., 1986: p. 234.

⁸⁰ Fraser, P. M., 1972: p. 332.

⁸¹ Homer. The Odyssey. Trans. A. T. Murray, 1919: Harvard University Press, Cambridge, Book VIII, Lines 492-520; Boardman, John, 1998: p. 208.

⁸² Pollitt, J. J., 1986: p. 236.

⁸³ Robertson, Martin, 1975: p. 247.

⁸⁴ Fraser, P. M., 1972: p. 334.

⁸⁵ Boardman, John, 1998: p. 214.

⁸⁶ Pollitt, J. J., 1986: p. 238.

وتعكس هذه اللوحة انتشار تصوير الأساطير اليونانية بوصفها موضوعات زخرفية رئيسة في المقابر خلال العصر الروماني، خاصة في المقابر المنزلية بتونة الجبل، وهو ما يدل على استمرار التأثيرات الهلنستية داخل الفن الجنائزي المصري حتى القرن الثاني الميلادي، رغم تراجع الروح الهلنستية تدريجياً خلال تلك المرحلة (الصورة رقم 2)⁸⁷.

رأي آخر حول المشاهد التي تحملها اللوحتان

أثارت اللوحتان الجداريتان المكتشفتان بتونة الجبل اهتمام عدد كبير من الباحثين المتخصصين في الفن الهلنستي والفن الجنائزي السكندري، وذلك بسبب ما تتضمنانه من موضوعات أسطورية معقدة وما تعرضت له أجزاء كبيرة منهما من تلف وطمس، الأمر الذي أدى إلى ظهور تفسيرات متعددة للمشاهد المصورة عليهما⁸⁸، فقد اعتمدت هذه التفسيرات على المقارنة بين اللوحتين وبين نماذج فنية مشابهة عُثر عليها في الإسكندرية ومناطق البحر المتوسط، إضافة إلى الاستعانة بالنصوص الأدبية والأسطورية اليونانية، ولا سيما الملاحم الهومييرية والمسرح التراجيدي الإغريقي⁸⁹.

وتكشف هذه المقارنات عن مدى انتشار الثقافة الهلنستية داخل مصر خلال العصرين البطلمي والروماني، وهو ما انعكس بصورة واضحة في مقابر تونة الجبل ذات الطابع المنزلي⁹⁰، كما تؤكد هذه اللوحات أن الفنان السكندري لم يكن مجرد ناقل للنماذج اليونانية، بل أعاد صياغتها وفق البيئة المصرية المحلية، مع الاحتفاظ بالطابع الدرامي والرمزي للفن الهلنستي⁹¹.

أولاً: اللوحة الأولى والرأي الآخر حول موضوعها:

يرى بعض الباحثين أن المشهد المصور في الجانب الأيسر من اللوحة يمثل مشهداً جنائزياً ذا طابع أسطوري، وأن المرأة الجالسة ليست مجرد شخصية عادية، بل تمثل المتوفاة الجالسة أمام قبرها في وضعية تعكس الحزن والتأمل والانتظار⁹². ويلاحظ أن

⁸⁷ Smith, R. R. R., 1991: p. 152.

⁸⁸ Pollitt, J. J., 1986: Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, Cambridge, p. 241.

⁸⁹ Stewart, Andrew, 1993: Faces of Power: Alexander's Image and Hellenistic Politics, University of California Press, Berkeley, p. 187.

⁹⁰ Fraser, P. M., 1972: Ptolemaic Alexandria, Oxford University Press, Oxford, p. 341.

⁹¹ Smith, R. R. R., 1991: Hellenistic Sculpture, Thames & Hudson, London, p. 166.

⁹² Robertson, Martin, 1975: A History of Greek Art, Cambridge University Press, Cambridge, p. 251.

وضع اليد على الخد يُعد من الأوضاع التعبيرية الشائعة في الفن الجنائزي الهلينستي، إذ ارتبط بالحزن والرتاء والتفكير في العالم الآخر⁹³.

أما الشخصيتان النسائيتان الظاهرتان في الجزء العلوي من اللوحة، فيُعتقد أنهما تمثلان ربّات القدر المعروفات في الأساطير اليونانية باسم «الموراي Morae»، وهن الإلهات المسؤولات عن تحديد مصير الإنسان ومدة حياته وموته⁹⁴، وتظهر ربّات القدر كثيراً في التصويرات الجنائزية الهلينستية، خاصة في المشاهد المرتبطة بالعالم السفلي والانتقال إلى الحياة الأخرى⁹⁵.

ويرجح بعض الدارسين أن الجزء المفقود أسفل هذا المشهد كان يتضمن تصويراً لنهر «استكس Styx»، وهو النهر الذي يفصل بين عالم الأحياء والعالم السفلي في العقيدة اليونانية القديمة، وقد استند هذا الرأي إلى بقايا اللون الأزرق الظاهرة في المنطقة التالفة من اللوحة⁹⁶، وكان نهر استكس يمثل عنصراً أساسياً في العقائد الجنائزية اليونانية، إذ كانت أرواح الموتى تُنقل عبره بواسطة الملاح الأسطوري خارون Charon⁹⁷.

يُحتمل أن الجزء المفقود من اللوحة كان يحتوي على تصوير لقارب خارون، وهو ما يتفق مع التكوينات الفنية المعروفة لمشاهد العالم السفلي في الفن الإغريقي والهلينستي⁹⁸، ويظهر خارون في هيئة رجل مسن يقود قارباً صغيراً يحمل أرواح الموتى لعبور النهر نحو مملكة هاديس⁹⁹.

وقد توصل الباحثون إلى هذا التفسير من خلال مقارنة هذه اللوحة بلوحة أخرى عُثر عليها في مقبرة الشاطبي بالإسكندرية سنة 1981م، والتي ضُمت إلى مجموعة اللوحات التي تحمل المناظر الطبيعية السكندرية¹⁰⁰، وقد اكتُشفت هذه اللوحة خلال حفائر أجرتها هيئة الآثار المصرية، إلا أنها كانت في حالة سيئة نتيجة تسرب مياه الأمطار إلى داخل المقبرة، مما أدى إلى تلف كثير من عناصرها التصويرية¹⁰¹.

⁹³ Bieber, Margarete, 1961: The History of the Greek and Roman Theater, Princeton University Press, Princeton, p. 143.

⁹⁴ LIMC, Vol. VI, 1992: Lexicon Iconographicum Mythologiae Classicae, Artemis Verlag, Zurich, p. 662.

⁹⁵ Pollitt, J. J., 1986: p. 244.

⁹⁶ Boardman, John, 1998: Early Greek Art, Thames & Hudson, London, p. 227.

⁹⁷ Garland, Robert, 2001: The Greek Way of Death, Cornell University Press, Ithaca, p. 58.

⁹⁸ Vermeule, Emily, 1979: Aspects of Death in Early Greek Art and Poetry, University of California Press, Berkeley, p. 121.

⁹⁹ Garland, Robert, 2001: p. 61.

¹⁰⁰ Fraser, P. M., 1972: p. 348.

¹⁰¹ Daszewski, W. A., 1985: Corpus of Mosaics from Egypt, Philipp von Zabern, Mainz, p. 93.

تحمل لوحة الشاطبي أشكالاً آدمية وعناصر معمارية منفذة على خلفية زرقاء داكنة، وتصور شخصيات أسطورية ومشاهد مرتبطة بالعالم السفلي، وهي بعيدة تماماً عن المناظر النيلية التي اشتهرت بها المدرسة السكندرية¹⁰²، وقد عدَّ بعض الباحثين أن هذه اللوحة تمثل مشاهد من أسطورة نيكيا Nekyia أي رحلة الأرواح إلى العالم السفلي كما وردت في الأدب اليوناني¹⁰³. ويظهر في اللوحة عدد من الشخصيات الأسطورية، من بينها «رادامانتس Rhadamanthys وأياكوس Aiakos، وهما من قضاة العالم السفلي في الميثولوجيا اليونانية، وقد صُورا أمام بوابة وهمية يتقدمها سلم رمزي¹⁰⁴ كما يظهر «سيزيفوس Sisyphus، الذي حكمت عليه الآلهة بدحرجة صخرة إلى قمة جبل لتسقط مرة أخرى بصورة أبدية عقاباً له¹⁰⁵، كذلك تظهر شخصية إكسيون Ixion داخل عجلة نارية، وهي إحدى أشهر صور العقاب الأبدي في الأساطير اليونانية¹⁰⁶. أسفل اللوحة يظهر خارون داخل قاربه فوق مياه نهر استكس، وإلى جواره مجموعة من الجثث، من بينها ثلاث شخصيات تحمل دروعاً، في انتظار عبور النهر إلى العالم السفلي¹⁰⁷. كما تظهر في الركن العلوي الأيسر شخصية ترتدي رداءً أبيض وشعراً طويلاً إلى جوار عربة إكسيون، ويُعتقد أنها تمثل مينوس Minos، أو أحد العرافين المرتبطين بالعالم السفلي¹⁰⁸، وتظهر كذلك ثعابين بالقرب من البوابة، ويرى الباحثون أنها ترمز إلى أرواح الموتى أو إلى الحراسة الرمزية لمداخل العالم السفلي، إذ ارتبط الثعبان في الفن الجائزي الإغريقي بمعاني الحماية والبعث والتجدد¹⁰⁹.

ويرى عدد من الباحثين أن هذه المشاهد تمثل ترجمة تصويرية لنصوص أدبية يونانية، وأنها ربما استلهمت من التصوير الشهير للعالم السفلي الذي نفذه الفنان الإغريقي بوليغنوتوس

¹⁰² Smith, R. R. R., 1991: p. 169.

¹⁰³ Vermeule, Emily, 1979: p. 133.

¹⁰⁴ LIMC, Vol.I, 1981:Lexicon Iconographicum Mythologiae Classicae, Artemis Verlag, Zurich, p. 398.

¹⁰⁵ Boardman, John, 1998: p. 233.

¹⁰⁶ Pollitt, J. J., 1986: p. 248.

¹⁰⁷ Garland, Robert, 2001: p. 66.

¹⁰⁸ LIMC, Vol. VI, 1992: p. 675.

¹⁰⁹ Vermeule, Emily, 1979: p. 147.

Polygnotos في معبد دلفي خلال القرن الخامس قبل الميلاد¹¹⁰، وقد كان لهذا العمل تأثير كبير على فن التصوير الجنائزي الهلينستي في مناطق البحر المتوسط¹¹¹.

الجزء السفلي من لوحة الشاطبي يُظهر منظراً داخلياً لمعبد كبير ذي أعمدة وممرات منفذة بأسلوب متأثر بالفن المصري، وهو ما يعكس الامتزاج الواضح بين العناصر المصرية والإغريقية في الفن السكندري¹¹²، وداخل المعبد تظهر أربع شخصيات لم تُحدد هويتها بدقة، إلا أن وجود امرأة تحمل عصاً مزخرفة، وأخرى جالسة على عرش أمام مائدة أو مذبح، يشير إلى طقوس دينية أو جنائزية مرتبطة بالعالم السفلي¹¹³.

ومن خلال هذه المقارنات، ذهب بعض الباحثين إلى أن اللوحة الأولى المكتشفة بتونة الجبل قد تكون مرتبطة بمشاهد العالم السفلي والرحلة الجنائزية وفق العقيدة اليونانية، وليس فقط بأسطورة إكثرا وأجاممنون كما ذهب الرأي التقليدي (الصورة رقم 3)¹¹⁴.

ثانياً: اللوحة الثانية والرأي الآخر حول موضوعها:

وهناك رأي آخر يشير إلى أن المشهد المصور في اللوحة الثانية لا يمثل حادثة حسان طروادة، بل يجسد إحدى حلقات أسطورة أوديب، وتحديدًا المشهد الذي تواجه فيه أبو الهول أو الـ Sphinx أوديب أثناء رحلته إلى مدينة طيبة¹¹⁵، ووفق هذا التفسير، فإن الفارس الظاهر في اللوحة يمثل أوديب، بينما تمثل الرسوم المطموسة في الجانب الأيمن صورة الهولة وهي تطرح عليه اللغز الشهير¹¹⁶.

وتُعد أسطورة أوديب من أكثر الموضوعات انتشاراً في الفن والمسرح الإغريقي، لما تحمله من أبعاد درامية وفلسفية مرتبطة بالقدر والمصير الإنساني¹¹⁷، وقد حظيت هذه الأسطورة باهتمام كبير في الفن الهلينستي، خاصة في الإسكندرية التي ازدهرت فيها الدراسات الأدبية والمسرحية خلال العصر البطلمي¹¹⁸.

¹¹⁰ Robertson, Martin, 1975: p. 261.

¹¹¹ Pollitt, J. J., 1986: p. 251.

¹¹² Fraser, P. M., 1972: p. 351.

¹¹³ Daszewski, W. A., 1985: p. 96.

¹¹⁴ Smith, R. R. R., 1991: p. 173.

¹¹⁵ Boardman, John, 1998: p. 236.

¹¹⁶ Pollitt, J. J., 1986: p. 252.

¹¹⁷ Knox, Bernard, 1957: Oedipus at Thebes, Yale University Press, New Haven, p. 39.

¹¹⁸ Fraser, P. M., 1972: p. 355.

وقد اعتمد هذا التفسير على المقارنة بلوحة أخرى عُثر عليها أيضاً في تونة الجبل داخل المقبرة المعروفة باسم (منزل أوديب)، والتي استمدت اسمها من المشاهد الأسطورية المصورة على جدرانها¹¹⁹.

اللوحة تنقسم إلى أربعة مشاهد رئيسة تمثل مراحل مختلفة من أسطورة أوديب.

ففي أقصى يمين اللوحة يظهر أوديب ممثلاً في هيئة شاب قوي يهجم بقتل والده «لايوس» بخنجر، وقد نُقش اسم أوديب بالحروف اليونانية فوق رأسه، بينما صُور لايوس جاثماً على الأرض رافعاً يديه في محاولة للدفاع عن نفسه، وقد كُتب اسمه أسفل ركبته اليسرى¹²⁰.

والى اليسار من هذا المشهد تظهر (أنتيغونا) في وضعية تعبر عن الخوف والفرع، حيث رفعت يديها إلى أعلى، وقد نُقش اسمها بالقرب من يدها اليمنى¹²¹.

أما في منتصف اللوحة فتظهر امرأة جالسة على صخرة تستند بيدها اليسرى، وقد كُتب بجوارها اسم «طيبة»، وإلى جوارها شاب يلتفت نحو اليسار لمتابعة حوار أوديب مع الهولة¹²²، وفي أقصى يسار اللوحة يظهر أوديب واقفاً أمام أحد أبواب مدينة طيبة السبعة في مواجهة الـ Sphinx، رافعاً يده اليمنى أمام وجهه، بينما تطرح عليه الهولة اللغز المعروف، فيجيبها أوديب إجابة صحيحة تؤدي إلى هزيمتها وانتحارها وفق الرواية الأسطورية¹²³.

وتُعد هذه المشاهد من أبرز الأمثلة على تأثر الفن الجنازي في مصر بالدراما اليونانية، وخاصة أعمال سوفوكليس التي تناولت مأساة أوديب¹²⁴. كما تعكس اللوحة اهتمام الفنان السكندري بالجانب التراجيدي والتعبيري للشخصيات، وهو ما يتفق مع السمات العامة للفن الهلينستي الذي اتسم بالحركة والانفعال والتعبير النفسي العميق¹²⁵.

وهذه اللوحة محفوظة حالياً بالمتحف المصري، ويبلغ طولها 239 سم وارتفاعها 98 سم، بينما فقدت أجزاء من المشاهد الموجودة في الجانب الأيمن نتيجة التلف وعوامل الزمن¹²⁶.

¹¹⁹ Saad, Z. Y., 1967: The Excavations at Tuna el-Gebel, Cairo University Press, Cairo, p. 47.

¹²⁰ Robertson, Martin, 1975: p. 266.

¹²¹ Bieber, Margarete, 1961: p. 151.

¹²² Pollitt, J. J., 1986: p. 254.

¹²³ Knox, Bernard, 1957: p. 44.

¹²⁴ Bieber, Margarete, 1961: p. 158.

¹²⁵ Smith, R. R. R., 1991: p. 175.

¹²⁶ Saad, Z. Y., 1967: p. 49.

ومن خلال هذه التفسيرات المختلفة، يتضح أن اللوحتين الجداريتين المكتشفتين بتونة الجبل تمثلان نموذجاً مهماً للتفاعل الحضاري والفني بين مصر والعالم الإغريقي، كما تعكسان الدور الكبير الذي لعبته الإسكندرية في نقل وتطوير الموضوعات الأسطورية داخل الفن الجنائزي الهلينستي والروماني (الصورة رقم 4) ¹²⁷.

اللوحة الثالثة:

لوحة الرسم الجدارية المحفوظة بالمتحف اليوناني الروماني - لوحة الساقية:

تُعد لوحة الساقية من أهم نماذج التصوير الجداري التي عُثِرَ عليها في مدينة الإسكندرية، لما تحمله من دلالات فنية وحضارية تعكس طبيعة الحياة الريفية في مصر خلال العصرين البطلمي والروماني ¹²⁸، وتكتسب هذه اللوحة أهمية خاصة لأنها تمثل نموذجاً نادراً لمناظر الطبيعة الريفية المصرية داخل الفن السكندري، إذ إن غالبية الرسوم الجدارية المكتشفة في الإسكندرية كانت تدور حول الموضوعات الأسطورية أو الجنائزية أو الزخارف المعمارية، بينما تقدم هذه اللوحة مشهداً واقعياً يرتبط بالحياة اليومية والعمل الزراعي ¹²⁹.

كما تكشف اللوحة عن مدى التأثير المتبادل بين الفن المصري المحلي والفن الهلينستي، حيث يظهر فيها المزج بين البيئة المصرية التقليدية والعناصر الفنية الإغريقية في التكوين والأسلوب واستخدام اللون ¹³⁰، ويعكس هذا الامتزاج طبيعة المجتمع السكندري في العصر الروماني، الذي جمع بين عناصر ثقافية ودينية متعددة داخل إطار حضاري واحد ¹³¹.

¹²⁷ Fraser, P. M., 1972: p. 358.

¹²⁸ Fraser, P. M., 1972: Ptolemaic Alexandria, Oxford University Press, Oxford, p. 362.

¹²⁹ Pollitt, J. J., 1986: Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, Cambridge, p. 271.

¹³⁰ Smith, R. R. R., 1991: Hellenistic Sculpture, Thames & Hudson, London, p. 183.

¹³¹ Walker, Susan & Higgs, Peter, 2001: Cleopatra of Egypt: From History to Myth, British Museum Press, London, p. 214.

عُثِرَ على هذه اللوحة على الجدار الخارجي لغرفة دفن بإحدى مقابر الوردان* الواقعة بالجبانة الغربية لمدينة الإسكندرية، وذلك سنة 1960م¹³²، واللوحة عبارة عن رسم جداري منفذ بأسلوب الفرسكو، يمثل منظراً من الريف المصري¹³³.

وتُعد هذه اللوحة هي المشهد الرئيس بين مجموعة من اللوحات المصورة على جدران المقبرة، وهي محفوظة حالياً بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية تحت رقم (27029)، بصالة العرض رقم 15 (الصورة رقم 5)¹³⁴.

وقد أظهرت الدراسات الأثرية أن مقابر الوردان تمثل نموذجاً مهماً للمقابر السكندرية خلال العصر الروماني، حيث امتزجت فيها التقاليد الجنائزية المصرية بالعناصر الهلنستية والرومانية، سواء في العمارة أو في الزخرفة والتصوير الجداري¹³⁵.

وصف اللوحة:

تصور اللوحة منظراً ريفياً يُعد من المناظر النادرة في الفن المصري من العصرين اليوناني والروماني، إذ تمثل ساقية يجرها ثوران، بينما يجلس صبي بجوار الساقية يعزف على آلة الناي لتشجيع الثورين على إدارة الساقية ومواصلة العمل¹³⁶، ويُعد هذا المشهد من أصدق المشاهد التي تعبر عن طبيعة الحياة الزراعية في الريف المصري، كما يعكس أهمية الزراعة والري في الاقتصاد المصري خلال تلك الفترة¹³⁷.

وتحيط بالمنظر عناصر طبيعية متعددة، حيث تظهر النباتات والأشجار حول الساقية، كما يظهر جدول ماء صغير وعدد من الطيور، بالإضافة إلى بركة مياه تنمو حولها الحشائش والنباتات البرية المختلفة، وتسبح فيها طيور البط والدجاج¹³⁸، ويكشف هذا التنوع الطبيعي عن

* تُعد منطقة مقابر الوردان (أو ما يُعرف أحياناً بـ "مقابر الوردان الجنائزية") واحدة من أهم المواقع الأثرية الكلاسيكية في غرب مدينة الإسكندرية بمصر، وتُمثل نموذجاً فريداً لامتزاج العمارة والفن الإغريقي (الهلينستي) بالتقاليد والطقس الجنائزي المصري القديم، و يعود تاريخ إنشائها إلى العصر الهلنستي (القرن الثالث والثاني قبل الميلاد)، واستمر استخدامها وتوسيعها حتى العصر الروماني، للمزيد انظر: Venit, Marjorie Susan 2002: Printed Book, The Monumental Tombs of Ancient Alexandria: The Theater of the Dead, Cambridge University Press, New York, pp. 102-124.

¹³² Adriani, Achille, 1966: Repertorio d'Arte dell'Egitto Greco-Romano, Serie C, Vol. II, Palermo, p. 41.

¹³³ Daszewski, W. A., 1985: Corpus of Mosaics from Egypt, Philipp von Zabern, Mainz, p. 103.

¹³⁴ Adriani, Achille, 1966: p. 43; Pollitt, J. J., 1986: p. 276.

¹³⁵ Empereur, Jean-Yves, 1998: Alexandria Rediscovered, British Museum Press, London, p. 156.

¹³⁶ Pollitt, J. J., 1986: p. 274.

¹³⁷ Bowman, Alan K., 1986: Egypt After the Pharaohs, University of California Press, Berkeley, p. 118.

¹³⁸ Daszewski, W. A., 1985: p. 108.

اهتمام الفنان بتصوير البيئة الريفية المصرية بصورة واقعية، مع إبراز مظاهر الخصوبة والوفرة المرتبطة بالنيل والزراعة¹³⁹.

كما تميز الفنان بعناية واضحة في تصوير الحيوانات والطيور، وهي سمة شائعة في الفن السكندري الذي تأثر كثيراً بمظاهر الطبيعة والحياة اليومية¹⁴⁰، ويلاحظ أيضاً أن العناصر الطبيعية لم تُستخدم بوصفها خلفية زخرفية فقط، بل جاءت جزءاً أساسياً من التكوين الفني العام للوحة¹⁴¹.

تأريخ اللوحة والخلاف حولها:

أثارت هذه اللوحة جدلاً واسعاً بين الباحثين حول تاريخها الحقيقي، إذ يرى بعض الدارسين أنها ترجع في أصلها إلى العصر الهلنستي، وأنها ترتبط باللوحة القليلة الباقية من التصوير السكندري الهلنستي¹⁴²، بينما يرى آخرون أن بعض عناصرها، خاصة الساقية وزوج الثيران، قد أضيفت في فترة متأخرة تعود إلى القرن الثالث الميلادي¹⁴³.

وقد استند أصحاب هذا الرأي إلى الطراز المعماري للمقبرة، إضافة إلى وجود بعض الرموز المسيحية داخل اللوحة، مثل الهالة التي تحيط برأس الطفل، وكذلك منظر «الراعي الصالح» الذي يحمل شاة فوق كتفيه، وهو من الموضوعات الشائعة في الفن المسيحي المبكر¹⁴⁴.

كما يوجد إلى جوار هذا المشهد نتوء معماري صُور عليه هيكل للمؤله بان Pan، إله الحقول والمراعي والقطعان في الميثولوجيا اليونانية، وتحيط بالهيكل حديقة يتقدمها باب¹⁴⁵، ويُعد ظهور الإله بان داخل مشهد ريفي دليلاً على استمرار التأثيرات الوثنية الهلنستية داخل الفن السكندري حتى الفترات المتأخرة¹⁴⁶.

¹³⁹ Fraser, P. M., 1972: p. 365.

¹⁴⁰ Smith, R. R. R., 1991: p. 186.

¹⁴¹ Pollitt, J. J., 1986: p. 276.

¹⁴² Adriani, Achille, 1966: p. 47.

¹⁴³ Walker, Susan & Higgs, Peter, 2001: p. 221.

¹⁴⁴ Grabar, André, 1968: Christian Iconography, Princeton University Press, Princeton, p. 72.

¹⁴⁵ LIMC, Vol. VIII, 1997: Lexicon Iconographicum Mythologiae Classicae, Artemis Verlag, Zurich, p. 923.

¹⁴⁶ Pollitt, J. J., 1986: p. 279.

ويرى بعض الباحثين أن اجتماع الرموز الوثنية والمسيحية داخل اللوحة يعكس المرحلة الانتقالية التي شهدتها المجتمع السكندري خلال القرون الميلادية الأولى، حيث استمرت بعض التقاليد الفنية والدينية القديمة بالتوازي مع انتشار المسيحية¹⁴⁷.

التحليل الفني والدلالات الرمزية:

تمثل اللوحة بصورة عامة ثلاثة أنماط مختلفة من المناظر الطبيعية الريفية، كما تعبر عن العلاقة الوثيقة بين الإنسان والطبيعة في الفكر السكندري خلال العصر الروماني¹⁴⁸.

فمشهد الساقية يعكس قدرة الإنسان على تسخير الطبيعة لخدمة الزراعة والري، وهو رمز للاستقرار والحياة والإنتاج الزراعي¹⁴⁹، أما هيكل الإله «بان» فيمثل القوى البرية والطبيعة الجامحة التي كان الإنسان يسعى إلى استرضائها من خلال العبادة والطقوس الدينية¹⁵⁰، في حين يجسد مشهد الراعي ورعيته الجانب الرعوي من الحياة الريفية، وما يرتبط به من هدوء وبساطة واتصال مباشر بالطبيعة¹⁵¹.

وتكشف هذه الموضوعات عن نظرة فلسفية للطبيعة بوصفها مصدراً للحياة والخصوبة، وفي الوقت نفسه قوة غامضة ينبغي احترامها والخضوع لقدرتها¹⁵²، كما تعكس تأثر الفن السكندري بالأدب الرعوي الهلينستي، خاصة الأشعار التي تناولت حياة الرعاة والطبيعة الريفية، مثل أشعار ثيوكريتوس¹⁵³ Theocritus.

التكوين الفني والألوان:

يُعد مشهد الساقية العنصر الأكبر داخل التكوين الفني للوحة، إذ يشغل مساحة واسعة تتضح بصورة خاصة في حجم الثورين والعجلة الدوارة¹⁵⁴، وقد حرص الفنان على إبراز الحركة داخل المشهد من خلال وضعية الثيران واتجاه دوران الساقية، مما أضفى على اللوحة حيوية واضحة¹⁵⁵.

¹⁴⁷ Grabar, André, 1968: p. 75.

¹⁴⁸ Fraser, P. M., 1972: p. 371.

¹⁴⁹ Bowman, Alan K., 1986: p. 122.

¹⁵⁰ LIMC, Vol. VIII, 1997: p. 927.

¹⁵¹ Pollitt, J. J., 1986: p. 281.

¹⁵² Smith, R. R. R., 1991: p. 189.

¹⁵³ Hunter, Richard, 1999: Theocritus: A Selection, Cambridge University Press, Cambridge, p. 54.

¹⁵⁴ Adriani, Achille, 1966: p. 51.

¹⁵⁵ Pollitt, J. J., 1986: p. 284.

أما الألوان المستخدمة فقد طُبِّقت مباشرة فوق الجص الرطب وفق تقنية الفرسكو، واستخدم الفنان مجموعة متنوعة من الألوان، من بينها الأزرق والأخضر والأحمر والأصفر والبنفسجي، وإن كانت هذه الألوان قد بهتت بمرور الزمن¹⁵⁶.

ويلاحظ أن الفنان استخدم اللون الأزرق للتعبير عن الماء والخلفيات الطبيعية، بينما استخدم الأخضر للنباتات والحشائش، في حين ظهرت درجات الأحمر والأصفر في بعض العناصر المعمارية والحيوانية¹⁵⁷، ويعكس هذا التنوع اللوني التأثير بأساليب التصوير الهلينستي التي اهتمت بإظهار الطبيعة والضوء والجو العام للمشهد¹⁵⁸.

كما تتسم اللوحة بنزعة طبيعية واضحة، إذ حاول الفنان تصوير الكائنات والعناصر البيئية بصورة أقرب إلى الواقع مقارنة بالفنون المصرية التقليدية التي اتسمت بالطابع الرمزي والالتزام بالقواعد الثابتة¹⁵⁹.

الأهمية الفنية والحضارية للوحة:

تُعد لوحة الساقية من أهم الشواهد الفنية على تطور فن التصوير الجداري في الإسكندرية خلال العصر الروماني، كما تمثل دليلاً واضحاً على استمرار التقاليد الهلينستية داخل الفن السكندري حتى القرون الميلادية الأولى¹⁶⁰.

وتكشف اللوحة عن طبيعة المجتمع السكندري بوصفه مجتمعاً متعدد الثقافات، امتزجت فيه العناصر المصرية والإغريقية والرومانية والبيزنطية في إطار فني واحد¹⁶¹، كما تعكس مدى اهتمام الفنان السكندري بتصوير الحياة اليومية والطبيعة الريفية، وهو اتجاه فني ازداد انتشاراً في العصر الهلينستي نتيجة الاهتمام بالإنسان والبيئة المحيطة به¹⁶².

¹⁵⁶ Daszewski, W. A., 1985: p. 112.

¹⁵⁷ Smith, R. R. R., 1991: p. 191.

¹⁵⁸ Robertson, Martin, 1975: A History of Greek Art, Cambridge University Press, Cambridge, p. 289.

¹⁵⁹ Pollitt, J. J., 1986: p. 286.

¹⁶⁰ Empereur, Jean-Yves, 1998: p. 163.

¹⁶¹ Walker, Susan & Higgs, Peter, 2001: p. 227.

¹⁶² Fraser, P. M., 1972: p. 376.

ومن الناحية الحضارية، توضح اللوحة أهمية الزراعة والري في الحياة الاقتصادية المصرية، كما تكشف عن استمرار بعض المعتقدات الدينية المرتبطة بالطبيعة والخصوبة حتى الفترات المتأخرة من العصر الروماني¹⁶³.

الخاتمة والاستنتاجات:

- تجسد لوحات التصوير الجداري المكتشفة في "تونة الجبل" والإسكندرية الأهمية البالغة لهذا الفن خلال العصرين البطلمي والروماني؛ باعتباره وسيطاً عكس طبيعة التفاعل الحضاري بين المصريين والإغريق، وقد كشفت هذه اللوحات عن تطور ملحوظ في الأساليب والموضوعات، وأظهرت مدى التأثير المتبادل للفن الإغريقي البطلمي، بما عرف بالفن الهلنستي مع الاحتفاظ بخصائصه المصرية التقليدية.
- وتدل الموضوعات المصورة على أن الأساطير اليونانية أصبحت عنصراً رئيساً في زخرفة المقابر، بفعل دور الإسكندرية كمركز ثقافي أسهم في نقل التراث الإغريقي ودمجه بالعناصر المصرية؛ مما حول المقابر إلى فضاءات فنية تحمل مضامين فلسفية عن الموت والعالم الآخر. ولم يقتصر دور الفنان السكندري على المحاكاة، بل أعاد صياغة الأساطير برؤية درامية مستمدة من التقاليد المسرحية، مما أضفى حيوية وواقعية في التعبير عن الحركة والانفعالات الإنسانية، بعيداً عن الطابع الرسمي الجامد للفنون السابقة.
- وفي المقابل، حافظ الفن المصري على هويته؛ إذ استمرت الرموز والمعتقدات الجنائزية المصرية واضحة، ليصبح الفن نتاجاً لتفاعل بين تقاليد متعددة، كما تعكس اللوحات اهتماماً بالنزعة الطبيعية الهلنستية وتصوير الحياة اليومية، وهو ما يتجلى في "لوحة الساقية" التي صورت البيئة الريفية المصرية بواقعية وتحرر من القيود التقليدية.
- وتكشف هذه الأعمال عن مستوى تقني متقدم في استخدام الألوان وتقنية "الفرسكو" وإظهار العمق الفراغي، كما تُعد سجلاً بصرياً للتحويلات الفكرية والاجتماعية؛ حيث جمعت بين الأساطير اليونانية والرموز المصرية، وحتى بؤادر الرموز المسيحية، مما يعكس تعددية المجتمع السكندري.

¹⁶³ Bowman, Alan K., 1986: p. 126.

- ختاماً، لعبت الإسكندرية دوراً محورياً في ظهور مدرسة فنية مزجت بين الواقعية الإغريقية والرمزية المصرية، تركت أثراً باقياً في فنون حوض البحر المتوسط، وبناءً عليه، تُعد جداريات "تونة الجبل" و"الساقية" وثائق حضارية تكشف عن عمق التفاعل المصري الإغريقي وتطور الفكر الفني في واحدة من أكثر مراحل تاريخ مصر ثراءً وتعقيداً.

قائمة المراجع

أولاً: المصادر:

- Homer. The Odyssey. trans. A. T. Murray, 1919: Harvard University Press, Cambridge.
- Pliny the Elder. The Natural History. trans. John Bostock and H. T. Riley, 1855: Henry G. Bohn, London.
- Quintilian. The Institutes of Oratory. trans. John Selby Watson, 1856: Henry G. Bohn, London.
- Vitruvius, Pollio. The Ten Books on Architecture. trans. Morris Hicky Morgan, 1914: Harvard University Press, Cambridge.

ثانياً: المراجع العربية:

- بيك، وليم هـ، 1997: فن الرسم عند قدماء المصريين، ت: مختار السويفي، سلسلة الثقافة الأثرية (8)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- سعيد محمود، عزيزة 2003: التصوير والزخارف الجصية البارزة والموزايكو في الفن الروماني، الحضري للطباعة، الاسكندرية.
- سيريل ألدريد، ت: أحمد زهير، الفن المصري القديم، سلسلة الثقافة الأثرية .
- شاهين، بهية، 1993: النحت الهلينستي، مكتب اللورد للتوزيع والكمبيوتر، القاهرة.
- صالح، عبد العزيز 1970: الفن المصري القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- عبدالفتاح، أحمد، 2002: لمحة عن مدرسة فن الإسكندرية، مطبعة المجلس الأعلى للآثار، الإسكندرية.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- Adriani, Achille, 1966 :*Repertorio d'Arte dell'Egitto Greco-Romano* ,Serie C, Vol. II, Palermo.
- Aldred, Cyril, 1980 :*Egyptian Art* ,Thames & Hudson, London.
- Bieber, Margarete, 1961 :*The History of the Greek and Roman Theater* ,Princeton University Press, Princeton.
- Boardman, John, 1998 :*Early Greek Art* ,Thames & Hudson, London.
- Bowman, Alan K., 1986 :*Egypt After the Pharaohs* ,University of California Press, Berkeley.

- Breasted, James H., 1930 :*The Dawn of Conscience* ,Charles Scribner's Sons, New York.
- Clark, Grahame, 1977 :*World Prehistory* ,Cambridge University Press, Cambridge.
- Daszewski, W. A., 1985 :*Corpus of Mosaics from Egypt* ,Philipp von Zabern, Mainz.
- Empereur, Jean-Yves, 1998 :*Alexandria Rediscovered* ,British Museum Press, London.
- Frankfort, Henri, 1958 :*The Birth of Civilization in the Near East* ,Indiana University Press, Bloomington.
- _____, 1970 :*The Art and Architecture of the Ancient Orient* ,Yale University Press, New Haven.
- Fraser, P. M., 1972 :*Ptolemaic Alexandria* ,Oxford University Press, Oxford.
- Garland, Robert, 2001 :*The Greek Way of Death* ,Cornell University Press, Ithaca.
- Gombrich, Ernst, 1995 :*The Story of Art* ,Phaidon Press, London.
- Grabar, André, 1968 :*Christian Iconography* ,Princeton University Press, Princeton.
- Honour, Hugh & Fleming, John, 2009 :*A World History of Art* ,Laurence King Publishing, London.
- Hunter, Richard, 1996 :*Theocritus and the Archaeology of Greek Poetry* ,Cambridge University Press, Cambridge.
- Hunter, Richard, 1999 :*Theocritus: A Selection* ,Cambridge University Press, Cambridge.
- Hurwit, Jeffrey M., 1985 :*The Art and Culture of Early Greece* ,Cornell University Press, Ithaca.
- Kleiner, Fred S., 2016 :*Gardner's Art Through the Ages* ,Cengage Learning, Boston.
- Knox, Bernard, 1957 :*Oedipus at Thebes* ,Yale University Press, New Haven.
- LIMC, Vol. I, 1981 :*Lexicon Iconographicum Mythologiae Classicae* ,Artemis Verlag, Zurich.
- _____, Vol. VI, 1992 :*Lexicon Iconographicum Mythologiae Classicae* ,Artemis Verlag, Zurich.
- _____, Vol. VIII, 1997 :*Lexicon Iconographicum Mythologiae Classicae* ,Artemis Verlag, Zurich.
- Mayer, Ralph, 1991 :*The Artist's Handbook of Materials and Techniques* ,Viking Press, New York.
- Pollitt, J. J., 1986 :*Art in the Hellenistic Age* ,Cambridge University Press, Cambridge.
- Robertson, Martin, 1975 :*A History of Greek Art* ,Cambridge University Press, Cambridge.
- Robins, Gay, 1997 :*The Art of Ancient Egypt* ,Harvard University Press, Cambridge.
- _____, 2008 :*The Art of Ancient Egypt* ,Harvard University Press, Cambridge.
- Saad, Z. Y., 1967 :*The Excavations at Tuna el-Gebel* ,Cairo University Press, Cairo.
- Schäfer, Heinrich, 1974 :*Principles of Egyptian Art* ,Oxford University Press, London.
- Smith, R. R. R., 1991 :*Hellenistic Sculpture* ,Thames & Hudson, London.
- Stewart, Andrew, 1993 :*Faces of Power: Alexander's Image and Hellenistic Politics* , University of California Press, Berkeley.
- Tarn, W.W., 1952 :*Hellenistic Civilisation* 3rd ed, Edward Arnold, London.
- Venit, Marjorie Susan, 2002 :*The Monumental Tombs of Ancient Alexandria: The Theater of the Dead* ,Cambridge University Press, New York.
- Vermeule, Emily, 1979 :*Aspects of Death in Early Greek Art and Poetry* ,University of California.
- Walker, Susan & Higgs, Peter, 2001 :*Cleopatra of Egypt: From History to Myth* ,British Museum Press, London.

- Wilkinson, Richard H., 1999 :*The Complete Temples of Ancient Egypt* ,Thames & Hudson, London.
- Wilkinson, Richard H., 2000 :*The Complete Temples of Ancient Egypt* ,Thames & Hudson, London.
- Woldering, Irmgard, 1963 :*Egypt: The Art of the Pharaohs* ,Methuen, London.



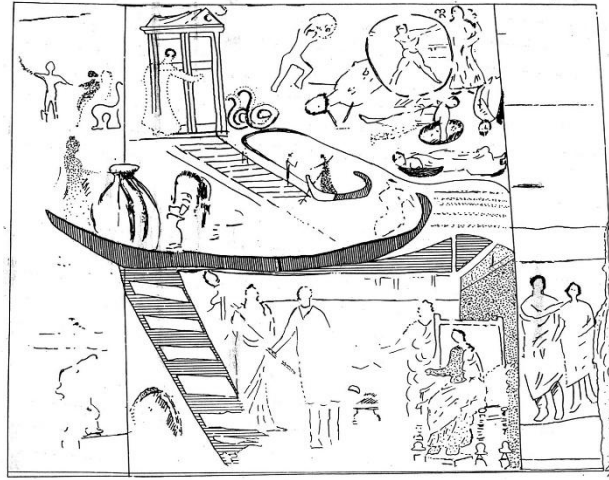
(الصورة رقم 1)

تصوير الباحثة



(الصورة رقم 2)

تصوير الباحثة



(الصورة رقم 3)

نقلًا عن: Venit, Marjorie Susan, 2002: Fig 12.



(الصورة رقم 4)

نقلًا عن: Venit, Marjorie Susan, 2002: Fig 10.



(الصورة رقم 5)

نقلًا عن: Saad, Z. Y., 1967: Fig. 24.

بحث بعنوان :

تقييم المخاطر البيئية والبشرية واستراتيجيات الصون المستدام : دراسة تحليلية

لمسرح ابولونيا الأثري في مدينة سوسة - ليبيا .

Environmental and Human Risk Assessment and Sustainable Conservation
Strategies: An Analytical Study of the Archaeological Theatre of Apollonia
in Susa, Libya

إعداد :

أ.العبد محمد العبد بوهيسه

Mr. Al-Abd Mohammed Al-Abd Bouheisa

محاضر مساعد بقسم الآثار بكلية السياحة والآثار/جامعة عمر المختار

Alabed19972228@gmail.com

المدقق اللغوي: الناجي عبدالعاطي حميد - التعليم

المخلص (Abstract)

تهدف هذه الدراسة إلى تقييم الحالة الراهنة لمسرح أبولونيا (سوسة) الأثري، وتحليل أهم المخاطر الطبيعية والبشرية التي تهدد سلامته البنيوية وقيمته التراثية. اعتمد البحث على منهج وصفي تحليلي، من خلال المعاينة الميدانية المباشرة، وتتبع التطور التاريخي للموقع، ومراجعة التقارير الأثرية، مع الاستناد إلى مبادئ الصون الدولي. وتوصلت الدراسة إلى أن المسرح يعاني من تدهور بنيوي متسارع ناتج عن تفاعل مركب بين عوامل التعرية الساحلية والتأثيرات المناخية (الرطوبة، الأمطار، الأملاح) والغطاء النباتي الكثيف، إلى جانب الممارسات البشرية السلبية مثل إلقاء النفايات، والتخريب، وإشعال النيران، وضعف الصيانة الدورية. وأظهر تحليل الصور الجوية المقارنة تقدماً ملحوظاً لخط الساحل نحو الموقع. وتوصي الدراسة بتبني خطة صون متكاملة تركز على ثلاثة محاور رئيسية: المعالجة البيئية والترميم العلمي العاجل، وتعزيز الإدارة القانونية والرقابية، وإطلاق برامج توعية مجتمعية مستدامة، لضمان حماية هذا الإرث المعماري الفريد ونقله للأجيال القادمة. الكلمات المفتاحية: أبولونيا، سوسة، المسرح الروماني، التدهور الأثري، المخاطر الساحلية، صون التراث، الإدارة الثقافية.

Summary

This study aims to assess the current condition of the Apollonia (Susa) archaeological theater and to analyze the main natural and human-induced risks threatening its structural integrity and heritage value. The research adopts a descriptive-analytical approach, based on direct field observations, historical development tracking of the site, review of archaeological reports, and adherence to international conservation principles. The study found that the theater is experiencing accelerated structural deterioration resulting from a complex interaction of coastal erosion, climatic influences (humidity, rainfall, and salts), dense vegetation cover, as well as negative human practices such as waste disposal, vandalism, fire hazards, and inadequate routine maintenance. Comparative analysis of aerial photographs revealed a significant advance of the coastline towards the site. The study recommends adopting an integrated conservation plan focused on three main axes: environmental management and urgent scientific restoration, strengthening legal and supervisory measures, and implementing sustainable community awareness programs, to ensure the protection of this unique architectural heritage and its transmission to future generations.

Keywords:

Apollonia, Susa, Roman theater, archaeological deterioration, coastal hazards, heritage conservation, cultural management.

المقدمة

تُعَدُّ مدينة أبولونيا (سوسة الحالية) إحدى أبرز المدن الأثرية في الإقليم القورينائي، وشاهدة على تعاقب الحضارات اليونانية والرومانية والبيزنطية على أرض شمال إفريقيا (شاهين، د.ت، ص 15). وقد ارتبطت نشأتها بمدينة كيريني (قورينا) الأم، حيث شكلت ميناءها الرئيسي ونافذتها على عالم البحر المتوسط منذ القرن السابع قبل الميلاد (زكي، 1924، ص 59). ومن بين معالمها البارزة، يبرز مسرح أبولونيا كتحفة معمارية تعكس التطور الفني والاجتماعي لتلك العصور (عامر، 1995، ص 88). غير أن هذا المسرح، كغيره من الشواهد الأثرية المكشوفة، يواجه في الوقت الراهن تحديات وجودية ناجمة عن تداخل عوامل التلف الطبيعية مع الضغوط البشرية المتزايدة (الفخراي، 1989، ص 102). ومن هنا تتبع أهمية هذه الدراسة، التي تسعى إلى تشخيص دقيق للحالة الراهنة للمسرح، وتحليل مصادر الخطر التي تهدده، واقتراح رؤية عملية لصونه واستدامته، انطلاقاً من معاينة ميدانية ومقاربة علمية تركز على معايير الصون الدولية (Jokilehto 1999,p45).

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل الوضع الراهن لمسرح أبولونيا من الناحية المعمارية والإنشائية، وتحديد العناصر المتضررة مثل المدرجات والأوركسترا ومنصة التمثيل، بالإضافة إلى دراسة العوامل الطبيعية والبشرية المؤثرة على الموروث الثقافي، بما يشمل الأمطار، الرياح، المد والجزر، النباتات، القمامة، الكتابات التخريبية وإشعال النيران، كما تهدف إلى تقييم المخاطر التي تهدد استدامة المسرح واقتراح حلول وتوصيات علمية تتعلق بالترميم، إدارة المياه، بناء كواسر أمواج، المراقبة والتوعية المجتمعية، مع المساهمة في إثراء المعرفة العلمية بالموروث الثقافي المحلي وتوفير مرجع أكاديمي موثق لدعم الجهات المسؤولة عن حماية المواقع الأثرية وضمان استدامتها للأجيال القادمة .

أهمية الدراسة :

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من الدور الحيوي الذي يلعبه مسرح أبولونيا في فهم التاريخ المعماري والفني للمدن الإغريقية والرومانية في الإقليم القورينائي، حيث يمثل شاهداً على التطور العمراني والفني منذ العهد الهلنستي وحتى الفترة البيزنطية¹. كما تكمن أهميتها في تقييم المخاطر الطبيعية والبشرية التي تهدد استدامة الموقع، ما يسهم في وضع استراتيجيات علمية لحمايته وترميمه، ويعزز من الوعي المجتمعي بأهمية الحفاظ على الموروث الثقافي إضافة إلى ذلك، توفر الدراسة مرجعاً أكاديمياً موثقاً للجهات المسؤولة عن حماية المواقع الأثرية، مما يسهم في اتخاذ قرارات علمية واستدامة عملية الصيانة والتطوير للمسرح ولغيره من المواقع .

الإشكالية :

تعد الثروة الأثرية في ليبيا إرثاً حضارياً وتاريخياً يواجه في الآونة الأخيرة تحديات جسيمة، ناتجة عن تضافر مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية التي تسببت في تسارع وتيرة التدهور المعماري وطمس المعالم التاريخية لكثير من المواقع. إن هذا الواقع يفرض على المؤسسات الأكاديمية وجهات الاختصاص مسؤولية وطنية وعلمية تتمثل في ضرورة صياغة استراتيجيات متطورة لإدارة هذه المواقع، تهدف إلى صيانتها وحمايتها من جهة، وتعزيز قيمتها التاريخية والبحثية والاقتصادية كرافد للتنمية السياحية من جهة أخرى. ويؤكد البحث أن الحماية الناجعة لا تتحقق إلا باتباع منهجية علمية صارمة تبدأ من التوثيق وتنتهي بوضع برامج الحماية المتكاملة.

منهجية الدراسة

أعتمدت الدراسة على مقارنة منهجية متكاملة تجمع بين:

1. المنهج التاريخي:

لرصد التطور العمراني للمسرح عبر المراحل الهلنستية والرومانية والبيزنطية، من خلال تحليل المصادر الكلاسيكية (مثل سترابو وهيرودوت) والأبحاث الأثرية الحديثة (Goodchild, 1968, p265).

2. المنهج الميداني (المعاينة):

حيث تمت زيارة موقع المسرح في نوفمبر 2023، وشمل العمل التوثيق الفوتوغرافي الشامل، ورصد جميع مظاهر التدهور والتلف، وتسجيل الملاحظات حول المؤثرات البيئية المحيطة والنشاط البشري في الموقع (المعاينة الميدانية، 2023).

3. المنهج التحليلي:

لتحويل البيانات المجمعة إلى تقييم كمي ونوعي للمخاطر، وذلك من خلال تحليل الصور الجوية التاريخية والحالية لمقارنة التغير الساحلي، وتصنيف عوامل التدهور حسب درجة خطورتها، واقتراح حلول عملية مستمدة من أدبيات الصون العالمية (Feilden, 1990; ICOMOS, 2003).

الخلفية الجغرافية والتاريخية لموقع :

أولا - الموقع الجغرافي :

جغرافياً، تقع مدينة أبولونيا (مدينة سوسة حالياً) ضمن سهل ساحلي محدود الاتساع، يمتد طويلاً نحو 35 كم، بينما يتذبذب عرضه ما بين 0.5 كم و 2 كم. ويتشابه هذا التكوين الطبوغرافي من حيث الضيق والخصائص الفيزيائية مع السهول الساحلية الموجودة في شمال جزيرة كريت (عبد ربه مفتاح، 2014).

1- الخصائص الجغرافية والطبوغرافية للموقع

تتبع مدينة أبولونيا (Apollonia) موقعاً استراتيجياً في إقليم كيريناية، حيث تمتد على شريط ساحلي ضيق ينحصر بين مياه البحر المتوسط شمالاً وسفوح الجبل الأخضر جنوباً. وترتفع المنطقة المحيطة بها لتصل إلى نحو 800م فوق مستوى سطح البحر، مما يجعلها من أبرز الملامح الجغرافية الممتدة من الدلتا المصرية شرقاً (ريتشارد جود تشايلد، جون بيدلي، ودونالد وايت، 1976).

ويتميز المرتفع الجبلي في هذه المنطقة بانحدار تدريجي نحو الشرق والجنوب، بينما يتخذ طابعاً عمودياً حاداً في الجهة الشمالية، وفي الناحية الغربية تبرز هوتان سحيقتان تشكلان فاصلاً طبيعياً وعراً بين مدينة كيريني ومينائها (أبولونيا)؛ وهو ما دفع الإغريق قديماً لشق طريق صخري يربط

بين المدينتين، استكمل الرومان لاحقاً بتثبيت الأحجار الميالية لضبط القياسات المسافية بدقة (ريتشارد جود تشايلد وآخرون، 1976).

2 - تحديد الموقع في المصادر الكلاسيكية والقياسات الحديثة

حظي موقع أبولونيا باهتمام واسع لدى الجغرافيين والكتاب القدامى؛ فقد أشار المؤرخ والجغرافي سترابون* (Strabo) إلى أن المدينة تقع على مسافة تقدر بثمانين ستاديوم (Stadion) عن مدينة (كيريني) مدينة شحات حالياً ، وهي مسافة تعادل تقريباً 15 كيلومتراً (سترابون ، 2003 ، ص 13 ومابعداها). وتتوسط أبولونيا المسافة بين نقطتين أثريتين هامتين على الساحل؛ حيث يحدها شرقاً موقع ميناء "ناوستثموس" (Naustathmos) رأس الهلال حالياً ، على بعد حوالي 20 كم، بينما يحدها من جهة الغرب موقع ميناء فيكوس (Phycos) زاوية الحمامة حالياً- بمسافة تقدر بنحو 25 كم (محمد إبراهيم محمد، 2013).

أما في العصر الروماني، فقد حدد الجغرافي كلاوديوس بطليموس (Claudius Ptolemais) إحداثيات الموقع بين خطي طول 10- 50 شرقاً وخط عرض 40-31 شمالاً (كلاودس بطليموس ، 2004 ، ص ص 100-170). وبالإسقاط على القياسات العلمية الحديثة باستخدام تقنيات الرصد الجغرافي المتطورة، فإن الموقع الفلكي الدقيق لمدينة أبولونيا يتحدد عند الإحداثيات التالية: (E) (5446'21N32'5408) (محمد إبراهيم محمد، 2013) الشكل رقم (1).

ثانيا - خلفية تاريخية لمدينة أبولونيا :

1. النشأة والدوافع الاستراتيجية:

تشير المعطيات التاريخية إلى أن تأسيس مدينة أبولونيا (Apollonia) جاء استجابةً لضرورة جيوسياسية واقتصادية ملحة أعقبت تأسيس مدينة قورينا (Kyrene) عام 631 ق.م. فنظراً لموقع قورينا الداخلي وبعدها عن الساحل بنحو 15 كم، برزت الحاجة الماسة لإنشاء منفذ بحري يربطها بالعالم الخارجي عبر حوض البحر المتوسط. وقد وقع الاختيار على موقع أبولونيا ليكون المحطة الرئيسة لحركة الاستيراد والتصدير والتبادل التجاري، لخدمة مدينة كيريني بين عامي 620-600 ق.م تقريباً (Montet, 1956, p. 123). حيث عُرفت في بداياتها الأولى بوصفها ميناءً لمدينة قورينا

(\epsilon\delta\ \nu\eta\mu\iota\Lambda\lambda\delta\)

(عبد السلام محمد شقوف، 1984). ولم يقتصر دورها على النشاط التجاري، بل تطورت لتصبح مدينة مستقلة ومركزاً حضارياً مهماً، خاصة في العصرين الروماني والبيزنطي، حيث شهدت تشييد العديد من المنشآت العامة والفخمة (Stucchi, 1975, p45)

2. إشكالية التوثيق التاريخي المبكر:

لا يزال الغموض يكتنف بدايات الاستيطان البشري في ميناء قورينا خلال مراحله الأولى؛ إذ تفتقر الدراسات الحالية إلى معلومات دقيقة حول تلك الفترة. وبالرغم من توالي الحفريات الأثرية على المدينة ومينائها منذ الربع الأول من القرن الماضي، إلا أنها لم تسفر إلا عن إشارات بسيطة لا تكفي لرسم صورة متكاملة حول التخطيط العمراني وتاريخ الإنشاء بدقة، كما لم يُكشف حتى الآن عن أي نقش كتابي يفصل في مسألة الاستيطان المبكر للمدينة (محمد إبراهيم محمد، 2013). وعلى الرغم من الأهمية التاريخية الكبرى للكتاب الرابع للمؤرخ هيرودوت (Herodotus) بوصفه المصدر الرئيس لتلك الحقبة، إلا أنه لم يتطرق في منتهى تفاصيل تأسيس ميناء أبولونيا بشكل صريح (محمد إبراهيم محمد، 2013).

3. الأدلة الأثرية وتاريخ الموقع:

في ظل غياب المصادر الأدبية الكلاسيكية التي تؤرخ لبداية تأسيس الميناء، أصبحت المكتشفات الأثرية هي المصدر الوحيد والأساس لاستنباط تاريخ الاستيطان المبكر. وباعتماد على نتائج الحفريات التي أجراها الباحث بيتر مونتيه (P. Montie) خلال الأعوام (1954-1956م)، تم العثور على مجموعات من اللقى الفخارية التي تعود إلى العصر الإغريقي المبكر. وتُعد هذه اللقى من أقدم النماذج الفخارية المكتشفة في قلب الموقع الأثري، وهي تشير بوضوح إلى أن النواة الأولى للمدينة قد وُضعت مع أواخر القرن السابع أو مطلع القرن السادس قبل الميلاد، وتحديدًا في الفترة الواقعة ما بين (620-600 ق.م)، وإن كان من الصعب تحديد سنة التأسيس بعينها (محمد إبراهيم محمد، 2013).

مسرح أبولونيا:

التحليل المعماري والتطور التاريخي

1. التخطيط والخصائص المعمارية:

يقع المسرح في القطاع الشرقي من المدينة، خارج نطاق الأسوار الهلنستية (Goodchild, 1968, p. 265). وهو مسرح نصف دائري (Cavea) من النوع الإغريقي-الروماني، يتميز بأن نصفه الغربي منحوت في الصخر الطبيعي، بينما شُيد النصف الشرقي من كتل حجرية مقطوعة (Bacchielli, 1987, p48). يتسع المسرح لحوالي 30 صفاً من المقاعد الحجرية، مقسمة إلى 6 أقسام (Cunei) بممرات شعاعية (زين، 1982، ص 144). وتقع أسفل المدرجات الأوركسترا الدائرية (Orchestra)، ومن خلفها منصة التمثيل (Scaenae Frons) التي كانت مزينة بواجهة معمارية تضم أعمدة من الطراز الدوري (Kraeling, 1962, p100).

2. المراحل الإنشائية والتعديلات:

أ. المرحلة الهلنستية (القرن 3-2 ق.م): تم فيها تشييد الهيكل الأساسي للمسرح، مع استغلال التل الصخري في نحت جزء منه (Perkins, 1976, p-Ward330).

ب. المرحلة الرومانية (القرن 1-2 م): شهدت تعديلات كبيرة، منها إعادة بناء واجهة منصة التمثيل وترتيبها، وتعديل بعض معالم الأوركسترا، وتقوية البناء ليتواءم مع الأذواق والاحتياجات الرومانية (Perkins, 1976, p-Ward331).

ج. المرحلة البيزنطية (القرن 4-7 م): تشير الأدلة إلى توقف استخدام المسرح للأغراض الترفيهية وتحوله ربما إلى موقع دفاعي أو سكني، حيث أعيد استخدام أحجاره في منشآت أخرى مجاورة، وقد يكون زلزال 365 م قد ساهم في تضرره (Perkins, 1976, p-Ward333).

3. الاكتشاف والبحث الأثري:

تعود أولى الإشارات الحديثة للمسرح إلى رحالة القرن التاسع عشر مثل ديلاشيلا (hella, Delas, 1819, p. 89) والأخوان بيشي (Beechey & Beechey, 1828, p156). وبدأت الحفريات المنظمة على يد مصلحة الآثار الليبية (1961-1963)، ثم بعثة جامعة ميتشيغان الأمريكية (1965-1967) التي كشفت عن معظم معالمه (Humphrey 1970).

تحليل المخاطر والعوامل المؤثرة في التدهور

1. المخاطر الطبيعية:

أ. العوامل الميكانيكية والمناخية:

تعمل الرياح المحملة بالرمال والملح على تآكل السطوح الحجرية (Ashurst & Ashurst, 1988, p. 22). وتساهم الأمطار الغزيرة والسيول في انجراف التربة من حول الأساسات وتكوين تجاويف تحتية (Ashurst & Ashurst, 1988, p45). الشكل رقم (2) .
كما أن موقع المسرح القريب من الشاطئ يعرضه لتأثير الأمواج والمد والجزر، حيث أظهرت مقارنة الصور الجوية تقدماً ملحوظاً لخط الساحل نحو الموقع . الشكل رقم (3) (أ) (ب) . (المسح الميداني).

ب. العوامل الكيميائية:

تُعد دورات التبلور والذوبان للأملاح داخل مسام الحجر الجيري من أخطر العوامل، حيث تؤدي إلى تقشر السطح وتفتته (Ashurst & Ashurst, 1988, p78). وتلعب الرطوبة الجوية العالية دوراً محورياً في تفعيل هذه التفاعلات الكيميائية وتسريعها (Ashurst & Ashurst, 1988, p92).

ج. العوامل البيولوجية:

يؤدي نمو الأعشاب والحشائش في فواصل المدرجات إلى إضعاف تماسك المونة، كما تحتفظ جذور النباتات بالرطوبة وتعمل على توسيع الشقوق . الشكل رقم (4) (أ) (ب) (ج) (UNESCO, 2013p61). وتشكل فضلات الطيور والحيوانات مصدراً لأحماض عضوية تضر بالسطح الحجري (UNESCO, 2013, p63) .

2. المخاطر البشرية :

أ. التخريب والتلف المتعمد:

يشمل ذلك الكتابة والرسم على الجدران والمقاعد . الشكل رقم (5) (أ) (ب) . وإشعال النيران داخل الموقع مما يسبب صدمة حرارية للحجر وتغيراً في لونه وخواصه . الشكل رقم (6) . (Feilden, 2003, p. 112). الشكل رقم (6)

ب. الإهمال وسوء الإدارة:

يتجلى في إلقاء القمامة والنفايات والقسارة داخل الموقع، مما يشوه منظره ويخلق بيئة ملائمة للحشرات والحيوانات القارضة (UNESCO, 2013, p71). الشكل رقم (7) (أ) (ب).

ج. غياب الصيانة الوقائية:

يعتبر من أخطر العوامل، حيث أن عدم وجود برنامج دوري للتنظيف والفحص والتدخلات البسيطة يسمح للمشاكل الصغيرة بالتطور إلى أضرار هيكلية كبيرة (Feilden, 2003, p101).

النتائج والتحليل الميداني :

كشفت المعاينة الميدانية التفصيلية للمسرح في نوفمبر 2023 عن النتائج التالية:

1- الحالة الإنشائية والفيزيائية:

أ. المدرجات (Cavea):

انتشار كثيف للأعشاب والحشائش بين مقاعد الصفوف العلوية. ظهور تشققات أفقية ورأسية واضحة في الكتل الحجرية للمنطقة المبنية (الشرقية). وجود علامات تآكل وانحسار في حواف المقاعد الحجرية نتيجة العوامل الجوية وربما الحركة البشرية غير المنضبطة سابقاً.

ب. الأوركسترا والمنصة (Orchestra & Scaenae):

تدهور واضح في أرضية الأوركسترا، مع وجود حفر وتجمع للمياه الراكدة بعد الأمطار. انهيار كامل لأجزاء كبيرة من جدار منصة التمثيل، ولم يبق سوى قواعد بعض الأعمدة وقطع معمارية متناثرة.

ج. البيئة المحيطة:

تراكم الرمال والرواسب البحرية على الأجزاء الشمالية الشرقية من الموقع القريبة من الشاطئ. غياب أي أسوار أو حواجز تحميه من الزحف العمراني المجاور أو دخول الحيوانات السائبة.

2 - جدول تصنيف وتقييم درجة خطورة العوامل المؤثرة على مسرح أبولونيا

رقم	العامل المؤثر	نوعه	درجة الخطورة	الآلية الرئيسية للتأثير	الملاحظات الميدانية
1	التعرية الساحلية واقترب البحر	طبيعي	مرتفعة جداً	تآكل الأساسات ، زيادة الملوحة والرطوبة	تقدم مرئي لخط البحر حسب الصور الجوية.
2	دورات التبلور الملحي	طبيعي	مرتفعة	تقشر وتفتت الحجر من الداخل ظهور نتحات ملحية بيضاء على معظم السطوح.	
3	غياب الصيانة الدورية	بشري/ إداري	مرتفعة	تسريع وتيرة تفاقم جميع عوامل التلف	لا يوجد دليل على أي أعمال صيانة حديثة.
4	النمو النباتي	طبيعي	متوسطة	ضغط جذري، احتجاز الرطوبة انتشار كثيف في 70% من المدرجات	
5	إشعال النيران	بشري	متوسطة	إجهاد حراري، تغير لون الحجر وجود آثار سناج وفحم في مناطق متفرقة.	
6	إلقاء النفايات	بشري	متوسطة	تشويه بصري، تلوث بيئي نفايات بلاستيكية وورقية داخل الموقع.	
7	الكتابات والتخريب	بشري	منخفضة	تلف السطوح، تشويه جمالي وجود بعض الخربشات على المقاعد.	

(المصدر: إعداد الباحث استناداً للمعاينة الميدانية 2025 وأدبيات الصون)

الخاتمة :

تؤكد هذه الدراسة أن مسرح أبولونيا الأثري، لى الرغم من صموده لأكثر من ألفي عام، يقف اليوم عند مفترق طرق حاسم. فالتحديات التي يتعرض لها ليست حتمية، بل هي نتاج التفاعل بين بيئة ساحلية قاسية وممارسات بشرية سلبية وإدارة تراثية تحتاج إلى تعزيز. وقد خلص البحث إلى أن نجاح أي جهد لصون هذا الكنز المعماري مرهون بتبني رؤية شمولية وتكاملية، ترفض النظرة الجزئية، وتجمع في وقت واحد بين:

1. اليد الفنية: المتمثلة في التدخلات الترميمية العلمية الدقيقة.
 2. العقل الإداري: المتمثل في التخطيط الاستراتيجي والمراقبة المستمرة والتشريعات الفعالة.
 3. القلب المجتمعي: المتمثل في غرس الوعي والانتماء وحفز المشاركة المحلية.
- إن حماية مسرح أبولونيا ليست مسؤولية الجهات الرسمية وحدها، بل هي مسؤولية وطنية ومتوسطة مشتركة. فالمسرح ليس مجرد أحجار مترصة، بل هو سجل حي للذاكرة الجماعية، وشاهد على حوار الحضارات على ضفاف المتوسط. إن الاستثمار في صونه اليوم هو استثمار في الهوية، وفي السياحة المستدامة، وفي ترك إرث ثمين للأجيال القادمة. ولا بد من العمل العاجل قبل أن تتحول الأضرار البطيئة إلى خسائر لا تعوض، فتخسر ليبيا والعالم أحد أبرز وجوه تراثها الإنساني.

التوصيات وآليات الصون المقترحة لمسرح أبولونيا :

بناءً على نتائج التحليل والتقييم للمخاطر الطبيعية والبشرية التي تهدد مسرح أبولونيا، وعلى المعاينة الميدانية (2022-2023)، تقدم الدراسة الحزمة التالية من التوصيات المتكاملة، مرتبة حسب الأولوية الزمنية ونوع التدخل:

أولاً: التدخلات العاجلة (قصيرة الأجل - خلال 6 إلى 12 شهراً)

أ. الإجراءات الوقائية والحماية الفيزيائية

1. وضع سياج حماية بسيط (من الحديد المطاوع أو الشبك) حول محيط الموقع، مع بوابة تُغلق خارج ساعات الزيارة، لمنع الدخول العشوائي ليلاً (COMOSI, 1990, المادة 6).
2. تركيب لوحات إرشادية واضحة عند المدخل وداخل الموقع، تحظر إلقاء النفايات، وإشعال النيران، والكتابة على الجدران، مع ذكر العقوبات القانونية (بالإشارة إلى القانون الليبي رقم 3 لسنة 1994).

3. تعيين حراسة منتظمة (حارس مقيم أو زائر يومي) لفتح وإغلاق الموقع، ومراقبة السلوكيات، والإبلاغ الفوري عن أي انتهاك. في حال شح الميزانية، يمكن الاستعانة بأحد أفراد المجتمع المحلي كمتطوع مدعوم بحافز رمزي.

ب. المعالجة البيئية الأولية

1. إزالة النباتات الموسمية يدوياً وبطريقة علمية (القلع الميكانيكي الدقيق)، مع استخدام مبيدات نمو مناسبة (مثل الغليفوسات بنسب مخففة) على الجذور المتبقية لمنع عودتها (Matero, 2008, p. 20).

2. تنظيف السطوح الحجرية من الأتربة والرواسب العضوية والفضلات (القمامة) باستخدام فرش ناعمة وماء مقطر، دون استخدام مواد كيميائية قاسية. نقل المخلفات إلى مكب صحي خارج الموقع.

3. جمع القصرة المتساقطة (بقايا الملاط) ودراساتها لتوجيه عمليات الترميم المستقبلية.

ج. الترميم الطارئ

1. تثبيت الكتل الحجرية المائلة أو المفككة في المدرجات والأوركسترا باستخدام دعائم خشبية مؤقتة، ثم إعادة لصقها بمونة كلسية متوافقة (ICOMOS, 1990, المادة 9).
2. سد التشققات الكبيرة (خاصة تلك الناتجة عن جذور النباتات أو مياه الأمطار) باستخدام مونة جيرية ذات خواص فيزيائية مماثلة للحجر الأصلي، لوقف تقدم التلف ومنع تسرب المياه.
- ثانيًا: مشاريع الصون المتوسطة والطويلة الأجل (من 1 إلى 5 سنوات)
 - أ. الحماية من التعرية الساحلية وزحف البحر
 1. إجراء دراسة هندسية وجيوتقنية وهيدرولوجية متخصصة لقياس سرعة تآكل الشاطئ وتأثير الأمواج على أساسات المسرح (بمقارنة صور 1976 و 2022).
 2. بناءً على الدراسة، تصميم وتنفيذ حاجز بحري (كاسر أمواج - Breaker Wave) طبيعي (كتل صخرية) أو صناعي، على بعد مناسب من الشاطئ، لحماية الخط الساحلي المطل على المسرح من التآكل والزحف (Matero, 2008, p. 22). كحل مؤقت، يمكن وضع رديم من أكياس الرمل أمام الواجهة البحرية.
 - ب. برنامج التوثيق والمراقبة العلمي
 1. إنشاء ملف مراقبة رقمي (Digital Monitoring System) يشمل:
 - مسح ليزري ثلاثي الأبعاد (D Laser Scanning) للمسرح بكامل تفاصيله، ليكون نموذجًا أساسيًا (Baseline Model).
 - 2. مقارنة دورية (كل عامين) بمسوحات لاحقة لرصد أي تغيرات ملموسة في البنية (تصدعات، إزاحات، انهيارات) (MOSICO, 1990, المادة 3).
 - 3. إنشاء "سجل صحي" (Health Record) للمسرح، يوثق تاريخ كل زيارة تفتيش، وقياسات الشقوق، وصور فوتوغرافية مقارنة من نفس الزوايا، وأي تدخل تم (تنظيف، تثبيت، ترميم).
 - ج. الترميم العلمي الشامل
 - 1. تنفيذ مشروع ترميم متكامل للمسرح (بعد اكتمال مرحلتي التوثيق والتدخلات العاجلة)، يشمل:
 - ترميم أجزاء من المنصة (Pulpitum) والأوركسترا والمدرجات، باستخدام مواد وأساليب تحترم أصالة المادة التاريخية (الحجر الرملي الأصلي والمونة الجيرية).

2 . الالتزام بمبدأ "قابلية العكس" (Reversibility) بحيث يمكن إزالة أي مادة حديثة دون الإضرار بالأصل (Feilden, 2003, p. 150).

· معالجة الكتابات والتخريب (البخاخ، الفحم، الطلاء) بمذيبات عضوية اختبارية وممحاة رقيقة، مع توثيقها قبل الإزالة.

ثالثاً: تعزيز الإدارة والمشاركة المجتمعية (أفق مستمر)
أ. التشريع والتوعية

1. تفعيل القوانين الرادعة ضد العبث بالمواقع الأثرية، وتحديدًا القانون الليبي رقم 3 لسنة 1994 (المادة 48)، بالتنسيق مع النيابة العامة والشرطة السياحية. تطبيق عقوبات نموذجية على المخالفين (غرامات مالية أو خدمات مجتمعية داخل الموقع).

2. إطلاق حملة توعية واسعة ومستمرة في المدارس والجامعات (خاصة كلية الآثار بجامعة قاريونس - فرع شحات) ووسائل الإعلام المحلية (إذاعة شحات، صفحات التواصل الاجتماعي)، تشرح قيمة المسرح التاريخية، وأهمية الحفاظ عليه، ومخاطر التخريب (UNESCO, 2013, p. 95).

ب. المشاركة المحلية (المجتمعية)

1. إشراك أهالي منطقة شحات (سوسة القديمة) في أعمال النظافة والمراقبة البسيطة، كمتطوعين مدعومين بحوافز رمزية أو شهادات تقدير.

2. تنظيم زيارات مجانية وجولات إرشادية شهرية للمجتمع المحلي (طلاب، معلمين، عائلات) بصحبة مرشدين أثريين، لتعزيز انتمائهم للموقع والشعور بملكيتهم الجماعية (المعاينة الميدانية، 2023).

3. تشكيل "لجنة محلية لحماية مسرح أبولونيا" تضم: ممثلين عن مصلحة الآليات، بلدية شحات، كلية الآثار، شرطة السياحة، ومتطوعين من المجتمع. تختص اللجنة بمتابعة تنفيذ التوصيات وحل المشكلات الطارئة.

ج. التنمية المستدامة وإعادة الاستخدام الثقافي المنضبط

1. دراسة إمكانية إعادة استخدام المسرح بشكل محدود ومنظم لأغراض ثقافية تعليمية وتراثية، مثل:

2. إقامة حفلات موسيقية كلاسيكية أو مسرحيات تراثية (مرة أو مرتين سنوياً) مع مراعاة عدم تجاوز عدد الجمهور للطاقة الاستيعابية الآمنة، وعدم استخدام مؤثرات ضارة (نيران، دخان، معدات ثقيلة).

3. استخدام المسرح كموقع لتدريب طلاب الآثار عملياً على التوثيق والصيانة.

4. إدارة هذه الأنشطة بحيث تدر دخلاً بسيطاً (تذاكر رمزية، رعاية محلية) يُخصص بالكامل لصيانة المسرح المستمرة، مما يحقق الاستدامة المالية. هذا النهج يحافظ على روح الوظيفة الأصلية للمكان (مسرح حي) دون الإضرار به مادياً أو معنوياً.
خاتمة التوصيات

إن نجاح خطة الصون لمسرح أبولونيا يتطلب التزاماً متكاملًا من ثلاث جهات:

- (1) مصلحة الآثار الليبية (توفير الميزانية والتصاريف والإشراف الفني)،
 - (2) المجتمع المحلي والسلطات البلدية (المشاركة والرقابة والتوعية)،
 - (3) الأوساط الأكاديمية (التوثيق والتدريب والاستشارات العلمية). بدون هذا التكامل، ستبقى أي توصية جزئية غير قابلة للتحقيق على أرض الواقع.
- المراجع لدعم التوصيات

Feilden, Bernard M. Conservation of Historic Buildings. 3rd ed. Oxford: Architectural Press, 2003.

ICOMOS. Charter for the Protection and Management of the Archaeological Heritage. Lausanne: ICOMOS, 1990.

Matero, Frank. "The Conservation of Historic Sites." In The Getty Conservation Institute: Projects and Field Reports, 15-30. Los Angeles: Getty Conservation Institute, 2008.

UNESCO. Managing Cultural World Heritage. Paris: UNESCO World Heritage Centre, 2013.

القانون الليبي رقم 3 لسنة 1994 بشأن حماية الآثار (المادة 48).

. قائمة المراجع أولاً: المصادر

- بطليموس، كلاوديوس. (2004)، جغرافية بطليموس (وصف لليبيا)، (محمد المبروك الدويب، مترجم)، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس.
- سترابون. (2003)، الجغرافيا: الكتاب السابع عشر، (محمد المبروك الدويب، مترجم)، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس.
- هيرودوت. (2006)، تاريخ هيرودوت: الكتاب الرابع الخاص بالليبيين، (محمد المبروك الدويب، مترجم)، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس.

ثانياً: المراجع العربية

أ - الكتب:

- تشايلد، جود ج. (1970)، الإدارة العامة للآثار بقورينا وأبولونيا: دليل تاريخي ووصف عام للآثار، طرابلس، وزارة التربية والتعليم.
- تشايلد، ريتشارد جود وآخرون. (1976)، حفريات جامعة ميتشيغان في أبولونيا، (مؤسسة الآثار، مترجم)، بنغازي.
- جودة، جودة حسين. (2003)، الجيومورفولوجيا علم أشكال سطح الأرض، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
- الحناوي، عصام. (2004)، قضايا البيئة في مئة سؤال وجواب، بيروت، المنشورات التقنية.
- شاهين، عبد العزيز. (د.ت)، ترميم وصيانة المباني الأثرية والتاريخية، القاهرة، مطابع المجلس الأعلى للآثار.
- الفخراني، فوزي عبد الرحمن. (1978)، الرائد في فن التنقيب عن الآثار، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس.
- كينريك، فيليب. (2013)، دليل المواقع الأثرية في ليبيا: إقليم المدن الخمس، (أحمد بوزيان، مترجم)، تونس، منشورات A.G. Leventis وصندوق التراث العالمي.

ب - البحث أو المقال المنشور في الدورية:

- قادوس، عزت زكي حامد. (2010)، "الحفائر الأثرية"، الإسكندرية، مجلة مطبعة الحضري.
- مفتاح، عبد ربه. (2014)، "تطور ميناء أبولونيا من العصر الإغريقي إلى البيزنطي"، المرج، مجلة العلوم والدراسات الإنسانية، جامعة بنغازي.

ج - الرسائل الجامعية:

- شقوف، عبد السلام محمد. (1984)، ظروف انتقال العاصمة من قوريني إلى طلميثة ومنه إلى سوسة، [رسالة ماجستير غير منشورة]، بنغازي، جامعة قاريونس.
- محمد، محمد إبراهيم. (2013)، التطور الحضري والمعماري لمدينة أبولونيا (سوسة)، [رسالة ماجستير غير منشورة]، بنغازي، جامعة قاريونس.
- ميلود، أحمد سعد. (2003)، المسارح وقاعات الموسيقى الرومانية في إقليم قورينائية، [رسالة ماجستير غير منشورة]، بنغازي، جامعة قاريونس.

د - تقارير ومنظمات ومصادر

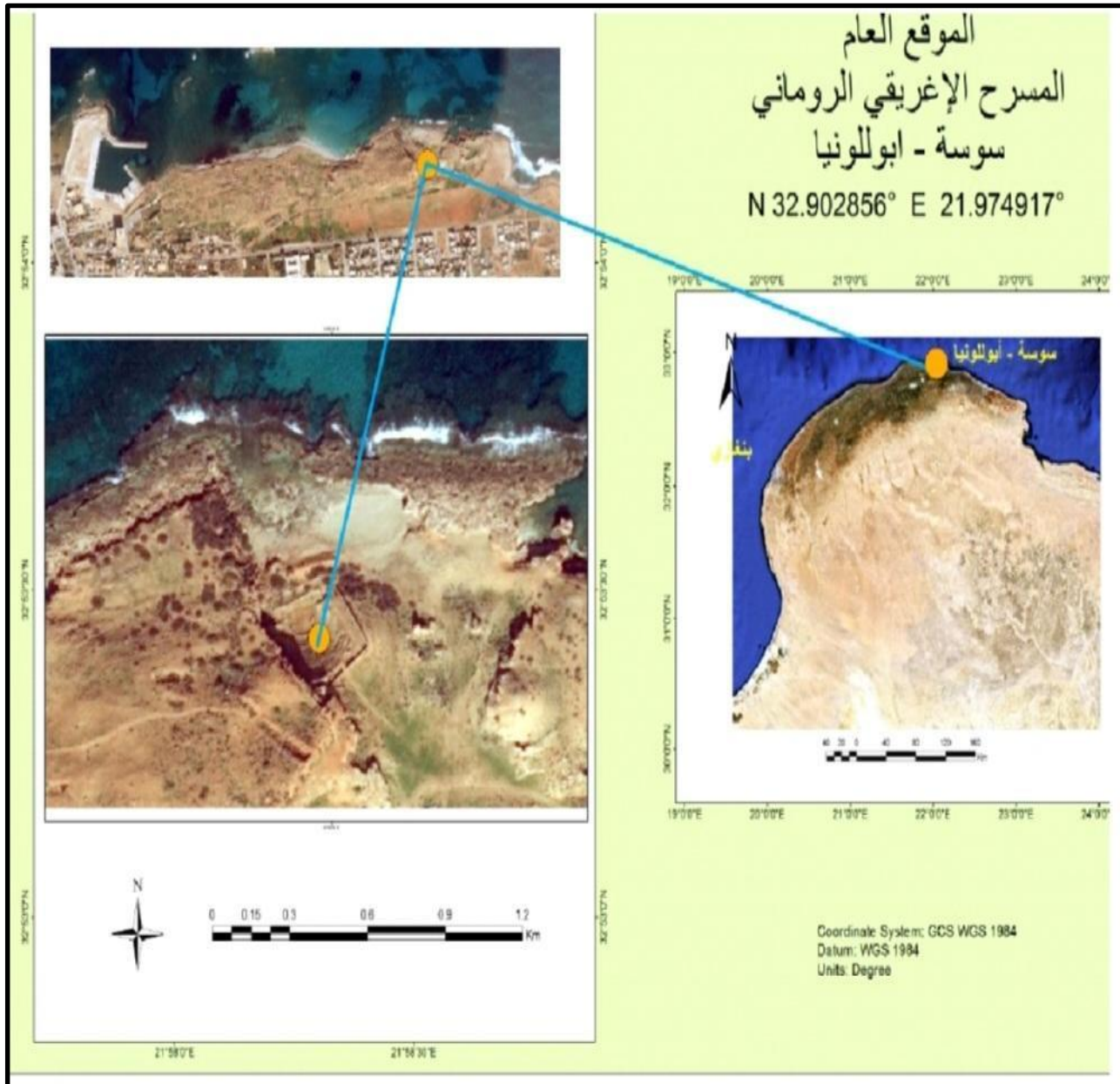
- إبراهيم، معاوية. (1992)، إعداد الكوادر العلمية والفنية المتخصصة في حماية الآثار، [ورقة مقدمة]، الرياض، الندوة العلمية الثانية.
- السفاريني، رندة. (2009)، تقنيات الترميم، [ورقة مقدمة]، فلسطين، المؤتمر العلمي الهندسي الاستشاري الثالث.
- عبد الله، يوسف محمد. (2009)، الحفاظ على الموروث الثقافي والحضاري وسبل تنميته، صنعاء، المركز الوطني للمعلومات.
- نقابة المهندسين - فلسطين. (2009)، أرشيف المؤتمرات والتقنيات الأثرية، [موقع إلكتروني].
- اليونسكو والإيكروم. (2003)، تعريف الشباب بحماية وإدارة مواقع التراث: دليل علمي، عمان، مكتب اليونسكو.

ثالثاً: المراجع الأجنبية

- Ashurst, J., & Ashurst, N. (1988). Practical Building Conservation. London: English Heritage.
- Bacchielli, L. (1987). "Il teatro di Apollonia in Cirenaica". Quaderni di archeologia della Libya, 12.
- Barth, H. (1849). Wanderungen durch die Küstenländer des Mittelmeeres. Berlin: Dietrich Reimer.
- Beechey, F. W., & Beechey, H. W. (1828). Proceedings of the Expedition to Explore the Northern Coast of Africa. London: John Murray.

- Delashella, E. (1819). Travels in the Cyrenaica. London: John Murray.
- Feilden, B. M. (2003). Conservation of Historic Buildings (3rd ed.). Oxford: Architectural Press.
- Goodchild, R. G. (1968). "The Roman and Byzantine Theatre in Cyrenaica". In F. Gadallah (Ed.), Libya in History. Benghazi: University of Libya.
- Humphrey, J. H. (Ed.). (1970). Apollonia, the Port of Cyrene: Excavations by the University of Michigan, 1965-1967. Ann Arbor: University of Michigan Press.
- ICOMOS. (1990). The ICOMOS Charter for the Protection and Management of the Archaeological Heritage.
- Jokilehto, J. (1999). A History of Architectural Conservation. Oxford: Butterworth-Heinemann.
- Kraeling, C. H. (1962). Ptolemais: City of the Libyan Pentapolis. Chicago: University of Chicago Press.
- Matero, F. (2008). "Ethics and Policy in Conservation". Getty Conservation Institute Journal, 23(2).
- Montet, P. (1956). "Fouilles à Apollonia (1954-1955)". Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 100(1).
- Pacho, J. R. (1827). Relation d'un voyage dans la Marmarique et la Cyrénaïque. Paris: Imprimerie Royale.
- Stucchi, S. (1975). Architettura Cirenaica. Roma: L'Erma di Bretschneider.
- Ward-Perkins, J. B. (1976). The Byzantine Buildings of Apollonia. In J. H. Humphrey (Ed.), Apollonia, the Port of Cyrene: Excavations by the University of Michigan (pp. 327-340). Tripoli: Department of Antiquities.

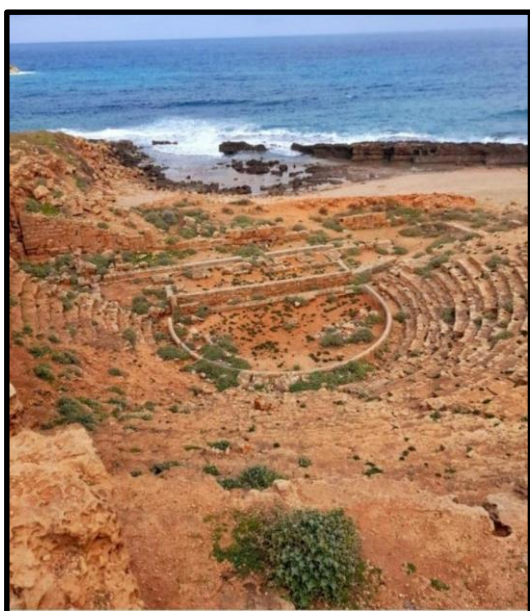
ملحق الصور :



الشكل رقم (1) . توضح موقع مدينة سوسة الحالية و توضح موقع مدينة ابولونيا الأثرية والمسرح عن . Land Area Measurement App. (n.d.). Version 1.0.8. . applicationMobile a



الشكل رقم (2) . توضيح الصورة الآثار المباشرة للسيول والانجراف المائي على القاعدة الإنشائية للمسرح .
تصوير الباحث .



(ب)



(أ)

الشكل رقم (3) . (أ) . تمثل المسرح في فترة زمنية سابقة (أرشيكية)، ويظهر فيها بوضوح اتساع المنطقة الشاطئية الفاصلة بين منصة المسرح وخط المياه. كانت المسافة توفر حماية طبيعية للمبنى

من الرذاذ الملحي المباشر والأمواج العاتية، مع ظهور ركام أثري أقل حدة في المنطقة المحيطة بـ الأوركسترا. عن R.M. Harrison The Theater (ب). تمثل الوضع الراهن للموقع، حيث يُلاحظ تراجع خط الساحل وتقدم مياه البحر بشكل ملموس باتجاه المسرح. تصوير الباحث.



(ب)



(أ)



(ج)

الشكل رقم (4). (أ) (ب). تظهر الصورة نمو النباتات وتأثير الغطاء النباتي على المدرجات ، ومع مرور الزمن، يؤدي ذلك إلى تفكك الصخور وزيادة اتساع الفواصل، مما يؤثر على استقرار المدرجات الصخرية وقد يساهم في تدهورها (ج). تظهر الصورة نمو نباتات داخل الفواصل والشقوق الصخرية. تسهم جذور النباتات في إحداث وتوسيع الشقوق من خلال ضغطها الميكانيكي داخل المسامات . تصوير الباحث .

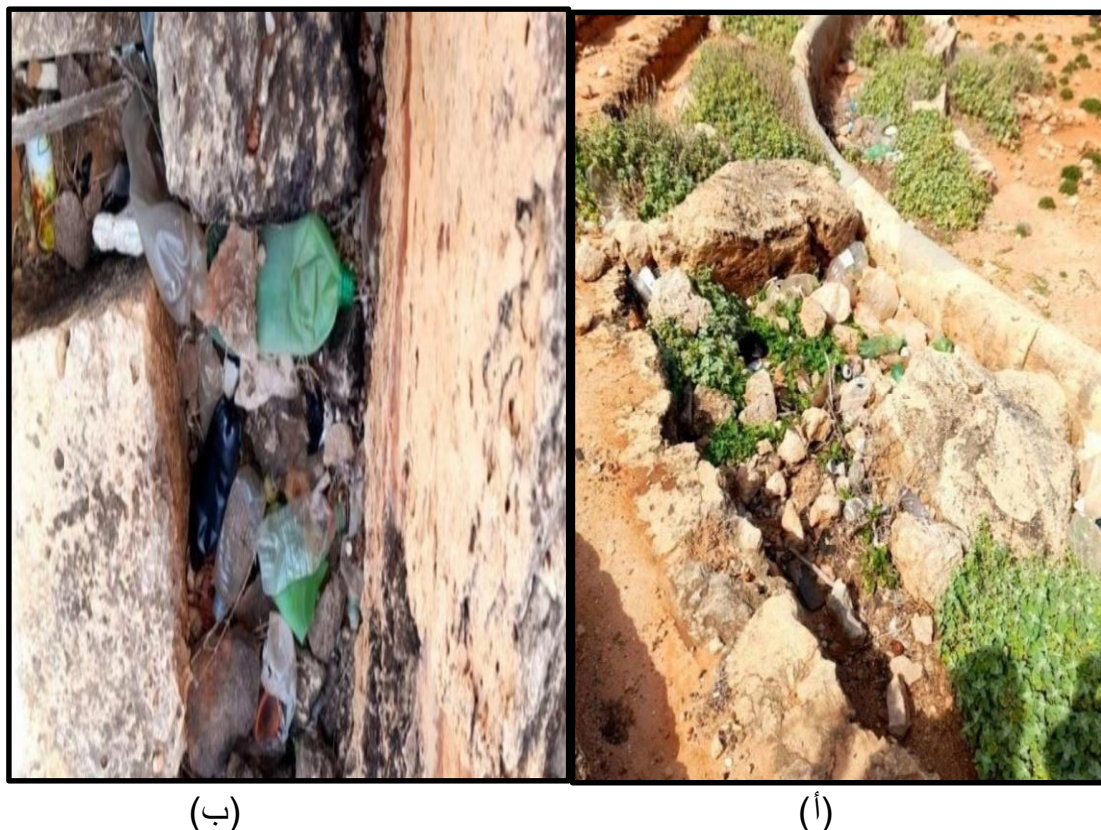


الشكل رقم (5). (أ) (ب). تظهر الصورة اعتداءات بشرية متمثلة في كتابات وخرابشة عشوائية تؤدي إلى التشويه البصري والتلف الكيميائي لأسطح المسرح الأثرية. تصوير الباحث .



الشكل رقم (6). تظهر الصورة السواد الفحمي المتمركز في الصورة أثر إشعال النار مباشرة عند قاعدة الجدار الأثري. هذه الحرارة المباشرة والعالية تتسبب في حدوث صدمة حرارية للحجر الجيري، مما يؤدي إلى

التشقق والتفتقر تفكك بنية الحجر السطحية وظهور شقوق دقيقة، مما يجعله أكثر هشاشة وقابلية للتفتت.
تصوير الباحث.



الشكل رقم (7). (أ) (ب) تظهر الصورة تراكم النفايات الصلبة والبلاستيكية داخل مدرجات وأساسات المسرح، مما يمثل انتهاكاً لبيئة الموقع الأثري ويعرض أحجاره للتلف الكيميائي والحيوي. تصوير الباحث.

بحث بعنوان :

روايات الإخباريين عن وفود المعارضة في أحداث الفتنة الكبرى

(32 – 37 هـ / 652 - 657 م)

Akhbaris Accounts of Opposition Delegations during the Events of the
First Fitna

(32–37 AH / 652–657 CE)

إعداد

د. وليد موسى إبراهيم محمد

Dr. Walid Mousa Ibrahim Mohammed

أستاذ مشارك/ جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

د. أحمد علي صالح الحسنوني

Dr. Ahmed Ali Saleh Al-Hasnouni

أستاذ مشارك/ جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

د. عبد السلام سالم سعيد محمد

Dr. Abdul Salam Salem Saeed Mohammed

أستاذ مشارك/ جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

المدقق اللغوي : عوض عقيله عوض - الجامعة السنوسية

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث إلى تقديم قراءة نقدية تعتمد منهج التحقيق التاريخي، والمقارنة بين الروايات، وتحليل السياقات الفكرية والسياسية المصاحبة لها، بهدف الوصول إلى تصور أقرب إلى الواقع التاريخي، بعيداً عن المبالغات التي صاحبت تدوين أخبار الفتنة الكبرى، وتكمن أهمية دراسة الفتنة الكبرى في أنها مرحلة فاصلة أثرت في تشكيل النظام السياسي الإسلامي، وأسست لظهور تيارات فكرية ومذاهب متعددة.

الكلمات المفتاحية: (الروايات - الفتنة الكبرى - النظام السياسي)

Summary

This research seeks to provide an in-depth critical reading based on the methodology of historical investigation, comparing narratives, and analyzing their accompanying intellectual and political contexts, with the aim of arriving at a perception closer to historical reality and free from exaggerations. And the biases that accompanied the recording of the events of the Great Fitna.

The importance of studying the Great Fitna lies in the fact that it was a pivotal stage that influenced the formation of the Islamic political system and laid the foundation for the emergence of various intellectual currents and schools of thought.

المقدمة:

تعد الفتنة الكبرى من أكثر الأحداث تعقيدا وتأثيرا في مسار التاريخ الإسلامي المبكر، إذ شكلت نقطة تحول جوهريّة انعكست آثارها على الجوانب السياسية والاجتماعية والفكرية في الأمة الإسلامية، وقد أسهمت هذه المرحلة في ظهور اختلافات فكرية ومذهبية بين المسلمين، وتكونت على إثرها مدارس فكرية وتاريخية متعددة، حاولت تفسير الحدث وفق منطلقاتها ومنهجياتها الخاصة. ومع تطور علم التاريخ عند المسلمين، أصبح الإخباريون وهم نقلة الروايات التاريخية حجر الأساس في تشكيل الوعي التاريخي الإسلامي، وذلك من خلال تدوينهم وقائع تلك المرحلة وما سبقها وما تلاها.

إن الدراسة العلمية للفتنة الكبرى لا يمكن أن تتفصل عن فهم مناهج الإخباريين والرواة، وتحليل أثر الميول السياسية والمذهبية في صياغة الأخبار، خصوصاً مع التباين الواضح بين المدارس المدنية والكوفية والشامية. كما يبرز في سياق هذا البحث ضرورة الوقوف على شخصية عبد الله بن سبأ وما أثير حولها من جدل بين الباحثين قديماً وحديثاً، ومدى دورها الحقيقي أو المزعوم في التحريض على الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويضاف إلى ذلك دراسة الوفود وآليات المعارضة في الأمصار، وتحليل تطور الأزمة حتى مقتل عثمان، وصولاً إلى قضية التحكيم في عهد علي رضي الله عنه، وما نتج عنها من انشقاقات داخلية أبرزها نشوء الخوارج.

وانطلاقاً من هذه الإشكاليات الكبرى، يسعى هذا البحث إلى تقديم قراءة نقدية معمقة تعتمد منهج التحقيق التاريخي، والمقارنة بين الروايات، وتحليل السياقات الفكرية والسياسية المصاحبة لها، بهدف الوصول إلى تصور أقرب إلى الواقع التاريخي، بعيداً عن المبالغات والتحيزات التي صاحبت تدوين أخبار الفتنة الكبرى.

وتكمن أهمية دراسة الفتنة الكبرى في أنها مرحلة فاصلة أثرت في تشكيل النظام السياسي الإسلامي، وأسست لظهور تيارات فكرية ومذاهب متعددة.

ويهدف هذا البحث إلى:

- تحليل الروايات الإخبارية وفق منهج نقدي.
- تبيين أثر السياسة والمذهب في صياغة الأخبار.
- تفسير البعد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للاحتجاجات ضد عثمان رضي الله عنه.
- فهم حقيقة التحكيم ومواقف كبار الصحابة منه.

ويعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي النقدي، السردى التحليلي .

وتم تقسيم هذا الموضوع إلى أربعة مباحث رئيسية:

- المبحث الأول: الإخباريون ومناهجهم في رواية أحداث الفتنة الكبرى.
- المبحث الثاني: عبد الله بن سبأ وقتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه.
- المبحث الثالث: الوفود ومعارضة الأمصار في أواخر عهد عثمان.
- المبحث الرابع: حقيقة التحكيم وموقف كبار الصحابة.

المبحث الأول: الإخباريون ومناهجهم في رواية أحداث الفتنة الكبرى:

شكلت الفتنة الكبرى لحظة مفصلية في التاريخ الإسلامي، إذ انقسم المسلمون بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان إلى فرق متنازعة، كان أبرزها أنصار علي بن أبي طالب وأنصار معاوية بن أبي سفيان، وقد انعكست تلك الانقسامات السياسية على الرواية التاريخية نفسها؛ فكل فريق سعى إلى تقديم تصور يبرر موقفه أو يدافع عن شرعيته.

ومن هنا نشأ علم الأخبار، وهو العلم الذي يعنى بنقل الوقائع السياسية والاجتماعية، وتدوين ما يجري في الأمة من حروب وفتن وذلك بوساطة رجال عرفوا بالإخباريين⁽¹⁾.

أولاً: مفهوم الإخباري وتمييزه عن الراوي:

يفرق في علم التاريخ الإسلامي بين مصطلحي الإخباري والراوي، فالراوي في اصطلاح المحدثين هو من ينقل الحديث أو الأثر بإسناد متصل، ملتزماً بشروط العدالة والضبط كما حددها علماء الجرح والتعديل⁽²⁾.

أما الإخباري فهو من يجمع الأخبار التاريخية والوقائع العامة، سواء رويت بالإسناد أو جمعت من رواة متعددين، دون اشتراط التزام صارم بقواعد الإسناد⁽³⁾.

وقد نشأ الإخباريون في بيئة سياسية محتدمة، فحاول بعضهم أن يوثق الأحداث بطريقة موضوعية، في حين نقل آخرون الروايات وفق انتماءاتهم السياسية أو المذهبية⁽⁵⁾، لذلك يرى المؤرخ عبد العزيز الدوري أن الرواية الإخبارية كانت "مرحلة وسطى بين النقل الحديثي الصارم والتدوين التاريخي المنهجي"، إذ جمعت بين السرد القصصي ومحاولة التوثيق بالسند⁽⁴⁾.

(1) - عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 15.

(2) - حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون في الحضارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، 1984، ص 45.

(3) - المرجع نفسه، ص 47.

(4) - عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص 40.

ثانيا: نشأة التدوين الإخباري وتطوره:

بدأت الرواية الإخبارية في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، عندما بدأ التابعون بجمع روايات الصحابة عن الفتوح والفتن، ومنهم عروة بن الزبير والزهري في المدينة، وسعيد بن المسيب في مكة، ثم تطورت في الكوفة على يد أبي مخنف والمدائني⁽¹⁾.

ويظهر هذا التنوع الجغرافي نشوء ثلاث مدارس رئيسية للرواية التاريخية:

1. المدرسة المدنية: امتازت بالاعتماد على روايات الصحابة والتابعين، وبنزعة معتدلة بعيدة عن التحزب.

2. المدرسة الكوفية: تأثرت بالأجواء الشيعية وبالرؤية المناصرة لآل البيت.

3. المدرسة الشامية: ظهرت في بيئة أموية، فكانت رواياتها أقرب إلى تبرئة معاوية والدفاع عن شرعية الدولة الأموية⁽²⁾.

وقد استقر علم الأخبار في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي في مؤلفات موسوعية جمعت تلك الروايات مثل تاريخ الطبري وأنساب الأشراف للبلاذري.

ثالثاً: أبرز الإخباريين في رواية الفتنة الكبرى

1- عروة بن الزبير (ت 94هـ / 712م)

يعد عروة أول من دون أخبار الفتنة على نحو علمي، إذ كتب إلى خلفاء بني أمية تقارير عن مقتل عثمان ومعركة الجمل، اعتماداً على روايات أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها⁽³⁾.

ورغم قربه من بيت أبي بكر، إلا أن رواياته اتسمت بالاعتزان؛ إذ لم يظهر انحيازاً ضد علي أو معاوية⁽¹⁾

(1) - البلاذري، أنساب الأشراف، دار الفكر، بيروت، 1996، ج 2، ص 130.

(2) - محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1968، ج 5، ص 72.

(3) - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011، ج 3، ص 145.

2- محمد بن شهاب الزهري (ت 124هـ/741م)

تلميذ عروة بن الزبير، جمع بين الحديث والتاريخ، وكان أول من أمره خلفاء بني أمية بجمع السنة والأخبار⁽²⁾.

تميز الزهري بدقة في الإسناد، لكنه كان يميل إلى رواية ما يوافق سياسة الدولة الأموية، وهو ما يظهر أثر السلطة في توجيه التدوين المبكر⁽²⁾.

3- أبو مخنف لوط بن يحيى (ت 157هـ/773م)

أبرز الإخباريين الكوفيين، وصاحب روايات معركة صفين والنهروان ومقتل علي والحسين يعد المصدر الأهم للطبري في تدوين الفتنة الكبرى⁽³⁾.

اتهمه بعض المحدثين بالتشيع، إلا أنه لم يكن من الغلاة، بل من الشيعة الزيدية المعتدلين⁽⁴⁾.

ويمتاز أسلوبه بالسرد القصصي التفصيلي، مما جعله محبوباً لدى المؤرخين، رغم ما في رواياته من مبالغات⁽⁵⁾.

4- المدائني (علي بن محمد، ت 225هـ/839م)

يعد من كبار الإخباريين الذين سعوا للتوفيق بين الروايات. اعتمد على مصادر متعددة من الكوفة والبصرة والشام⁽⁶⁾.

وتعد رواياته أكثر اعتدالاً مقارنة بأبي مخنف، وقد اعتمد عليه كل من البلاذري والطبري⁽¹⁾..

(1) - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 112.

(2) - الطبري، المصدر السابق، ج 3، ص 145.

(3) - الطبري، المصدر نفسه، ج 5، ص 46.

(4) - شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص 210.

(5) - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 120.

(6) - ابن النديم، الفهرست، تحقيق: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص 149، البلاذري، المصدر السابق، ج

5- البلاذري (أحمد بن يحيى، ت 279هـ / 892م)

صاحب كتاب أنساب الأشراف، الذي يُعدّ من أهم مصادر تاريخ الفتنة الكبرى. جمع فيه روايات متعددة، وغلب عليه التوثيق النسبي والحرص على إيراد الروايات المتعارضة دون انحياز ظاهر⁽²⁾

6- الطبري (محمد بن جرير، ت 310هـ/922م)

ختم الطبري مرحلة الرواية الإخبارية بجمعه جميع هذه الأخبار في كتابه الموسوعي تاريخ الأمم والملوك.

لم يبتّ في الروايات، بل اكتفى بعرضها بأسانيدھا، تاركًا الحكم للقارئ، وهو ما يعكس روح المنهج الإخباري الذي يكتفي بجمع المادة دون نقدها الداخلي⁽³⁾

رابعًا: أثر الميول السياسية والمذهبية في صياغة الأخبار

من خلال مقارنة روايات الإخباريين، يتضح أثر السياسة والمذهب في توجيه الرواية التاريخية:

- الروايات الكوفية: تميل إلى تمجيد عليّ وآل البيت، وإبراز مظلوميتهم، كما في روايات أبي مخنف⁽⁴⁾.
- الروايات الشامية: تبرز شرعية معاوية وتحمل خصومه مسؤولية سفك الدماء، كما في روايات سيف بن عمر⁽⁵⁾.
- الروايات المدنية: تحاول أن تكون وسطًا، فتميل إلى عرض الأحداث دون تفسير سياسي حاد⁽⁶⁾.

(1)- الطبري، المصدر السابق، ج 4، ص 110.

(2)- الطبري، المصدر السابق، ج 4، ص 115.

(3)- الدوري، المرجع السابق، ص 97.

(4)- الطبري، المصدر السابق، ج 4، ص 351.

(5)- المصدر نفسه، ج 3، ص 220.

(6)- البلاذري، المصدر السابق، ج 2، ص 140.

ويؤكد المؤرخ حسين مؤنس أن اختلاف الرؤية التاريخية بين هذه المدارس لا يعني بطلان رواياتها، بل يظهر أن التاريخ الإسلامي المبكر كتب في ظل التعدد الفكري والسياسي، مما يستوجب قراءة نقدية واعية⁽¹⁾

خامساً: منهج نقد روايات الإخباريين

لتحليل الروايات المتعلقة بالفتنة الكبرى، يُعتمد منهج نقدي يقوم على أربع ركائز:

1. نقد الإسناد: فالرواية التي تفتقد إلى سند متصل أو تُروى عن مجهولين تُعدّ ضعيفة تاريخياً⁽²⁾

2. نقد المتن: يتم بتحليل منطق الرواية ومقارنتها بالحقائق السياسية والاجتماعية الثابتة⁽³⁾

3. نقد الاتجاه: بمعرفة انتماء الإخباري ومدرسته الفكرية وتأثيره في صياغة النص⁽⁴⁾

4. نقد المقارنة: بموازنة الروايات المختلفة لنفس الحدث لتحديد المشترك والمختلف بينها⁽⁵⁾

المبحث الثاني عبد الله بن سبأ وقتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه

- أولاً: دراسة مصادر روايات عبد الله بن سبأ

1. الاعتماد الرئيس على روايات سيف بن عمر:

يعد الراوي سيف بن عمر أغزر مصدر للأخبار المتعلقة بعبد الله بن سبأ. وتتصف رواياته بالتفاصيل الكثيرة التي لا توجد عند غيره. لكن النقاد القدماء اتفقوا على تضعيف سيف بن عمر، ووصفه بعضهم بالوضع⁽⁶⁾.

(1) - حسين مؤنس، المرجع السابق ، ص 118.

(2) - شاكر مصطفى، المرجع السابق ، ص 235.

(3) - الدوري، المرجع السابق ، ص 112.

(4) - المرجع نفسه، ص 115.

(5) - حسين مؤنس، المرجع السابق ، ص 130.

(6) - العسقلاني، لسان الميزان ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، 1971 ، ج 3 ، ط 2 ، ص 10.

ويترتب على ذلك أن الصورة التي رسمها الطبري وغيره عن ابن سبأ تستند بدرجة كبيرة إلى رأي ضعيف، مما يُضعف البناء التاريخي للروايات نفسها.

2. تغييب ذكر ابن سبأ في أهم مصادر القرن الأول والثاني:

من الملاحظ أن أقدم المؤرخين والمحدثين مثل ابن شهاب الزهري، وموسى بن عقبة، والواقدي - لا يذكرون شخصية ابن سبأ.

وغياب شخصية يُفترض أنها لعبت دوراً ضخماً في مقتل خليفة راشد، يعدّ ثغرة تاريخية يصعب تجاهلها⁽¹⁾.

3. حضور ابن سبأ في مصادر القرن الثالث وما بعده:

بدأ ظهور الأخبار عنه بوضوح أكبر في كتب القرن الثالث مثل تاريخ الطبري وأنساب الأشراف، لكن التحليل النقدي يكشف أن المادة الأساسية حوله مستمدة أيضاً من سيف بن عمر، وإن بأسانيد متباينة.

- ثانياً: آراء المؤرخين والباحثين حول وجود عبد الله بن سبأ

1. القائلون بوجوده وتأثيره

يتبنى عدد من علماء التراث وجوده، ومنهم الطبري والبلاذري وابن كثير⁽²⁾ ويرى بعض المستشرقين، مثل المؤرخ برنارد لويس، أن ابن سبأ ربما كان موجوداً ولكنه لم يكن بتلك الأهمية التي تصنعها الروايات المتأخرة⁽³⁾.

(1)- الطبري، المصدر السابق ، ج 4، ص 340.

(2)- ابن كثير، البداية والنهاية، دار ابن كثير ، بيروت ، 2010 ، ج 7، ص 167.

(3)- برنارد لويس، أصول الإسماعيلية، مطبعة جامعة كامبريدج، 1940، ص 45.

2. المشككون أو النافون لوجوده

أ. المستشرقون:

يرى جوليوسفلهاوزن أنّ شخصية ابن سبأ (مفبركة) وأن سيف بن عمر هو من خلقها في سياق تفسير الفتنة⁽¹⁾.

كما تؤكد الباحثة نابيا أبوت أن الروايات المتعلقة به لا تعتمد على مصادر مبكرة موثوقة⁽²⁾.

ب. باحثون عرب ومسلمون:

ذهب الدكتور طه حسين إلى أن ابن سبأ شخصية لا يمكن الوثوق تاريخياً بوجودها، مبينا أن الروايات عنه لا ترقى إلى مستوى الحجة⁽³⁾ ويرجح باحثون معاصرون أن شخصية ابن سبأ استخدمت لاحقاً لتفسير أحداث معقدة عبر إرجاعها إلى مصدر خارجي.

- ثالثاً: السياق السياسي والاجتماعي السابق لمقتل عثمان ؓ:

حتى لو وجد ابن سبأ، فإن الأسباب الحقيقية للفتنة كانت أعمق وأوسع من مجرد مؤثر فردي واحد، ويمكن تلخيص أبرز تلك الأسباب:

1. التوترات الاجتماعية في الأمصار:

بالرغم من توسع الدولة وزيادة الغنائم، شعر كثير من أهل الأمصار خاصة مصر والكوفة بأنهم لا يحظون بقدر كافٍ من الامتيازات مقارنة بأهل المدينة⁽⁴⁾.

(1) - جوليوسفلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، كلكتا، 1927، ص 52.

(2) - نابيا أبوت، دراسات في البرديات الأدبية العربية، جامعة شيكاغو، 1957، ص 199.

(3) - طه حسين، الفتنة الكبرى - عثمان، دار المعارف، القاهرة، 1966، ص 137.

(4) - عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مكتبة المثنى، بغداد، 1949، ص 112.

2. الشكاوى من عمال عثمان ؓ :

اشتكى الناس من بعض الولاة، مثل الوليد بن عقبة وعبد الله بن أبي السرح، واعتبروا أنهم ظلموا العامة، وقد حاول عثمان إصلاح بعض الأمور، لكنه تأخر أحياناً في عزل الولاة، مما فاقم الاحتقان⁽¹⁾.

3. الصراع القبلي المتنامي:

برز التنافس بين قريش والأنصار، وكذلك بين القبائل العربية المختلفة التي دخلت المدن الجديدة. وقد بينت باحثة مثل باتريشيا كرونه أن هذا العامل كان أكثر تأثيراً من أي شخصية فردية⁽²⁾.

4. ضعف المركز نتيجة اتساع الدولة:

يشير بعض الباحثين إلى أن سلطة الخليفة أصبحت أقل قدرة على ضبط الأطراف بسبب اتساع رقعة البلاد الإسلامية⁽³⁾.

وهو ما سمح بظهور حركات متطرفة، بدون قدرة مركزية كافية لاحتوائها.

– رابعاً: قتلة عثمان ؓ ودور ابن سبأ المزعوم:

1. تركيبة المجموعات التي قامت بالقتل:

تكوّنت الجماعات التي اقتحمت دار عثمان من أهل مصر بشكل رئيس، ومعهم عناصر من الكوفة والبصرة. وكانت مطالبهم:

- عزل بعض الولاة.
- إقامة العدل في توزيع الأموال.
- النظر في شكاياتهم تجاه بعض القرشيين.

وقد أجمع معظم الباحثين أن هذه المجموعات لم تكن ذات قيادة موحدة⁽¹⁾.

(1) – الكندي، ولاية مصر، تحقيق: حسين نصار، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج1/ص17؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف، 1969م، ج1/ص202؛ ابن الأثير، الكامن في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ج3/ص124؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، تحقيق: محمد الرافعي، مطبعة النيل/، القاهرة، 1904، ج1/ص35؛ البلاذري، المصدر السابق، ج5، ص77-83.

(2) – باتريشيا كرونه، العبيد على ظهور الخيل، مطبعة جامعة كامبريدج، 1980، ص18-21..

(3) – هيو كينيدي، النبي وعصر الخلافت، بيرسون، 2004، ص77..

2- هل قادهم عبد الله بن سبأ ؟

الرواية التقليدية تزعم أن ابن سبأ تزعم حركة التحريض⁽²⁾.

المبحث الثالث: الوفود ومعارضة الأمصار في أواخر عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ؓ:

أولاً: الوفود إلى الخليفة عثمان ؓ :

1. تعريف الوفود وأهدافها:

كانت الوفود ممثلة للمناطق المختلفة، مثل مصر، والكوفة، والبصرة، تأتي لمدينة رسول الله ﷺ المدينة المنورة لإيصال شكاوى الناس أو طلب العدل في قضايا محلية⁽³⁾.

وتهدف هذه الوفود إلى عرض مظالمهم على الخليفة مباشرة، لعدم ثقتهم بالولاة المحليين في الأمصار.

2. أبرز الوفود المعروفة:

وفد مصر: قدم عدة شكاوى حول ظلم الولاة المحليين، وخاصة في توزيع الأموال والضرائب⁽⁴⁾.

وفد الكوفة: اشتكى من سوء إدارة بعض المسؤولين، مثل عطاء بن أبي السرح، وطلب تعديل الأوضاع الإدارية⁽⁵⁾.

وفد البصرة: نقل مظالم مشابهة، مع طلب تدخل الخليفة لتصحيح الظلم وتحقيق العدالة⁽⁶⁾.

3. طبيعة استقبال الخليفة للوفود:

كان عثمان يحاول الاستماع للشكاوى ومعالجتها، لكنه تأخر أحياناً في تلبية مطالبهم أو إزالة بعض الولاة، مما زاد الاحتقان⁽¹⁾.

(1) - الطبري، المصدر سابق، ج 4، ص 345.

(2) - ابن كثير، المصدر السابق، ج 7، ص 167.

(3) - العسقلاني، المصدر السابق، ج 3، ص 10.

(4) - الطبري، المصدر السابق، ج 4، ص 340.

(5) - الأندلسي، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، تحقيق: أحمد فريد وأحمد فتحي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص 58؛

البلاذري، المصدر السابق، ج 5، ص 77-83.

(6) - الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م، ص 385؛ الدوري، المرجع السابق، ص 112.

ثانياً: مظالم الأمصار وأسباب المعارضة:

1. أسباب اقتصادية:

- ارتفاع الضرائب أو سوء توزيع الغنائم والموارد بين الأقاليم⁽²⁾.
- استيلاء بعض الولاة على أموال الناس بطرق غير عادلة⁽³⁾.

2. أسباب إدارية:

- محاباة بعض الولاة لأقاربهم أو قبائلهم على حساب العامة⁽⁴⁾.

3. أسباب اجتماعية:

- التوترات القبلية بين أبناء المدينة والقبائل الوافدة شعور بعض السكان بالإهمال أو الإقصاء السياسي⁽⁵⁾.

ثالثاً: تحليل دور الوفود في تصعيد الأزمة

1. الوفود كحلقة وصل:

- كانت الوفود تعمل كوسيط بين الأمصار والخليفة، وتنقل مطالب الجماهير واحتياجاتهم مباشرة⁽⁶⁾.

(1) - ابن منظور، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، 2003م، ج16/ص77؛ طه حسين، المرجع السابق، ص 137.

(2) - ابن كثير، المصدر السابق، ج 7، ص 167.

(3) - البلاذري، المصدر السابق، ج 5، ص 80-81.

(4) - ابن كثير، المصدر السابق، ج 7، ص 170.

(5) - ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (د.ت)، ج3/ص161؛ محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011م، ص157؛ باتريشيا كرونه، العبيد على ظهور الخيل، مطبعة جامعة كامبريدج، 1980، ص 18-21.

(6) - طه حسين، المرجع السابق، ص 138.

2. تأثير الوفود على الرأي العام:

نقل الأخبار والاحتجاجات من الأمصار المختلفة إلى المدينة، ما أدى إلى **تعبئة الرأي العام ضد بعض الولاة والخليفة أحياناً⁽¹⁾.

توسيع نطاق المظالم من محلية إلى عامة، وبالتالي خلق حالة من التوتر السياسي.

3. الوفود ومحدودية الحلول:

بالرغم من حسن نية بعض الوفود، فإن غياب حلول مستدامة أدى إلى تصاعد الاحتجاجات وتحولها إلى أعمال عنف في بعض الحالات⁽²⁾.

رابعاً: تطور الأحداث نحو الفتنة الكبرى:

1. تزايد الاحتجاجات:

احتجاجات الوفود المتكررة أوصلت رسالة مفادها أن الوضع غير مقبول تمثل هذا في أحداث الكوفة والبصرة ومصر، التي أرسلت وفوداً متكررة تعبر عن سخط السكان.

2. الدور السياسي للوفود:

لم تكن الوفود مجرد ناقلة للشكاوى، بل أصبحت عنصر ضغط سياسي على الخليفة لتغيير السياسات أو عزل بعض الولاة⁽³⁾.

3. نتيجة التصعيد:

الفشل في معالجة مشاكل الوفود بشكل عاجل أدى إلى احتشاد بعض المحتجين أمام دار الخليفة في المدينة، مما ساهم في الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان⁽⁴⁾.

(1) - هيو كينيدي، النبي وعصر الخلافت، بيرسون، 2004، ص 77.

(2) - الطبري، المصدر سابق، ج 4، ص 345

(3) - الدوري، المرجع سابق، ص 115.

(4) - البلاذري، المصدر سابق، ج 5، ص 83.

المبحث الرابع: حقيقة التحكيم وموقف كبار الصحابة:

بعد معركة صفين بين جيش الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وجيش معاوية بن أبي سفيان عليه السلام، سنة (37هـ/657م)، وصل الطرفان إلى طريق التحكيم لحل النزاع، إثر تراكم القتال وخسائر كبيرة في الأرواح.

وقد أثار التحكيم جدلاً واسعاً بين المسلمين آنذاك، وترك أثراً عميقاً على التاريخ السياسي الإسلامي، وظهور الخوارج، الذين رفضوا التحكيم واعتبروه تنازلاً عن حق علي عليه السلام الشرعي في الخلافة⁽¹⁾.

أولاً: حقيقة التحكيم:

التحكيم في صفين كان اتفاقاً على فض النزاع بالرجوع إلى حكم شخصين: أحدهما عن علي والآخر عن معاوية.

• ممثل علي: عبد الله بن عباس عليه السلام .

• ممثل معاوية: عمرو بن العاص عليه السلام ⁽²⁾.

الغرض كان النظر في مسألة مقتل عثمان بن عفان عليه السلام، وتحديد ما إذا كان علي عليه السلام مسؤولاً أو إذا كانت هناك إجراءات أخرى يجب اتباعها.

لكن المشكلة العملية أن التحكيم لم يحسم النزاع فعلياً، بل أدى إلى مزيد من الانقسامات:

1. بعض الصحابة رأوا في التحكيم تجاوزاً على حق الله، ورفضوا المشاركة، وبرزت حركة الخوارج.

2. آخرون اعتبروا التحكيم محاولة للحفاظ على وحدة الأمة ومنع سفك المزيد من الدماء⁽³⁾.

(1) - الطبري، المصدر السابق، ج 3، ص 190.

(2) - البلاذري، المصدر السابق، ج 2، ص 132.

(3) - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 122.

ثانياً: موقف كبار الصحابة والخوارج من التحكيم:

1. الإمام علي بن أبي طالب ؑ :

- وافق على التحكيم بعد ضغط من بعض الصحابة وكبار الجيش، مع شعور داخلي بأن الحكم يجب أن يكون لله وحده.
- لاحقاً، عبر عن استيائه من تمادي عمرو بن العاص في الاستغلال السياسي للتحكيم، ورفض الحكم الجزئي الذي صدر⁽¹⁾.

2. عمرو بن العاص ؑ :

- كان ممثل معاوية، واستغل التحكيم لكسب ميزة سياسية، فأظهر مهارة في المفاوضات وتحويل بعض نقاط القوة لصالح معاوية.
- كان يعتبر التحكيم فرصة لحماية مصالح الدولة الأموية وتثبيت سيطرة معاوية⁽²⁾.

3. عبد الله بن عباس ؑ :

- عُرف بالحيادية النسبية، وكان يهدف إلى العدالة في التحكيم، لكنه كان مضطراً للعمل ضمن ضغوط سياسية كبيرة.
- لاحقاً، عبر عن خيبة أمله من نتيجة التحكيم، لكنه حافظ على احترامه للشرعية الدينية والسياسية⁽³⁾.

(1) - الدوري، المرجع السابق ، ص 65.

(2) - شاكر مصطفى، المرجع السابق ، ص 212.

(3) - ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المؤتمر للتوزيع، الرياض(د.ت)، ج2/ص590؛ الدينوري، الأخبار الطوال، مطبعة بريل، ليدن، 1988م، ج3/ص204؛ مفتاح يونس الرباضي، الفتنة الكبرى، (قراءة تاريخية تبرز حقيقة الخلاف بين الصحابة ودور بن سبأ في الفتنة)، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2016م، ص321؛ شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص 214.

4. الخوارج:

- رفضوا التحكيم رفضاً قاطعاً، معتبرين أن الحكم لله وحده، وأن الرضا بالتحكيم بمثابة خروج عن حدود الله، منهم: عبد الله بن وهب بن عبد الله والنهديون في الكوفة⁽¹⁾.

ثالثاً: تداعيات التحكيم على الفتنة الكبرى

1- انقسام المسلمين إلى ثلاث فئات:

- مؤيدو علي: استمروا في الولاء للخليفة، رغم خيبة الأمل من التحكيم.
 - مؤيدو معاوية: اتخذوا التحكيم فرصة لتأكيد الشرعية الأموية.
 - الخوارج: خرجوا على علي بعد التحكيم واعتبروه خضوعاً للظالم⁽²⁾.
- التحكيم كشف عن مشكلة مركزية، هل يجوز للصحابة التفويض في الحكم في مسألة مثل قضية عثمان وهل يُعتبر رفض التحكيم خروجاً عن الشريعة أم موقفاً عدلياً⁽³⁾.

رابعاً: تقييم موقف الصحابة تاريخياً:

- كثير من المؤرخين يرون أن الإمام علي رضي الله عنه، لم يكن مرتاحاً للتحكيم، لكنه كان مضطراً للحفاظ على وحدة المسلمين⁽⁴⁾.
- عمرو بن العاص رضي الله عنه، استغل الوضع لتحقيق مكاسب سياسية، مما يعكس تطور الدولة الأموية في إدارة الصراعات⁽⁵⁾.
- الخوارج يُنظر إليهم تاريخياً كفصيل متطرف أوجد شرخاً طويلاً بين المسلمين، بسبب موقفهم المتشدد من التحكيم⁽⁶⁾.

(1) - الطبري، المصدر السابق، ج 3، ص 215.

(2) - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 125.

(3) - الدوري، المرجع السابق، ص 67.

(4) - المرجع نفسه، ص 70.

(5) - شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص 218.

(6) - المرجع نفسه، ص 220.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث، يتبين أن دراسة الفتنة الكبرى تتطلب رؤية نقدية متوازنة تجمع بين تحليل الأخبار الواردة في المصادر القديمة، وفهم السياقات السياسية والاجتماعية التي أثرت في صياغتها. فقد اتضح أن الإخباريين أدوا دوراً مهماً في نقل أحداث تلك المرحلة، إلا أن رواياتهم حملت آثار الانتماءات المذهبية والسياسية، مما يستوجب إخضاعها لمنهج نقد الإسناد والمتن والمقارنة.

كما أظهر البحث أن شخصية عبد الله بن سبأ على الرغم من حضورها القوي في المصادر المتأخرة تفتقر إلى التوثيق في المصادر المبكرة، وأن الاعتماد الكبير على روايات سيف بن عمر يجعل كثيراً من الأخبار المرتبطة بها محل تشكيك علمي. وتبين كذلك أن الوفود ومظالم الأمصار كانت نتيجة تراكمات اجتماعية وإدارية عميقة، لا مجرد تأثير شخص أو حركة بعينها، وأن الاحتقان السياسي كان كفيلاً بتفجير الوضع الداخلي في الدولة الإسلامية.

أما التحكيم، فقد ظهر كخيار اضطراري لوقف النزاع، لكنه لم يحقق الإجماع المطلوب، بل أدى إلى انشقاق جديد تمثل في ظهور حركة الخوارج، مما عمق الأزمة السياسية في المجتمع الإسلامي.

وبذلك يخلص البحث إلى أن معالجة أحداث الفتنة الكبرى لا بد أن تقوم على قراءة منهجية تجمع بين الرواية التحليلية والنقد العلمي، مع الابتعاد عن الإسقاطات المذهبية، للوصول إلى فهم موضوعي لهذه المرحلة الحساسة من تاريخ الإسلام.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

1. الأندلسي، محمد بن يحيى، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، تحقيق: أحمد فريد وأحمد فتحي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.
2. ابن الأثير، علي بن محمد، الكامن في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.
3. ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1971م.
4. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المؤتمر للتوزيع، الرياض (د.ت).
5. أحمد بن يحيى، البلاذري، أنساب الأشراف، دار الفكر، بيروت، 1996م.
6. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر والمغرب، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (د.ت).
7. الدينوري، أبو حنيفة أحمد، الأخبار الطوال، مطبعة بريل، لندن، 1988م.
8. الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.
9. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011م.
10. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق: محمد الراجحي، مطبعة النيل، القاهرة، 1904م.
11. ابن كثير، الحافظ عماد الدين، البداية والنهاية، دار ابن كثير، بيروت، 2010م.
12. الكندي، محمد بن يوسف، ولاية مصر، تحقيق: حسين نصار، دار صادر، بيروت، (د.ت).
13. محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1968م.
14. ابن منظور، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، 2003م.
15. ابن الوردي، زين الدين عمر، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف، 1969م.
16. ابن النديم، الفهرست، تحقيق: يوسف علي الطويل، دار الكتب لعلمية، بيروت، 2002م.

ثانياً: المراجع:

- 1- نابيا أبوت، دراسات في البرديات الأدبية العربية، جامعة شيكاغو، 1957م.
- 2- باتريشيا كرونه، العبيد على ظهور الخيل، مطبعة جامعة كامبريدج، 1980م.
- 3- برنارد لويس، أصول الإسماعيلية، مطبعة جامعة كامبريدج، 1940م.
- 4- جوليو سفلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، كلكتا، 1927م.
- 5- حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون في الحضارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، 1984.
- 6- طه حسين، الفتنة الكبرى - عثمان، دار المعارف، القاهرة، 1966م.
- 7- عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.
- 8- عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005م.
- 9- عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مكتبة المثنى، بغداد، 1949م.
- 10- مفتاح يونس الرباضي، الفتنة الكبرى، (قراءة تاريخية تبرز حقيقة الخلاف بين الصحابة ودور بن سبأ في الفتنة)، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2016م.
- 11- محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011م.
- 12- هيو كينيدي، النبي وعصر الخلافت، بيرسون، 2004م.

بحث بعنوان :

**الاستعانة بنصارى الأندلس في عصر الولاة والإمارة الأموية
(وظيفة القومس أنموذجاً)**

Seeking the Assistance of Andalusian Christians during the Era of the
Governors and the Umayyad Emirate:
(The Office of the Qumis as a Case Study)

إعداد :

د. هدى حسن النيهوم

Prepared by Dr. Huda Hassan Al-Nihoum

أستاذ مشارك قسم التاريخ - جامعة بنغازي
hoda0elnihome@uob0edu0ly

المدقق اللغوي : د فدوى إبراهيم ثابت - جامعة بنغازي

ملخص

اتبع العرب المسلمون منذ فتوحاتهم الأولى سياسة رشيدة أدت إلى تقبل أهل البلاد المفتوحة لسلطانهم، وقد استندت هذه السياسة على مبدأ الحرية الدينية الذي يحمل في طياته الإقرار بحق الشعوب الخاضعة للمسلمين في المحافظة على معتقداتها، وكذلك أنظمتها الإدارية والقضائية، وتوفير الحماية لهم في السلم والحرب مقابل إعطاء الجزية، مما ساعد على تحقيق التعايش الحضاري بين الأعراق والأديان المختلفة.

وتهدف هذه الدراسة إلى بيان الحقوق التي تحصل عليها النصارى من خلال معاهدات الصلح، وتعاونهم مع المسلمين في إدارة البلاد، واعتمدت المنهج التاريخي السردى، وخلصت إلى أن القوامس كانوا حلقة الوصل بين النصارى والسلطة الحاكمة، حيث كان من مهامهم إدارة الشؤون الداخلية لجماعاتهم من الإشراف على الكنائس وجمع أموال الجزية والخراج وأعشار التجارة. وكان يعاونهم عدد من الموظفين الإداريين مثل حامي المدينة وصاحب الشرطة والأمين المسؤول عن أصحاب الحرف، كما أن القوامس كانوا في بعض الأحيان يؤدون للسلطة الحاكمة وظائف أخرى إلى جانب وظيفتهم الأصلية.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، النصارى، معاهدات الصلح، وظيفة القومس.

Summary

From the beginning of their conquests, the Muslim Arabs implemented a logical strategy that resulted in the conquered peoples accepting their rule. This policy was founded on the concept of religious liberty, acknowledging the rights of non-Muslim peoples to maintain their faith, laws, and protection in times of peace and conflict by paying tribute. This contributed to fostering harmonious coexistence among diverse races and religions.

This study aims to clarify the rights that Christians obtained through peace treaties, as well as their cooperation with Muslims in the administration of the country. It adopts a narrative historical approach and concludes that the *qawamis* served as a link between the Christians and the ruling authority. Their duties included managing the internal affairs of their communities, such as supervising churches and collecting *jizya*, *kharaj*, and trade tithes. They were also provided with a number of administrative officials, such as the city protector, the chief of police, and the trustee responsible for craftsmen. Additionally, the *qawamis* sometimes performed other functions for the ruling authority alongside their original role.

Keywords : Andalusia, Christians, peace treaties, the comis job.

هدفت اتفاقيات الصلح التي عقدها العرب مع النصارى في الأندلس إلى حفظ حقوقهم، وكذلك إيجاد نوع من التعاون مع السكان المحليين لتسهيل إدارة البلاد بعد فتحها، فكان لكل جماعة نصرانية في القرى والمدن رئيس يُعرف بالقومس يحكمهم، ويُدير أمورهم الداخلية، ويعاونه مجموعة من الموظفين الإداريين.

- تطرح هذه الدراسة الموسومة بـ "الاستعانة بنصارى الأندلس في عصر الولاة والإمارة الأموية (وظيفة القومس أنموذجاً) التساؤلات التالية:

- 1- ما الحقوق التي تحصل عليها النصارى من خلال معاهدات الصلح؟
- 2- هل تمكن العرب من تنظيم البلاد إدارياً والاستفادة من خبرات أهل البلاد المحليين؟
- 3- ماذا تعني وظيفة القومس، ومن أشهر القمامسة في الفترة موضوع الدراسة؟
- تهدف هذه الدراسة إلى بيان الحقوق التي تحصل عليها النصارى من خلال معاهدات الصلح وتعاونهم مع المسلمين في إدارة البلاد.
- تبدو أهمية الدراسة في أنها توضح أن التعاون الذي حصل بين الفاتحين والنصارى كان له أثره الواضح على تحقيق التعايش الحضاري بينهما.
- تكمن وراء اختيار هذا الموضوع للدراسة محاولة لإبراز الأندلس كنموذج فريد للقاء والتعايش الحضاري بين المسلمين والنصارى.
- اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التاريخي السردى.
- تنقسم هذه الدراسة إلى مقدمة، وخاتمة، وثلاثة مطالب على النحو التالي:
 - المطلب الأول: حقوق النصارى وواجباتهم من خلال معاهدات الصلح.
 - المطلب الثاني: الاستعانة بالنصارى في إدارة البلاد.
 - المطلب الثالث: أشهر قمامسة الأندلس.
- في الخاتمة سرد لأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، يتلوها ثبت بأهم المصادر والمراجع.

المطلب الأول

حقوق النصارى وواجباتهم من خلال معاهدات الصلح

شكل النصارى بعد الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية الغالبية العظمى من سكانها(*)؛ منهم من أسلم، ومنهم من فضل البقاء على دينه، وقد تم الإشارة إلى هذه الفئة في مصادرنا الإسلامية بالعديد من الأسماء مثل: **العجم، الأعلاج، القوط، أهل الذمة، المعاهدون**، أما تسمية **المستعربين Loz Mozarbes** (نصف عربي)، فلا نجد لها صدقاً في المصادر العربية القديمة، إنما جرى إطلاقها في ق 5هـ/11م من قبل نصارى الشمال على إخوانهم الذين عاشوا بين ظهرائي المسلمين وتعربت ألسنتهم⁽¹⁾.

وقد تم العثور على هذه التسمية في بعض العقود؛ حيث ورد لفظ مستعرب في إحدى وثائق ليون عام 415هـ/1024م، تحدث فيها الكاتب على ثلاثة مستعربين، حيث أشار هذا النص إلى النصارى المستعربين الذين وجدوا في ممالك الشمال منذ بدأت مملكة ليون حملاتها التوسعية وحتى سقوط طليطلة عام 478هـ/1085م⁽²⁾.

تُشير تسمية **(المعاهدين من النصارى)** إلى أن هؤلاء قبلوا الاستسلام للفاتحين، وأن كل ناحية من نواحي الأندلس فُتحت صلحاً، صالحت عن نفسها بمعاهدة خاصة، وإن اختلفت هذه المعاهدات في الصياغة، إلا أنها قامت على قاعدة واحدة من حفظ حقوق النصارى وتأمينهم على أرواحهم، وممتلكاتهم، ومعتقداتهم (الآريوسية أو الكاثوليكية) مقابل التعهد بدفع الجزية وعدم التعاون مع الأعداء ضد المسلمين، وللأسف فقد ضاعت معظم نصوص المعاهدات التي عقدها الفاتحون مع السكان المحليين، ويمكن من خلال بعض النصوص التاريخية التي وصلتتنا التعرف على ما تم الاتفاق عليه بين الطرفين:

(*) وقع خلاف بين الباحثين المحدثين حول تقدير عدد السكان المحليين زمن الفتح، حيث تتراوح تقديراتهم ما بين سبعة وعشرة ملايين نسمة = ك. بويكا، المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ترجمة نايف أبو كرم، (دمشق، منشورات علاء الدين، 1999)، ص13.

(1) ميكيل دي إيبالزا، المستعربون أقلية مسيحية مهمة في الأندلس المسلمة، ترجمة يعقوب دواني، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، إشراف سلمى الخضراء الجيوسي، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998)، ص234.

(2) مريثدس غارشيا أرينال، شِئات أهل الأندلس، ترجمة محمد فكري عبد السميع، (القاهرة، المشروع القومي للترجمة، 2006)، ص33.

1- اتفقت ايجلوننا - أرملة لذريق - بالفاتحين، وصالحت على نفسها وأموالها. يقول ابن القوطية: وكانت قد صالحت عن نفسها وأموالها وقت الفتح، وباءت بالجزية(*)، وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبدالعزيز⁽¹⁾.

2- اتصل أولاد الملك غيطشة (أخيلا، المند، أرتباش) بطارق أثناء معركة شذونة (وادي لكه)، وصالحوا عن أنفسهم، وطلبوا الأمان، وحيازة أملاك والدهم، ويفصل ابن القوطية في افتتاحه أمر هذه المصالحة فيقول: "وأرسلوا من ليلتهم تلك إلى طارق يسألونه الأمان... وأن يمضي لهم ضياع أبيهم بالأندلس، وكانت ثلاث آلاف ضيعة، فسُميت بعد ذلك بصفايا الملوك"⁽²⁾، وسألوه الكتاب إلى موسى بصفته القائد الأعلى بما تم الاتفاق عليه، وعندما تقابلوا مع موسى بن نصير - وكان في طريقه إلى الأندلس عام 93هـ/712م وجههم إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأنفذ لهم عهد طارق وموسى، وعقد لكل واحد منهم سجلاً بذلك، وكانت سجلاتهم "ألا يقوموا إلى داخل عليهم ولا خارج إليهم"⁽³⁾، أي لا يتحالفوا مع أعداء المسلمين، ويؤكد ابن الشباط محافظة أبناء غيطشة على عهودهم مع المسلمين واحتفاظهم بأموالهم "فكانوا بهذه الصلة على هذا الحال دولة الأمراء بالأندلس"⁽⁴⁾.

3- صلح أهل ماردة مع موسى: تمت الإشارة إلى هذا الصلح في بعض المصادر الإسلامية، فابن أبي الفياض أوجز عندما قال: "وبعث الأعلاج رسلاً إلى موسى بن نصير بالصلح"⁽⁵⁾، أما ابن عذاري فقد أوضح قليلاً ما تمت المصالحة عليه عندما قال: "وانعقد أمرهم على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الغائبين بجليقية وأموال الكنائس ... ذلك كله

(*) المرأة لا جزية عليها، إلا إذا تبرعت بها وتقبل منها وتعتد لها الذمة، ولها الرجوع متى شاءت = أبو عبدالله شمس الدين بن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، تحقيق يوسف البكري وشاكر العاروري، (الدمام، رمادي للنشر، 1997)، 156/1.

(1) أبو بكر محمد بن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، ط2 (القاهرة، دار الكتاب المصري، 1989)، ص30.

(2) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص29.

(3) المصدر نفسه، ص30.

(4) تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط - "نصان جديان"، تحقيق أحمد مختار العبادي (مريد، معهد الدراسات الإسلامية، 1971) ص169.

(5) أبو بكر سعيد بن أبي الفياض، قطعة من كتاب العبر، تحقيق عبدالواحد ذنون طه، دراسات في التاريخ الأندلسي، (بيروت، دار المدار الإسلامي، 2004)، ص145.

للمسلمين⁽¹⁾، وهناك نص مهم حول هذا الصلح يعتبر أكثر النصوص تفصيلاً ورد في القطعة الباقية من تاريخ الرازي في ترجمته الإسبانية: "فذهبوا (أهل ماردة) إليه وقالوا إنهم يتركون له كل ما كان لمن مات منهم ومن خرج وممتلكات الكنائس وما فيها، كذلك ما تحويه من الأحجار الكريمة وغيرها من الأشياء الطيبة، وكل ممتلكات رجال الدين، وبعد أن تم التوقيع على ذلك في عهود صحيحة فتحو له الأبواب وأدخلوه البلد وأسلموه إياها، ولم يمس المسلمون من أقام في البلد من النصارى بأذى، وأما من أراد ترك البلد منهم فتركوه يمضي دون أذى"⁽²⁾.

بناءً على هذه النصوص فإن المسلمين في صلحهم مع أهل ماردة لم يأخذوا سوى متعلقات الكنائس وتحفها، وأموال القتلى، والفارين مقابل تأمين النصارى على أرواحهم وممتلكاتهم، وترك كامل الحرية لهم في البقاء أو المغادرة.

4- صلح أهل جليقية مع موسى: لم تفصل المصادر الإسلامية الحديث حول هذا الصلح، والتزمت الصمت حيال ما تم الاتفاق عليه بين الطرفين، وكل ما تذكره بهذا الشأن "وجاء أهل جليقية يطلبون الصلح من موسى فصالحهم"⁽³⁾.

5- صلح تُدمير: يُعد نص معاهدة الصلح التي عقدها عبدالعزيز بن موسى بن نصير مع تُدمير Teodomiro^(*) حاكم مرسية من النصوص الفريدة بالنسبة للمعاهدات التي عقدها العرب مع غير المسلمين في الأندلس، وهو يدل دلالة قاطعة على مدى التسامح الذي تميز به الفاتحون في معاملتهم للشعوب التي فتحوا بلادها، ومن حسن الحظ فإن هذا النص وصلنا كاملاً في ثلاثة مصادر أندلسية: فقد ورد عند العذري ت 478هـ/1085م في نصوص عن الأندلس وعند الضبي ت 599هـ/1202م في بغية الملتبس، والحميري ت 726هـ/1325م في

(1) أبو عبدالله محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان، وليفي بروفنسال، (بيروت، الدار العربية للكتاب، 1983)، 15/2.

(2) حسين مؤنس، فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية)، ط4 (القاهرة، دار الرشد، 2008) ص354 (بدون تصرف).

(3) ابن عذاري، البيان، 6/2، أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس (بيروت، دار صادر، 1988) 270/1.

(*) تُدمير من كبار قواد غيطشة، وكذلك لذريق؛ قال عنه ابن حبيب: "وكان ملك الأندلس وقت نزول طارق بها قد غزا عدواً له، واستخلف ملكاً من ملوكه يسمى تُدمير، وكانت تُدمير (مرسيه) يومئذ كلها له، فلذلك سُميت به، ونُسبت إليه" = عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن حبيب، كتاب التاريخ، تحقيق عبدالغني مستو، (بيروت، المكتبة العصرية، 2004)، ص143.

الروض المعطار، ويكاد يكون النص واحداً في المصادر الثلاثة مع اختلافات طفيفة لا تغير في المعنى العام للنص.

نص المعاهدة:

"هذا كتاب من عبدالعزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غندريس إذ نزل على الصلح، أن له عهد الله وميثاقه وما بعث به أنبياءه ورسله، وأن له ذمة الله عز وجل وذمة محمد (ﷺ)، ألا يقدم له وألا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء، وأن لا يسبون ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم، ولا يقتلون، ولا تحرق كنائسهم، ولا يكرهون على دينهم، وأن صلحهم على سبع مدائن ... وأنه لا يدع حفظ العهد، ولا يحل ما انعقد ويصحح الذي فرضناه عليه وألزمناه أمره، ولا يكتننا خبراً علمه، وأن عليه وعلى أصحابه غرم ذلك على كل حر: دينار وأربعة أمداد من القمح وأربعة أمداد من شعير، وأربعة أقساط خل، وقسطا عسل، وقسط زيت، وعلى كل عبد نصف ذلك"⁽¹⁾.

هدفت هذه المعاهدة إلى:

- 1- إيجاد نوع من التعاون مع السكان المحليين لتسهيل إدارة البلاد بعد فتحها، فقد تم الاعتراف بتدمير حاكماً على المدن السبعة التي تقع ضمن ولايته، حيث احتفظ بإدارته الداخلية لهذه المدن شريطة دفع الجزية المتكونة من مبلغ مالي ومقادير معينة من الطعام.
- 2- تعهد تدمير بحفظ العهد وإلزام رعيته على احترام ما تم الاتفاق عليه مع المسلمين.
- 3- أن لا يتعاون مع أعداء المسلمين وأن لا يقوم بأي عمل من شأنه الإضرار بمصالح

(1) أحمد بن عمر بن أس العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبدالعزيز الأهواني، (مريد، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1965)، ص4-5.

- أحمد بن محمد بن عميرة الضبي، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق إبراهيم الإيباري، (القاهرة، دار الكتاب المصري، 1989)، 340/1.

- أبو عبدالله محمد الحميري، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر ليفي بروفنسال، ط2 (بيروت، دار الجيل، 1988) ص8.

المسلمين في البلاد أو التآمر عليهم.

4- حفظ الحقوق الدينية والمدنية للنصارى، فقد تعهد العرب بأن لا يقتلوا أو يسبوا أو يفرقوا بين الأسرة الواحدة (حقوق الإنسان)، وألا يجردوا أحداً من ممتلكاته (حقوق التملك)، وأن يسمحوا لهم بممارسة شعائر دينهم وأن لا يمساو كنائسهم بسوء (الحرية الدينية).

5- بينت الاتفاقية أن العبد عليه نصف ما على الحر، مما كان له أثره على تحسن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لهذه الفئة وإقبالهم على اعتناق الإسلام.

وبهذا فإن سكان الكورة احتفظوا بكل ما يملكون، وحُفظت لهم حقوقهم، وتمتعوا بحرية تامة في ممارسة شعائر دينهم، ورغم أننا لا نملك نصوصاً أخرى لمعاهدات مشابهة عُقدت بين الفاتحين وسكان البلاد، إلا أنه يمكن تصور معاهدات أخرى عُقدت - لم تصلنا - لكنها كانت في ذات السياق من حفظ الحقوق، والواجبات بين الطرفين.

إن معاهدات الصلح أمثال صلح تُدمير؛ كان يُطلق عليها في كتب الفقه الإسلامي اسم "عقد الذمة" (*). وهو عقد مؤبد يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم، وتمتعهم بحقوقهم بشرط بذل الجزية المفروضة على الرؤوس⁽¹⁾، وقد حدد الماوردي في الأحكام السلطانية أن على أهل الذمة (يهود ونصارى) عند عقد الجزية شرطان أحدهما مستحق والآخر مستحب، فإما الشرط المستحق فهو يدور في إطار عدم المساس بالمقدسات الإسلامية؛ فلا يطعن الذمي في كتاب الله، ولا يُكذب الرسول أو يستهزئ به، أو يقدح في دين الإسلام، كذلك يلزم الذمي عدم التحرش بالنساء المسلمات، أو فتنة مسلم عن دينه، أو التعاون مع أعداء المسلمين، أما الشرط المستحب فهو يتعلق بتمييز أهل الذمة بلباس خاص بهم يميزهم عن المسلمين، وأن تكون مبانيهم أقل ارتفاعاً من مباني المسلمين، وأن لا يرفعوا أصوات نواقيسهم، وعدم المجاهرة بشرب الخمر، أو إظهار الخنازير والصلبان في التجمعات وغيرها من الشروط التي لم توضع في الغالب

(*) الذمة بالكسر لفظ يُطلق على عدة معاني منها العهد، والميثاق، والكفالة، والضمان، والحق، والحرمة = أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، تحقيق نخبة من الأساتذة، (القاهرة، دار المعارف، د.ت)، ص1517.

(1) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المغربي والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، (الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981)، 223/2.

موضع تنفيذ من قبل السلطات الإسلامية⁽¹⁾.

يُعد عقد الذمة بحق الذمي غير لازم، ويمكن نقضه في إحدى الحالات التالية:

1- إسلام الذمي.

2- إذا لحق الذمي بدار الحرب.

3- إذا غلب العدو على موضع فخاربه المسلمون فيه⁽²⁾.

تبدو الحكمة من مشروعية هذا العقد في ترك منازعة غير المسلمين، والتعامل معهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن من أجل ترغيبهم في الإسلام، والطمع في دخولهم فيه⁽³⁾.

وهكذا فإن عقد الذمة يُعد عقداً ثنائياً، فمن جانب يحصل فيه غير المسلمين على حماية أنفسهم، وأموالهم، ويُسمح لهم بممارسة دينهم، ومن جانب آخر عليهم دفع الجزية، وعدم إهانة المقدسات الإسلامية، وعدم التجسس لصالح الأعداء.

المطلب الثاني

الاستعانة بالنصارى في إدارة البلاد

أوصى الرسول (ﷺ) بأهل الذمة خيراً؛ ولكنه مع ذلك نهى عن استشارتهم والأخذ برأيهم، فقد روى عنه أنه قال: "إنا لا نستعين بالمشرّكين"، و"لا تستضيئوا بنار المشرّكين"⁽⁴⁾، وقد سار عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على نهج الرسول (ﷺ) في عدم مشاوره أهل الكتاب، أو الاستعانة بهم، فكان يقول: "لا تستعملوا اليهود والنصارى"، ووبخ عامله في البصرة (الأشعري) عندما استخدم كاتباً نصرانياً، فقال له: "لا أكرمهم إذ أن أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أن أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله"، وتشدد مع عماله في هذا الشأن، وأرسل إليهم بمنعهم من الاستعانة بالموظفين الأعاجم قائلاً: "إنهم لنا غشش فأنزلوهم حيث أنزلهم الله، ولا تردوا إليهم شيئاً"⁽⁵⁾.

(1) أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية، (د.م، د.ت)، ص 184-185.

(2) أبو بكر الطرطوشي، سراج الملوك، (د.م، د.ت)، ص 137.

(3) أبو القاسم بن محمد بن مرزوق بن عظم التونسي، الإعلام بما أغفله الأعوام، رسالتان في أهل الذمة، تحقيق عبدالمجيد الخيالي، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2001)، هامش ص 66.

(4) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، ج 8 (السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، د.ت)، ص 43-44.

(5) الطرطوشي، سراج الملوك، ص 137.

لذلك ثار جدل كبير بين الفقهاء المسلمين حول هذا الموضوع، ويرى الغزالي أن الآية التي ورد فيها النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء (المائدة، رقم 51) تتحدث عن فرقة من أهل الكتاب تأمرت مع المنافقين، وليست الآية بصدد إصدار حكم عام على أهل الذمة⁽¹⁾.

لم يستمر الحال على ما كان عليه، فبداية من العصر الأموي بدأ التعامل مع أهل الذمة والاستتارة بأرائهم^(*) وخاصة في المجالات السياسية، والإدارية، والطبية، ومرد ذلك اتساع الدولة الإسلامية، وتطلب المصلحة العامة الاستفادة من رعايا الدولة بمن فيهم أهل الذمة، حيث تم استعمال بعضهم في دواوين الدولة لتمتعهم بشروط الكفاية الوظيفية، والعلم، والخبرة في معرفة لغات الأمم⁽²⁾.

وعلى الرغم من الجدل الذي ثار بين الفقهاء حول استشارة أهل الذمة من عدمه، فإن استشارتهم لا تُعد خروجاً عن التشريع الإسلامي، بل تدخل في باب استجابة الإسلام لتطور الحياة، فضلاً عن أن تقريب أهل الذمة واستشارتهم كان يؤدي في أحيان كثيرة إلى قبولهم الإسلام.

فيما يخص الأندلس فإن التعاون بين الفاتحين العرب وسكان الجزيرة من القوط، والإيبيريين الرومان، اتضحت معالمه منذ كان الفتح فكرة تختمر في أذهان الفاتحين، باتصال الكوت يُليان - حاكم سبته - بالعرب وعرضه عليهم المساعدة في الفتح، والقيام بحملة لجس النبض على الشواطئ الإيبيرية، ولتطمئن قلوب العرب، وتقديم الأدلاء والخبراء لتسهيل حركة الجيش الإسلامي في البلاد، وإمداده بالسفن التي عبر عليها، ثم اتصال أبناء الملك غيطشة بطارق أثناء معركة شذونة والحصول على الأمان، وعقد اتفاقية تضمن لهم حقوقهم كلها دلائل تؤكد مناصحة النصارى ومشاورتهم.

كما أن يليان ناصح طارق بعد المعركة الفاصلة - شذونة - واقترح عليه تقسيم الجيش

(1) محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ط6، (القاهرة، دار النهضة، مصر، 2005)، ص37.

(*) كان عمر بن عبدالعزيز متشدداً في هذا الأمر، فيروى أنه عندما بلغه أن أحد عماله استعمل رجلاً ذمياً أمره أن يدعو إلى الإسلام، فإن امتنع بصرفه عن الوظيفة = الطرطوشي، سراج الملوك، ص137.

(2) خيري الجوادي، "مشاورة أهل الذمة" دراسة تاريخية فقهية عامة، مجلة أبحاث، م11، ع1، (كلية التربية الأساسية، 2011)، ص293-296. ينظر أيضاً: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، (العصر العباسي الأول)، (القاهرة، دار المعارف، د.ت)، ص98.

الإسلامي إلى فرق لفتح عدة مدن في الجنوب في وقت واحد، بينما يتجه طارق بالقوة الكبرى نحو طليطلة لكي يفوت على القوط فرصة التجمع وتحشيد القوات، كذلك عندما عبر موسى بن نصير إلى الأندلس فاتحاً عام 93هـ/714م "طلب دليلاً من العجم يدلّه على البلاد لم يفتحها طارق"⁽¹⁾.

والمتتبع لسير عمليات الفتح يلاحظ قبول السكان المحليين بالفاتحين، والاستسلام، والقبول بالأمر الواقع، بل أن بعض المدن فُتحت بمساعدتهم، مثل مدينة قرطبة التي كان لأحد السكان المحليين دور واضح في إرشاد مغيث الرومي على ثغرة في سورها ولج منها الجيش الإسلامي، أو مدينة قرمونة الحصينة التي تشير الرواية الإسلامية إلى أن فتحها تم بحيلة من أدلاء يليان، حيث تقدمت جماعة منهم، أو من أبناء البلاد على هيئة الفارين من المعارك وطلبوا اللجوء "فقدم إليها علوجاً ممن قد أمنه واستأمن إليهم، مثل يليان ولعلمهم أصحاب يليان، فأتوهم على حال الإفلال معهم السلاح فأدخلوهم مدينتهم، فلما دخلوها بعث إليهم الخيل ليلاً، وفتحوا لهم الباب"⁽²⁾، ويُفهم من عبارة "فقدم إليها علوجاً ممن قد أمنه واستأمن إليه" انضمام عدد من سكان البلاد المحليين للمسلمين ومساهمتهم في إنجاز فتح بعض المدن، بما قدموه من معلومات ونصائح وإرشادات سهلت حركة الفاتحين في هذه البلاد المجهولة المترامية الأطراف.

على أن التأكيد على مناصحة النصارى ومشاورتهم في هذه الفترة لا يعني أننا نؤمن بالفكرة التي يحلو لبعض المستشرقين ترويجها، وهي أن الفتح الإسلامي للأندلس لم يكن أكثر من نزهة عسكرية⁽³⁾، أو أن الفاتحين - على حد تعبير أولافي - لم يحققوا ما حققوه إلا بفضل مناصحة النصارى "لم يعرف العرب أين يذهبون، فالمسيحيون هم الذين يقترحون لهم الأفكار، أما (الغزاة) فكانوا تحت رحمة السكان المحليين"⁽⁴⁾، وذلك أن الفاتحين رغم التعاون الذي حدث بينهم وبين بعض القوط، والإيبيريين الرومان من سكان البلاد، لاقوا مقاومة عنيفة من أنصار الملك لذريق، فكانت الاشتباكات تتجدد بينهم إلى

(1) مؤلف مجهول، وصف الأندلس وتاريخه، نشره حسين مؤنس، رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2000)، ص 64.

(2) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، تحقيق إبراهيم الإبياري، (القاهرة، دار الكتاب المصري، د.ت)، ص 24.

(3) خوان فيرنيت، فضل الأندلس على ثقافة الغرب، ترجمة نهاد رضا، (دمشق، دار إشبيلية للدراسات والنشر، 1979) ص 13.

(4) أغناسيو أولافي، العرب لم يغزوا الأندلس (رؤية تاريخية مختلفة)، ترجمة إسماعيل الأمين، (رياض الريس للكتب والنشر، 1991)،

أن تمكنت فلولهم من إعلان التمرد في الشمال والانفصال عن دولة الإسلام في الأندلس.

وظيفة القومس:

تمتع نصارى الأندلس بحقوقهم (المدينة والدينية)، فقد مُنحوا الحرية الدينية، واحتفظوا بكنائسهم وإدارة شؤونهم، والتناضي وفق قوانينهم⁽¹⁾، وهي - كما مر بنا - حقوق حفظتها معاهدات الصلح التي عقدها مع المسلمين زمن الفتح وعصر الولاة (92-138هـ/711-755م)، وعاشوا جنباً إلى جنب مع المسلمين في ود وتسامح، وكان لكل جماعة نصرانية في المدن والأرياف رئيس يُعرف بالقومس^(*) يحكمهم، ويدير أمورهم الداخلية، وهو منصب متوارث من أيام الرومان والقوط، أما قومس الأندلس فهو القومس الأعلى للبلاد، وحق تعيينه كان بيد الحاكم المسلم. أفاد العرب من النظام الإداري السائد في البلاد، فعملوا على تطويره، وباحوا للنصارى أن يسيروا في تنظيم أمورهم وفق أعرافهم وقوانينهم مادامت لا تتعارض مع الإسلام⁽²⁾. كان قومس المدينة يُنتخب من طرف مواطنيه في مدينته، ثم تصادق السلطات الإسلامية على اختياره، ثم يقوم باختيار قمامسة ينوبون عنه في القرى الداخلة في نطاق مدينته، ومن مهامه: الإشراف على الكنائس وجمع الجزية والخراج، وأعشار التجارة من نصارى مدينته⁽³⁾. وكان يعاون القومس مجموعة من الموظفين الإداريين النصارى لتسهيل عملية إدارة أمور الطائفة نذكر منهم:

1- حامي المدينة أو حارسها، وقد عُربت فيما بعد إلى صاحب المدينة.

2- المشرف، وهو موظف تُوكل إليه الشؤون المالية في الناحية.

3- مستخرج الخراج، وهو بمثابة رئيس الخزانة.

(1) Henry Edward Watis, *The Christian Recovery of Spain*, (New York, 1984), p. 10; C. R. Haines, *Christianity and Islam in Spain, 756-1031 AD*, (London, 1889), p. 19; Berhard and Ellen, M. Whishaw, *Arabic Spain* (Sidelights on her history and art), (London, 1912), p. 19-23.

(*) Coms كلمة لاتينية تعني مرافق الملك ونديمه، ثم صارت التسمية في أيام القوط والفرنجة خاصة بولاة الكور، ومنها اشتق اللفظ الإسباني Conde واللفظ الإفرنجي Conte = ابو محمد علي بن أحمد بن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، تحقيق عبد السلام هارون، ط5 (القاهرة، دار المعارف، د.ت)، هامش ص502.

(2) عبدالمجيد نعنعي، *تاريخ الدولة العربية في الأندلس (التاريخ السياسي)*، (بيروت، دار النهضة العربية، د.ت)، ص299.

(3) محيي الدين صفي الدين، *التعايش بين المسلمين والنصارى في الأندلس في ظل الدولة الأموية وملوك الطوائف*، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، (جامعة معسكر، 2019)، ص28.

4- صاحب الشرطة، وهو موظف موكل بالأمن في المدينة.

5- الأمين، وهو رئيس مسؤول عن أهل كل حرفة وضرائبهم أمام السلطات الإسلامية.

وأغلب هذه الوظائف موجودة في الجزيرة منذ أيام الرومان والقوط، وبعضها دخلت النظم الإسلامية مثل صاحب المدينة⁽¹⁾.

كان يُطلق على زعيم الجماعة النصرانية في قرطبة بالإضافة إلى تسمية قومس تسميات أخرى مثل: "متولي المعاهدين"⁽²⁾، ومن الصفات التي اشتهر بها قمامسة الأندلس حسب رواية ابن الخطيب: الحنكة، والدهاء، والمدارة، بالإضافة إلى الشهرة، والصيت الحسن، والجاه عند الحكام المسلمين: "يرأسهم أشياخ من أهل دينهم أولوا حنكة ودهاء ومدارة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم"⁽³⁾، وأضاف المقرئ بأن القومس يجب أن يتصف بالحلم، والسلطة على أهل طائفته، إذ يجب أن لا يرفضوا له أمراً، أو أن يخالفوه⁽⁴⁾، ومن خلال قضية أوردها ابن سهل في نوازل تبيين أن القومس بحكم وظيفته - وهي العمل على رعاية مصالح أبناء ملته - له الحق في تمثيلهم، والنيابة عنهم أمام القضاء الإسلامي، ولكن يجب أن يكون ذلك بوكالة مطلوبة ولازمة⁽⁵⁾.

وفي بعض الأحيان كان القومس يقوم بطلب من السلطات الإسلامية بتجنيد أبناء طائفته من المتطوعين بهدف تكوين وحدات عسكرية يتراوح أفرادها بين خمسين ومائة رجل للحفاظ على الأمن الداخلي أو المشاركة في الحملات العسكرية على المناطق المتمردة، أو الممالك الإسبانية في الشمال⁽⁶⁾، ولعل هذا ما جعل بعض المسلمين في المشرق يعيبون على بني أمية استخدامهم النصارى في بلادهم وتوليتهم أسمى المناصب⁽⁷⁾.

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 368-370؛ ج. س. كولان، الأندلس، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين، (بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980)، ص 94.

(2) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، (القاهرة، مطبعة الموسوعات، 1901)، 18/1.

(3) المصدر السابق، 20/1.

(4) المقرئ، نفح الطيب، 444/4.

(5) أبو الأصبغ بن سهل، وثائق في أحكام أهل النمة مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى، تحقيق محمد عبدالوهاب خلاف، (القاهرة، المركز العربي للإعلام، د.ت)، ص 24.

(6) صفى الدين، التعايش، ص 28.

(7) أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، ج 1، (مكتبة المهتدين الإسلامية، د.ت)، ص 84.

تذكر المصادر الإسلامية من القوامس القوط الذين عاصروا الفتح العربي الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية، القومس قَسَى (قومس الثغر الأعلى) الذي أسلم وسافر إلى المشرق ولقي الخليفة الوليد بن عبد الملك فصار من مواليه⁽¹⁾، ولكن ابن حزم الذي ذكر هذه الرواية لم يذكر بعد تأكيده لرابطة الولاء، ما إذا كان قَسَى احتفظ بمنصبه أو ساعد العرب في إدارة هذه المنطقة الثغرية المهمة، خاصة وأن الفاتحين في هذه المرحلة المبكرة من الاستقرار سعوا إلى الاستفادة من خبرات أهل البلاد والتعاون معهم في إدارتها، ولعل لمعان اسم هذه الأسرة فيما بعد في الثغر الأعلى (سرقسطة) يرجح أن قَسَى بعد إسلامه وحصوله على المنزلة الرفيعة (الولاء) احتفظ وأسرته بإدارة هذه الناحية.

يُذكر أن منصب القومس قبل الفتح كان مقتصرًا على القوط فقط، فلما أزال العرب حكم القوط صار القمامسة من أهل البلاد الأصليين، ويعلق مؤنس على ذلك قائلاً: "وكان الفتح الإسلامي رد إليهم اعتبارهم من هذه الناحية"⁽²⁾.

هكذا تمكن العرب في غضون سنوات قليلة من تنظيم الأندلس إدارياً والاستفادة من خبرات أبناء البلاد الأصليين؛ ذلك أن أي مجتمع منظم يحتاج هيكلًا إداريًا، كما يتطلب إرساء أنظمة فعالة لجباية الضرائب، بالإضافة إلى آليات محددة لمراقبة الرعايا وحمايتهم⁽³⁾.

المطلب الثالث

أشهر قمامسة الأندلس

كان القومس حلقة الوصل بين الرعايا النصارى والسلطات الإسلامية، ورغم أهمية هذه الوظيفة وعلو مكانة القومس، إلا أن مصادرها الإسلامية لا تقدم لنا إلا معلومات متفرقة، وخاصة في عصر الولاة الذي اتسم بالاضطراب وعدم الاستقرار بسبب الحروب والمنازعات الداخلية، وفيما يلي نبذة عن أهم القوامس الذين تولوا هذه الوظيفة في عصر الولاة وعصر الإمارة الأموية:

(1) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 502.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، ص 357.

(4) Javier Rodriguez Tello, *Tuomir* (Historica Cartagena), p. 5.

القوس أرطباش:

لم يظهر لقب القوس كوظيفة إدارية في الأندلس إلا في عهد الوالي أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي (123-127هـ/740-744م)، ومن خلال الرواية الطويلة التي أوردها ابن القوطية في افتتاحه حول أرطباش وعلاقته بالفاتحين، يبرز الرجل في صورة أرستقراطي نبيل، فهو بعد أن تصالح وإخوته مع المسلمين، وحازوا أملاك والذهب المعروفة بصفايا الملوك، كان قريباً من السادة العرب، وبحكم خبرته الواسعة في شؤون البلاد، فقد أسدى النصيح للوالي وقدم له المشورة في حل مشكلة معقدة عصفت بالأندلس بعد رفض الجند الشامي مغادرة البلاد إثر نجاحهم في إخماد الثورة البربرية، ويؤكد ابن حيان أن الذي أشار على أبي الخطار بفكرة تفريق الجند الشامي(*) على الكور الأندلسية(**) زعيم نصارى الأندلس أرطباش بن غيطشة، يقول النص: "فاقتراح عليه تفريق القبائل الشاميين الغالبين عن البلاد من دار الإمارة قرطبة؛ إذ كانت لا تحملهم، وإنزالهم بالكور على مثل منازلهم التي كانت لهم في كور شامهم، ففعل ذلك عن اختيار منهم"(1).

وقد تمت الإشارة إلى أرطباش في الإحاطة بـ "قوس الأندلس زعيم عجم الذمة، ومستخرج خراجهم لأمراء الإسلام"(2) مما يدل على وجود الوظيفة في عصر الولاة.

يرى مؤنس في كتابه فجر الأندلس وجود هذه الوظيفة واستمرارها في عصر الولاة، ولكنه يرى أن اللقب لم يظهر إلا في عصر الإمارة، وتحديدًا في عهد عبد الرحمن الداخل 138-172هـ/755-785م: "حقيقة أن هذا اللقب لم يظهر في النصوص إلا أيام الداخل، ولكن صورة الخبر الذي يتضمن هذا اللقب عند ابن القوطية تدل على أن الوظيفة كانت قديمة، والجديد هذا اللقب"(3).

(*) كان يوجد في القانون القوطي ما يُعرف بالنزلة أو الضيافة، ويقضي بأن ينزل كل واحد من القوط على ساكن من سكان البلاد الأصليين، وقد طبق العرب هذا القانون، فسمحوا للمحاربين بالنزول على ثلث ملكية أهل الذمة ويبقى الثلثان للمالك الأصلي = بدر، دراسات، ص222.

(**) أخذ العرب نظام الكور المجنّدة من البيزنطيين، وهو عبارة عن ولايات عسكرية ينزلها الجند، والجند خمس فرق من المحاربين، ويكون للجند خراج الناحية مقابل الخدمة العسكرية = مؤنس، فجر الأندلس، ص436.

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص20.

(2) المصدر السابق، ص18.

(3) مؤنس، فجر الأندلس، ص366.

فالخبر الذي يقصده وورد عند ابن القوطية هو تلك الرواية التي يظهر فيها أرطباش وكأنه زعيم يتمتع بنفوذ كبير وثرء فاحش، ولكن فات مؤسناً الذي أكد أن هذا اللقب لم يظهر إلا في عهد الداخل أن ابن الخطيب نقلاً عن ابن حيان أورده (أي لقب القومس) في سياق حديثه عن إنزال الجند الشامي في الكُور الأندلسية بالصيغة التالية: "قومس الأندلس وزعيم عجم الذمة، ومستخرج خراجهم لأمرء الإسلام"⁽¹⁾.

يورد ابن القوطية العديد من الروايات التي يُستشف منها محافظة أرطباش على مركزه الاجتماعي كسليل لعائلة نبيلة يتمتع بثرء فاحش، فالرجل صالح المسلمين أثناء معركة شذونة، وحصل وإخوته (وقلة والمند) على أملاك أبيهم المعروفة بصفايا الملوك، وكان عددها نحو ثلاثة آلاف ضيعة، ولذلك كان بلاطه مقصداً لبعض الزعماء العرب، فقد قصده الزعيم العربي الصميل بن حاتم مع عشرة من أعيان العرب وطلبوا منه أن يمنحهم بعضاً من أراضيهم لزراعتها، فأمر لكل واحد منهم بعشرة ضياع بكل ما فيها من عبيد وحيوانات، كذلك قام ميمون العابد - وهو أحد الصالحين من المسلمين في عصر الولاة - بقصد أرطباش، وطلب منه أن يعطيه ضيعة من ضياعه يزرعها مناصفة معه⁽²⁾، وقد أظهرت رواية ابن القوطية أرطباش في صورة من يرفع وهو نصراني من مكانة بعض الرُفَّاد العباد المنتمين إلى الإسلام إلى أعلى المراتب⁽³⁾.

تُظهر الرواية المكان الذي استقبل فيه أرطباش الشخصيات العربية، وكأنه مقاماً ملوكياً، فالكرسي الذي كان يجلس عليه كان مصمداً بالذهب والفضة⁽⁴⁾، ورغم تفرد ابن القوطية^(*) بهذه الرواية التي نشتم منها رائحة التفاخر بالسلالة القوطية التي ينتمي إليها من جهة الأم، إلا أن لها دلالات ومعانٍ عظيمة:

1- احترام العرب للحقوق والملكيات وعدم المساس بها، وتمتع من بقي على دينه من سكان البلاد بكل حقوقه، وأن النصر لم يدفع الفاتحين إلى الاستبداد ووضع اليد على أملاك الناس بالقوة.

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص 18.

(2) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص 58-59.

(3) بدر، دراسات، ص 223.

(4) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص 59.

(*) ذكر المقرئ هذه الرواية في نفحه نقلاً عن ابن القوطية = نفح الطيب، 267/1.

2- حُسْن العلاقات بين المسلمين وسكان البلاد المحليين، فكانت ودية يسودها في غالب الأحيان التقاهم والاحترام.

3- أن الفاتحين لم يكونوا سادة مترفعين عن الرعية، بل اندمجوا منذ السنوات الأولى للفتح مع السكان المحليين بعلاقات الجوار والصداقة.

أشار ابن القوطية في رواية أخرى إلى قيام أرطباش بالتعدي على أملاك أبناء أخيه القُصْر المند (سارة وأخويها)، وقد قامت سارة بالسفر إلى دمشق وقابلت الخليفة هشام بن عبد الملك واشتكت إليه من ظلم عمها وتعديه على أملاكها وأملاك أخويها، واحتجت بالعهد المنعقد لأبيها زمن الفتح، فكتب الخليفة إلى واليه على المغرب بإنصافها من عمها ومعاملتها وفق قوانينهم القوطية في الميراث، فأنفذ الكتاب إلى عامله أبي الخطار، وتم إرجاع الأملاك لها ولأخويها، وكان الخليفة قد زوجها في الشام من عيسى بن مزاحم، فلما قدم بها إلى الجزيرة تولى الدفاع عن حقوقها "وقام لها في دفاع عمها أرطباش عن ضياعها"⁽¹⁾، وهذا مما يدل على عدالة حكم المسلمين ووفائهم بالعهود والمواثيق، ويُدحض افتراءات بعض المستشرقين بشأن الظلم والاضطهاد الواقع على نصارى الأندلس في عصر الولاة.

أرطباش والداخل:

كان آل غيطشة زمن الفتح وعصر الولاة يتمتعون بمكانة مرموقة، وثرء فاحش بدليل قول المقرئ: "وكان لها (أي سارة) ولأبيها المند، وعمها أرطباش في صدر الدولة العربية بالأندلس أخبار ملوكية"⁽²⁾.

يشير ابن القوطية في موضع آخر من افتتاحه إلى حادثة وقعت في عهد الأمير عبدالرحمن الداخل 138-172هـ/755-788م جعلته يصادر أملاك أرطباش ويرجعها لخزينة الدولة، فيذكر أن الأمير في إحدى الغزوات لاحظ مقدار الهدايا التي كان يتلقاها أرطباش من الناس في كل ناحية من ضياعه في قرطبة، (فنفس ذلك عليه) أي أن الغيرة أكلت قلبه من ضخامة ثروته وكثرة هدايا أتباعه له، فرأى فيه رجلاً قوطياً متنفذاً يمكن أن يُشكل خطراً على

(1) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص 31-32.

(2) المقرئ، نفح الطيب، 1/268.

سلطته، ويُقال بأن حالة أرطباش ساءت جداً بعد مصادرة أملاكه، فقصد الداخل ودخل عليه في هيئة رثة، فقال له الداخل: "يا أرطباش ما بلغ بك هاهنا؟" فقال له: "أنت بلّغتي هاهنا، خلّت بيني وبين ضياعي، وخالفت عهود أجدادك فيّ بلا ذنب يُوجب ذلك عليّ"، فرد عليه الأمير عشرين ضيعة من ضياعه وولاه **وظيفة القماسة**، فكان كما يذكر ابن القوطية أول قومس بالأندلس يُشرف على طائفته النصرانية، ويُسدي النصح للأمير عبدالرحمن في أمور البلاد⁽¹⁾.

القومس ربيع:

برز اسم **القومس ربيع** في عهد الأمير الحكم الربضي 180-206هـ/796-821م كشخصية متنفذة تمتلك سلطات واسعة على المسلمين والنصارى معاً، تشير الرواية الإسلامية إلى استعانة الحكم بالقومس في الشؤون المالية، حيث تم تعيينه إلى جانب وظيفته كقومس للنصارى في وظيفة جمع أموال الجباية والخراج من المسلمين، ويُشار إلى أن القومس استغل ثقة الحكم به، فأسرف في فرض الضرائب والمغارم على الناس، يقول **المؤلف المجهول** صاحب كتاب **ذكر بلاد الأندلس**: "فجار القومس على الناس بالعذاب، وأقعدهم في المقال الحامية، وقتل خلقاً كثيراً بالسياط والعذاب"، وبلغ من علو أمره أن المسلمين (عرباً وبربراً) كانوا يُقبلون يده، فإذا خلا بخاصته دعى بالماء وقال لهم: "اغسلوا ما نجست الكلاب"، لذلك كانت قوة القومس واستبداده من أسباب نقمة الأهالي في قرطبة على الحكم وهياج الربض "قأبعض الناس الحكم واجتمع الخاصة والعامة فثاروا بالربض وحملوا السلاح وزحفوا على قصر الحكم"⁽²⁾، ويشير **ابن حزم** في جمهرته إلى الدور الذي قام به القومس ربيع في دفع المتظاهرين وقمعهم "أوقع بهم (أي الحكم) الواقعة المشهورة عام 202هـ/817م، وهدم الديار، والمساجد، وولى ذلك رجلاً نصرانياً كان أثيراً عنده اسمه ربيع"⁽³⁾، ويؤكد **ابن حيان** هذا الدور فيشير إلى قيام

(1) القوطية، افتتاح ابن الأندلس، ص57.

(2) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص132-139.

(3) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص96.

القومس بقيادة فرقة من الخرس (الصقالبة) (*) تولت مهمة هدم الربض القبلي⁽¹⁾.

كذلك تنسب الروايات الإسلامية إلى القومس ربيع ظلم قومه وأبناء جلدته، وسلبهم أموالهم، والتجني عليهم في الجباية، فلما توفى الحكم وكثرت شكاوى الناس من ظلم القومس وتجبره، أمر الأمير عبدالرحمن الأوسط 206-238هـ/821-852م بقتله⁽²⁾، وتشير الروايات إلى أن الناس عندما سمعوا نبأ مقتله توافدوا على قرطبة للمطالبة بأموالهم التي جباها ربيع منهم ظلماً وعدواتاً، وعندما تعذر رد الأموال لعدم وجود إثباتات تطور الأمر إلى اشتباكات بين الناس وجند الأمير، وكان جند البيرة أكثر الناس إلحاحاً في رد أموالهم المغتصبة، وقد حاول الأمير اقناعهم بالرجوع من حيث أتوا فرفضوا وتطور الحال إلى وقوع القتال بين الطرفين فانهمز جند البيرة وقُتل عدد منهم⁽³⁾.

القومس ابن أنثنيان "حمامة المسجد"

ساهمت علاقة الجوار والمصاهرة في مد جسور التواصل بين المسلمين والنصارى في الأندلس، وكان من الطبيعي أن يقبل من أسلم على تعلم اللغة العربية حتى يُحسن أداء شعائر الإسلام، كذلك من أراد الترشح للوظائف والمناصب كان عليه تعلم العربية التي أصبحت اللغة الرسمية في البلاد بحكم ما كان لها من تفوق حضاري.

كان القومس ابن أنثنيان ممن برع في اللغة العربية، وظهر فضل أدبه في عهد الأمير محمد 238-273هـ/852-886م فولاه وظيفة الكتابة، وهي وظيفة لا يتولاها إلا المسلمون عرب

(*) الصقالبة: كانت فئة الصقالبة في الأندلس تشمل عدداً كبيراً من جموع الأسرى والرقائق الذين يرجع أصلهم إلى مختلف العناصر الأوربية؛ فالصقالبة في تاريخ الأندلس لا يُقصد بهم جماعات من العنصر السلافي فحسب، بل أيضاً من غاليسيا (جليقية)، ولمبارديا، وكلايريا، والفرنجة وغيرها، وكان المسلمون في الأندلس يحصلون على هؤلاء الصقالبة إما عن طريق أسرهم في الحروب أو خطفهم من شواطئ البلاد التي يغفرون عليها، أو عن طريق الشراء، ثم يستخدمونهم جنوداً في الجيش، أو حرساً في القصر، أو للأعمال الإدارية = هدى النيهوم، الصقالبة في الأندلس منذ عصر الإمارة حتى نهاية عهد الطوائف الأول 180-468هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، (بنغازي، جامعة قاريونس، 1998) ص51.

(1) أبو مروان حيان بن خلف، السفر الثاني من كتاب المقتبس، حققه وقدم له وعلق عليه محمود علي مكي، (الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2003م)، ص105.

(2) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص139.

(3) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق نجيب فواز وحكمت فواز، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2004)، 220/23.

أو بربر، ويلخص ابن القوطية كيفية وصول إسباني مستعرب لوظيفة الكتابة في دولة بني أمية، فيقول بأن الأمير محمد ولى الكتابة **عبدالله بن أمية بن يزيد**، فلما مرض أقام في فترة مرضه القومس في الوظيفة، فلما توفى الكاتب عبدالله قال الأمير: "لو أن قومساً كان مسلماً ما استبدلناه"، فلما سمع القومس بذلك أسلم وأشهد الشهود على إسلامه، وأكثر من التردد على المسجد حتى سماه البعض بحمامة المسجد، فلما حُسِّن إسلامه ثبتته الأمير في وظيفة الكتابة⁽¹⁾.

لم يرض رجال الدولة عن تجاوزهم ولم يمر تعيين القومس ليكون صاحب قلم بني أمية، وكاتبهم الأعظم دون اعتراض، فقد قام **محمد بن الكوثر** - وهو أحد بلغاء الأندلس - بتحريض من الوزير **هاشم بن عبدالعزيز** بكتابة رسالة إلى الأمير محمد يلومه فيها على اختيار القومس بينما في الدولة رجال تنزّين بهم الوظيفة من رجال الأدب والبلاغة، فراجع الأمير نفسه واختار حامد الزجالي وقال: "رأينا إعادة خطة الكتابة إلى طريقها"⁽²⁾.

رغم أن القومس جرى إبعاده عن الوظيفة إلا أنه ترك أثراً واضحاً في مجال الأعمال الإدارية، تمثل في التزام **الأحد** من كل أسبوع **عطلة رسمية** للموظفين، وقد استمر العمل بذلك منذ عهد الأمير محمد، يشير **المقري** في نفحه نقلاً عن ابن السماك صاحب كتاب "الزهرات المنثورة" في نكت الأخبار المنثورة أن هذا اليوم كان عطلة رسمية في عهد **المنصور ابن أبي عامر** 366-393هـ/976-102م: "أصبح المنصور صبيحة أحد وكان يوم راحة أهل الخدمة الذين أعفوا فيه من الخدمة في مطر وابل"⁽³⁾، بل أن العمل بذلك استمر حتى عهد المؤرخ **ابن حيان** ت 469هـ/1070م، حيث قال: "وكان أول من سن لكتاب السلطان وأهل الخدمة تعطيل الخدمة في يوم الأحد من الأسبوع والتخلف عن حضور قصره (أي الأمير محمد) قومس ابن أنثنيان كاتب الرسائل للأمير محمد، وكان نصرانياً، دعا إلى ذلك لنسكه فيه، فتبعه جميع الكتاب طلباً للاستراحة من تعبهم والنظر في أمورهم، فانتحوا ذلك ومضى إلى اليوم"⁽⁴⁾.

يُذكر أن الوزير **هاشم بن عبدالعزيز** كان وراء إقصاء القومس عن وظيفة الكتابة، ويقول

(1) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص 95.

(2) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص 96.

(3) المقري، نفح الطيب، 417/1.

(4) المصدر السابق، 417/1.

الخشني بأن مشاعر الكره التي كانت في نفس الوزير تجاه القومس لم تهدأ حتى بعد موت الأخير، فكان يشكك في إسلامه ويذيع بين رجال الدولة أنه مات على دين النصرانية، وبلغ به الكره مبلغاً غير محمود وذلك عندما ضغط على المحتسب لكي يشهد أمام القاضي سليمان بن أسود بأن القومس مات على النصرانية، كذلك حاول إقناع الأمير محمد بأنه الأحق بمال القومس من ورثته.

وعندما كثر اللغط بين الناس، أمر الأمير القاضي سليمان بالنظر في الموضوع والتحقق فيه، فشهد الكثير من وجوه الناس وأعلام العدول بأن القومس مات على النصرانية، ولم يتخلف عن الشهادة بذلك إلا القليل منهم **محمد بن يوسف بن مطروح** الذي كان يقول إذا جلس في المسجد: "من مثل قومس السجّاد العبّاد حمامة هذا المسجد، يُقال مات على النصرانية!"، وقد حاول هاشم الضغط على القاضي حتى يقر أمام الأمير بأن القومس مات على النصرانية، ولكن القاضي رفض ووثق شهادة الشهود وقدمها للأمير⁽¹⁾.

على العموم، فإن تعيين القومس ابن أنثنيان في وظيفة الكاتب رغم وجود شخصيات كبرى من العرب والبربر تتميز بمواهبها الفذة يدل دلالة قاطعة على أن المسلمين في الأندلس كانوا يقدرون الكفاءات والخبرات بغض النظر عن الانتماءات العرقية أو الدينية.

القومس حجاج:

ظهر اسم القومس حجاج في عهد الأمير عبد الله 275-300هـ/888-912م، لا نعرف إن كان عمله اقتصر فقط على وظيفة قومس قرطبة، أم أنه قام بعمل آخر من الأعمال التي اعتاد كثير من قمامسة قرطبة عملها لأمراء قرطبة مثل التمثيل في السفارات، أو الترجمة عند استقبال وفود الدول الأجنبية، كل ما تذكره الرواية الإسلامية يتعلق بقصة تورط ابنه شربند مع الثائر عمر بن حفصون، مما استدعى غضب الأمير على القومس، فأمر بحبسه وتعذيبه، وحسب ما يرويّه ابن حيان فإن شربند بن القومس فر من قرطبة "لخوفه من حادث أحدثه فيها"، ولعله يتعلق بتعاون بعض نصارى قرطبة مع الثوار، فالتحق بابن حفصون وأصبح في عداد رجاله، وقام بشن

(1) أبو عبدالله محمد بن الحارث الخشني، قضاة قرطبة، (القاهرة، دار الكتاب المصري، 1989)، ص 158-162.

الغارات على قرطبة، وروع أهلها، فأصبح حالهم أشبه بحال أهل الثغور المجاورين لنصارى الشمال، يقول ابن حيّان: "فتقع الصيحة حوالي قرطبة كل وقت ويصير أهلها في حال أهل الثغور المصاغبة للعدو"⁽¹⁾.

لم تذكر الرواية الإسلامية السبب الذي استوجب معاقبة القومس حجاج وقتله، وكل ما تذكره في هذا الشأن يوحي بأن قتله ارتبط بقتل ابنه شربند، حيث أن الأمير عبد الله أمر بقتل القومس حجاج ورفع رأسه إلى جانب رأس ابنه الثائر وذلك بعدما تمكنت القوات الأميرية من الظفر به في إحدى الغارات⁽²⁾، فهل كان القومس بناءً على هذه الرواية متورطاً مع ابنه في تدبير مؤامرة ضد الإمارة، أم أن هناك أسباباً أخرى كانت موجبة لعقابه وقتله؟.

يرى بروفنسال أن القومس كان قاسياً على أبناء طائفته فيما يتعلق بجمع الضرائب، مما أجبر الكثير من النصارى على التحول إلى الإسلام هرباً من الجزية⁽³⁾، وهذه المقالة لطالما ردها بعض المستشرقين الغربيين لبيان أن الدخول في الإسلام لم يكن طوعية وإنما هرباً من عبء الجزية!.

القومس جُذمير:

شغل جُذمير وظيفة قومس النصارى في قرطبة خلفاً لحجاج، وكان قريباً من الأمير عبدالله مسموع الكلمة لديه، يُبدي رأيه في أمور تتعلق بالدولة، وكما تذكر الرواية الإسلامية فقد كان له موقف واضح من تولية قاضي من المسالمة (أباؤه من العجم)، يذكر الخشني أن الأمير عبدالله أراد تعيين الغمر بن فهد في منصب القضاء بينما كان القومس يميل إلى الحبيب بن أحمد بن محمد بن زياد، فحاول اقناع الأمير بقسوة الغمر وصرامته، وعدم رضا الناس عنه قائلاً: "خرجت فوجدت جملة المساكين ييكون أنفسهم ويقولون: عزم الأمير أن يُولي ابن فهد، فإن ولاه أكل أموالنا برغبته وحرصه وأنهك أحباسنا"، فاستشار الأمير الوزراء، فأشار عبدالله الزجالي بالحبيب، وكان الحبيب قد اتصل بالزجالي ومحمد بن أمية وضمن تأييدهم له بعد أن أتى إليه

(1) أبو مروان حيّان بن خلف ابن حيّان، كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس) عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام، تحقيق وشرح وتعليق إسماعيل العربي، (المغرب، منشورات دار الآفاق الجديدة، 1990)، ص114، 115.

(2) المصدر السابق، ص115.

(3) ليفي بروفنسال وآخرين، التمرد والثورة في الأندلس، فصول في تاريخ الأندلس، ترجمة عبدالفتاح عوض، (القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2001)، ص52.

جُذمير وأعلمه بعزم الأمير تعيين ابن فهد، وطلب منه أن يتحصل على دعم من الوزراء حتى يتم تركيته أمام الأمير، وبالفعل وافق الأمير على تعيين الحبيب في منصب قاضي قرطبة عام 291هـ/903م مع أن نفسه كانت أكثر ميلاً لابن فهد، فقد كان يقول: "والله أن فيه لرغبة"⁽¹⁾.

على العموم فإن جذمير لم يحتفظ بمكانته المرموقة في قصر الإمارة طويلاً، ذلك أنه ورد في أحداث عام 293هـ/905م أن الأمير أمر بحبسه بعدما تأكد دعمه لثورة عمر بن حفصون "وفيها حُبس جذمير القومس وعُذِب وأُرهق حتى مات"⁽²⁾.

مما سبق عرضه يتضح أن القومس كان يمثل حلقة الوصل بين الرعايا النصاري والسلطات الإسلامية، وأن دور القمامسة لم يتوقف عند تدبير أمور طائفهم في المدن والقرى الأندلسية، وإنما كان حضورهم فاعلاً في قصر الإمارة في قرطبة، يسدون النصح للأمراء، ويتولون وظائف أخرى إلى جانب وظيفتهم الأصلية، وذلك مما يدل على التعايش السلمي الذي أقر الإسلام مبادئه في بيئة التنوع العقائدي والعنقي.

(1) الخشني، قضاة قرطبة، ص 202-203.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2/142.

الخاتمة

من هذه الدراسة نستخلص النتائج التالية:

1- بدا التعاون واضحاً بين الجانبين الإسلامي والنصراني منذ بدايات الفتح، حيث تأكدت مناصحة النصارى للمسلمين، وتقديم العون، والدعم مما كان له أثره على تسهيل حركة الفتح.

2- حافظت اتفاقيات الصلح مع النصارى على أرواحهم وممتلكاتهم، وضمنت لهم حقوقهم الدينية من حرية العبادة، والاحتفاظ بكنائسهم وأديرتهم، وحقوقهم المدنية المتمثلة في إدارة شؤونهم الداخلية عبر موظفين نصارى، وحق التقاضي أمام قاضيههم وفق قوانينهم مما جعل كثير من الباحثين الغربيين يعدون ما تحصل عليه النصارى من حقوق تسامحاً كبيراً من جانب المسلمين، بل ونموذجاً فريداً للتسامح لم يستطع الإسبان أن يرسوا دعائمه عندما انقلبت الموازين لصالحهم في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

3- كانت الحقوق الإدارية من ضمن الحقوق التي ضمنتها اتفاقيات الصلح مع النصارى، فقد تحصل ثيودومير مثلاً على حكم مقاطعة مرسية بمدنها السبعة مقابل دفع الجزية، ومقادير معينة من الطعام، وعدم التعاون مع الأعداء، أي أن سكان الكورة احتفظوا بكل ما يملكون، وحُفظت لهم حقوقهم، وما حدث في تدمير حدث بضرورة الحال مع مدن أخرى صالحت المسلمين زمن الفتح.

4- تمكن العرب من خلال المحافظة على وظيفة القومس، وهي وظيفة متوارثة منذ أيام الرومان ثم القوط، من تسهيل إدارة البلاد حتى بدا الوضع وكأن في الأندلس نظامين أحدهما يختص بالمسلمين والآخر بغير المسلمين، وقد برزت في عصر الولاة والإمارة الأموية أسماء العديد من القوامس الذين مثلوا جماعاتهم النصرانية في المدن والأرياف، وكانوا حلقة الوصل بينهم وبين السلطة الحاكمة، وكان من مهامهم الإشراف على الكنائس من تسجيل المواليد وعقد الزيجات وتوثيق العقود، وجمع الجزية والخراج وأعشار التجارة، وكان يعاونهم عدد من الموظفين الإداريين النصارى لتسيير أمور الطائفة مثل حامي المدينة ومستخرج الخراج وصاحب الشرطة والأمين المسؤول عن أصحاب الحرف، وكان القوامس في بعض الأحيان يؤدون للسلطة

الحاكمة وظائف أخرى إلى جانب وظيفتهم الأصلية، فقد كان هناك من قام بمهمة جمع أموال الجباية والخراج من المسلمين، ومن كُلف بقيادة فرقة من الصقالبة لإخماد تمرد، ومن تولى وظيفة الكتابة للأمير الأموي وغيرها من المهام التي تؤكد قربهم من السلطات الحاكمة وإجادتهم للغتين العربية والرومانشية وقدرتهم على التواصل مع الجميع.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأولية:

- ابن أبي الفياض، أبو بكر سعيد. قطعة من كتاب العبر، تحقيق عبد الواحد ذنون طه، نشره في كتاب دراسات في التاريخ الأندلسي، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2004م.
- ابن حبيب، عبد الملك بن حبيب بن سليمان، كتاب التاريخ، تحقيق عبدالغني مستو، بيروت، المكتبة العصرية، 2004.
- ابن حزم، أبو محمد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، ط5، القاهرة، دار المعارف، د.ت.
- ابن حيّان، أبو مروان حيّان بن خلف، كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس (عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام)، تحقيق وشرح وتعليق إسماعيل العربي، المغرب، منشورات دار الآفاق الجديدة، 1990.
- ابن حيّان، أبو مروان حيّان بن خلف، السفر الثاني من كتاب المقتبس، حققه وقَدَّم له وعلّق عليه محمود علي مكي، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2003م.
- ابن الخطيب، محمد لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، القاهرة، مطبعة الموسوعات، 1901م.
- ابن سهل، أبو الأصبع، وثائق في أحكام أهل الذمة مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى، تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف، القاهرة، المركز العربي للإعلام، د.ت.
- ابن عذاري، أبو عبد الله محمد. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، ط3، بيروت، الدار العربية للكتاب، 1983م.

- ابن عذوم التونسي، أبو القاسم بن محمد، الإعلام بما أغفله الأعوام، رسالتان في أهل الذمة، تحقيق عبد المجيد الخيالي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2001.
- ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله شمس، أحكام أهل الذمة، تحقيق يوسف البكري وشاكر العارودي، الدمام، رمادي للنشر، 1997م.
- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط (نصان جديان)، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، 1971م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين. لسان العرب، تحقيق نخبة من الأساتذة، القاهرة، دار المعارف (د.ت).
- الحميري، أبو عبدالله محمد، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر ليفي بروفنسال، ط2، بيروت، دار الجيل، 1988.
- الخشني، أبو عبدالله محمد بن الحارث، قضاة قرطبة، القاهرة، دار الكتاب المصري، 1989.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، ج8، السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، (د.ت).
- الضبي، أحمد بن محمد بن عميرة، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، 1989م.
- الطرطوشي، أبو بكر الوليد بن. سراج الملوك، دم، د.ت.
- العذري، أحمد بن عمر بن أنس، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1965م.
- الماوردي، أبو الحسن، الأحكام السلطانية، دم، د.ت.
- المقرئ، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج1-4، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1988م.
- مؤلف مجهول، وصف الأندلس وتاريخه، نشره حسين مؤنس في كتاب رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.

- النويري، شهاب الدين أحمد، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج24، تحقيق عبدالمجيد ترحيني، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.
- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المَعرب والجامع المَعرب في فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، ج2، خرّجه جماعة من الفقهاء، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981م.

ثانياً: المراجع:

- أرينال، مرثيدس غارثيا، شتات أهل الأندلس، ترجمة محمد فكري عبد السميع، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2006م.
- أولافي، اغناسيو، العرب لم يغزوا الأندلس (رؤية تاريخية مختلفة)، ترجمة إسماعيل الأمين، رياض الريس للكتب والنشر، 1991م.
- بدر، أحمد، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، ج1، مكتبة المهتدين الإسلامية، د.ت.
- بروفنسال، ليفي وآخرين، التمرد والثورة في الأندلس، فصول في تاريخ الأندلس، ترجمة عبدالفتاح عوض، القاهرة، عين للدراسات، 2001.
- بويكا، ك، المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ترجمة نايف أبو الكرم، دمشق، منشورات علاء الدين، 1999م.
- الجوادي، خيرى، مشاوره أهل الذمة "دراسة تاريخية فقهية عامة"، مجلة أبحاث، م11، ع1، كلية التربية الأساسية، 2011م.
- دي ايبالزا، ميكيل، المستعربون أقلية مسيحية مهمة في الأندلس المسلمة، ترجمة يعقوب دواني، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، إشراف سلمى الخضراء الجيوسي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998م.
- صفى الدين، محيى الدين، التعايش بين المسلمين والنصارى في الأندلس في ظل الدولة الأموية وملوك الطوائف، مجلة الناصرية، جامعة معسكر، 2019م.
- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، (العصر العباسي الأول)، القاهرة، دار المعارف (د.ت).

- العتيبي، فوزي، التحولات الاجتماعية في قرطبة وأثرها في سقوط الخلافة الأموية، دار كنوز إشبيلية، د.ت.
- الغزالي، محمد، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ط2، القاهرة، دار نهضة مصر، 2005م.
- فيرنيت، خوان، فضل الأندلس على ثقافة الغرب، ترجمة نهاد رضا، دمشق، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، 1979م.
- كولان، ج.س، الأندلس، تحقيق إبراهيم خورشيد وآخرين، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980.
- مؤنس، حسين، فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية)، ط4، القاهرة، دار الرشاد، 2008م.
- نعنعي، عبد المجيد، تاريخ الدولة العربية في الأندلس (التاريخ السياسي)، ج1، بيروت، دار النهضة العربية، د.ت.
- النيهوم، هدى، الصقلية في الأندلس منذ عصر الإمارة حتى نهاية عهد الطوائف الأول 180-468هـ، رسالة ماجستير، بنغازي، جامعة قاريونس، 1998.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- Haines, C. R., Christianity and Islam in Spain AD756-1031, London, 1889.
- Tello, Javier Rodrigues, TUDMIR, Historica Cartagena.
- Watis, Henry Edward, The Christian Recovery of Spain, New York, 1894.
- Whishaw, Ellen, M. and Berhand, Araabic Spain (Sidelights on her history and art), London, 1912.

بحث بعنوان:

التأثيرات العلمية بين المسلمين والبيزنطيين (41 – 232 هـ / 661 – 847 م)

Scientific Influences between Muslims and the Byzantines

(41-232 AH / 661-847 AD)

إعداد :

أ. خطاب علي عطية

Mr. Khattab Ali Atiyah

أ.د. انتصار خالد هزاوي

Dr. Intisar Khaled Hazawi

د. فرج إبراهيم العقوري

. Dr. Faraj Ibrahim Al-Aqouri

جامعة عمر المختار، كلية الآداب، قسم التاريخ، ليبيا

البريد الإلكتروني للباحث المسؤول: farag.omar@omu.edu.ly

المدقق اللغوي: د محمد السنوسي جامعة عمر المختار

المستخلص:

على الرغم مما تعرضت له الإمبراطورية البيزنطية من أزمات داخلية وخارجية إلا أنها كانت تركز على دعائم قوية وثابتة منها الواجب الديني لحماية المسيحية، وكذلك الدفاع عن أراضيها من هجمات المسلمين المتكررة. وبالرغم من أن الحروب كانت هي السمة السائدة بين الطرفين في هذه الحقبة إلا أنه تتخللها بعض فترات الهدوء التي أعطت الفرصة لإقامة علاقات سلمية أمكن من خلالها انتقال المؤثرات العلمية بينهم. حيث ركز هذا البحث على التأثيرات العلمية بين الطرفين في مجال العلوم الدينية والتطبيقية والعقلية ومدى تأثير كل منهما بالأخر، وذلك لتقديم دراسة علمية مستقلة بذاتها هدفها إبراز التأثير العلمي بين الدولتين

الكلمات المفتاحية: المسلمون، البيزنطيون، العلم، التأثير المتبادل

Abstract:

Despite the internal and external crises that the Byzantine Empire faced, it was based on strong and stable foundations, including the religious duty to protect Christianity and defend its lands from repeated Muslim attacks. Although wars were the dominant feature between the two sides during this period, there were periods of calm that provided an opportunity for peaceful relations, allowing scientific influences to spread between them. This research focused on the scientific influences between the two sides in the fields of religious, applied, and rational sciences, and the extent of their influence on each other. This study aims to present an independent scientific study aimed at highlighting the scientific influences between the two states and whether there was a balance in the field of scientific influences between the two sides during the period specified for this study

Key words: Muslims, Byzantines, Science, Mutual Influence

1. المقدمة

تُعَدُّ العلاقة بين المسلمين والإمبراطورية البيزنطية خلال المدة الممتدة من (41-232 هـ / 661-847م) من أكثر العلاقات تعقيداً في تاريخ العصور الوسطى؛ إذ اتسمت بطابعٍ سياسي وعسكري متوتر، تجلّى في الحروب المتواصلة والصراع على الثغور ومناطق النفوذ. غير أنّ هذا الصراع لم يحل دون قيام أشكال متعددة من التواصل الحضاري، أفرزتها ضرورات التعايش الجغرافي، وتشابك المصالح السياسية والاقتصادية والدينية، ولا سيما في بلاد الشام ومصر والأناضول وفضاء البحر المتوسط.

وعلى الرغم من أنّ كثيراً من الدراسات التاريخية ركّزت على الجانب العسكري والسياسي في العلاقات الإسلامية البيزنطية، فإنّها لم تُؤَلِّ العناية الكافية لأوجه التفاعل العلمي والثقافي بين الطرفين، مع أنّ المعرفة ظلّت أحد أهم مجالات الاتصال الحضاري، سواء عبر الترجمة، أو الجدل الديني، أو انتقال العلماء والأطباء والمترجمين، أو من خلال المؤسسات العلمية والدينية التي أسهمت في تداول الأفكار والعلوم.

ومن هنا تنطلق إشكالية هذا البحث، التي تتمثل في محاولة الكشف عن طبيعة التأثيرات العلمية المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين خلال الفترة المذكورة، وبيان مجالاتها وأدواتها وحدودها التاريخية. كما يسعى البحث إلى الإجابة عن عدد من التساؤلات، من أبرزها: ما أبرز قنوات انتقال المعرفة بين الجانبين؟ وهل كان التأثير العلمي يسير في اتجاه واحد من التراث اليوناني/البيزنطي إلى المسلمين، أم أنّ ثمة مظاهر تأثير عكسي يمكن رصدها تاريخياً؟ وكيف انعكس هذا التفاعل على العلوم الدينية والتطبيقية والعقلية لدى الطرفين؟

وتبرز أهمية البحث في كونه يسعى إلى تجاوز الصورة التقليدية التي تختزل العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين في إطار الحرب والصراع، من خلال إبراز أبعاد التفاعل الحضاري والمعرفي بينهما، والكشف عن الدور الذي أدّته حركة الترجمة، والجدل الديني، والمؤسسات العلمية، في بناء جسور

التواصل الفكري بين الحضارتين. كما يحاول البحث تقديم قراءة علمية متوازنة لمسألة التأثير والتأثر بعيداً عن الأحكام المسبقة أو التعميمات غير المستندة إلى الأدلة التاريخية. ويلتزم البحث بالإطار الزمني الممتد من قيام الدولة الأموية سنة 41هـ/661م حتى منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وهي مرحلة شهدت تصاعداً في الاحتكاك السياسي والعسكري، يقابله نشاط ملحوظ في انتقال العلوم والأفكار. أما المجال المكاني، فيشمل بلاد الشام ومصر والشور والأناضول والبحر المتوسط، بوصفها أبرز مناطق التماس الحضاري بين الطرفين.

واعتمد البحث بشكل رئيسي على المنهج التاريخي، مستنداً إلى أدواته السردية في تتبع مسار الأحداث ورصدها، والتحليلية في تفسير ظواهرها واستجلاء دلالاتها، مع الاعتماد على أسلوب المقارنة في المواضع التي تتطلب موازنة الروايات وتحديد الفوارق المنهجية والحضارية بين الطرفين، مع الاستفادة من الدراسات الحديثة التي تناولت العلاقات الإسلامية البيزنطية في جوانبها الحضارية والعلمية.

2. العلوم الدينية:

1.2. تأثيرات البيزنطي على المسلمين.

عندما فتح المسلمون الأقاليم التي كانت خاضعة للدولة البيزنطية وجدوا الكثير من سكنها على الديانة المسيحية وقد اصطدم المسلمون بأصحاب تلك الديانة وشجع التسامح الديني لدى المسلمين على دخول الكثير من المسيحيين في الإسلام، وفي بعض الأحيان عندما كان المسلمون يدعونهم للإسلام تحدث بينهم مجادلات دينية، فقد روى ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار أن الإمبراطور البيزنطي⁽¹⁾ أرسل إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان خطاباً جاء فيه "السلام عليكم، أما بعد فأنبئني بأحب كلمة إلى الله وثانية وثالثة ورابعة وخامسة، ومن أكرم عباده إليه فأكرم

¹ - لم يذكر ابن قتيبة اسم الإمبراطور البيزنطي ولكن يرجح أن يكون قسطنطين الرابع لأن فترة حكمه التي كانت من عام (668 - 685م) تتوافق مع فترة حكم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان الذي حكم في الفترة ما بين (661 - 680م). نيكول، دونالد، (2003). معجم التراجم البيزنطية. ترجمة حبشي، حسن، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ص132.



إمائه، وعن أربعة أشياء فيهن الروح لم يرتكض في رحم وعن قبر يسير بصاحبه ومكان في الأرض لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة والمجرة ما موضعها من السماء وقوس قزح وما بدء أمره؟" وعندما قرأها معاوية قال: "اللهم ألغنه ما أدري ما هذا فأرسل إلى عبد الله بن عباس يسأله فقال: أما أحب كلمة إلى الله فلا إله إلا الله ولا يقبل عمل إلا بها وهي المنجية، والثانية سبحان الله وهي صلاة الخلق والثالثة الحمد لله كلمة الشكر والرابعة الله أكبر فواتح الصلوات والركوع والسجود والخامسة لا حول ولا قوة إلا بالله، وأما أكرم عباد الله فهو آدم خلقه بيده وعلمه الأسماء كلها وأكرم إمائه عليه هي مريم أحصنت فرجها، والأربعة التي فيهن روح لم يرتكض في رحم فأدم وحواء وعصا موسى والكبش، والموضع الذي لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة فالبجر حين انفلق لموسى وبني إسرائيل، والقبر الذي يسير بصاحبه فبطن الحوت الذي كان فيه يونس⁽¹⁾.

وكان الجدل الديني يقع بين المسلمين والنصارى عندما يدعوا المسلمون الناس للدخول في الإسلام فيكون الرد على دعوتهم من قبل قساوسة النصارى الذين يدافعون عن عقائدهم الدينية ومن أمثال هؤلاء القساوسة يوحنا الدمشقي الذي كان متشددا للنصرانية وألف كتابا للنصارى لمحاجة المسلمين ومن الأمثلة التي جاءت في كتابه "إذا قال لك العربي ما تقول في المسيح؟ فقل له إنه كلمة الله، ثم ليسأل النصراني المسلم بما سمى الله المسيح عيسى في القرآن؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم فإنه سيضطر إلى أن يقول: كلمة الله ورح منه فإن أجاب بذلك فاسأله: هل كلمة الله وروحه مخلوقة؟ فإن قال: مخلوق فليرد عليه بأن الله إذا كان ولم تكن له كلمة ولا روح فإذا قلت ذلك فيفهم العربي لأنه من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين" ومن جانبهم رد المسلمين على هذه التساؤلات بأن المراد بالكلمة أن عيسى وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة وأما الروح فتستعمل بمعنى الرحمة وقد قال الله تعالى: عن آدم عليه السلام

¹ - ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم، (1925). عيون الأخبار. القاهرة: دار الكتب المصرية، ج1، ص199.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾⁽¹⁾ وقوله عز وجل:
 ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾⁽²⁾.

إن المجادلات الدينية بين النصارى أنفسهم كان له أثرها في أوساط المجتمع الإسلامي بحكم المجاورة والاختلاط معهم حيث كانت هذه المجادلات سببا رئيسا في ظهور بعض الفرق الإسلامية، فقد تجادلات الكنائس النصرانية مثلا في مسألة الخلود في العذاب فأنكرت بعض الكنائس أبدية عذاب النار على المخالفين لأمر الله وقد تأثر بهذا الرأي طائفة من المسلمين أطلق عليهم اسم المرجئة، وقد ذكرهم الزمخشري في كتابه شرح الفصيح "بأنهم يقولون أن أصحاب الكبائر يؤخر أمرهم إلى الله ولا يحكم بأنهم من أصحاب النار"⁽³⁾.

كما ذكر صاحب كتاب الملل والنحل أن معنى الإرجاء على قسمين : أحدهما بمعنى التأخير كما في قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾⁽⁴⁾ أي بمعنى أمهله وأخره ، وثانيهما بمعنى إعطاء الرجاء وهذا يعني أنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وقيل إنهم سموا بالمرجئة لأنهم يؤخرون صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا على أنه من أهل النار أو من أهل الجنة⁽⁵⁾.

إن مسألة حرية الإرادة من المسائل الجدلية التي كانت بين كنائس النصارى، وهي أن الإنسان مجبور على أفعاله أو مختار لها، بالإضافة إلى مجادلتهم في صفات الله فمنهم من يعطلها ومنهم من يثبتها، وقد كان لهذه المجادلات أثرها في المسلمين ونتج عنها فرقة القدرية⁽⁶⁾.

¹ - سورة آل عمران، الآية 59.

² - سورة الحجر ، الآية 29. عثمان، فتحي، (د، ت) الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ج2، ص 343.

³ - الزمخشري، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر، (د.ت). شرح الفصيح. تحقيق، الغامدي، إبراهيم بن عبد الله بن جمهور، مكة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي. ج1، ص250.

⁴ - سورة الشعراء، الآية 36.

⁵ - الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم، (1993). الملل والنحل. تحقيق، مهنا، أمير علي، وفاعور، علي حسن، بيروت: دار المعرفة، ط2، ص161.

⁶ - إن صاحب القول بالقدر هو رجل يقال له سوس كان نصرانيا فأخذ عن القول بالقدر معبد الجهني وغيلان الدمشقي اللذان يعتبراني أول من أنشأ فرقة القدرية في الإسلام. ابن حجر، أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد، (1326هـ). تهذيب التهذيب. الهند: مطبعة دار المعارف النظامية، ج10، ط1، ص226.

فيقول المستشرق فون كريمير عن القدرية بأن هناك أدلة كثيرة على أن أراء القدرية الدينية يرجع أصلها لحد كبير إلى الآثار النصرانية فقد كانت أفكارهم متجهة إلى صفات الله وإلى الطبيعة وهذا ما وجد عند رجال الكنيسة في البحث عن صفات الله وعن الطبيعة⁽¹⁾.

ورد أحمد أمين على ذلك بأن مسألة القدر صدرت عن المسلمين أنفسهم وقد وردت في ذلك آيات من القرآن الكريم والسنة النبوية واستدل بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾⁽²⁾ وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾⁽³⁾، ويقول: إن هذه الآيات ظاهرة الاختيار وأن الإنسان مسؤول عن عمله ومثل بقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾⁽⁴⁾ كما أورد بعض الاحاديث النبوية الشريفة مثل حديث الرسول ﷺ عن القدر الذي قال فيه (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه)⁽⁵⁾.

مما لاشك فيه أن مسألة الإيمان بالقدر موجودة في العقيدة الإسلامية كما في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾⁽⁶⁾ وهو ركن من أركان الإيمان الستة كما ثبت عن النبي ﷺ في صحيح مسلم من حديث جبريل عليه السلام الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث ذكر ذلك الحوار الذي كان بين جبريل عليه السلام والرسول ﷺ عندما سأله عن الإيمان قائلا له: (قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره...) ⁽⁷⁾ ولكن ربما يرجح كلام كريمير في فهم مسألة القدر عند فرقة القدرية التي

¹ - كريمير، فون، (د.ت). الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية. ترجمة، بدر، مصطفى طه، القاهرة: دار الفكر العربي، ص70.

² - سورة هود، الآية 34.

³ - سورة الزمر، الآية 19.

⁴ - سورة الكهف، الآية 29.

⁵ - الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، (1996). سنن الترمذي. تحقيق، معروف، شبار عواد، بيروت: دار الغرب الإسلامي، مج4، ص22. أمين، أحمد، (1933).

ضحى الإسلام. القاهرة: مطبعة الاعتماد، ج1، ص345.

⁶ - سورة القمر، الآية 49.

⁷ - مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (2004). صحيح مسلم. تحقيق، مركز البحوث وتقنية المعلومات، القاهرة: دار التأسيس، مج 1، ص



تأثرت بآراء النصارى في الإجبار والاختيار وتعطيل صفات الله التي ثبتت في كتابه وسنة نبيه وما نشأ عنها من أفكار كانت مخالفة لنص القرآن والسنة.

وكان للعقائد النصرانية المتأثرة بالفلسفة اليونانية الأثر الواضح في ظهور فرقة المعتزلة التي ترى بحرية الرأي والاعتماد على العقل وعدم التقيد بنصوص القرآن والسنة، وقد أطلق عليهم القدريّة المعتزلة الحق، والواصلية نسبة لواصل بن عطاء⁽¹⁾ الذي اعتزل معلمه الحسن البصري⁽²⁾ وقد قالت هذه الفرقة بالقدر وإن العبد هو الفاعل بإرادته للخير والشر والإيمان والكفر والطاعة والمعصية، وأن الله لم يقدر ذلك مسبقاً، كما أنهم نفوا بعض صفات الله مثل العلم والقدرة والإرادة والحياة، وقالوا بالمنزلة بين المنزلتين وسبب ظهور هذا القول عندهم أن رجلاً دخل على الحسن البصري وقال له: "هناك جماعة في زمننا يكفرون أصحاب الكبائر ويقصد بذلك الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر إلى يوم القيامة وأنه لا يضر مع الإيمان معصية" ففكر الحسن في الإجابة فقاطعه واصل ابن عطاء وقال: "أنا لا أقول أن صاحب الكبير مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً بل هو في منزلة بين منزلتين ثم قام واعتزل حلقة الحسن البصري فقال: الحسن البصري اعتزل عنا واصل ومنذ ذلك الوقت أطلق عليهم تسمية المعتزلة"⁽³⁾.

زادت حدت النقاشات والمجادلات الدينية بين المسلمين والنصارى خلال القرنين الثاني والثالث الهجري خاصة بعد ترجمة العديد من كتب الفلسفة اليونانية، وكان عندما يعتلي الخلفاء المسلمون كرسي الخلافة يوجهون الرسائل إلى الممالك المعاصرة لهم يدعونهم فيها إلى الدخول في الإسلام، فكان لابد من الرد على هذه الكتب والرسائل خاصة من قبل الممالك التي تعتنق النصرانية، حيث ألف النصارى كتب

¹ - واصل بن عطاء أبوحذيفة المخزومي الغزالي، مولى بني ضبة، كان يُلغى بالراء غيناً خالف أهل السنة وهو رأس المعتزلة. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (1982). سير أعلام النبلاء. تحقيق، الأرئوط، شعيب، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، ج6، ص175.

² - الحسن البصري أبي سعيد يسار الحسن بن أبي الحسن مولى الأنصار ولد في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، أمة كانت خادمة لأمة سلمة زوج الرسول ﷺ. الشيرازي، أبي إسحاق إبراهيم بن علي، (1970). طبقات الفقهاء. تحقيق، عباس، إحسان، بيروت: دار الراشد العربي، ط1، ج1، ص87.

³ - الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، (1993). الملل والنحل. تحقيق، مهنا، أمير علي، فاعور، علي حسن، بيروت: دار المعرفة، ط2، ص59، ص62.



يدافعون بها عن عقائدهم ويهاجمون عقائد المسلمين ومن تلك الكتب كتاب يوحنا الدمشقي (ينبوع المعرفة)⁽¹⁾ الذي كان يهاجم فيه عقائد المسلمين ويعلم النصارى كيفية الرد على المسلمين في المسائل المتعلقة في ذات الله ومثل هذا الكتاب وغيره أعطى دافعا قويا للمسلمين للرد عليهم وتقنيد حججهم التي تميل إلى كلام الفلاسفة بالأدلة والبراهين الدينية الموجودة في القرآن الكريم والسنة النبوية⁽²⁾، ولكن مع انتشار المؤلفات الجدلية النصرانية في الأوساط المسلمة باللغة العربية كان لابد من تأثر بعض الفرق الإسلامية بالأساليب الفلسفية الموجودة في هذه المؤلفات فقد ظهرت بسببها فكرة أن كلام الله مخلوق وأن الله لم يتكلم بذاته خلاف ما جاء من أدلة وبراهين في القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد قالت فرقة المعتزلة في القرن الثاني الهجري بأن كلام الله مخلوق وكان ذلك في عهد الخليفة العباسي المأمون حيث نفى هؤلاء المعتزلة بعض صفات الله مثل السمع والبصر والقدرة والعلم ثم زادوا عليها نفي صفة الكلام عن الله عز وجل - وقالوا بأن القرآن الكريم مخلوق من مخلوقات الله وليس كلام الله الذي تكلم به حقيقة⁽³⁾.

ولاريب أن هذا الأمر يتعارض مع نصوص القرآن الكريم الواضحة الصريحة مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾⁽⁴⁾ وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾⁽⁵⁾ لذلك عارضهم عدد كبير من الفقهاء المسلمين مثل الإمام (أحمد بن حنبل)

1 - كتاب ينبوع المعرفة الذي يعد أكبر مؤلفات يوحنا الدمشقي وأكثرها شهرة، وقسم هذا الكتاب إلى ثلاث أقسام سمي القسم الثاني منه (بالهرطقات)، وأطلق على الفصل مئة ومئة وواحد اسم (هرطقة الإسماعيليين) وهذا الفصل هو الذي هاجم فيه الدين الإسلامي. الغامدي، علي بن محمد عودة، (2015). يوحنا الدمشقي رائد العدوان الفكر على الإسلام. (د.ن): ط1، ص، ص، 16-17.

2- عثمان، فتحي، مرجع سابق، ص 344.

3- ابن حزم، أبي محمد أحمد بن سعيد، (1996). الفصل في الملل والأهواء والنحل. تحقيق، نصر، محمد إبراهيم، وعميرة، عبد الرحمن، بيروت: دار الجيل، ج3، ط2، ص11.

4- سورة التوبة، الآية 6.

5- سورة النساء، الآية 163.

الذي امتحن في هذه الفتنة امتحانا شديدا وتعرض للضرب والسجن والنفي⁽¹⁾. وقد وصل الأمر ببعض المعتزلة إلى الإشراف بالله تعالى مثل أحمد بن خابط والفضل الحدي⁽²⁾ اللذان يقولان بأن للعالم خالقين أحدهم قديم وهو الله تعالى والآخر محدث وهو كلمة الله عز وجل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وأن المسيح عيسى هو الذي يحاسب الناس يوم القيامة⁽³⁾.

هذا الأمر يتفق تماما مع عقائد النصارى وقد ثبت ذلك فيما ذكرناه في محاجة يوحنا الدمشقي للمسلمين، بالإضافة إلى ما قاله (ثيودور أبوقرة) في حججه للرد على المسلمين بأنه لا بد من الالتزام بأحد قولين إذا قلنا بخلق المسيح لزم أن يكون قد بقي زمنا دون كلمة وروح ولزم أن يكون القرآن الذي هو كلام الله مخلوقا⁽⁴⁾ وقد رد المسلمون على هذه الشبه بأن المراد بالكلمة هي أن عيسى وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة، والروح تستعمل بمعنى الرحمة⁽⁵⁾.

ويذكر ول وايريل في كتابه قصة الحضارة بأن اختلاط كلام الفلاسفة بالدين يعود إلى كتابات (ديونيسيوس الإريوباجي) وهو فيلسوف من أصل يوناني من مدينة أثينا وقد ألف عدة مؤلفات كانت سببا رئيسا في تداخل الفلسفة مع الدين ومن تلك المؤلفات كتاب (السلطة الكهنية السماوية) وكتاب (اللاهوت الصوفي)، حيث أثرت كتبه في المتصوفة النصارى والمسلمين⁽⁶⁾. فالصوفية عند البيزنطيين هي ترك نعيم الدنيا لنيل نعيم الآخرة، وهي التفلسف في جوهر الخلق والمخلوق والخالق وكذلك البحث في القانون الأزلي الذي يحكم الوجود⁽⁷⁾. وقد ظهرت فرقة الصوفية عند المسلمين في القرن الثاني الهجري وهي تدعوا أيضا إلى الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة وهذا ما ينطبق على الطبقة الأولى من المتصوفة ثم بعد ذلك ظهرت فيهم فكرة وحدة الوجود التي

¹ - عاصرت محنة الإمام أحمد بن حنبل أربعة خلفاء عباسيين وهم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، للمزيد من المعلومات عن هذه المحنة أنظر إلى كتاب محنة الإمام أحمد، لمؤلفه، المقدسي، تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد.

² - أحمد بن خابط رئيس فرقة الخاطبة من القدرية المعتزلة، والفضل الحدي منسوب إلى الحديثة وهي بلد على شاطئ الفرات. ابن حزم، مصدر سابق، ج3، ص157.

³ - ابن حزم، المصدر نفسه، ج5، ص64.

⁴ - رستم، مرجع سابق، ص348.

⁵ - عثمان، فتحي، مرجع سابق، ص342.

⁶ - ديورانت، ول وايريل، (د.ت). قصة الحضارة. ترجمت، بدران، محمد، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص. 249-250.

⁷ - الناصري، سيد أحمد علي، (1992). تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسية والحضارية. القاهرة: دار النهضة العربية، ط2، ص488.

تداخلت مع فكرة الزهدة والتفرغ للعبادة مع امتزاجها بالفلسفة اليونانية⁽¹⁾، وقد ذكرهم ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس "أنه في عصر الرسول ﷺ كانت كلمة مؤمن ومسلم ثم نشأت كلمة زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، هكذا كان أوائل القوم ولبس عليهم إبليس أشياء ثم على من بعدهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن"⁽²⁾.

2.2. التأثير الإسلامي على البيزنطيين

تأثر بعض البيزنطيين بقضية التوحيد عند المسلمين ونبذ الشرك في عبادة الله حيث ظهرت الحركة اللايقونية في المجتمع البيزنطي فقد بدأت هذه الحركة لنبد عبادة الصور والتماثيل حيث عدّوها من أعمال الوثنية وكان ذلك في عهد الإمبراطور ليو الثالث الأيسوري (717-741)، الذي أمر بتحريم عبادة الصور والتماثيل، واتهمه أنصار عبادة الصور بأنه متأثر بأفكار العرب بل قال بعضهم بأن الإمبراطور ليو اعتنق الإسلام سرا على يد الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك (101-105 هـ / 720-724 م)، وهو الخليفة الذي أمر بإزالة الصور من جميع الكنائس الموجودة في الأقاليم التي تحت سيادة الدولة الإسلامية، ولإريب أن يكون الإمبراطور البيزنطي قد تأثر بالعقيدة الإسلامية، فالإسلام يحرم تقديس الصور والتماثيل ويحرم وجودها بالمساجد⁽³⁾. ومما يؤكد بأن المسلمين كان لهم دور فعال في إثارة حركة اللايقونات في الأوساط البيزنطية هو سماح الدولة الإسلامية ليوحنا الدمشقي بالدفاع عن الصور وهو يقيم بأرضها في الفترة التي أمر فيها الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك بتحطيم الصور والصلبان التي كانت في الأراضي الخاضعة لسيادة الدولة الإسلامية⁽⁴⁾.

¹ - العبد، محمد، وعبد الحكيم، طارق، (د.ت). الصوفية نشأتها وتطورها. الكويت: دار الأرقم، ص 13.

² - ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن، (د.ت). تلبيس إبليس. بيروت: دار القلم، ص. 156-158.

³ Harry Turtledove. (1982). *The Chronicle of trans Theophanes*. philadelphia. paris. P 93.

⁴ - العدوي، إبراهيم أحمد، (د.ت). الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية. القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ص 165.

وبرز أنصار الصور للدفاع عنها وألفوا الكتب والرسائل في الرد على مناهضيها ومن أبرز المدافعين عنها يوحنا الدمشقي، ومن أهم كتبه للدفاع عن الصور ينبوع المعرفة، وثلاث مقالات في الرد على الذين يحرمون وجود الصور⁽¹⁾، ومن أشد المدافعين عن الصور القديس (نيقفور المعترف 802-811م) وقد ألف كتاباً في الرد على محاربي الصور⁽²⁾.

وعقد الإمبراطور ليو الثالث مجلساً حضره كبار رجال الدولة البيزنطية وطلب موافقتهم على تحطيم الصور المقدسة فوافقوه على ذلك باستثناء كبير البطارقة جرمانوس الأول (Germamnus 715-729م) الذي عارضه في أمر تحطيم الصور المقدسة الأمر الذي جعل الإمبراطور ليو الثالث يقوم بعزله من منصبه ووضع بدلاً منه أنستاسيوس (Anastasius 729 - 752م)، وبذلك أصدر

الإمبراطور قراراً يقضي بإزالة الصورة الكبيرة للمسيح عليه السلام والتي كانت معلقة عند مدخل القصر الإمبراطوري بالعاصمة القسطنطينية⁽³⁾، ومما لاشك فيه أن هذه الصور كانت من أهم الصور المقدسة

عند أنصار الأيقونات الأمر الذي جعلهم يخرجون في ثورة غاضبة اصطدمت مع الطرف الآخر اللايقونيين الذين بالغوا في تقتيلهم حتى أصبح من قتل من أجل هذه الصورة من الشهداء في نظر أنصار الأيقونات⁽⁴⁾.

أخذ الإمبراطور ليو الثالث سياسة العنف ضد أنصار الصور خاصة بعد أن قاتل سكان القسطنطينية جنوده ومنعهم من نزع الصور فكثرت أعمال التخريب وحطمت التماثيل وأزيلت الصور التي على جدران الكنائس، وقد أمر الإمبراطور ليو الثالث بإحراق جدران الكنائس، كما

¹- Elsener, John (1988). Image and iconoclasm in Byzantium. Association of Art History, London, Vol.11, No.4, p. 472.

²- صبرة، عفاف سيد، (1982). الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان. القاهرة: دار النهضة العربية، ص269.

³- Gero, Stephen (1973) Byzantine Iconoclasm during the Reign of Leo III. Louvain: Secrétariat du Corpus SCO. P90..

⁴ Vasiliev, A-A.(1970). History of the Byzantine Empire. madison, Vol.1, p193.



أمر بحرق مكتبة كبيرة كانت بجوار كنيسة آيا صوفيا وكانت الكتب التي تحتويها هذه المكتبة أكثر من ثلاثة وثلاثين ألف كتاب، وقد تسببت هذه السياسة في اندلاع ثورات في أطراف الإمبراطورية، وعلق القديس يوحنا الدمشقي بالشام قائلاً: "للإمبراطور علينا حق الطاعة فيما يختص بكياننا المادي أما السلطة الدينية فلها رجالها ومشروعها والاعتداء عليها ضرب من الاغتصاب بحسب الإمبراطور أن يلح في سعادتنا سياسياً"⁽¹⁾.

وأمر الإمبراطور ليو الثالث في سنة (733م) بإخراج صقلية وجنوب إيطاليا ومقدونيا عن سلطة البابا الروحية ووضعها تحت سلطة البطريرك البيزنطي مباشرة⁽²⁾، وسار قسطنطين الخامس (741-775م) على سياسة والده بل إنه كان أشد قسوة من أبيه واستهل سياسته بأن أسكن عدداً من أنصاره بالقسطنطينية وقال: "عبادة الصور ضرب من الوثنية، ومن يعبدها سواء كان من المدنيين أو من الرهبان سيعاقب قانوناً باعتباره ثائراً ضد أوامر الله" وأمر بعقد مجمع لرجال الدين للحصول على قرار لتدمير الصور وأنصارها وتم عقد هذا المجمع بقصر القديسات الذي يقع على الشاطئ الأسيوي المواجه للفسفور وحضر مائتان وثلاث وثلاثون أسقفاً من كبار رجال الدين المؤيدين له من كافة الأقاليم، ثم بعد ذلك شرع الإمبراطور في تنفيذ القرارات الصادرة عن المجمع وأصدر أوامره بتدمير التماثيل والصور وأباح دم مناصري عبادة الصور فقتل الكثير منهم وصادر أملاكهم، كما أصدر قراراً يلزم فيه الناس بالقسم بإنكار عبادة الصور ومن يرفض يقتل وقد سميت الفترة من (764-765م) بفترة الشهداء لكثرة من قتل فيها من أنصار عبادة الصور من الرهبان أمثال إسطفانوس والراهب اندرياس⁽³⁾.

واشتهر الإمبراطور ثيوفيل (829-842م) ابن الإمبراطور ميخائيل الثاني باهتمامه بالعلوم وتأثره بالفن الإسلامي الأمر الذي جعله من أشد الأعداء لعبادة الصور المقدسة حيث أخذ

¹ - طرخان، إبراهيم علي، (1955). الحركة الأيقونية في الدولة البيزنطية. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص18.

² - طرخان، المرجع نفسه، ص19.

³ - الدينالي، نورا إبراهيم، (2008). الدولة البيزنطية في فترة حكم الأسرتين الأيسورية والعمورية. (717-967) دراسة تحليلية مقارنة. بنغازي: منشورات جامعة قارونس، ط1، ص205-206.

ذلك من مؤدبه يوحنا النحوي، وفي حقيقة الأمر أن عهده شهد المواجهات الأخيرة في قضية الأيقونات وربما يعود ذلك لما عرف عنه من العاطفة القوية لتلك القوى الأيقونية بالإضافة إلى تعلقه بفنون العالم الإسلامي وثقافته⁽¹⁾. حيث عمل على أن يكون حاكما مثاليا فقام بنشر العدل في أرجاء الإمبراطورية، وأخذ يقلد

ال خليفة هارون الرشيد فيما عرف عنه من العدالة فصار ثيوفيل يطوف بأنحاء القسطنطينية يقف على حاجات الفقراء والمساكين ويسمع شكواهم ويعاقب من ظلمهم من الموظفين مهما كانت منزلتهم ومكانتهم في الإمبراطورية⁽²⁾.

وتوقفت حركة المقاومة لعبادة الصور في عهد الإمبراطورة إيرين (797-802م) التي كانت من مؤيدي الأيقونات، ولكنها رأت منذ بداية عهدها في الوصاية على عرش ابنها أن الجيش ما يزال معاديا للأيقونات؛ لذا أرجأت النظر في إعادة الأيقونات إلى وقت آخر، وبدأت في التسامح مع عبادة الأيقونات، وبدأ الرهبان يظهرون من جديد في القسطنطينية⁽³⁾، ولكن هذا التوقف لم يدم طويلا حيث انتزع نفقور الأول (802-811م) العرش من إيرين واستمرت سياسة الاضطهاد لأنصار الصور حتى عهد الإمبراطورة ثيودورا (830-857م) التي كانت وصية على ابنها ميخائيل الثالث (842-867م). حيث أمرت بقيام مجمع ديني وقد أقيم هذا المجمع في سنة 843م بكنيسة آيا صوفيا بالقسطنطينية وأصدرت الإمبراطورة قرارا ببطلان جميع التعاليم التي تقضي بتحريم عبادة الصور وأن تعود عبادة الصور إلى سابق عهدها من التقديس والاحترام على أن تكون هذه الصور مرسومة على الجدران غير منحوتة من حجر أو مصنوعة من أي مادة أخرى⁽⁴⁾.

¹ J.M. Husey, (1967). Cambridge medieval history. tconclast art muslimin Fluence, Vo1 Iv, p327.

² - الدينالي، الدولة البيزنطية، المرجع سابق، ص159.

³ Frassetto, Michael. (2013). The Early Medieval World: From the Fall of Rome to the Time of Charlemagne: Santa Barbara, CA: ABC-CLIO.pp.327-328

⁴ - طرخان، إبراهيم علي، (1955)، الحركة الأيقونية في الدولة البيزنطية. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص30.

وكان من نتائج هذا الجدل الديني بين البيزنطيين والمسلمين الآثار الملموسة بين الطرفين، فالمجادلات الدينية بين النصارى التي كانت متأثرة بالفلسفة اليونانية كان لها تأثيرها في ظهور بعض الفرق التي أنكرت العذاب مثل المرجئة، وأخرى تكلمت في ذات الله فنفت بعض الصفات وعطلتها كالقدرية التي نفت صفت القدرة عن الله وأن الإنسان يخلق أفعاله بإرادته والمعتزلة التي نفت صفة الكلام عن الله بل إن بعضهم قال إن في الكون خالقان، وكذلك التسامح الديني عند المسلمين مع سكان الأقاليم المفتوحة في بلاد الشام وغيرها شجع على دخول الكثير من المسيحيين في الإسلام، وحركة الأيقونات (الصور) والتي كان سبب ظهورها نابع من أصل عقيدة التوحيد لدى المسلمين، والأثر الذي سببته من ثورات وانقسامات وقتل عند البيزنطيين، كل هذه الأحداث توضح مدى تأثر الحضارتين ببعضهما في مجال العلوم الدينية.

3. العلوم التطبيقية:

نالت العلوم التطبيقية عناية كبيرة عند الحضارتين البيزنطية والإسلامية وكانت العلوم اليونانية هي العامل المشترك لدى الطرفين فأخذوا عنهم الكثير من العلوم ودرسوا كتبهم في الطب والرياضيات والهندسة والفلك والكيمياء، فيرى الباحثون أن الفترة الممتدة من القرن الرابع حتى القرن السابع ميلادي من التاريخ البيزنطي يمكن اعتبارها بأنها فترة تفاعل بين الوثنية والمسيحية فانقسم البيزنطيون إلى قسمين قسم رأى أنه من الممكن الاستفادة من العلوم الوثنية والقسم الآخر رأى عكس ذلك ولكنهم وصلوا إلى إمكانية التوافق بين الاتجاهين وبدأت المسيحية في امتصاص التراث اليوناني الوثني تدريجياً حيث أنشأ الأباطرة البيزنطيين المدارس والمعاهد لدراسة هذه العلوم وغيرها فأقبلوا على دراسة الرياضيات والهندسة والكيمياء والطب⁽¹⁾.

وأهتم المسلمون بالعلوم بصفة عامة والعلوم التطبيقية بصفة خاصة حيث شجع الخلفاء المسلمين على تعلم هذه العلوم واستخدموا العلماء من مختلف الملل دون تفریق، كما عملوا على ترجمة

¹ - صبرة، مرجع سابق، ص 256.

كتب الحضارات الأخرى وأسسوا لذلك دورا لترجمتها ودفعوا الأموال لمترجمي الكتب فترجمت العديد من الكتب في الطب والكيمياء والرياضيات والفلك وغيرها⁽¹⁾.

1.3. علم الطب:

لم يكن تعلم الطب عند البيزنطيين مقتصرًا على من كان ينوي ممارسته في مستقبل حياته فدرس البيزنطيون الطب عن جالينوس وأبقراط⁽²⁾، وكانت النظرية الطبية عن جسم الإنسان بأنه ممتزج بأربعة عناصر وهي الدم والبلغم والصفراء والسوداء وأن الجسم السليم تعتمد صحته على اتحاد العناصر الأربعة وهي الجفاف والرطوبة والحرارة والبرودة⁽³⁾.

واعتمد البيزنطيون على التجارب في علاج بعض الأمراض فمثلا محلول (ملح جريجوري) المصنوع من النشادر والزنجبيل والبقدونس والفلفل للشفاء من مرض النقرس الذي كان شائعًا عند البيزنطيين في ذلك الوقت، وكذلك (ملح الجامل) الذي يخلط بالسّمك واللحم الجاف يؤكل مع البيض النيئ لتنشيط حركة المعدة كما أنه يشفي من نزلات البرد، بالإضافة إلى هذه العلاجات استخدم البيزنطيون العلاج بالحجامة والكي⁽⁴⁾. وهذا العلاج من العلاجات التي يوصي بها الطب النبوي عند المسلمين فيذكر ابن القيم في كتابه الطب النبوي أن النبي ﷺ قال: (الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةُ عَسَلٍ، وَشَرْطَةُ مَحْجَمٍ، وَكَيَّْةٌ نَارٍ، وَأَنْتَهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيْ)⁽⁵⁾. وقد ألف الأطباء البيزنطيون أمثال أوريباسيوس وأجابيوس الكريتي وأنتيوس كتبهم على أساس المكونات الأربعة للمرض في جسم الإنسان⁽⁶⁾.

ويعد أوريباسيوس من أشهر الأطباء البيزنطيين الذين علقوا على كتاب جالينوس في الطب، وقد اعتمد عليه الكثير من الأطباء العرب والبيزنطيين⁽⁷⁾. وقد اهتم البيزنطيون ببناء المستشفيات مثل

¹ - مظهر، جلال، (1969). الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث. القاهرة: مطبعة مخيمر، ص 65 - 68.

² - صبره، مرجع سابق، ص 283-284.

3- Rene, Guerdan, (1975). **Byzantium its triumph and thelogy**. London: p 67.

⁴ - رنسيومان، ستيفن، (1997). الحضارة البيزنطية. ترجمة، عبد العزيز توفيق، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، ص 284.

⁵ - ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، (د.ت). الطب النبوي. تحقيق عبد الخالق، عبد الغني، بيروت: دغر الفكر، ص 38.

⁶ - رنسيومان، المرجع سابق، ص 288.

⁷ - سقيو، إيمان محمود، (2013)، الحياة الثقافية والعلمية في الدولة البيزنطية. القاهرة: دار الآفاق، ص. 172.

مستشفى (دير الإله القاهر) ⁽¹⁾ ومستشفى (القديس زوينتقوس) أما فيما يخص رواتب الأطباء فكانت تدفع لهم نقداً أو يعطى لهم مقابل هذه القيمة المالية نوعاً من المحاصيل مثل القمح وذلك مع مراعاة مناصبهم ومكانتهم ⁽²⁾.

ودرس المسلمين علم الطب وخاصة الطب اليوناني حيث كان الحارث بن كلدة من أشهر أطباء العرب عند ظهور الإسلام وقد درس الطب على يد الأطباء اليونان الذين رحب بهم كسرى انوشروان في مدينة جندياسبور (531-578م) بعد أن أغلق الإمبراطور البيزنطي جستنيان مدرسة أثينا (427-565م) ⁽³⁾. وتخصص الحارث بن كلدة في الصحة البدنية وأوصى بعدم الإفراط في الطعام وأوصى بالحجامة بعد ظهور الإسلام وكان من الأطباء الذين اعتمد عليهم الرسول ﷺ وأصبح محل ثقة عند العرب في الجزيرة العربية ⁽⁴⁾.

اهتم المسلمون بالطب والأطباء في العصر الأموي وجعلوا لهم الأعطيات فيذكر المقرئ أن الخليفة الوليد بن عبد الملك أول من بنى مستشفى في الإسلام، وأمر بعزل المصابين بمرض الجذام وجعل لكل أعمى شخص يقوده مقابل عطاء يأخذه من بيت المال ⁽⁵⁾. واستعان الخلفاء الأمويون ببعض الأطباء النصارى كالطبيب النصراني ابن أثال الذي جعله معاوية بن أبي سفيان طبيباً الخاص وكان ابن أثال خبير بالأدوية والمركبات الطبية وله دراية بصناعة السم، وأبي الحكم الدمشقي النصراني وكان عالماً بأنواع العلاج والأدوية وكثيراً ما طلب استشارته معاوية بن أبي سفيان في الوصفات الطبية وقد طال عمره حتى تجاوز المائة عام ⁽⁶⁾. ومن أجل ذلك يقول المؤرخ الهندي (صلاح الدين خدابخش) أن الأمويين كانوا قادة العلوم في الإسلام وذلك حين وصف معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة

¹ - رنسيان، مرجع سابق، ص 288

² - سقيو، مرجع سابق، ص 176.

³ - إسماعيل، محمد حمزة، (2008). مدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ط 3، ص 2251.

⁴ - حسن، حسن إبراهيم، (1996). تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. بيروت: دار الجيل، ط 14، ج 1، ص 417.

⁵ - المقرئ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، (1997). السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق، عطا محمد عبد القادر، بيروت: دار الكتب العلمية، ج 1، ص 112.

⁶ - ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم، (د.ت). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق، رضا، نزار، بيروت: دار مكتبة الحياة، ص. 171،



الأموية بأنه صاحب قلب كبير وعقل متحرر فقد كان اهتمامه بالعلوم المسيحية يجعله على نقیض من الأباطرة البيزنطيين المتعصبين ضیقي الأفق فنجد معاوية یرحب في بلاطه بالطبيب المسيحي ابن أثال الذي ترجم لمعاوية كثيرا من كتب الطب إلى اللغة العربية⁽¹⁾.

یقول كرد علي بعد أن توطد أمر الخلافة في عهد الدولة الأموية وأخذت الجیوش الإسلامية تتقدم في أفريقيا والأندلس وبلاد ما وراء السند كانت أنطاكية والرها وحران عامرة بالثقافة اليونانية مثل الفلسفة والطب، فأمر الخلفاء الأمويون هؤلاء المثقفين بهذه الأقاليم بترجمة أهم الكتب في الطب وغيرها إلى اللغة العربية، فترجم كتاب أهران بن أعین في الطب إلى اللغة العربية بأمر من الخليفة عمر بن العزيز وكان له الفضل في وضع الأسس الأولى للاهتمام بعلم الطب في بلاد الشام بعد خالد بن یزید، وجاء من بعدهم العباسيون وكان همهم أن یجمعوا المخطوطات اليونانية ویترجموها إلى اللغة العربية فترجمت كتب إقليدس وأرخمیدس وأبقراط وجالینوس وأرسطو⁽²⁾.

وقام الأطباء العرب الذين تأثروا بالفكر اليوناني وخاصة فیما ینسب إلى أبقراط وجالینوس بتطبيق النظريات وتجربتها على المرضى بمختلف الظروف والأحوال، ثم أخذوا بما ثبت صحته من النظريات العلمية وطوروها إلى الأفضل في علم الطب، واعتنى الخلفاء العباسيون بالأطباء مثل جورجیوس بن بختیشوع الذي كان طبيب الخليفة أبي جعفر المنصور وقد خلفه ابنه بختیشوع وكان له بعض المؤلفات في الطب منها التذکیر في الطب وخفقات القلب وقروح الأمعاء، ثم أتى ابنه جبرائیل والذي نال شهرته في عهد الخليفة هارون الرشید حيث مارس الطب بالطرق اليونانية فاهتم بأفكارهم وطلب كتبهم لترجمتها، فترجم له حنین بن إسحاق كتاب السبع مقالات الأخيرة من كتاب الحمیات لجالینوس، وكتاب الفصول لأبقراط وكتاب الحث على تعلم الطب وكتابا في التشریح⁽³⁾.

¹ - الخريطلي، علي حسني، (1994). الحضارة العربية حضارة السياسة والإدارة والقضاء والحرب والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم والثقافة والفنون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص285.

² - علي، محمد كرد، (1934). الإسلام والحضارة العربية. القاهرة: دار الكتب المصري، ص166.

³ - السامرائي، كمال، (د.ت). مختصر تاريخ الطب عند العرب. بيروت: دار النضال، ص336-343.

وكان يوحنا بن ماسويه رئيسا لبيت الحكمة البغدادي في عهد الخليفة العباسي المأمون وقد كتب ابن ماسويه في التشريح حيث قام بتشريح قرد حتى يدعم نظرياته عند التعليق على آراء جالينوس وقد كلفه الرشيد بترجمة الكتب التي تحصل عليها من أنقر عندما غزها سنة 190هـ/ 806م.⁽¹⁾ ويعتبر حنين بن إسحاق تلميذا لابن ماسويه وهو أشهر المترجمين في العصر العباسي الأول وقد كان من الأطباء المقربين للخليفة العباسي المتوكل⁽²⁾.

وحرص الخلفاء المسلمون على نشر العلوم الطبية وشجعوا الأطباء وفرضوا لهم العطايا والمكافآت وأسسوا المستشفيات والمدارس الطبية، وعقدوا الاجتماعات ودعوا الأطباء من الأقاليم والبلدان كافة في موسم الحج وبذلك يمكنهم عرض أبحاثهم والنتائج التي وصلوا إليها في مجال الطب⁽³⁾.

ويتضح مما سلف ذكره اعتماد كل من الحضارتين البيزنطية والإسلامية على ما كتبه العلماء اليونان في مجال الطب فالبيزنطيون يعدون هم ورثة المدارس اليونانية خاصة التي كانت في الإسكندرية وأنطاكية وحران، وعندما أصبحت تحت حكم المسلمين استفادوا بما وجدوه من علماء وعلوم عن طريق احتواء هؤلاء العلماء وترجمت الكتب بصفة عامة والطب بصفة خاصة فقد نقلوا الكتب من أنقرة وأنطاكية والإسكندرية بالإضافة إلى تلك الكتب التي أرسلوا في طلبها من البيزنطيين وأمروا بترجمتها، كل هذا الاهتمام جعل فرص التأثير بينهم ملموسا خاصة في تشخيص بعض الأمراض والعلاجات.

2.3. علم الكيمياء :

أما في علم الكيمياء لم يتعد البيزنطيون ذلك السائل القابل للاشتعال والذي يعرف باسم النار الإغريقية وقد احتفظوا بسر صنعته لأنه يعد سلاحا يصنع الفارق في المعارك البحرية وذلك لإمكانية اشتعال هذه النار فوق الماء، وقد كانت هناك دراسة متخصصة عن النار الإغريقية في القرن التاسع

¹ - ابن أبي أصيبعة ، مصادر سابق ، ص 246 - 250.

² - القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، (2005). أخبار العلماء بأخبار الحكماء. تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ص، 131-132.

³ - حسن، حسين الحاج، (1994). حضارة العرب في العصر العباسي. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ص 100.

الميلادي الثالث الهجري ولكن كانت هذه الدراسة باللغة اللاتينية، حيث لم تكن هذه النار إلا عبارة عن وصفة قديمة لتحضير مادة البارود⁽¹⁾ ويتضح من ذلك إن هذا القدر الضئيل في مجال علم الكيمياء عند البيزنطيين أنه علم يخدم الأغراض العسكرية وأن المتخصص في هذا العلم لا يصل إلى المناصب العليا في الدولة لذلك لم يسعى المجتمع البيزنطي في طلبه وتعلمه⁽²⁾.

وعرفت الكيمياء عند العرب في البداية باسم علم الصنعة ، وكانت من أوائل العلوم التي ترجمها العرب المسلمون عن اليونانيين وذلك عندما طلب خالد بن يزيد بن معاوية ترجمت بعض الكتب في الكيمياء⁽³⁾ ويعد خالد بن يزيد أول من فتح الطريق للمسلمين للبحث والتعرف على هذا العلم ومن أبرز كتبه في الكيمياء الحرارة والصحيفة الكبيرة والصحيفة الصغيرة. وقد نظم المسلمون قواعد وأصول علم الكيمياء وجعلوا التجربة هي الأساس للاشتغال بهذا العلم ونبذوا النظريات الكيميائية التي يدخل فيها السحر والشعوذة⁽⁴⁾.

يتبين مما سبق أن نشأت علم الكيمياء على هذه الأسس العلمية تجعله إسلامياً، وقد برز خلال القرن الثاني الهجري في علم الكيمياء جابر بن حيان⁽⁵⁾ الذي استخدم التجارب في الكيمياء وأول من حضر الأحماض الكيميائية مثل حامض النيتريك، وشرح طرق التبخر والانصهار والتقطير، وأول من حضر حامض الكبريتيك⁽⁶⁾. وله مؤلفات كثيرة في علم الكيمياء مثل روح الأرواح، والمخزون في الصنعة والخالص في الكيمياء وكذلك كتاب الرحمة في الكيمياء⁽⁷⁾.

¹- Krumbacher, (2001). the History of Byzantine Literature from Justinian to the end of the Eastern Roman empire (527- 1453). Northdame, p 55,58.

²- سقيو، مرجع سابق، ص 169.

³- صاعد، أحمد بن صاعد الاندلس، (1912). طبقات الأمم. بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ص 48.

⁴- الهاشمي، رحيم كاظم، وشنقارو، عواطف محمد العربي، (د.ت). الحضارة العربية الإسلامية دراسة في تاريخ النظم. غريان: المكتبة الجامعية، ص 199.

⁵- أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله ، كان يعرف بالصوفي، من أهل الكوفة ، وأصله من خراسان، توفي سنة 200 هـ ، الزركلي، خير الدين محمود بن محمد، (2002).

الأعلام. بيروت: دار العلم للملايين، ط5، ج2، ط5، ص 103.

⁶- مظهر، جلال، (1969). الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث. القاهرة: مطبعة مخيمر، ص 72-73.

⁷- البغدادي، إسماعيل باشا، (1951). هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. بيروت: دار إحياء التراث العربي، مج1، ص 249.

3.3. علم الرياضيات:

ارتبطت دراسة علم الرياضيات عند البيزنطيين بالفلسفة حيث ظنوا أن الرياضيات تربط بين الأشياء المادية والأفكار النظرية، ويعد ليو الرياضي⁽¹⁾ صاحب الفضل في إحياء العلوم الرياضية حيث برزت أنشطته وأصبح لديه ارتباط بجميع الجامعات والمدارس في القسطنطينية، فقد كان يمددهم بأبحاثه في علم الرياضيات وتطور البيزنطيون في هذا العلم تطوراً ملحوظاً، وقد قام الخليفة العباسي المأمون بمراسلة ليو الرياضي البيزنطي يدعوه للمجيء إلى بغداد مقابل عطاءات وإغراءات ولكن الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل علم بهذه المراسلة فأمر ببقاء ليو الرياضي في القسطنطينية وعينه مدرسا في إحدى الكنائس وقد ألح الخليفة المأمون في طلبه من الإمبراطور ثيوفيل بأن يسمح لليو الرياضي أن يزور بغداد ولو لمدة قصيرة حتى إن الخليفة عد قبول ثيوفيل لطلبه صلحا دائما بين الدولتين، ولكن الإمبراطور البيزنطي رفض ذلك معللا بأن ليو وابتكاراته سرا من الأسرار البيزنطية التي لا يسمح أن يطلع عليها غيرهم⁽²⁾.

ولم يعتمد العرب في علم الرياضيات على اليونان فقط بل أخذوا عن الهنود ومزجوا بين ما كان للحضارتين في علم الرياضيات وخرجوا بأفضل النتائج في ذلك الوقت، حيث طوروا في الأرقام الحسابية واستعملوا الدائرة لتدل على الصفر وقد انتشرت في بلاد المغرب الإسلامي ومنها إلى الأندلس وعن طريقها دخلت إلى أوروبا التي كانت تستخدم الأرقام اليونانية حيث يكون عدد الأرقام بعدد الأحرف الهجائية، ومن أشهر علماء الرياضيات عند المسلمين محمد بن موسى الخوارزمي الذي يعتبر أول من وضع كتابا في الرياضيات المعروف باسم (الجبر والمقابلة) وذلك تحقيقا لرغبة الخليفة العباسي المأمون⁽³⁾.

¹ - ليو الرياضي، أو الفيلسوف، ولد عام 790م وهو ابن عم البطريك يوحنا السابع، كان له الفضل في إحياء الدراسات الأدبية في بيزنطة، توفي سنة 869م، نيكول، مرجع سابق، ص257.

² - صبرة، مرجع سابق، ص282.

³ - مظهر، مرجع سابق، ص85-86.

كان البيزنطيون يرون في أنفسهم أنهم على قدر كاف بفهم المعادلات الهندسية أفضل من المسلمين على الرغم من أن كل من الطرفين كانوا يدرسون في نظريات إقليدس في هذا العلم، غير أن المسلمين أدخلوا بعض المعادلات الجديدة معتمدين في ذلك على كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي وقد ظلت هذه النظريات الهندسية لإقليدس حتى العصور الحديثة هي أقصى حد للمعارف الهندسية⁽¹⁾. أما في مجال الميكانيكا اعتمد البيزنطيون على مؤلفات قديمة أهمها مؤلفات (أوتولوكس Autolycus)، والتي انتقلت إلى المسلمين فزادوا عليها وطوروها⁽²⁾.

3.3. علم الفلك:

ولم تخرج نظريات البيزنطيين في علم الفلك على نظريات بطليموس وكانت أفكارهم تدور حول أن الكون يتكون من مجموعة من الأفلاك تتوسطها الأرض⁽³⁾. وربما يعود ذلك إلى أن علم التنجيم كان مكروها عند الكنيسة البيزنطية ونظرا لتداخل علم التنجيم بعلم الفلك لم يقبل البيزنطيون على دراسة الأجرام السماوية⁽⁴⁾. هذا بالنسبة لزمن الدراسة لهذا البحث وإلا فإن البيزنطيين اهتموا بعلم الفلك اهتماما خاصة⁽⁵⁾ ولم يعتمدوا على الدراسات اليونانية فقط بل إنهم أخذوا من المصادر العربية في هذا المجال⁽⁶⁾.

كان المسلمون على خلاف ما كان عليه موقف البيزنطيين اتجاه علم الفلك حيث اعتنوا به عناية بالغة لارتباط هذا العلم بالشريعة الإسلامية مثل مواقيت الصلاة وشهر الصيام ومعرفة اتجاه القبلة

¹ - رنسيمان، مرجع سابق، ص 285

² - صبرة، مرجع سابق، ص 282-283.

³ - صبره، مرجع نفسه، ص 283.

⁴ - سقيو، مرجع سابق، 165.

⁵ - هسي، ج، م، (1997). العالم البيزنطي. ترجمة، عبد الحميد، رأفت، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص 290.

⁶ - Kazhdan, (1996). People and power In Byzantine and introduction to modern Byzantine Studies. Washington, p 150-151.

التي تختلف كلما انتقلوا من إقليم إلى آخر وذلك حسب الموقع الجغرافي للكعبة المشرفة، وكذلك معرفة الاتجاهات عن طريق النجوم في البر والبحر⁽¹⁾.

وفرق المسلمون بين علم الفلك والتنجيم وأكدوا على أن الفلك علم قائم بذاته له أسبابه وأصوله ونتائجه العلمية، في حين أن التنجيم مبني على الوهم والخرافات ولا توجد له أسس علمية⁽²⁾. ومن أشهر علماء المسلمين في الفلك ثابت بن قرة الحاراني⁽³⁾ الذي ترجم العديد من كتب اليونان في الفلك، ومحمد بن إبراهيم الفزاري الذي يعد أول من صنع الأسطرلاب وقد ألف كتاب الزيج في فنون التعديل والتقويم، والمقياس للزوال، والقصيدة في علم النجوم⁽⁴⁾. وعلي أي حال يتبين مما سبق ذكره أن كل من البيزنطيين والمسلمين اعتمدوا على ما كتبه بطليموس في علم الفلك ولكن العرب زادوا وطوروا في هذا المجال⁽⁵⁾.

4. العلوم العقلية

إن العلوم العقلية هي تلك العلوم المرتبطة بطبيعة الإنسان وفكرة وهي ليست مختصة بأمة معينة أو شعب دون آخر فكل الناس على اختلاف مللهم ربما يكونون على مستوى متقارب في طرق البحث فيها وهي موجودة في الجنس البشري منذ عمران الخليفة⁽⁶⁾.

¹ - ضية، نورة، (2015-2016). المؤثرات البيزنطية في الحضارة العربية في العهد العباسي 123-232 هـ / 750-847م. رسالة ماجستير، الجزائر. جامعة يحي فارس بالمدينة، ص50.

² - محمود، حربي عباس عطيتو، وحلاق، حسان، (1995). العلوم عند العرب أصولها وملاحمها الحضارية. بيروت: دار النهضة العربية، ص315.

³ - ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت الحاراني، له كتب في شتى العلوم كالحساب والمنطق والهندسة. ابن جليل، أبو داود سليمان بن حسان، (1955). طبقات الأطباء والحكماء. تحقيق فؤاد رشيد، القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، ص75.

⁴ - الزركلي، مصدر سابق، ج5، ص293.

⁵ - محمود، المرجع سابق، ص316.

⁶ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (2001). مقدمة ابن خلدون. تحقيق، شحادة، خليل، بيروت: دار الفكر، ج1، ص629.

1.4. علم الفلسفة:

وتعني الحكمة أو حب الحكمة وهي التي تبحث في الكون وطبيعته وسلوكيات الإنسان وأخلاقه والوصول إلى ما اكتشفه العقل من معرفة واكتشاف قوانين المنطق وأساليب الجدل والبراهين والنتائج، ونشأ هذا التفكير الفلسفي في الحضارات القديمة واهتم اليونانيون بهذا العلم اهتماما بالغاً حيث ازدهرت عندهم الفلسفة منذ القرن السادس قبل الميلاد وحاول علماءهم وضع تفسير منظم لوجود الإنسان والكون، ومن أشهر العلماء اليونان الذين أهتموا بعلم الفلسفة هم سقراط وأرسطو وأفلاطون⁽¹⁾.

واهتم البيزنطيون بهذا العلم اهتماما خاصا حيث ارتبطت دراسة الفلسفة عندهم بالدين ارتباطا وثيقا وكانوا يعتبرونها علما أساسيا ومساعدة لدراسة قوانين الكنيسة وعلومها⁽²⁾، ونظر البيزنطيون إلى الفلسفة بأنها رياضة فكرية شاملة لشتى فروع المعرفة وذات صلة مباشرة بالخطابة والقانون وقد قالوا بأن الفلسفة والخطابة تعتمدان على بعضهما البعض، وكذلك العلوم القانونية عند البيزنطيين هي أيضا اعتمدت على الفلسفة في كل جوانبها وأخذت منها منهجها في التحقيق والبحث وربط الخاص بالعام في المسائل التشريعية بالقانون البيزنطي⁽³⁾.

ودرس البيزنطيون المؤلفات اليونانية في الفلسفة كمؤلفات أفلاطون وأرسطو وقاموا بالتعليق عليها وقد كان لهم وجهات نظر خاصة في مناقشة مختلف المسائل التي تناولها هؤلاء الفلاسفة⁽⁴⁾، وقد برز العديد من الفلاسفة البيزنطيين أمثال يحيى النحوي (فيلوبينوس) الذي كان عالما بالنحو والمنطق والفلسفة ولشدة اهتمامه بالفلسفة ألحقه العلماء بالفلاسفة ومن أشهر كتبه كتاب (تفسير كتاب الكون والفساد لأرسطو) وكتاب (كل جسم متناهي فقوته متناهية) وتفسير كتاب (العلل

¹ - الهاشمي، رحيم كاظم. شنقارو، عواطف محمد العربي، الحضارة العربية الإسلامية دراسة في تاريخ النظم. (د.ت). ليبيا. غريان: المكتبة الجامعية، ص 186.

² - صبره، مرجع سابق، ص 264.

³ - سقيو، مرجع سابق، ص 92.

⁴ - Ierodikonou, (2001). *Byzantine Philosophy and ancient sources*. Oxford, p. 3

والأعراض لجالينوس⁽¹⁾ وأريثاس (Arethas) الذي اشتهر بنقل المخطوطات اليونانية وتعليقه عليها خاصة التي لأرسطو وإقليدس وأفلاطون⁽²⁾.

وشهد القرن الثامن ميلادي اهتماما كبيرا من قبل البيزنطيين لدراسة الفلسفة حيث جعلوا من الضرورة لفهم المسائل الفلسفية لأفلاطون والإمام بأصول الرياضيات والهندسة، وكانت النقاشات الفلسفية تحدث بين البيزنطيين خاصة في المسائل المتعلقة بأمور الدين ولعل حركة اللا أيقونات قد نمت فكرتها وزاد مجالها بسبب المناقشات الفلسفية بالإضافة إلى إرجاع سببها إلى المسلمين خاصة بعد استيلائهم على بلاد الشام ومصر، وجد البيزنطيين أنفسهم في احتكاك دائم مع المسلمين عسكريا وفكريا، وهناك من قال إن حركة ترك عبادة الايقونات هو استناد مناهضي الصور إلى وثيقة قديمة وجدها البيزنطيون تمنع عبادة الصور، وأن من دعا إلى عبادة الصور هم الفلاسفة الذين تأثروا بفلسفة أفلاطون ووثنية اليونانيين، حيث طور هؤلاء الفلاسفة مفهوما جديدا للصور في الديانة النصرانية كوسيلة إلى عبادة الله⁽³⁾.

تأثر المسلمون بالفلسفة اليونانية عن طريق مخالطتهم لنصارى الشام ومصر بالإضافة إلى تلك الكتب التي ترجمت إلى العربية، فقد ترجم العرب بعض كتب الفلسفة لسقراط وأفلاطون وأرسطو وتناولوا آراءهم بالشرح والتحليل ومن أشهر الفلاسفة المسلمين الكندي الذي يعد مؤسس الفلسفة العربية الإسلامية وقد كانت فلسفته على طريقة أفلاطون التي حورها وقربها من العقيدة الإسلامية كالإقرار بالبعث يوم القيامة وغيرها ومن أشهر كتبه في الفلسفة كتاب (الفلسفة الأولى فيما يتعلق فيما دون الطبيعيات والتوحيد) بالإضافة إلى خمس رسائل فلسفية أخرى⁽⁴⁾. هذا فيما يخص زمن الدراسة لهذا البحث وإلا فقد برز العديد من الفلاسفة العرب في القرن الثالث الهجري والقرن الثاني تليه واشهرهم الفارابي وابن سينا.

¹ - ابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ص، 152-153.

² - نيكول، مرجع سابق، ص 178.

³ - صبرة، مرجع سابق، ص، 264-267.

⁴ - الهاشمي، مرجع سابق، ص 187.

لم يعط المسلمون اهتماما كبيرا بما كان عند اليونانيين من أفكار عقائدية تعارض مسائل التوحيد في الإسلام، حيث نشأ علم الكلام عند المسلمين الذي يعد مدخلا إلى الفلسفة الإسلامية⁽¹⁾. وأكد ذلك الجاحظ في كتابه الحيوان قائلا: "لا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام ومتمكنا فيه حتى يكون يحسن من الكلام كما يحسن من الفلسفة، والعالم هو الذي يجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال⁽²⁾". ويعني ذلك أن علم الكلام هو تقوية العقائد الدينية بالحجج العقلية⁽³⁾.

2.4. علم التاريخ:

كان علم التاريخ يثير اهتمام البيزنطيين إلى جانب حبهم للفلسفة فأقبل البيزنطيون على قراءة أمجاد أسلافهم وخاصة تلك الكتب التي تمتد إلى الماضي البعيد حتى تبدأ من خلق آدم وحواء عليهما السلام ويتضمن قصص الأباطرة والقديسين القدماء⁽⁴⁾، ومن أشهر المؤرخين البيزنطيين بعد تأسيس القسطنطينية (يوسيبوس) الذي يعد أول من دون سيرة حياة قسطنطين الأول، وكذلك (بروكوبيوس) الذي ألف كتاب (التاريخ السري) وذكر فيه السير وحروب الأباطرة (ويوحنا مالالاس) الذي ألف مدونة إخبارية ابتدأت من آدم عليه السلام، ومن أبرز المؤرخين البيزنطيين في القرن التاسع ميلادي الراهب (ثيوفانيز) الذي ألف مدونه باللغة الدارجة الشعبية ويعد مؤلفه هذا من المؤلفات الموثوقة التي يرجع إليها النظر في أخبار القرون السابقة لعصره⁽⁵⁾. كما اهتم البيزنطيون بكتابة سير القديسين والأباطرة وحروبهم خاصة بعد ظهور الإسلام وسيطرة المسلمين على بعض الأقاليم التي كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية⁽⁶⁾.

¹ - الهاشمي، المرجع نفسه، ص186.

² - الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، (1965). الحيوان. تحقيق، محمد، هارون عبد السلام، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ج2، ط2، ص134.

³ - الأهواني، أحمد فؤاد، (1985). الفلسفة الإسلامية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص18.

⁴ - صبره، مرجع سابق، ص276.

⁵ - رنسيمان، مرجع سابق، صص295-296.

⁶ - محمد، طارق منصور، (2002). قطوف من الفكر البيزنطي. القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، ج1، ص11.

اشتغل المسلمون بتدوين التاريخ وخاصة السير والمغازي والأنساب وقد حثهم على ذلك عدة عوامل منها تحري أنساب العرب المسلمين لتحديد عطاء كل مسلم، والوقوف على أخبار الملوك السابقين لعهدهم، ومعرفة الأماكن والأشخاص الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم بالإضافة إلى تدوين سيرة الرسول ﷺ وصحابته والتي أصبحت بعد ذلك هي الأساس الذي بنيت عليه كتب السير والمغازي، ومن العوامل التي حثت المسلمين على الاهتمام بتدوين التاريخ ذلك الحرص الذي التمسوه من شعوب الأقاليم المفتوحة في حفظ وتدوين أخبار أسلافهم⁽¹⁾.

وكان أسلوب المسلمين في تدوين التاريخ أسلوب المحدثين الذي يبدو واضحاً في تاريخ السيرة النبوية ويعد أبان بن عثمان بن عفان أول من كتب في سيرة حياة الرسول ﷺ وعروة بن الزبير بن العوام الذي ينسب إليه كتاب غزوات الرسول ﷺ ولكن هذا الكتاب غير موجود وإنما نقله عنه محمد بن إسحاق الذي ألف كتاباً في السيرة ويعد من أوائل الكتب فيها، وكذلك هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وكتب أبي مخنف في أخبار العراق وألف محمد بن عمر الواقدي في أخبار السيرة النبوية والحجاز وفتوح بلاد الشام⁽²⁾ كما يعد عبيد بن شريح⁽³⁾ أول من دون التاريخ في العهد الأموي حيث ألف لمعاوية بن أبي سفيان كتاب (الملوك وأخبار الماضيين) كما ظهرت كتب الطبقات مثل كتاب طبقات الصحابة لمحمد بن عمر الواقدي والطبقات الكبرى لمحمد بن سعد الزهري المعروف بطبقات ابن سعد وطبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، وكتب الأنساب التي من أشهرها كتاب جمهرة النسب لمحمد بن السائب الكلبي⁽⁴⁾.

¹ - الهاشمي، مرجع سابق، ص 178.

² - الخربوطلي، حسين، (1994). الحضارة العربية الإسلامية حضارة السياسة والإدارة والقضاء والحرب والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم والثقافة والفنون. القاهرة: مكتبة الخانجي، ط 2، ص، ص 275-277.

³ - عبيد بن شريح أو سريه الجرهمي، من عرب اليمن لقيه معاوية بن أبي سفيان بالعراق ويقال أنه عاش مائتان وعشرون سنة وكان معاوية يسأله عن أخبار ملوك العرب القدماء وتوفي في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. الحموي، ياقوت، (1993). معجم الأدباء. تحقيق، عباس، إحسان، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج 4، ص، ص 1581-1584.

⁴ - زعزور، إبراهيم، وأحمد، علي، (1995). تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري. سوريا: منشورات جامعة دمشق، ص، ص 144-147.

يتضح مما سبق أن علم التاريخ عند المسلمين نشأ في البداية من علم السيرة والحديث حيث كان في البداية عبارة عن جمع لسيرة الرسول ﷺ وأصحابه وما حدث به من أحاديث ويدونها مع إسنادها إلى مصادرها الأصلية ليتحققوا من صحتها ثم بعد ذلك بدأت تتفرع عن السيرة والحديث كتب الغزوات ومعرفة الطبقات والأنساب، وبالمقارنة مع التاريخ البيزنطي نجد هناك نوعا من التقارب في طريقة التدوين التاريخي عند الحضارتين البيزنطية والإسلامية من حيث الاهتمام بسيرة أسلافهم ومغازيهم، بالإضافة إلى وجود عامل مشترك بينهم جعل كل منهما يهتم بتدوين التاريخ وهو تلك الحروب التي نشبت بين الطرفين فقد حرص كل منهم على تدوين أحداث هذه الحروب من انتصارات وهزائم ومعاهدات صلح عقدت بين الطرفين.

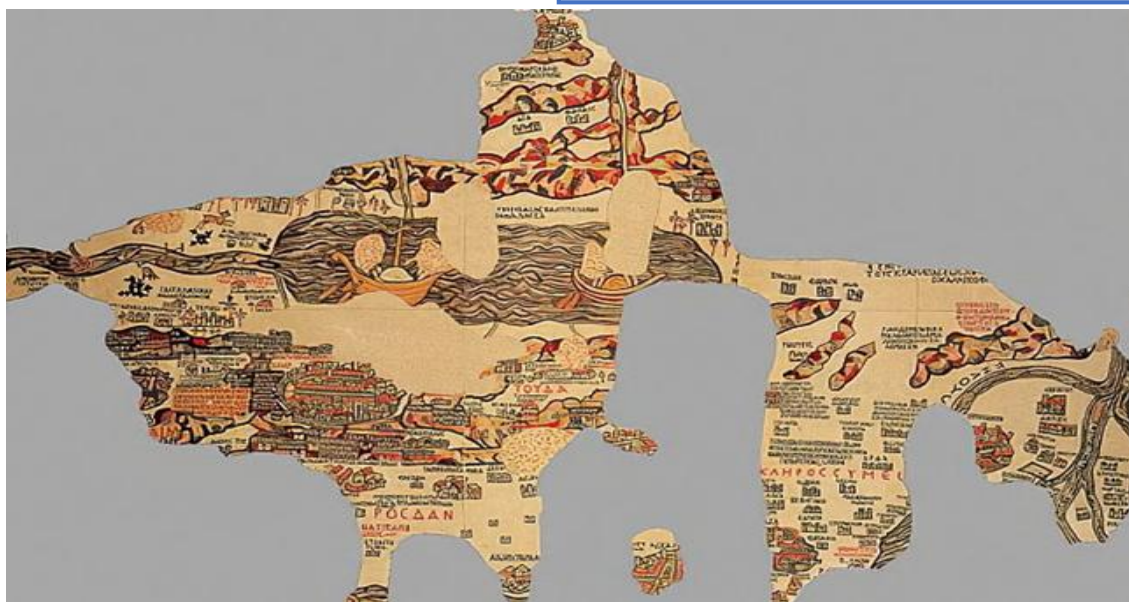
3.4. علم الجغرافيا:

لا ريب إن علم الجغرافيا من العلوم المتصلة بعلم التاريخ فتدوين الأحداث والوقائع المهمة لا يخلو من تسجيل معالم وأماكن تلك الأحداث والوقائع التاريخية. وكانت معرفة البيزنطيين بالجغرافيا جيدة ولكن بالمقارنة بعلم التاريخ نجد أن هناك تباينا واضحا في الاهتمام به دون الجغرافيا التي تعرضت إلى الإهمال طول القرن السادس ميلادي حيث اعتمد البيزنطيون فيه على كتب العلماء اليونان⁽¹⁾.

واشهر ما ينسب للحضارة البيزنطية في مجال الجغرافيا خلال فترة القرنين الخامس والسادس ميلادي هي تلك الخريطة الفسيفسائية التي تمثل فلسطين في ذلك الوقت وقد عثر على هذه الخريطة في مدينة مادابا الأردنية فوق بقايا كنيسة بيزنطية وتقدر أبعاد هذه الخريطة بحوالي خمسة عشر مترا وستين سانتا مترا طولاً وستة أمتار عرضاً وهي تظهر في وسطها مدينة القدس والأردن وبعض أجزاء من سوريا ودلتا النيل والبحر الأبيض المتوسط⁽²⁾. انظر الشكل رقم (25).

¹ - سقيو، مرجع سابق ، ص136.

² - Warlnd , Ralner,(1999). Die mosaikkarte von madaba und ihre kopie in der. Albert Ludwigs university Freiburg, p 41-43.



الشكل رقم (25)

(warInd, Ralner, p42)

والجدير بالذكر أن اهتمام البيزنطيين بالجغرافيا زاد في القرن العاشر الميلادي الرابع الهجري خاصة في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع (913-959م) الذي ألف كتابا اهتم فيه بعلم الجغرافيا اهتماما كبيرا يسمى (إدارة الإمبراطورية) وقد وصف الكتاب عادات الشعوب المجاورة للإمبراطورية ومواقعها الجغرافية⁽¹⁾.

وعرف علم الجغرافيا عند المسلمين بعدة أسماء منها (علم تقويم البلدان) و(علم المسالك والممالك) وقد كان انشغال العرب بالتجارة سببا في اهتمامهم بمعرفة الطرق والأقاليم التي يمرون بها، بالإضافة إلى حياة الترحال والتنقل للبحث عن الماء والمرتع للمواشي التي من أجلها اهتموا بمعرفة المسالك المؤدية إليها، وتفتن العرب المسلمون لأهمية علم الجغرافيا وذلك لمعرفة اتجاه القبلة في البلاد الإسلامية المختلفة، ومعرفة طبيعة الأقاليم التي امتدت إليها سيادة الدولة الإسلامية ومعرفة الطرق المؤدية إليها ليكونوا على صلة دائمة بها ومعرفة إنتاجها للمحاصيل وأعمال الخراج

¹ - قسطنطين السابع، (1980). إدارة الإمبراطورية البيزنطية. تعليق، عمران، محمود سعيد، بيروت: دار النهضة العربية، ص41.

والزكاة، بالإضافة إلى حب العلماء المسلمين للعلم واكتشاف المجهول دفعهم إلى التجول في البلدان ومعرفة طرقها وعواصمها وعادات سكانها وتقاليدهم⁽¹⁾.

وكانت كتب بطليموس من أهم المصادر التي حرص على الاستفادة منها في مجال علم الجغرافيا في العصر العباسي الأول وقد جلبت هذه الكتب من البيزنطيين وترجمت للعربية، ويعد الخوارزمي هو أول من ألف كتابا في الجغرافيا أطلق عليه اسم السند هند⁽²⁾ حيث استخدم هذا الكتاب دليلا للمسافرين في معرفة الطرق البرية والبحرية وقد وصف الكتاب الأقاليم من مصب نهر دجلة حتى يصل إلى الهند ثم الصين⁽³⁾.

وأمر الخليفة العباسي المأمون العلماء المسلمين بوضع خريطة للعالم تكون أكثر دقة ووضوح مما قدمته دراسات بطليموس وغيره من علماء اليونان والتي سميت بالمأمونية، ومن أهم الإنجازات الجغرافية في العصر العباسي الأول هو قياس محيط الأرض الذي قام به علماء بغداد حيث قدروها بحوالي أربعة وعشرين ألف ميل كما أنهم انتهوا إلى معرفة أن الأرض مستديرة الشكل، وقد تضمنت مجالس الخليفة العباسي الواثق مناقشات جغرافية مهمة استفادت منها الإمبراطورية البيزنطية عن طريق التجار والرحالة الجغرافيين المسلمين لمعرفة مختصرات الطرق التي تمكنها من الوصول إلى الأراضي الإسلامية للقيام بهجماتها عليها والخروج منها⁽⁴⁾.

إن هذه التأثيرات بين الحضارتين في مجال العلوم العقلية والتي تكاد تكون غير ملموسة بشكل واضح لفترة الدراسة إلا أن العوامل المشتركة بين الطرفين والتي ارتكزت عليها كل من الحضارتين في هذا المجال يعطي إمكانية القول بوجود التأثير والتأثر بينهما ومن أبرز هذه العوامل مؤلفات العلماء اليونان التي أخذوها بالشرح والتحليل والتعليق، وكذلك عامل الاختلاط بين العرب

¹ - الهاشمي، مرجع سابق، ص، ص182-183.

² - الزركلي، مصدر سابق، ج7، ص116.

³ - ضية، مرجع سابق، ص47.

⁴ - ضية، مرجع سابق، ص48.

والسكان الأصليين للأقاليم المفتوحة والتي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية البيزنطية قبل ذلك أدى إلى انتقال الكثير من الأفكار الفلسفية والتاريخية والجغرافية بينهما.

5. الخاتمة:

أظهرت الدراسة أنّ الاحتكاك المستمر بين المسلمين والبيزنطيين أسهم في انتقال عدد من المعارف والأفكار والعلوم، سواء عبر الترجمة، أو الجدل الديني، أو حركة العلماء والأطباء والمترجمين، أو من خلال المؤسسات العلمية والدينية التي قامت بدورٍ بارز في تداول المعرفة. كما بيّنت الدراسة أنّ العلوم الدينية كانت من أكثر المجالات تأثراً بهذا الاحتكاك، إذ انعكست المناظرات العقائدية والجدالات الكلامية بين المسلمين والنصارى على ظهور بعض الفرق والاتجاهات الفكرية، ولا سيما في مسائل الصفات والقدر وخلق القرآن، مع بقاء المرجعية الإسلامية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية أساساً في مواجهة تلك التأثيرات.

وفي المقابل، كشفت الدراسة عن وجود تأثير إسلامي واضح في بعض الأوساط البيزنطية، خاصة فيما يتعلق بقضية التوحيد وموقف الإسلام من الصور والتماثيل، وهو ما تجلّى في الحركة الأيقونية التي شهدتها الدولة البيزنطية خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، حيث تأثر بعض الأباطرة البيزنطيين بالموقف الإسلامي الرافض لتقديس الصور والتماثيل.

أما في مجال العلوم التطبيقية، فقد اتضح أنّ التراث اليوناني شكّل أرضية معرفية مشتركة بين الحضارتين، خاصة في الطب والرياضيات والفلك والهندسة، وأن المسلمين استفادوا من الخبرات البيزنطية واليونانية عبر حركة الترجمة والاستعانة بالأطباء والعلماء، ثم أسهموا لاحقاً في تطوير هذه العلوم وإعادة إنتاجها ضمن إطار الحضارة الإسلامية.

كما توصل البحث إلى أنّ التأثير العلمي بين المسلمين والبيزنطيين لم يكن أحادي الاتجاه، بل كان تفاعلاً حضارياً متبادلاً، وإن تفاوتت درجاته ومجالاته من مرحلة إلى أخرى تبعاً للظروف

السياسية والدينية. وقد لعبت مناطق التماس الحضاري، كبلاد الشام والثغور والأناضول، دوراً مهماً في تسهيل هذا التفاعل وانتقال المعارف بين الجانبين.

وفي ضوء ما سبق، يؤكد البحث أن العلاقات الإسلامية البيزنطية لم تقم على الصراع العسكري وحده، بل تضمنت أيضاً جوانب حضارية وعلمية أسهمت في تشكيل جانب مهم من تاريخ الفكر والعلوم في العصور الوسطى، الأمر الذي يبرز أهمية إعادة قراءة هذه العلاقات من منظور حضاري يتجاوز التفسير العسكري والسياسي التقليدي.

ويوصي البحث بضرورة التوسع في دراسة الجوانب العلمية والثقافية للعلاقات الإسلامية البيزنطية، مع الاهتمام بتحقيق النصوص المترجمة والجدلية، ودراسة دور الأطباء والمترجمين والرهبان في انتقال المعرفة بين الحضارتين، لما لذلك من أهمية في فهم طبيعة التفاعل الحضاري في تاريخ البحر المتوسط خلال العصور الوسطى.

قائمة المراجع

أولاً: المصادر.

- القرآن الكريم.
- ابن أبي إصبيعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم، (د.ت). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق، رضا، نزار، بيروت: دار مكتبة الحياة.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن، (د.ت). تلبس إبليس. بيروت: دار القلم.
- ابن جليل، أبو داود سليمان بن حسان، (1955). طبقات الأطباء والحكماء. تحقيق فؤاد رشيد، القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية.
- ابن حجر، أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد، (1326هـ). تهذيب التهذيب. الهند: مطبعة دار المعارف النظامية.
- ابن حزم، أبي محمد أحمد بن سعيد، (1996). الفصل في الملل والأهواء والنحل. تحقيق، نصر، محمد إبراهيم، وعميرة، عبد الرحمن، بيروت: دار الجيل.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (2001). مقدمة ابن خلدون. تحقيق، شحادة، خليل، بيروت: دار الفكر.
- ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم، (1925). عيون الأخبار. القاهرة: دار الكتب المصرية.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، (د.ت). الطب النبوي. تحقيق عبد الخالق، عبد الغني، بيروت: دغر الفكر.
- البغدادي، إسماعيل باشا، (1951). هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، (1996). سنن الترمذي. تحقيق، معروف، شبار عواد، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، (1965). الحيوان. تحقيق، محمد، هارون عبد السلام، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- الحموي، ياقوت، (1993). معجم الأدباء. تحقيق، عباس، إحسان، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (1982). سير أعلام النبلاء. تحقيق، الأرئوط، شعيب، بيروت: مؤسسة الرسالة.

- الزركلي، خير الدين محمود بن محمد، (2002). الأعلام. بيروت: دار العلم للملايين.
- الزمخشري، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر، (د.ت). شرح الفصيح. تحقيق، الغامدي، إبراهيم بن عبد الله بن جمهور، مكة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي.
- الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم، (1993). الملل والنحل. تحقيق، مهنا، أمير علي، وفاعور، علي حسن، بيروت: دار المعرفة.
- الشيرازي، أبي إسحاق إبراهيم بن علي، (1970). طبقات الفقهاء. تحقيق، عباس، إحسان، بيروت: دار الرائد العربي.
- الففطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، (2005). أخبار العلماء بأخبار الحكماء. تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية.
- المقرئ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، (1997). السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق، عطا محمد عبد القادر، بيروت: دار الكتب العلمية.
- مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (2004). صحيح مسلم. تحقيق، مركز البحوث وتقنية المعلومات، القاهرة: دار التأصيل.

ثانياً: المراجع.

- إسماعيل، محمد حمزة، (2008). مدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- الأهواني، أحمد فؤاد، (1985). الفلسفة الإسلامية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الخربطلي، علي حسني، (1994). الحضارة العربية حضارة السياسة والإدارة والقضاء والحرب والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم والثقافة والفنون، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الدينالي، نورا إبراهيم، (2008). الدولة البيزنطية في فترة حكم الأسرتين الأيسورية والعمورية. (717-967) دراسة تحليلية مقارنة. بنغازي: منشورات جامعة قاريونس.
- السامرائي، كمال، (د.ت). مختصر تاريخ الطب عند العرب. بيروت: دار النضال.
- العبد، محمد، وعبد الحكيم، طارق، (د.ت). الصوفية نشأتها وتطورها. الكويت: دار الأرقم.
- العدوي، إبراهيم أحمد، (د.ت). الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية. القاهرة: مكتبة نهضة مصر.
- الغامدي، علي بن محمد عودة، (2015). يوحنا الدمشقي رائد العدوان الفكر على الإسلام. (د.ن).

- الناصري، سيد أحمد علي، (1992). تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري. القاهرة: دار النهضة العربية.
- الهاشمي، رحيم كاظم. شنقارو، عواطف محمد العربي، الحضارة العربية الإسلامية دراسة في تاريخ النظم. (د.ت). ليبيا. غريان: المكتبة الجامعية.
- الهاشمي، رحيم كاظم، وشنقارو، عواطف محمد العربي، (د.ت). الحضارة العربية الإسلامية دراسة في تاريخ النظم. غريان: المكتبة الجامعية.
- أمين، أحمد، (1933). ضحى الإسلام. القاهرة: مطبعة الاعتماد.
- حسن، حسن إبراهيم، (1996). تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. بيروت: دار الجيل ط14.
- حسن، حسين الحاج، (1994). حضارة العرب في العصر العباسي. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- ديورانت، ول وايريل، (د.ت). قصة الحضارة. ترجمت، بدران، محمد، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- رستم، أسد، (1955). الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب. بيروت: دار المكشوف.
- رنسيان، ستيفن، (1997). الحضارة البيزنطية. ترجمة، عبد العزيز توفيق، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- زعرور، إبراهيم، وأحمد، علي، (1995). تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري. سوريا: منشورات جامعة دمشق.
- سقيو، إيمان محمود، (2013)، الحياة الثقافية والعلمية في الدولة البيزنطية. القاهرة: دار الآفاق.
- صاعد، أحمد بن صاعد الاندلس، (1912). طبقات الأمم. بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين.
- صبرة، عفاف سيد، (1982). الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان. القاهرة: دار النهضة العربية.
- صبرة، عفاف سيد، (1982). الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان. القاهرة: دار النهضة العربية.

- ضية، نورة، (2015-2016). المؤثرات البيزنطية في الحضارة العربية في العهد العباسي 123-232 هـ / 750-847م. رسالة ماجستير، الجزائر. جامعة يحي فارس بالمدينة.
- طرخان، إبراهيم علي، (1955). الحركة الأيقونية في الدولة البيزنطية. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- عثمان، فتحي، (د، ت) الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.
- علي، محمد كرد، (1934). الإسلام والحضارة العربية. القاهرة: دار الكتب المصري.
- قسطنطين السابع، (1980). إدارة الإمبراطورية البيزنطية. تعليق، عمران، محمود سعيد، بيروت: دار النهضة العربية.
- كريم، فون، (د.ت). الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية. ترجمة، بدر، مصطفى طه، القاهرة: دار الفكر العربي.
- محمد، طارق منصور، (2002). قطوف من الفكر البيزنطي. القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع.
- محمود، حربي عباس عطيتو، وحلاق، حسان، (1995). العلوم عند العرب أصولها ولامحها الحضارية. بيروت: دار النهضة العربية.
- مظهر، جلال، (1969). الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث. القاهرة: مطبعة مخيمر.
- نيكول، دونالد، (2003). معجم التراجم البيزنطية. ترجمة حبشي، حسن، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.
- هسي، ج، م، (1997). العالم البيزنطي. ترجمة، عبد الحميد، رأفت، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

ثالثا: المراجع الأجنبية

- Warlnd , Ralner,(1999). **Die mosaikkarte von madaba undihre kopie in der**. Albert Ludwigs university Freiburg.
- Ierodikonou,(2001). **Byzantine Philosophy and ancient sources**. Oxford.
- Kazhdan,(1996). **People and power In Byzantine and introduction to modern Byzantine Studies**. Washington.
- Krumbacher, (2001). **the History of Byzantine Literature from Justinian to the end of the Eastern Roman empire (527- 1453)**. Northdame.
- Rene, Guerdan,(1975). **Byzantium its triumph and thelogy**. London.
- J.M. Husey,(1967). **Cambridge medieval history**. tconclast art muslimin Fluence, Vo1 Iv.

- - Frassetto, Michael. (2013). **The Early Medieval World: From the Fall of Rome to the Time of Charlemagne**: Santa Barbara, CA: ABC-CLIO.
- Harry Turtledove. (1982). **The Chronicle of trans Theophanes**.philadelphia. paris.
- Elsener, John (1988). **Image and iconoclasm in Byzantium**. Association of Art History, London, Vol.11.
- Gero, Stephen (1973) **Byzantine Iconoclasm during the Reign of Leo III**. Louvain: Secrétariat du Corpus SCO..
- Vasiliev, A-A.(1970). **History of the Byzantine Empire**. madison, Vol.1.

بحث بعنوان :

**التعليم العثماني الحديث في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني
(1835-1911م)**

Modern Ottoman Education in the Vilayet of Tripoli during the Second
Ottoman Period (1835–1911)

إعداد :

د. جميلة مفتاح الجنزوري

جامعة بنغازي /كلية الآداب/قسم التاريخ

Dr. JAMEELAH MIFTAH ALJANZOURI

gamila.ganzuri@uob.edu.ly

المدقق اللغوي: د مصطفى المريمي - جامعة بنغازي

المخلص :

شكلت الفترة العثمانية الثانية 1911-1935م في ولاية طرابلس الغرب منعطفًا حاسمًا في مسار التعليم ، إذ شهدت تحولاتاً تدريجياً من النمط التقليدي القائم على الكتاتيب وحلقات المساجد نحو ظهور منظومة تعليمية حديثة مستوحاة من النماذج الأوروبية ، وقد جاء هذا التحول كجزء من إصلاحات التنظيمات العثمانية ، ونتج عن وعي النخبة المثقفة بأهمية اللحاق بركب التحديث العلمي والإداري ، وقد هدف هذا التعليم إلى تخريج موظفين تحتاج إليهم الدولة العثمانية في مختلف المجالات ، بذلك برزت المدارس الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر المتمثلة في المدارس الابتدائية والاعدادية والمدارس المتخصصة الفنون والصنائع والمعلمين والزراعة ، والمدارس الخاصة . يهدف هذا المقال إلى تتبع أثر نشأت المدارس الحديثة العثمانية في ولاية طرابلس الغرب وإبراز خصائصها ومناهجها والهدف الذي سعت إليه الدولة العثمانية إلى تحقيقه من خلالها ، والصعوبات التي واجهتها ، ودورها في تشكيل ملامح مجتمع ولاية طرابلس الغرب أواخر العهد العثماني . وتتركز محاور هذه الورقة في النقاط التالية :

أولاً- الهدف من نشأت المدارس النظامية العثمانية في ولاية طرابلس الغرب

ثانياً- المدارس العامة العثمانية ثالثاً- المدارس العثمانية المتخصصة

رابعاً- المدارس العثمانية الخاصة خامساً- الإشراف على المدارس

سادساً- البعثات التعليمية

الكلمات الافتتاحية : المدارس ، الابتدائية ، الاعدادية ، الرشدية ، الفنون والصنائع .

Abstract:

The second Ottoman period (1911-1935) in the province of Tripoli marked a turning point in the development of education. It witnessed a gradual shift from the traditional system based on Quranic schools and mosque study circles to a modern educational system inspired by European models. This transformation was part of the Ottoman Tanzimat reforms and stemmed from the intellectual elite's awareness of the importance of keeping pace with scientific and administrative modernization. This education aimed to produce qualified personnel needed by the Ottoman state in various fields. Thus, modern schools emerged in the late 19th century, including primary, secondary, and specialized schools for arts, crafts, teachers, agriculture, and private schools.

This article aims to trace the impact of the establishment of modern Ottoman schools in the province of Tripoli, highlighting their characteristics, curricula, the goals the Ottoman state sought to achieve through them, the difficulties they faced, and their role in shaping the social fabric of Tripoli in the late Ottoman period. This paper focuses on the following points

First - The purpose of establishing formal Ottoman schools in the province of Tripoli

Second - Ottoman public schools

Third - Specialized Ottoman schools

Fourth - Private Ottoman schools

Fifth - Supervision of schools

Sixth - Educational missions

Keywords : Schools, primary, preparatory, middle, arts and crafts

كان التعليم في ليبيا في نشأته الأولى إسلامياً وقاصراً على حلقات الدروس التي كان الشيوخ والعلماء القاصدين والمارين بليبيا يلقونها في المساجد ، ومع مرور الوقت بدأت الكتابيب والزوايا تنتشر بجهود أهلية في مختلف أنحاء ليبيا ، وقد شهدت ليبيا في الفترة العثمانية الثانية اضطرابات وثورات داخلية نتيجة ما ساد العهد العثماني الثاني من نهب لثروات البلاد وسوء إدارتها ، مما ساعد على إهمال شؤون البلاد بوجه عام والتعليم بوجه خاص ، وقد أدى ذلك إلى عرقلة التعليم فيها أسوة بغيرها من الولايات العربية ، مما دفع مفكري العثمانيين إلى إعادة النظر في النظام التعليمي العثماني ، والدعوة بضرورة تبني العلوم العصرية والانظمة الحديثة من دول الغرب حتى تتمكن الدولة العثمانية من مسايرة ركب الحضارة والتقدم .

وعندما نتحدث عن حالة التعليم في ولاية طرابلس الغرب أبان العهد العثماني الثاني فإننا سنتحدث عن المدارس التي قامت بأنشائها الدولة العثمانية أو ساعدت على أنشائها والإشراف عليها أو منحت ترخيصاً لافتتاحها ، وهي أما أن تكون خاصة بالليبيين والأتراك ، أو خاصة بالجناليات الأجنبية .⁽¹⁾

ولقد صدر سنة 1846م أول قانون لتنظيم التعليم الرسمي في الدولة العثمانية والذي تضمن حق الدولة في الإشراف على التعليم ، وتكوين مجلس لإدارة المعارف ، وكذلك مجانية التعليم ، وحق تعيين معلمين من غير رجال الدين في المدارس ، وألحق هذا القانون بنظام المعارف العمومية في سنة 1869م الذي قسم المدارس بموجبه إلى قسمين : المدارس العمومية وتشمل خمس مراحل تعليمية وهي المرحلة الابتدائية والرشدية والإعدادية والمدارس السلطانية والمدارس العالية ، في حين القسم الآخر يتعلق بالمدارس الخصوصية التي ترك أمر تأسيسها وإدارتها إلي الأفراد والجماعات الطائفية .⁽²⁾

لم تعرف ولاية طرابلس الغرب المدارس النظامية الحديثة والمناهج التعليمية الحديثة إلا بعد عام 1860م حين تولى امرها ولاية كانوا على درجة عالية من الإخلاص والجدية وحب العلم ،

1 - فتحي عوض فقير ، العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأثرها في تطور التعليم في ليبيا في الفترة 1551-1969م ، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي ، 2009م) ، ص69.

2 - محمد بشير سويس ، «أوضاع التعليم في ليبيا (1835-1950م)» ، المجلة التاريخية ، العدد 2 ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس ، 1999م) ، ص87

حيث أسس الوالي أحمد عزت باشا عام 1857-1860م الذي أسس مدرسة ابتدائي وأخرى إعدادية واعتمدت هذين المدرستين على المناهج العصرية⁽¹⁾، وعددا من المكاتب الرشدية في مركز ولاية طرابلس الغرب.⁽²⁾

على الرغم من تلك التطورات التي شهدها التعليم النظامي في الدولة العثمانية إلا أن ليبيا لم تواكب هذه التطورات ، وظل التعليم النظامي مقتصرًا على مكاتب الرشدية حتى عهد الوالي أحمد راسم باشا سنة 1881-1898م الذي أستاذف في عهده تأسيس المدارس النظامية ، وظل التعليم النظامي محدود الانتشار خارج طرابلس حتى عهد الوالي محمد حافظ باشا 1900-1902م الذي شهد عهده تأسيس المعارف العمومية ، وافتتاح الكثير من المدارس الابتدائية والرشدية في سائر ألوية وأقضية الولاية.⁽³⁾

وعليه سوف نعرض المدارس العثمانية الحديثة والهدف من إنشائها وتقسيماتها التعليمية والصعوبات التي واجهتها.

أولاً-أسباب نشوء المدارس النظامية في ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني .

كانت الدوافع الأساسية لاهتمام الدولة بالمدارس ، ومحاولة تطبيق التعليم الحديث في ليبيا في أسرع وقت كثيرة من الاسباب :

1- سياسة الإصلاحات العثمانية (التنظيمات) سعت الدولة العثمانية خاصة منذ مرسوم كلخانة سنة 1839م إلى تحديث مؤسساتها التعليمية ، فعملت على إنشاء مدارس نظامية تعتمد مناهج حديثة بدل الاكتفاء بالتعليم التقليدي في الكتاتيب والزوايا.

2- إعادة تنظيم الولاية بعد إنهاء حكم الأسرة القرمانلية بعد عودة الحكم العثماني المباشر سنة 1835م عملت الدولة على إحكام سيطرتها الإدارية ، وكان إنشاء مدارس نظامية أداة أساسية لترسيخ السلطة المركزية وبناء إدارة حديثة.

1- تيسير بن موسى ، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني دراسة تاريخية اجتماعية ، دار العربية للكتاب (القاهرة ، 1988م) ، 330.

2 - محمد بشير سويس ، مرجع سابق ، ص 87.

3- فاتح رجب قدارة ، الزاوية الغربية خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911م ، دراسة وثائقية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، منشورات مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية ، (طرابلس ، 2007م) ، ص 304.



3-الاحتياج إلى موظفين محليين يجيدون المحاسبة واللغة التركية ، يمتلكون مهارات القراءة والكتابة والحساب واللغات وهو مالم يكن التعليم التقليدي قادرا على تلبيته⁽¹⁾ ، وذلك لدعم اقتصادها الذي سيطر عليه الأجانب بمقتضى قوانين الامتيازات.⁽²⁾

4- تنوع الوظائف والمتطلبات الاقتصادية الجديدة أدى تطور الأنشطة التجارية المالية في المدن الساحلية ، خاصة مدينة طرابلس وبنغازي إلى الحاجة لتعليم عملي يشمل الحساب والمراسلات والعلوم الأساسية

5-دعم المؤسسات العسكرية بالكوادر المتعلمة من الأفراد والضباط ، ومن هنا كانت فكرة بناء هيكلية لتعليم عسكري محلي يكون نواة لتشكيل قوات عسكرية محلية لا يتحملون نفقاتها في المستقبل ، وتساعدهم على تطبيق قانون التجنيد الإجباري العام الذي يشمل فئات المجتمع بحيث تشكل منهم كتائب وألوية لكافة أنواع الأسلحة.

6- أدركت الدولة العثمانية أن ضعف التعليم احد اسباب تراجعها امام أوروبا عندما اشتد الاصطدام بينهما في النصف الاخير من القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين عندما منيت بهزائم متتالية وفقدانها لبعض اراضيها ، لذلك سعت إلى تحديث التعليم في ولاياتها وإعادة النظر في النظم التعليمية ومحاولة إدخال العلوم التطبيقية في مناهجها في جميع ولاياتها ، ومنها ولاية طرابلس الغرب ، لمجاعة التطور العلمي والإداري الغربي ، إلى جانب منافسة المؤسسات الأجنبية التي افتتحت بالولاية.

7- نشأة المدارس تعمل على استقرار القبائل الرحل ، وبالتالي سهولة السيطرة عليها ومنعها من مهاجمة المناطق المجاورة القريبة من تونس والجزائر الأمر الذي كان يسبب في إحراج للدولة العثمانية مع الدول الأوروبية.⁽³⁾

8- شراء ولاء زعماء العشائر من الوطنيين المحليين ، وذلك بفتح مدارس خاصة لأبنائهم وتربيتهم على الولاء للهوية العثمانية ، وربطهم سياسيا وثقافيا بالدولة العثمانية.⁽¹⁾

1- علي محمد جهان، الحياة الثقافية بمصرارة أثناء الحكم العثماني الثاني 1835- 1911م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس ، 2007م) ، ص141.

2 -محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني 1835-1911م وأثره على مجتمع الولاية ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس ، 2000م)، ص63.

3 - علي محمد جهان، مرجع سابق ، ص141.

9- تزويد المعلمين بقدر من العلوم ، والدراسات الاجتماعية والطبيعية والعسكرية الحديثة ، وتعليم مبادئ اللغة التركية (2).

10- تأثر النخب المحلية الليبية بالفكر الاصلاحى ، فقد ساهم احتكاك النخب الليبية بالإدارة العثمانية وبالمراكز العلمية في اسطنبول في نشر الوعي بأهمية التعليم الحديث ، مما شجع على قبول المدارس النظامية.

ثانيا -المدارس النظامية الحديثة:

ظهرت النواة الأولى للمدارس الحديثة في إنشاء المدارس الحربية أي المدارس العسكرية التي تأسست سنة 1855م عرفت باسم المدرسة الحربية بطرابلس وهي اول مدرسة تعليمية نظامية حديثة في الولاية اعتمد منهاجها على العلوم العسكرية بالإضافة إلى اللغة التركية والعلوم الرياضية والطبيعية الأساسية ومبادئ الجغرافيا والتاريخ ، وكان الهدف من تأسيس هذه المدرسة تلبية حاجة الجيش العثماني في تكوين ضباط مؤهلين من ابناء الولاية ، ثم بدأت الدولة في توسيع نطاق التعليم الحديث ليشمل المجال المدني في أواخر القرن التاسع عشر فتشكلت المدارس العثمانية الحديثة .

1- المدارس العمومية:

أ- المدارس الابتدائية:

تعد المدارس الابتدائية من المدارس الحديثة التي أنشئت في العهد العثماني في نهاية القرن التاسع عشر ، ويبدو أن إنشاء هذه المدارس لم يكن من قبل الإدارة العثمانية التي لم تتحمل أيه أعباء أو نفقات أنشائها رغم أنها كانت تشرف عليها ، وتطبق الضوابط واللوائح الخاصة بها⁽³⁾، لقد كان على كل مدينة أو قرية ترغب في بناء مدرسة لتعليم أولادها أن تجمع تبرعات وترفع طلباً للوالي ليأذن لهم بفتح المدرسة على أن يتعهد هؤلاء بدفع مرتبات المعلمين الذين يعينهم الوالي للقيام بالتدريس أي كان تعليم ذاتي،⁽⁴⁾ إذا سددت الدولة العثمانية بعض المصروفات

1 - محمد الكوني بلحاج ، مرجع سابق، ص46.

2-عمر محمد التومي الشيباني ، تاريخ الثقافة والتعليم في ليبيا ، دار المطبوعات والنشر (طرابلس ، 2001م) ، ص231.

3 - فتحي عوض قعير ، مرجع سابق ، ص70.

4 - على محمد جهان ، مرجع سابق، 144.

للإنفاق على المدارس فيعد ذلك مؤقتاً إلى أن يتم استرداده من الأهالي من الصدقات والتبرعات والزكاة وغيرها⁽¹⁾ ، ولم تكن موارد السكان ثابتة من التبرعات بسبب الجفاف الذي يصيب القرى والأرياف مما يؤدي إلى انخفاض التبرعات ، غير أن الدولة سعت لأن يكون هناك موارد ثابتة من الضرائب للصرف على المدارس والمعلمين ، عندما جعلت التعليم الابتدائي إجبارياً للذكور والإناث ، ففرضت هذه الأوضاع على حكومة الولاية أن تقوم بدورها في بناء المدارس عام 1883م ، حيث بدأت الحكومة بصرف رواتب للمعلمين ، ورصدت أكثر من 30 ألف قرش لهذا الغرض ، وزاد هذا المبلغ حتى وصل عام 1909م إلى 40 ألف قرش ، وخصص مجلس المعارف ميزانية للجانب التعليمي عام 1911م أكثر من 175 ألف قرش ، وفرضت ضريبة تسمى حصة المعارف التي حصلت من ضريبة العشر بواقع 6% من قيمة العشر،⁽²⁾ فقد طبق في هذه المدارس التنظيمات والشروط التي وضعتها وزارة المعارف العثمانية وعممتها على الولايات التابعة لها كافة ، ومن هذه الشروط تحديد سن الأطفال المقبولين في هذه المدارس من سن 7-11 سنة ، وسمحت بقبول الطلبة الذين تجاوزوا سن الحادية عشرة في المناطق النائية ، وكان يجب على شيخ كل محلة وقرية أن يكتب أسماء أولياء التلاميذ الذين بلغوا هذه السن في دفتر ، وفي حالة عدم ذهاب الطفل إلى المدرسة ينذر أهله فإذا لم يرسل بعد الشهر يؤخذ منهم غرامة نقدياً من خمس قروش إلى مائة دينار ، وإذا لم يؤديوا ذلك فإن الحكومة تقوم بمعاقبة الأهالي وجر الطفل إلى المدرسة⁽³⁾ ، كما خصصت مدارس للذكور وأخرى للإناث ومنعت الاختلاط الجنسين في هذه المدارس إلا مدارس القرى الصغيرة التي يتعذر فيها فتح مدرستين ، وفي هذه الحالة نصت على أن يكون للمدرسة بابان الأول لدخول وخروج الطلبة ، والثاني لخروج ودخول الطالبات⁽⁴⁾ ، ومدة الدراسة بهذه المدارس أربع سنوات ، سنة إعداد وثلاث سنوات ابتدائية⁽⁵⁾ ، ويقوم

1 - محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني في ولاية طرابلس الغرب (1864-1911م) منشورات جامعة السابعة من ابريل (طرابلس ، 2006م) ، ص99.

2 - فاتح رجب قدارة ، مرجع سابق، ص304.

3 - مختار عثمان عفيف ، مدينة سوكنة دراسة تاريخية للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية 1835-1911م ، مركز جهاد اللجين للدراسات التاريخية (طرابلس ، 2003م) ، ص214.

4 - تيسير بن موسى ، مرجع سابق، ص335.

5 - زياد علي صقر ، (تطور التعليم في ليبيا خلال فترة الحكم العثماني) مجلة دراسات الانسان والمجتمع ، العدد 20 ، (نوفمبر 2022م) ، ص9..

بالتدريس فيها مدرسون يحملون شهادة دار المعلمين أو شهادة الكفاءة التي يجتازها المعلم بامتحان من لجنة مختارة من مدرسين بالمدرسة الابتدائية.⁽¹⁾

مناهج هذه المدارس تحتوي على مادة الدين والعقيدة ، ومادة اللغة العربية ، والقراءة والكتابة ومادة الحساب ومادة التاريخ التركي والجغرافية واللغة التركية، ومواد أخرى تتعلق بالثقافة العامة الصحية وغيرها ، ويمنح التلميذ بعدها شهادة ابتدائية تؤهله للالتحاق بالمدارس الرشدية.⁽²⁾

ب- المدارس الرشدية:

جاء اسم الرشدية من بلوغ سن الرشد ، ومن هنا فإن اللائحة قد حددت سن التلاميذ بين 8-12 سنة ، وتنقسم هذه المدارس إلى قسمين ، رشدية عسكرية ، ورشدية مدنية ⁽³⁾، وقد تأسس هذا النوع من المدارس في عهد الوالي احمد عزت باشا سنة 1857-1860م واحدة في طرابلس والأخرى في بنغازي ، حيث يلتحق الطلاب بالمدارس الرشدية بعد اتمام المرحلة الابتدائية ، وكانت هذه المدارس في بداياتها تابعة للقيادة العسكرية في مركز الولاية ، ومعلموها من ضباط الولاية ، وطلابها يقيمون بالقسم الداخلي ، ويمنحون الكتب والاقامة مجانية ثم أنشئ قسم آخر للطلبة الخارجين (المدنيين) حيث كان يقيمون مع أهلهم أو مع أقاربهم.⁽⁴⁾

ولقد كانت شروط الالتحاق بهذه المدرسة بشقيها المدني والعسكري تشمل إتقان اللغة التركية ، والوضع الاجتماعي الجيد، واللياقة الصحية ، وإتمام المرحلة الابتدائية ، ويكون التلميذ حافظاً للقرآن الكريم وقارئاً له ، ويجيد القراءة والكتابة ، وحسن السلوك والاخلاق ، على أن يثبت ذلك بشهادة مصدقة من مجلس إدارة القضاء أو اللواء ، وفي حالة رسوب الطالب سنتين يخدم في الجيش أربع سنوات ولا يصبح ضابط عقوبة له ، ويبدأ التسجيل في هذه المدارس بداية شهر شوال حتى نهاية ذي القعدة من كل عام.⁽⁵⁾

- 1 - محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني في ولاية طرابلس الغرب ، ص100.
- 2 - أ.ج ستيل جريج ، تاريخ التعليم في إقليم طرابلس منذ الاحتلال العثماني حتى السنة الخامسة للإدارة العسكرية البريطانية للإقليم ، ترجمة احمد محمد العاقل ، مركز جهاد الليبيين لدراسات التاريخية (طرابلس، 2005م) ، ص13.
- 3 - علي محمد جهان ، مرجع سابق ، ص145.
- 4 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس الغرب ، ص72.
- 5 - محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني ، ص102.

ولقد سمحت لوائح هذه المدارس بانتقال الطلبة من الدراسة بالرشدية المدنية إلى الرشدية العسكرية بعد اجتياز امتحان للتأكد من اجادتهم اللغة التركية،⁽¹⁾ والمناهج الدراسية في هذه المدارس تضم مواد المرحلة الابتدائية من القرآن الكريم وعلوم الدين والأخلاق والتاريخ والجغرافيا وحفظ الصحة ، وحسن الكتابة والإملاء والقراءة ، إلي جانب مواد أخرى وهي العلوم الطبيعية والرياضيات والهندسة واللغة الفرنسية واللغة الفارسية واللغة التركية⁽²⁾ ، ولا يوجد اختلاف يذكر بين منهج التعليم في المدارس الرشدية العسكرية والمدنية ، فالشعبتان تدرس المنهج نفسه مع إضافة مواد التدريب العسكري⁽³⁾.

وتولى التدريس في هذه المدارس عدد من الضباط القدامى من أبناء الولاية الذين أتموا دراستهم العالية في اسطنبول ، أو الضباط الذين ارسلتهم المدارس العسكرية باسطنبول إلي الولاية ، وثم إنشاء خمس مدارس بالولاية كانت موزعة كالآتي : طرابلس ، والخمس ، وبنغازي ، درنة ، والخامسة ثم تأسيسها بمدينة مرزق عام 1877م ، وافتتحت مدرسة أخرى بمتصرفية الجبل الغربي عام 1903م بمجهودات الولاية وأسهم الأهالي بتبرعاتهم لسد نفقاتها⁽⁴⁾ ، كما تضمنت البرامج الدراسية في هذه المدارس دراسة الموسيقى العسكرية ، إذ نشئت فرقة موسيقية من طلبة المدرسة ، حيث يدرسون ويديرون على العزف موسيقيين عسكريين من الضباط ، وكان العازفون مع قائدهم يرتدون لباسا خاصا مميزا⁽⁵⁾.

وفي عام 1898م أنشئت أول مدرسة رشدية للبنات في طرابلس ، وثم افتتحت مدرسة أخرى في بنغازي ، وتدرس في هذه المدارس المهن النسائية مثل الحياكة والتطريز والطبخ إلى جانب العلوم والمعارف الأخرى ، وقد ضمت المدرسة الابتدائية والرشدية للبنات في كل من طرابلس وبنغازي مع بعض وأصبحتا مدرسة واحدة بإدارة واحدة ، تقضي الطالبة بها سبع سنوات سنة إعدادية وثلاثة سنوات ابتدائية وثلاثة راشدية⁽⁶⁾ وقد أجرى أول امتحان نهائي للبنات في المدرسة

1- تيسير بن موسى ، مرجع سابق، ص341.

2- فرانشسكو كور، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني ، ترجمة خليفة التليسي ، دار الفرجاني، (طرابلس ، 1971م) ، 118.

3- محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس الغرب ، ص72

4- محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني ، ص104.

5- فتحي صالح قعير ، مرجع سابق ، ص73.

6- احمد محمد العاقل ، مرجع سابق، ص528.

الرشدية عام 1905م ، وتخرجت منه طالبتان بشهادة من المدرسة هن: مكرم خانم بنت محمد راسخ افندي ، وعائشة خانم بنت محمد أغا، ⁽¹⁾ وتزايد إقبال الأهالي على تعليم بنائهم حتى ضاقت مدرسة البنات بمدينة طرابلس بهن فتم افتتاح مدرسة أخرى للبنات في عام 1907م⁽²⁾، وكان مدير المعارف العثماني في الولاية يقوم بجولة تفقدية للمدارس الرشدية باختلاف جنسها بصحبة والي العثماني في كل سنة للنظر في توسيع مدارس الرشدية واحتياجاتها.⁽³⁾

وكانت الفرصة متاحة لطلاب مدرسة الرشدية لمن يريد مواصلة دراسته ، ويلتحق بالمدرسة الإعدادية في طرابلس التي تم افتتاحها عام 1867م او يرسلون في بعثات إلى الاستانة للالتحاق بالمدارس الاعدادية العسكرية أو المدارس العسكرية الشاهانية للدراسات العليا ، حيث أرسلت عام 1868م بعثة من خمسة طلاب لإتمام دراستهم في المدارس العليا ، وتعد هذه البعثة من أوائل البعثات التي ارسلت من طرابلس الغرب إلى العاصمة العثمانية ، ويرجع الطالب بعد اتمام دراسته لتقلد أحد المناصب المدنية أو العسكرية في الولاية ، كما تم تعيين بعض العائدين ككتبة تحريرات في الاقضية ، لأن المعاملات والمراسلات الرسمية في الولاية تتم باللغة التركية ⁽⁴⁾

وتوضح لنا الوثيقة رقم 33 من كتاب عبدالسلام أدهم أن خمسة وأربعين تلميذا كانوا قد أرسلوا من ولاية طرابلس إلى المكاتب العليا في العاصمة العثمانية ، وقد صرفت لهم ملابس وقد تم تقيدهم كل حسب رغبته ، عين واحد في مكتب الملكية ، وثمانية وثلاثون في المكتبة الحربية، وستة في الملكية الطبية الشاهانية ⁽⁵⁾

ولقد انظم إلى جانب الليبيين في المدارس الرشدية أبناء الجالية اليهودية بالولاية ، وحصلوا فيها على امتيازات خاصة ، إذ سمح لهم بوجود رئيس روحاني في كل طابور به عساكر يهود، كما منحوا حق التعطيل يوم السبت ، وذلك من اجل جلب ولائهم للدولة العثمانية بدلاً من ميلهم

1- رأفت غنيمي الشيخ ، تطور التعليم في ليبيا في العصر الحديث ، مطبعة دار الحقيقة ، (بنغازي ، 1972م) ، ص159.

2- احمد محمد العاقل ، مرجع سابق، ص528.

3- صدقي الدجاني ، ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي ، طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني 1882-1911م ، المطبعة الفنية الحديثة (القاهرة ، 1971م) ، ص155.

4- محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني ، ص103.

5- عبدالسلام ادهم ، وثائق تاريخ ليبيا الحديث ، الوثائق العثمانية 1881-1911م منشورات جامعة بنغازي (بنغازي ، د.ت)، ص58.

لحكومة إيطاليا وإرسالهم للمدارس الإيطالية، ومدة الدراسة في مدارس الذكور الرشدية ثلاثة سنوات ، و يمنح بعد اجتياز الطالب لها الشهادة الرشدية التي تؤهله للالتحاق بالمدارس الإعدادية.(1)

ج- المدارس الإعدادية:

والواضح من اسمها مرحلة إعداد الطالب لكي يقرر تخصصه العملي وينخرط في تخصص يرغبه ، وأسست أول مدرسة إعدادية بطرابلس الغرب سنة 1867م ، وفي سنة 1887م أصبح التعليم الإعدادي ينقسم إلى قسمين هما قسم المدني ، قسم العسكري ، وذلك بعد افتتاح مدرسة عسكرية تتبع مباشرة القيادة العسكرية (2) ، ومرتبطة بالجهات العسكرية في نظمها ومناهجها وإدارتها ، وغير مرتبطة بقرارات المعارف ، والطلبة الذين يجتازون امتحانات هذه المدرسة الإعدادية العسكرية يرسلون للكلية العسكرية بالأسطانة ليتخرجوا منها برتبة ملازم ، أما الطلبة الآخرون الذين لم يتمكنوا من إنهاء مرحلة إتمام الدراسة الإعدادية خاصة العسكرية بنجاح فيلتحقون بالجيش كجنود عاديين .(3)

أما المدارس المدنية فكان اغلب منتسبيها من أبناء الضباط الأتراك وأبناء الموظفين وأبناء الأعيان (4) ، ومدة الدراسة فيها اربع سنوات ، ومناهجها ضمت اللغات التركية والعربية والفارسية ، والعلوم الشرعية مثل الفقه ، والتفسير ، الحديث ، والعلوم الحديث مثل الجبر والهندسة ، الكيمياء والفيزياء وفي عام 1909م ثم زيادة سنة دراسية في مدارس الذكور واصبحت مدة الدراسة فيها خمس سنوات ، واعتمدت الدراسة فيها على الوسائل التعليمية من الآلات والأدوات الهندسية ولوحات للتاريخ الطبيعي والخرائط الجغرافية ، وتعد المشاركة في نشاطات الوسائل التعليمية وإعدادها جزءا من البرنامج العلمي لطلبة المدارس الإعدادية العسكرية والمدنية ، وقد رأت إدارة المعارف عام 1910م بأنه يمكن الاستفادة من الضباط المتخرجين من المدارس العليا ليقوموا بالتدريس بالمدارس التي ينقصها معلمون في المدن مثل الزاوية ، وعريان وفساطوا وغيرها إلى أن

1 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس الغرب، ص78، 79.

2 - علي محمد جهان ، مرجع سابق، ص145.

3 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس ، ص78.

4- فتحي عوض قعير ، مرجع سابق، ص73.

تتمكن من تزويد المدارس بخرجي دار المعلمين ، وكان الطلبة يتلقون دعماً من الولاية يتمثل في كسوتهم بالبدل الصيفية والشتوية ، وشراء الطرابيش لهم ، كما كانوا يقيمون بالأقسام الداخلية.⁽¹⁾ لقد أنشئت الدولة العثمانية عدد كبير من المدارس وهي على النحو التالي وهي : مدرسة في سوق الغزال القديم أو محلة سوق الترك ، أما المدارس العسكرية في منطقة باب البحر أو في الثكنات العسكرية العثمانية الموجودة قلعة طرابلس ، مدرسة في بنغازي ، كان تمويل بناء وصيانة هذه المدارس يأتي من خزينة الولاية ، وأحياناً من تبرعات الأهالي والتجار الأثرياء الراغبين في رعاية التعليم.⁽²⁾

كما افتتحت الدولة العثمانية سنة 1904م مدرسة إعدادية خاصة بالبنات ، مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، ويدرس في هذه المدرسة اللغة الفارسية واللغة الفرنسية إلى جانب التوسع في المواد الأخرى التي كانت تدرس بالمدارس الرشدية ، وشمل القرآن الكريم التجويد ، والعلوم الدينية ، والهندسة والحساب ، والتاريخ وجغرافية ، وحسن الخط والإملاء والرسم والنقش والتطريز والتفصيل والخياطة والعزف على البيانو ، وتتكون لجنة الامتحانات بهذه المدرسة من مفتي الولاية ، ومفتي الجيش ، ورئيس المحكمة ، ومدير مدرسة المعلمين ، ومعلم من المدرسة بالإعدادية ، وبحضور ثلاث معلمات من المشهود لهن بسعة العلم والثقافة.⁽³⁾

ولقد اعتادت المدارس الإعدادية على إقامة احتفال بيوم التخرج توزع فيه الشهادات على المتخرجين ويحضره الوالي أو من ينوب عنه.⁽⁴⁾

وفي الختام سرد المدارس العامة أريد أن انوه إن التعليم في ولاية فزان ، كان ضعيفاً بسبب أنها منطقة صحراوية ، وسكانها من رحل غير مستقرين ، والمستقرين منهم كان مستوى معيشتهم منخفض بسبب نقص الواضح في مصادر الثروة بالإقليم ، ولذلك فكان التعليم لا يتعد بعض الكتايب التي تقوم بتعليم المبادئ الأولية في المعرفة ، وإذا كانت وجود بعض المدارس في مرزق وسبها ، إلا إن امكانياتها محدودة ، ولم تكن تستمر بها الدراسة طويلاً ، فسرعاناً ما تغلق أبوابها بعد وقت قصير من افتتاحها ، بالإضافة إلى أن الحياة في الإقليم لم تكن تشجع على استقرار

1- محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني ، ص105

2 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس ، ص78.

3 -محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني ، ص105

4 - تيسير بن موسى ، مرجع سابق ، ص350.

المعلمين غير القزانين فيها لمدة طويلة ، وبسبب عدم استقرار الدراسة في مدارس فزان ، وعدم استمرار العمل بها لفترة طويلة لم تتوفر احصائيات دقيقة عن المدارس وعدد التلاميذ المنتظمين بها ولا عدد المعلمين الذين كانوا يعملون بها .⁽¹⁾

وعموما أن هذه المدارس بفروعها الثلاث ابتدائي ، ورشدي وإعدادي ، كان الهدف من إنشائها تعليم أولاد وبنات الضباط الأتراك وكبار المسؤولين في الولاية ، وكذلك الأعيان البلاد ، إذ أن عدد الطلبة والطالبات العرب الليبيين الذين تخرجوا من هذه المدارس قليل جدا اذ قورن بعدد الطلبة الأتراك .⁽²⁾

خلاصة القول كان هناك في ولايات طرابلس الغرب مساران تعليميان إعداديان مدني يهدف لإعداد الكوادر الإدارية ، وعسكري يهدف لإعداد الكوادر العسكرية ، وكلاهما كان جزءا من مشروع التحديث والمركزية العثمانية في فترة ما قبل الاحتلال الايطالي عام 1911م.

جدول يوضح تطور إعداد التلاميذ في المدارس النظامية في العهد العثماني الثاني⁽³⁾

السنة الدراسية	المدارس الابتدائية	المدارس الراشدية	المدارس الاعدادية والمهنية	المجموع
1898/1897م	-----	251	-----	251
1899/1898م	50	694	258	995
1902/1901م	43	694	258	995
1903/1902م	56	1035	239	1329
1904/1903م	275	989	63	1327

والواضح من خلال الجدول أن الليبيين كانوا لديهم عزوف على دخول أولادهم لتعليم الابتدائي بسبب تفضيل الليبيين تعليم اولادهم في الكتاتيب الدينية .

ولقد حاول الحكم العثماني في اواخر عهده بولاية طرابلس الغرب إنشاء بعض المدارس الرشدية والابتدائية والاعدادية فوضع مشروعا بإنشاء 58 مدرسة وذلك عام 1911م كان من

1 - رأفت غنيمي الشبخ ، مرجع سابق ، ص 168.

2 - تيسير بن موسي ، مرجع سابق، ص 345.

3 - فتحي قعير ، مرجع سابق ، ص 73.

بينها مدرسة رشدية بمدينة مصراتة عين لها معلم ثانٍ من قبل نظارة المعارف بإسطنبول في سبتمبر 1911م قبل دخول الطليان إلى طرابلس. (1)

ثالثاً - المدارس المتخصصة.

على الرغم من أهمية التعليم الفني والمهني في النهوض بالبلاد إلا أن ليم يلّ يلقَ اهتمام كافي من قبل العثمانيين، وفي سنة 1898 أسست المدارس المهنية على نسق التعليم الابتدائي ، و ثم إضافة مواد دراسية مهنية أستفاد منها بعض الطلاب والطالبات لكن بقدر محدود ، ولكنه لم تفلح هذه المدارس من سد حاجة الولاية من الحرفيين. (2) ومن أبرز هذه المدارس هي:

1- مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية:

جاءت فكرة إنشاء مدرسة الفنون والصانع ، وفق رغبة سكان مدينة طرابلس الغرب الذين تقدموا بطلب إلى مجلس الولاية سنة 1871م رغبين فيه بتأسيس إصلاحية لتعليم الاطفال اليتامى والفقراء على بعض الاعمال الحرفية واليدوية ، وتدرّسهم مختلف الصناعات أسوة بالولايات العثمانية الأخرى (3) ، وقد وافق الوالي العثماني علي رضا باشا على ذلك ، ورصد لها مبلغ قدره (60) ألف قرش عام 1871م لتلافي العجز في ميزانية الإنشاءات لهذا المشروع ، مع تقديم قطعة أرض لازمة للبناء على أن يتكفل الأهالي بالتبرع ببقية النفقات ، لكن هذا المشروع أهمل حتى سنة 1895م ، وفي عهد الوالي نامق باشا قام بإحياء هذا المشروع من جديد ، واستغرق بناء المدرسة ثلاث سنوات ، حيث صممت بأن تكون من طابقين لكي تتناسب مع طبيعة التعليم الصناعي الفني ، وخصص الطابق العلوي لقاعات النوم ، وبعض قاعات الدروس النظرية ، أما الطابق السفلي فقد خصص لمعامل والورش (4) ، سميت هذه المدرسة في بداياتها المدرسة الحميدية (5) ، فهي لا تتبع للوزارة المعارف ، انما تتبع للوالي مباشرة ، (6) وحظت باهتمام خاص من إدارة الولاية ، وضعت إدارتها في البداية تحت إدارة عسكرية ، فقد عين ضابط عثماني برتبة

1 - رأفت غنيمي الشيخ ، مرجع سابق، ص 240.

2- فتحي عوض قعير ، مرجع سابق، ص 81.

3 - محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني في ولاية طرابلس ، ص 107.

4 - تيسير بن موسى ، مرجع سابق، ص 343.

5 - محمد بشير سويس ، مرجع سابق ، ص 91 .

6 - علي محمد جهان ، مرجع سابق، ص 147.

يوزباشي عليها ، ومعلموها ضباط أيضا في السرية الرابعة من الفيلق التاسع والخمسين من الفرقة السلطانية⁽¹⁾ ، إلا أن إدارتها استعانت ببغض المدنيين المتتورين ، كما تم تعيين لجنة إصلاح مهمتها دراسة وسائل النهوض بالمدرسة ، ووضع برامج الدروس ، والاهتمام بالأقسام الداخلية فهي مؤسسة خيرية إصلاحية حرفية⁽²⁾ ، وكان الطلاب يقيمون إقامة داخلية بالمدرسة⁽³⁾ ، وتصرف إدارة المدرسة لكل طالب سنوياً كساء شتوياً وصيفياً ، وكساء للمعمل مع حذاء للمعمل وآخر للخروج وطربوش⁽⁴⁾ ، وكان الهدف من إنشاء هذه المدرسة تعليم اليتامى والفقراء وتدريبهم على بعض الأعمال الحرفية والبدوية كالنسيج صناعة السجاد والطباعة وسبك المعادن وحرفة التجارة⁽⁵⁾ ، حيث كانت المدرسة تشترك في المناقصات التي لها علاقة بالسروج والخياطة ، كما تختص أيضا بصناعة القراب والحرب وغيرها من اللوازم العسكرية للفرقة العسكرية العثمانية في الولاية.⁽⁶⁾ كان ينتسب لهذه المدرسة طلاب من كافة ولاية طرابلس الغرب ، فقد حدد لكل متصرفية من متصرفيات الولاية عدد من الطلاب لقبولهم للدراسة بالمدرسة ، فحصلت متصرفية الخمس سنة 1911م على نسبة خمس طلاب ، ومتصرفية الجبل الغربي على ثلاث طلاب ، وطالب واحد لكل من أقضية الزاوية والعجيلات وزوارة وترهونة وورفلة وغريان ، وطالبين من فزان .⁽⁷⁾ إن تمويل المدرسة والإنفاق عليها كان يأتي من الأوقاف الخيرية التي يمنحها أهل الخير من الليبيين ، وكذلك من عائدات أملاك المدرسة وعائدات ولاية طرابلس⁽⁸⁾ ، وفي عام 1900م قررت إدارة الولاية الموافقة على اقتراح قدمته إدارة المدرسة في تقريرها الصادر في سنة 1317هـ بشأن جباية عشرة قروش كمورد للمدرسة على كل نخلة تقطع لاقبي في كافة انحاء الولاية⁽⁹⁾ ، كما تقرر تحويل قسم من رسوم بيع الأسماك ونبات الحلفاء والزيت إلى المدرسة ، وأيضا عمدت

1 - رأفت غنيمي الشيخ ، مرجع سابق ، ص 154.

2 - محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني، ص 109 .

3- ج ع ل ، وزارة التربية والتعليم ، إدارة التخطيط والمتابعة ، دراسة تاريخية عن تطور التعليم في الجمهورية العربية الليبية من العهد العثماني حتى وقتنا الحاضر (ليبيا ، 1974م) ، ص 9.

4 - تيسير بن موسى ، مرجع سابق، ص 343.

5 - فتحي عوض قعير ، مرجع سابق، ص 81.

6- محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني، ص 109.

7 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس ، ص 87.

*- رجب باشا والي عثماني حكم ولاية طرابلس الغرب ما بين 1903-1906م

8 - فتحي عوض قعير ، مرجع سابق، ص 147

9 - عبدالسلام ادهم ، المصدر السابق، ص 165.

الإدارة إلى صدار أوراق يانصيب باسمها ، ولم يمضِ سنوات على تأسيسها حتى أصبحت تملك مبالغ طائلة كانت تصرف على تحسين المدرسة ، وترفيه طلابها ، وقد أصبحت مخصصات كل طالب 800 قرش ، وكان الفائض من الأموال يشتري به عقارا حتى غدت تملك مجموعة من العقارات والفنادق أوقفت عليها ، ⁽¹⁾ وفي عام 1902م إرسال مستحقات المدرسة من حاصلات بلدية الزليتين والخمس ، ⁽²⁾ وقد حرص الولي العثماني رجب باشا ^(*) في عام 1904م على إرسال المستحقات المالية لدعم المدرسة من المتصرفيات ، حيث أمر بتعميم برقية إلى جميع رؤساء البلديات بإرسال مستحقاتها المالية ، وهدد بأن كل من يتأخر عن الدفع في المواعيد المحددة يعتبر نفسه معزولاً عن إداء وظيفته ، ⁽³⁾ وحيث قرر مجلس الولاية اتخاذ قرار في سنة نفسها ينص على تخصيص العشر من إيرادات البلديات التي تأخرت في جباية ضرائبها وصرفها على المدرسة ، ⁽⁴⁾ وقد بلغ ريع السنوي للمدرسة عام 1908م حوالي 50 ألف قرش عثماني ، وفي عام 1909م انتقلت إدارة مطابع جريدة طرابلس الغرب إلى مبني المدرسة ، وحولت الاشتراكات بالجريدة لصالح ميزانيتها ، وقد بلغت ميزانية مدرسة الفنون والصنائع في ذلك العام 263994 قرشا عثمانياً ⁽⁵⁾، حيث بعث مدير المدرسة إلى والي العثماني رسالة بشأن خصم بدل اشتراك جريدة طرابلس الغرب من الموظفين . ⁽⁶⁾

وفي في اواخر عام 1909م انخفضت ميزانية مدرسة الصنائع بسبب توقف الأهالي عن دفع ضريبة اللاقي ، وعدم متابعة والي لها ، وأصبحت المدرسة تعاني من عجز مالي كبير ، فشككت الولاية لجنة للمتابعة الأمور المالية للمدرسة ، حيث قررت تخفيض مرتبات المعلمين والقائمين على المدرسة ⁽⁷⁾.

1- تيسير بن موسى ، مرجع سابق، ص343

2- محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس ، ص84.

*- رجب باشا والي عثماني حكم ولاية طرابلس الغرب ما بين 1903-1906م

3 - محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني، ص109

4 - عبدالسلام ادهم ، مصدر سابق ، ص184.

5 - تيسير بن موسى ، مرجع سابق، ص343.

6 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس ، ص85.

7- نغم اكرم الجميلي ، «التعليم في ولاية طرابلس الغرب 1839-1911م»، مجلة جامعة الانبار للعلوم الإنسانية العدد الرابع (العراق ،

كانون أول 2012م) ، ص132.

استقبلت المدرسة أول دفعة من الطلاب في عام 1901م⁽¹⁾ ، ومدة الدراسة فيها ست سنوات⁽²⁾ ، ومنهج الدراسة فيها كان من شقين نظري وعملي ، يعتمد الجانب النظري على مقررات دراسية يستغرق الطالب سنة كاملة في الصف التحضيري أو التمهيدي ، ذلك بهدف اختبار استعداداته الجسدية والعقلية لتحديد ميوله ، وفي السنة الثانية يُنسب الطالب إلى الحرفة التي تناسب قدراته ، أما الجانب العملي فكان يشمل نسج الحرير والصوف والقطن وحياسة السجاد والمصنوعات الجلدية والتجارة والحدادة ، وأيضاً فن العمارة والبناء ، ويوجد في المدرسة ست فصول ذكور ، وضمت المدرسة سنة 1910 عدد ثمانية عشر طالباً ، ويمنح الطلاب الخريجين شهادة حرفية توضح حرفتهم ودرجاتهم وتقديرهم العام⁽³⁾ ، ويعين بعض الخريجين في المهن التي تحتاجها الولاية ، بينما يصرف للبعض منهم معدات بسيطة خاصة بمهنتهم تم يبشروا العمل الحر ، أما المتفوقون من الطلبة تقوم المدرسة بإرسالهم إلى اسطنبول لاستكمال تعليمهم العالي في معامل حركة والترسانة باسطنبول⁽⁴⁾ .

كذلك يوجد في المدرسة قسم خاص بالبنات يقوم بالتدريس فيه ثلاث معلمات للنسيج والسجاد ومعلمو واحدة للتعليم العام ، ومعلمة مشرفة ، ومن ضمن المقررات بالمدرسة تعليم الفتيات المواد العامة إلى جانب المواد الحرفية ، وكان يتم تعيين هؤلاء المعلمات من قبل نظارة المعارف بالاستانة، وتتقاضى مرتبات من إيرادات المدرسة ، وكان قسم البنات تحت رئاسة النظارة صبيحة خانم التي جلبت إلى المدرسة من معمل حركة السلطاني ، وقد عرف عدد المعلمات المدرسة من محضر تحقيق أجرى عام 1903م في حادثة تعدي بواب المدرسة على المعلمات بالضرب بسبب ضربهن لزوجته المقيمة معه في المدرسة .⁽⁵⁾

ومن البين أن هذه المدرسة قد سعت إلى تعليم الفتيات المهارات والصنائع ذات الطابع المنزلي مثل الطبخ ، الأعمال المنزلية ، والنسيج والحياسة ، والتطريز ، ولم تنوهِ المصادر أو

1 - علي الصادق حسين ، مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية ، موقع مركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، Icahs.ly

2 - تيسير بن موسى ، مرجع سابق، ص343

3- علي محمد جهان ، مرجع سابق، ص146.

4 - محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني، ص111.

5 - رأفت غنيم الشيخ ، مرجع سابق ، ص153.

الوثائق كما اشترت عفاف بشير في مقالتها إلى تعليم البنات الزراعة أو انهن أكملن تعليمهن الحرفي في اسطنبول .⁽¹⁾

2- دار المعلمين :

أسست هذه المدرسة في كل من طرابلس وبنغازي سنة 1901م على يد الوالي حافظ محمد وبمساعي مدير المعارف العثماني الذي أرسل من اسطنبول سنة 1889م على أن تستقبل هذه المدرسة خمسون طالباً تتراوح اعمارهم بين 15 - 35 سنة⁽²⁾ ، ومدة الدراسة فيها سنتين ، ولم يكن من شروط القبول بدار المعلمين الحصول على شهادة معينة سوى أن يجيد القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، وحسن الاخلاق ، ومعرفة تامة بمقررات المدرسة الابتدائية ، ويستحسن أن يكون على معرفة باللغة التركية ، وأن يكون خالياً من الأمراض ، ويحمل شهادة تلقيح ضد الجدري ، كما خصصت إدارة المعارف مبلغ 40 قرشاً كمنحة لكل طالب سنوياً.⁽³⁾

و ثم افتتاح هذه المدرسة في عام 1901م، وانتظم فيها عشرون طالباً، وقد اتخذ لها مبني مؤقتاً، في محلة ميزران ، وكان قبول طلاب الدفعة الأولى وفق شروط معينة ، حيث اقتصر القبول على الطلاب البالغ اعمارهم عشرون اص سنة ، بعد اجتياز امتحان الأهلية واللياقة البدنية، كما خفضت مخصصات الطلاب إلى عشرين قرش بدلاً من أربعين قرشاً.⁽⁴⁾

أما منهج الدراسة بدار المعلمين فهو يشمل على القرآن الكريم والعلوم الدينية والتجويد واللغة التركية والتاريخ والجغرافية والمعلومات الأخلاقية والحساب ومبادئ العلوم الطبيعية والهندسة والرسم⁽⁵⁾ ، ومناهجها مماثل لمناهج المدارس الرشدية مع إضافة مادة التربية وأصول التعلم.⁽⁶⁾

وكان صدى تخرج الدفعة الأولى من طلبة دار المعلمين كبيرة إذ اقيم احتفال كبير بالمناسبة وحضره أعضاء مجلس المعارف والعلماء والأعيان ، ووزعت في هذا الحفل شهادة التخرج على

1 - عفاف البشير عيسي ، الإصلاحات العثمانية وأثرها في تعليم الفتيات في العصر العثماني الثاني 1835-1911 دراسة تاريخية وثائقية أعمال المؤتمر الدولي الخامس بعنوان ((العرب والترك عبر العصور))، المنعقد في 4-6 مارس 2013م، نظمها قسم التاريخ ، جامعة قناة السويس (مصر، 2013م) ، ص458.
2- فتحي عوض قعير ، مرجع سابق 82.
3 - محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني، ص112؛ تيسير بن موسي ، مرجع سابق ، ص341.
4 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس، ص92.
5 - رأفت الشيخ غنيمي ، مرجع سابق ، ص157.
6 - تيسير بن موسي ، مرجع سابق ، ص341

الطلبة المتخرجين وقد بلغ عددهم سبعة طلاب فقط ، وعينوا مدرسين في المدارس المناطق الداخلية ⁽¹⁾، وفي عام 1909م بلغ عدد طلاب دار المعلمين في ولاية طرابلس الغرب حوالي 80-90 طالب ، ولم يكن لهم منازل لإيوائهم ⁽²⁾.

3- مدرسة الزراعة

بدأت فكرة إنشاء مدرسة الزراعة بطرابلس باقتراح قدمه أمير لواء أركان حرب طرابلس إلى السلطان العثماني بتاريخ 11 سبتمبر 1899م بدعوه إلى تأسيس مدرسة زراعية تهتم بالعلوم الزراعية والبيطرية ، واستند مفتش المصرف الزراعي (توفيق بك) سنة 1909م آنذاك إلى قرار مجلس الولاية العموم بإنشاء مزرعة نموذجية في المنشية إحدى ضواحي مدينة طرابلس يخصص قسم منها للبستنة وزراعة الخضروات بأنواعها ، والقسم الآخر يخصص لزراعة الأشجار المثمرة وتلحق بها أرض صالحة لتربية الحيوانات ، وأن يعمل فيها شباب من أبناء الفلاحين ممن مختلف أنحاء الولاية بأجر لغرض الاعتناء والتدريب على الاعمال الزراعية تحت إشراف معلمين متخصصين في مجال الزراعة ⁽³⁾.

والهدف من إنشاء هذه المدرسة تخرج مجموعة من الشباب العارفين بأصول الزراعة الحديثة ، وتدريب المزارعين الليبيين ، وقد أقيمت المدرسة في ضاحية طرابلس في سيدي المصري ، وإرساء عطاء هذه المدرسة على متعهد بمبلغ 239 ألف قرش ⁽⁴⁾، وايضا تكفل الوالي إبراهيم باشا بدفع مبلغ حوالي 4500 جنيه تركي لبنائها ⁽⁵⁾، كما وضعت لها نظارة الزراعة في الأستانة ومديرية الزراعة في طرابلس شروط ولوائح تنظيمية تشمل تحديد عدد طلبتها الذين سيقبلون كل عام من كل متصرفية ماعدا طرابلس وبنغازي اللتين ترك لهما الباب مفتوحاً أمام أولادهما للانتساب لهذه المدرسة دون تحديد ، وهذه المدرسة تتبع وزارة المعادن والزراعة وليس لوزارة المعارف ⁽⁶⁾ ، في عام 1910-1911م كتب مدير معارف الولاية لكل المتصرفيات لترشيخ الطلاب على أساس مايلي:

1- محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني، ص113

2 - تيسير بن موسي ، مرجع سابق ، ص93.

3 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس ، ص93.

4 - تيسير بن موسي ، مرجع سابق ، ص93.

5 - رأفت غنيمي الشيخ ، مرجع سابق، ص155.

6 - تيسير بن موسي ، مرجع سابق ، ص93.

متصرفية الخمس عدد 5 طلاب ، متصرفية الجبل عدد 3 طلاب ، متصرفية فزان عدد 2 طالب ، متصرفية الزاوية العجيلات وازواره ، وترهونة ، ورفلة ، متصرفية غريان والعزيرية طالب لكل منهم ، هذا إلى جانب التلاميذ الذين تقبلهم المدرسة من مدينتي طرابلس و بنغازي هؤلاء لم يحدد عددهم من قبل المدرسة.

وكان معلوم هذه المدرسة الزراعية يأتون لها من تركيا ، تعيينهم نظارة المعارف العمومية باسطنبول ، كما أن أدوات هذه المدرسة كانت تستورد أيضا من تركيا،⁽¹⁾ أفزودت المدرسة في سبيل إنجاح برنامجها بمحرك قوة لتيار الكهربائي ، وآلة لضخ الماء .

أما منهج هذه المدرسة أشتمل على المواد الزراعية إلى جانب تعليم حرفي مثل استخراج زيت الزيتون وعصره ، وصناعة الجبن ، ورعاية الماشية ، وحماية النبات ، ، وشملت على قسمين داخلي والآخر خارجي⁽²⁾ ، وفي سنة 1911م عينت وزارة الغابات والمعادن والزراعة بالأستانة حسين صبري مساعداً لمدير مدرسة الزراعة في قسم العمال الزراعيين ، حيث كان المقرر مباشرة عمله في أكتوبر من نفس السنة ، ولكن الغزو الإيطالي حال دون ذلك ، حيث أن هذه المدرسة أنشأت في وقت متأخر من العهد العثماني الثاني وحال الاحتلال الإيطالي دون القيام بمهامها ، وأُغلقت المدرسة.⁽³⁾

رابعاً- المدارس العثمانية الخاصة

عرفت ولاية طرابلس الغرب في خلال الحكم العثماني الثاني نوعاً من المدارس الخاصة التي أسسها ليبيون أو أتراك ، وهذا النوع من التعليم لا بربطة أي علاقة بالدول العثمانية إلا الترخيص ، فهي تتبع لجهات معينة أو اشخاص ، وهذا الترخيص متوقف على عدة شروط ، منها أن يكون أصحاب الترخيص مدرسون يشهد لهم الاستقامة والمقدرة ، ويتضح ذلك من وثيقة ذكرها علي محمد جهان في كتابه ، حيث ذكر طلب قدمه قضاء مصراته باسم الأستاذ محمد العنقودي للحصول على ترخيص لفتح فصل خاص يقوم بالتدريس فيه وفق لمنهج المدارس الابتدائية أو في الجمعيات العثمانية مثل الاتحاد والترقي ، وجمعية نجمة الهلال النسائية

1 - رأفت غنيمي الشيخ ، مرجع سابق، ص157.

2 - أحمد محمد العاقل ، مرجع سابق ، ص526.

3 - محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني ، ص111.

العثمانية ، فقد كانت فروع الجمعيتين لهما نوادي ثقافية وفصول خاصة بالإضافة إلى بعض المدارس الخاصة بمدينة طرابلس. (1)

1- مدرسة عرفان :

أنشئت مدرسة عرفان في طرابلس عام 1901م بقصد إتاحة فرصة تعليم إعدادي للتلاميذ القادرين على دفع رسوم الدراسة ونفقاتها ، وكان أكثر الطلبة الملتحقين بها من أبناء الموظفين وضباط الجيش ، وقد ضمت مدرسة عرفان في طرابلس شعبتين : واحدة للذكور ، وأخرى للإناث ، وتطبق مناهج تعليمية حديثة ، وتحصل على إعانة من إيرادات الولاية (2) ، وكان منهجها ومدة الدراسة بها تماثل لنظائرها من المدارس العامة العثمانية ، وتمدها الإدارة العثمانية بالإعانات المالية والمدرسين. (3)

وعلى الرغم من أنها مدرسة خاصة إلا أنها تحت إشراف وزارة المعارف العثمانية بالأستانة ، وتأسست من أجل منافسة المدارس الأجنبية في الولاية ، ومحاولة التفوق عليها ، وخاصة بعد أن وجد بعض المهتمين بالتعليم بأن أبناء بعض الضباط والموظفين يتوجهون إلى التعليم الاجنبي ، ولهذا عملوا على إقامة هذه المدرسة لجذب أبناء الطبقة الحاكمة وابعادهم عن التعليم الأجنبي الذي تمثله مدارس الجاليات الأوروبية (4) ، وتذكر بعض المصادر التاريخية برقية رئاسة الديوان الملكي إلى ولاية طرابلس الغرب يحذر فيه من انضمام أطفال المسلمين في الولاية إلى المدارس الأوروبية (5) ، وقد ضمت المدرسة قسمين هما الرشدي ، إلى جانب الإعدادي ، حيث بلغ عدد الطلاب والطالبات في عام 1902م إلى 100 طالب ، وأما عدد أعضاء هيئة التدريس إلى سبعين معلم ، وكان جميع طلبتها خارجين لا يوجد بها داخلي ، وقد عقدت المدرسة أول امتحان نهائي للمرحلة الإعدادية في 5 اغسطس سنة 1904م ، ولم تسمح الدولة العثمانية بفتح أي مدرسة خاصة في الولاية إلا بعد الحصول على موافقتها ، ورخصه من الاستانة. (6)

1 - علي محمد جهان ، مرجع سابق ، ص 149.

2- محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس ، ص 81.

3 - تيسير بن موسي ، مرجع سابق ، ص 346.

4 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس ، ص 82.

5 - عبدالسلام ادهم ، مصدر سابق ، ص 168.

6 - محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني ، ص 113.

2- مدرسة الاتحاد والترقي :

وفي مجال استخدام التعليم العثماني في التربية السياسية ، فقد افتتح فرع الاتحاد والترقي مكتبين في عام 1908م وذلك بهدف تثقيف الشباب وتربيتهم على الأصول الصحيحة لكي يكونوا أفراد عثمانيون ، وكانت هذه المدرسة تجمع بين المعارف التقليدية والجديدة بالإضافة إلى مناهج سياسية تدعو إلى تبني أهداف حزب الاتحاد والترقي ، وكانت هذه المدرسة وتلاميذها تحظى باهتمام كبير من الحزب ، والهدف المعلن من إقامة جمعية الاتحاد والترقي في طرابلس هي خدمة الدولة العثمانية ، وتوثيق الصلة الإخوة والمودة بين كافة العثمانيين ، وأن الجمعية تستعين بأعضائها لمدرسين لتعليم اللغة التركية والعربية واللغة الفرنسية مع بعض العلوم الانسانية والتطبيقية ، وكان فرع مدرسة الاتحاد والترقي موجود بمحلة ميزران يسمى مدرسة محمود شوكت باشا ، ولم تتقيد هذه المدرسة في قبول الطلبة بسن معينة بل كانت مفتوحة امام الجميع ، كما كانت تعطي فيها دروس ليلية لمدة ساعتين في المساء (1).

أما المكتب الثاني يسمى الاتحاد والترقي افتتح بمبني دار المعلمين واقتصر القبول فيه على طلبة اعمارهم ما بين 8-15 سنة (2) وقد استطاعت هذه الجمعية عام 1908م زيادة عدد مدارسها إلى ثلاث مدارس ، وطبعت لها كتب خاصة ، وفي عام 1910م افتتح بالمدرسة الإعدادية قسم مسائي ، ويبدو أن الاقبال عليها لم يكن كبيراً ، فقد حرضت الصحافة أولياء الأمور على إلحاق أبنائهم الذين لم يكملوا تحصيلهم العلمي الالتحاق بها (3).

3- جمعية نجمة الهلال 1910م :

في عهد والي إبراهيم باشا سنة 1910م تأسست جمعية نسائية تحت اسم جمعية النسوان العثمانية الخيرية نجمة الهلال يقوم مركزها بالمدرسة الرشدية للبنات ، والغرض من تأسيسها تهيئة أمهات المستقبل وذلك بتعليمهن الأمور الحياتية وكذلك القراءة والكتابة ، ومساعدة المحتاجات من الطالبات مالياً ، ورياسة الجمعية كانت لحرم والي طرابلس الغرب، ويحدد وثيقة إنشاء الجمعية

1 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس ، ص82.

2 - محمد الكوني بلحاج ، التحديث العثماني ، ص116.

3 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس ص81..

المهام التي تؤديها الجمعية وهي : مهام علاجية تحت اسم الهلال الاحمر ، والثاني رعاية تحت اسم الشفقة ، حيث تجمع الجمعية اشتراكات وتبرعات لتصرف منها لمساعدة المحتاجين وتعليم البنات الإدارة البيئية والحقوق الزوجية ، وحفظ الصحة ، وتربية الأطفال ، والخياطة والنقش ، الطبخ ، الغسالة ، كي الملابس ، النسيج ، وصنع البسط ، وقد افتتحت الجمعية في أبريل 1910م ، حيث عبرت حرم الوالي لعضوات الجمعية عن اهداف الجمعية ودروس التي سوف تعطي للبنات وهي توافق العقائد الإسلامية ، وكافة أنواع الاشغال اليدوية ، إلى جانب تقديم المساعدات المالية ، إلا أن هذه الجمعية لم تقدم خدمة للبنات الوطنيات ، ولم يكن من بين أعضاء مجلس الإدارة الستة سوى عضوتين اثنتين فقط من اللبيبات ، وأن لم تكونا من عامة الشعب ، ولم تستمر الجمعية كثيرا إذ ان الاحتلال الايطالي تم بعد حوالي سنة من تأسيسها. (1)

كان عدد الطلبة في جميع المدارس العثمانية بمختلف انواعها ومراحلها قبل الاحتلال الإيطالي عام 1911م 150 طالب داخلي ، 800 طالب خارجي ، وعدد المعلمين الذين يقومون بالتدريس في هذه المدارس حوالي 41 معلماً. (2)

ولم يكن عدد هذه المدارس كثيراً في البداية إذ أقتصرت تأسيس المدارس على مدن طرابلس وبنغازي ، ولكن بعد أن تم انقلاب الدستور عام 1908م أخذت الحكومة العثمانية تقدم على اصلاحات سريعة وضعت تنظيمات ، وكات هذه التنظيمات متأثرة بنظم التعليم المتبعة في فرنسا ، ووضعت تعليمات تتماشى مع مراحل التعليم المختلفة تنظم قبول التلاميذ ، وتحدد مواصفات المعلمين ومسئولياتهم والمكافآت المقررة لهم والجزاءات المفروضة عليهم والتدابير الصحية اللازمة. (3)

ثالثاً- الإشراف على المدارس العثمانية :

من خلال استعراضنا للمدارس العثمانية الحديثة في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني يتضح لنا أن الليبيين كانوا يبذلون الجهد من أجل بناء المدارس وإعدادها لتعليم أبنائهم فهم الجهة الممولة لهذه المدارس لولا قيام اهالي ليبيا بالتبرع بالأموال وإيقاف الأوقاف على

1- رأفت غنيمي الشيخ ، مرجع سابق، ص101.

2 - فرانسكرور ، مرجع سابق، ص119.

3 - رأفت غنيمي الشيخ ، مرجع سابق ، ص123.

المدارس من أجل دفع مرتبات المعلمين وإنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ما قامه للتعليم قائمة في ليبيا.⁽¹⁾

وكان دور الإدارة العثمانية يختصر في الإشراف على العملية التعليمية فقط ، واختيار المعلمين وذلك لتضمن ولاء المواطنين وسيرهم في الطريق الذي رسمته الحكومة العثمانية.⁽²⁾ وفي عام 1875م ثم تشكيل مجلس للمعارف في طرابلس برئاسة القاضي ، وعضوية مفتي الولاية ورئيس محكمة التجارة ومحاسب الأوقاف ونائب القاضي في الولاية وأربع أعضاء آخرين بينهم ثلاثة علماء وهم : محمد كامل ، وخليل بن غلبون ، ومصطفى الحمداني ، وقد سبقت ولاية طرابلس الغرب تركية في تشكيل مجلس المعارف .⁽³⁾

وفي عام 1897م ثم تشكيل مجلس للمعارف برئاسة الوالي العثماني الذي كان من اختصاصه الإشراف على التعليم في الولاية ، وقد عقد هذا المجلس أول اجتماع له يوم 20-7-1897م ، حيث اتخذ قرار أصلح التعليم الابتدائي ، وجمع التبرعات اللازمة لذلك ، وقد تبرع الوالي بمبلغ 2000 قرش ، وتبرع الموظفون بباقي المبلغ ، وقد بلغت جملة التبرعات في هذه الجلسة 2995 قرشاً ، وشكلت هذه التبرعات قاعدة رئيسية للإصلاحات العاجلة ، وقد أقيم لهذه التبرعات سجل لدي محاسب الأوقاف بمركز الولاية ، وعمل المجلس بالدعوة لجمعها في كل الولاية ، وقد بلغت هذه التبرعات حوالي 2111 قرشاً ، فأخذ مجلس الولاية بتاريخ 6 سبتمبر 1897م قرار بتجديد مكتب الصبيان الولاية بمحلة البلدية الذي اشرف على الخراب ، واجري صيانتها وافتتاحه من جديد ، وحضر الافتتاح عدد من اعيان الولاية وهيئة المعارف⁽⁴⁾ ،

ولقد تحمس الليبيين لفتح المدارس وتعليم أطفالهم وساهموا في جمع التبرعات ، حين تدعي البلديات عدم قدرة ميزانيتها على فتح مدرسة ، وأذكر على سبيل المثال أن سكان مدينة غريان تبرعوا بمبلغ (101194) قرشاً عثمانياً لبناء مدرسة اعدادية للبنات في مدينتهم ، كما تبرع سكان ساحل آل حامد بالخمس بمبلغ (36566) قرشاً لبناء مدرسة ابتدائية ، كما أن الموظفين

1- رأفت غنيمي الشيخ ، مرجع سابق، ص156.

2 - فتحي قعير ، مرجع سابق، ص82.

3- احمد محمد العاقل ، مرجع سابق ، ص532.

4- محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس ، ص 99.

والعسكريين في سرت تطوعوا للتدريس مجاناً ، كما تبرع سكان طرابلس بثلاثة آلاف قرش ووقف قهوتين ودكان يصرف ريعهم على المدرسة الاعدادية .⁽¹⁾

ولقد كان الإشراف على التعليم في ولاية من اختصاص الوالي حتى عام 1899م حيث عين أول مدير مسؤول عن التعليم في الولاية من قبل نظارة المعارف باسطنبول وسمي بمدير المعارف ، وذلك بهدف فتح مدارس نظامية تسير على النظام الحديث في التعليم ، وبناء على ذلك ثم تشكيل مجلس الولاية 1909م على النحو التالي :

الوالي رئيساً، مدير المعارف وكيلاً وهو من الموظفين الكبار يحمل رتبة بك ، ورئيس الحسابات والمالية يحمل لقب بك ، أربعة من أعضاء مجلس الإدارة اعضاء ، مدير دار المعلمين عضواً ، معلمان من المدارس الرشدية اعضاء ، معلمان من المدارس الابتدائية اعضاء ، اثنان من المفتشين يختارهم مدير المعارف اعضاء .⁽²⁾

ومن عدد من الموظفين الصغار الذين يعملون بالديوان ، ويلحق بالمديرية مكتب المفتشين الذين يتولون التفتيش والتوجيه خريج أحد المدارس التي مدة التدريس على مدارس الولاية ، ويتم تعيينهم وفق شروط منها أن يكون المفتش من خريجي دار المعلمين أو يكون فيه لا تقل عن سبع سنوات ، كذلك يكون له خدمة سابقة في مجال التدريس ومتحصل على تقدير جيد.⁽³⁾

ويجتمع هذا المجلس مرتين في السنة ، ويتم الاجتماع بناء على أمر من الوالي ، هو الذي يحق له ضم من يراه من المختصين لحضور الجلسات ، وعضوية المجلس فخرية أي بدون أجر فيما عدا الأعضاء الذين يحضرون من الاقاليم فتدفع لهم مكافأة ، و كان لكل متصرفية مجلس تعليم يتكون من : مدير مدرسة الابتدائية ، باشا كاتب المحكمة الشرعية ، مدير المالية، قاضي المتصرفية ، محاسب البنك الزراعي .⁽⁴⁾

لقد حاول هذا المجلس حل بعض المشاكل التي واجهت التعليم والمدارس العثمانية في ليبيا مثل توفير المعلمين في المدارس النائية ، كما عالج المجلس هذه المشكلة بجلب مدرسين من البلاد العربية أو منح مزايا مالية خاصة للمدرسين المتعنيين في هذه المناطق البعيدة أو تكليف

1 - تيسير بن موسي ، مرجع سابق ، ص351.

2 - فتحي قعير مرجع سابق ، ص82.

3 - زياد علي صقر ، مرجع سابق ، ص348.

4 - رأفت غنيمي الشيخ ، مرجع سابق، ص 167..

الضباط المتقاعدين الحاصلين على شهادات عليا التدريس مقابل منحة مالية شهرية تضاف إلى مرتباتهم الأصلية⁽¹⁾.

أما مناهج التعليم في ولاية طرابلس الغرب سواء كان التعليم الابتدائي ورشدي والاعدادي والفني والصناعي فهو لا يختلف عن التعليم في انحاء الولايات العثمانية ، فقد كانت الكتب المدرسية والمصاحف تصدر من اسطنبول ثم توزع على باقي الولايات العثمانية ، تحمل ختم وزارة المعارف العثمانية ، وكانت تمنح مجاناً للطلبة الفقراء ، أما الاغنياء فكانوا يدفعون قيمة رمزية على الكتاب⁽²⁾.

خامسا-البعثات العلمية :

لم تنشأ في ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) أية مدرسة عليا ، وإنما كان من يرغب من الليبيين أبان الحكم العثماني - استكمال تعليمه الديني يتجه إلى مصر ليلتحق بالجامع الأزهر أو تجاه نحو تونس ليستزيد من جامع الزيتونة ، ومن أراد استكمال دراسته من خريجي المدارس العسكرية أو العامة الخاضعة للإشراف المباشر من قبل لأحكام الولاية يتجه صوب الاستانة ليستكمل في معاهدها العالية مالم يتوفر له في الولاية⁽³⁾.

عرفت ولاية طرابلس الغرب العثمانية نظام الإيفاد إلى الخارج خاصر إلى اسطنبول ، حيث اوفدت عام 1303م حوالي (45) تلميذاً ليبيا إلى إسطنبول فتوزعوا : واحد في المدرسة الملكية العالية ، و(38) بالكلية العسكرية ، (6) بالكلية الطبية وتم قبولهم مجاناً، وقد وصل عدد من الليبيين بعد تخرجهم ضباط إلى مراتب عسكرية عالية.

1- ويوفد إلي اسطنبول عدد من الطلاب إلى الكليات العلمية الحالية كطلبة الطب والهندسة والزراعة وغيرها.

2- يوفد كل عام عدد من الطلبة خريجي مدرسة الفنون والصنائع لاستكمال تعليمهم المهني في معاهدهم ، حيث في عام 1909م عاد طالبات لبيان وهما أمين غالب ، ومحمود سنان من اسطنبول بعد أن أنهيا بعثتهما في صناعة الجوارب والملابس والاقمشة والتحقا كمدرسين في

1 - تيسير بن موسي ، مرجع سابق، ص 349.

2 المرجع نفسه ، 349.

3 - رأفت غنيمي الشيوخ ، مرجع سابق ، ص 81.

مدرسة الفون والصنائع ، ولكنهما وجداً آلات المدرسة قديمة ، وتقدما بطلب للوالي العثماني طلبا فيها تزويد المدرسة بآلات حديثة ، وهداه بترك المدرسة والعودة للإسطنبول .

3- عمدت الدولة العثمانية لافتتاح مدرسة خاصة بشيوخ القبائل الرحل تدعي المدرسة العشائرية في اسطنبول التي هدفت من خلالها إلى تعليم أبناء الأعيان وشيوخ القبائل ، وكان الغرض من انشائها هو خلق ولاءات للدولة العثمانية من خلال استقطاب الأعيان والمشايخ وإغرائهم بأرسال أبنائهم ليتولوا بعد عودتهم إلى بلادهم يتولوا مناصب مدنية وعسكرية ، ن بذلك يضمنون استمرار سيادة الدولة العثمانية بعد تشبعهم بقوانينها وثقافتها ،⁽¹⁾ وقد كان يدفع لكل طالب ليبي موفد إلى هذه المدرسة مبلغ ست ليرات ذهبية علاوة مبيت وسفر ، وقد تخرج من هذه المدرسة العديد من الطلاب .

4- كان هناك بعض الدارسين الليبي في الدول الاجنبية⁽²⁾

وفي خلاصة أن التعليم العثماني الحديث كان له أثر كبير على المجتمع الليبي ، حيث ظهرت طبقة مثقفة أتاحت لها الفرصة بالاطلاع على المفاهيم العصرية الجديدة التي تزخر بها والثقافة العالمية ما كون لديهم ميل نحو التحديث في الولاية على الرغم من أنها نخبة قليلة العدد تعود إلى الأسر الأعيان التي مكنها وضعها الاقتصادي الجيد من نيل مستويات عليا من الدراسة ، حيث خدموا الدولة العثمانية في الداخل والخارج فبعضهم هاجر من وطنه بعد الاحتلال الايطالي إلى اسطنبول ، وظلوا محتفظين بوظائفهم في الجيش العثماني حتى بعد احتلال ايطالية لها مثل علي إبراهيم المرغني ، ومحمود موصوف ، محمد ناجي شويح ، واحمد ربيع ، ومحمد فائق ابوشويرب ، وسليمان الباروني⁽³⁾ ، عمر المحيشي ، عمر منصور الكيخيا ، محمد الرعيع ، وعمران نجم ، وسيدة حميدة العنيزي وغيرهم⁽⁴⁾ ، وهم خريجو المدرسة العسكرية العثمانية وشاركوا تركية في حروبها إلى جانب المدرسة المدنية ، وهذا يفسر لنا إلى حد ما أن الفئة الذي

1 - عبدالرحمن صالح امخاطرة ، التعليم في برقة خلال العهد الملكي (1951-1969) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عمر المختار ، (البيضاء ، 2017م) ، ص23

2 - تيسير بن موسي ، مرجع سابق، ص351

3 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس الغرب ، ص127-141.

4 - عبدالرحمن صالح امخاطرة ، مرجع سابق ، ص24.

تلقت تعليماً راقياً في اسطنبول وقع عليها كاهل قيادة الحياة الثقافية والمطالبة بالإصلاح والتجديد بفعل تنورها وإطلاعها على العالم،⁽¹⁾ وهم من دافع عن البلاد فيما بعد بالقلم وبالسيف ، كما نبهوا المجتمع من نقشي الاخلاق الاوروبية وطالبوا بتمسك بالأخلاق العربية الإسلامية ، كما ساهموا في ظهور صحافة رائدة قامت بدور كبير في كشف عن التغلغل الاقتصادي الإيطالي في فترة مبكرة وحذروا منه.⁽²⁾

الخاتمة

توصلت هذه الدراسة إلى ما يلي

- 1- أن هدف العثمانيين من ادخال المدارس الحديثة في ليبيا هو نشر اللغة التركية ، وإعداد موظفين محليين .
- 2- قام التعليم الحديث في ليبيا على اكتاف الليبيين عن طريق التبرعات الاهالي ، وكان دور العثمانيين يتمثل في الإشراف عليه وإقرار المناهج العثمانية فقط.
- 3- اقتصرت المدارس العثمانية العليا على قبول الطلاب ذو الوضع الاجتماعي المميز مما حرم الليبيين من مواصلة تعليمهم في تركيا ، وهذا يفسر لنا قلة الطبقة المتعلمة في ولايات طرابلس الغرب (ليبيا) في ذلك العصر
- 4- اهتمام الدولة العثمانية بالتعليم في المناطق الساحلية ، حيث وجود مركز الولاية والحامية العثمانية واهملت المناطق الداخلية والنائية وهذا ما يوضح ضعف التعليم في فزان وغيرها من المناطق .
- 5- فشل التعليم العثماني من تحقيق أهدافه في ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) بنشر اللغة التركية ، وخلق جيل من المتعلمين من ذوي الولاء إلى تركيا.
- 6- أثرت التعليم الحديث العثماني على المجتمع الليبي رغم قلة الإمكانيات ، وكان سبب في ظهور نخبة متعلمة و متتورة وضعت أساس التعليم الحديث في ليبيا فيما بعد .

1 - محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس الغرب ، ص 127-141.

2 -محمد الكوني بلحاج ،ن التحديث العثماني ، ص 285-291.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- أ.ج ستيل جريج ، تاريخ التعليم في إقليم طرابلس منذ الاحتلال العثماني حتى السنة الخامسة للإدارة العسكرية البريطانية للإقليم ، ترجمة احمد محمد العاقل ، مركز جهاد الليبيين لدراسات التاريخية (طرابلس، 2005م) .
- 2- احمد صدقي الدجاني ، ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي ، طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني 1882-1911م ، المطبعة الفنية الحديثة (القاهرة ، 1971م) .
- 3- أحمد محمد العاقل، التعليم الحديث في ليبيا خلال الفترة (1835-1950م) ، اعمال الندوة العلمية الثامنة التيس عقدة بمركز جهاد الليبيين في الفترة من 26-27/2000م منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس ، 2005م) ، ص590.
- 4- تيسير بن موسي ، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني دراسة تاريخية اجتماعية ، دار العربية للكتاب، (القاهرة ، 1988) .
- 5- ج ع ل ، وزارة التربية والتعليم ، إدارة التخطيط والمتابعة ، دراسة تاريخية عن تطور التعليم في الجمهورية العربية الليبية من العهد العثماني حتى وقتنا الحاضر (ليبيا ، 1974م).
- 6- رأفت الشيخ غنيمي ، تطور التعليم في ليبيا في العصر الحديث، مطبعة دار الحقيقة، (بنغازي ، 1972م) ،
- 7- زياد علي صقر ، ((تطور التعليم في ليبيا خلال فترة الحكم العثماني)) مجلة دراسات الانسان والمجتمع ، العدد 20 ، (نوفمبر 2022م) .
- 8- عبدالرحمن صالح امخاطرة ، التعليم في برقة خلال العهد الملكي (1951-1969) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عمر المختار ، (البيضاء ، 2017م) .
- 9- عبدالسلام ادهم ، وثائق تاريخ ليبيا الحديث ، الوثائق العثمانية 1881-1911م منشورات جامعة بنغازي (بنغازي ، د.ت).
- 10- عفاف البشير عيسي ، الإصلاحات العثمانية وأثرها في تعليم الفتيات في العصر العثماني الثاني 1835-1911م دراسة تاريخية وثائقية أعمال المؤتمر الدولي الخامس بعنوان ((



العرب والترك عبر العصور⁽¹⁾، المنعقد في 4-6 مارس 2013م، نظمها قسم التاريخ ، جامعة قناة السويس (مصر ، 2013م).

11- علي الصادق حسين ، مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية ، موقع مركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، lcahs.ly

12- علي محمد جهان، الحياة الثقافية بمصر أثناء الحكم العثماني الثاني 1835-1911م، مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية (طرابلس ، 2007م) .

13- عمر محمد التومي الشيباني ، تاريخ الثقافة والتعليم في ليبيا ، دار المطبوعات والنشر (طرابلس ، 2001م).

14- فاتح رجب قدارة ، الزاوية الغربية خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911م ، دراسة وثائقية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، منشورات مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية ، (طرابلس ، 2007م)

15- فتحي عوض قعير ، العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأثرها في تطور التعليم في ليبيا في الفترة 1551-1969م ، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي ، 2009م) .

16- فرانشسكو كور، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني ، ترجمة خليفة التليسي ، دار الفرجاني، (طرابلس ، 1971م) .

17- محمد بشير سويسي ، «أوضاع التعليم في ليبيا 1835-1950م»، المجلة التاريخية ، العدد 2 ، مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية (طرابلس ، 1999م) .

18- محمد الكوني بلحاج ، التعليم في مدينة طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني 1835-1911م وأثره على مجتمع الولاية ، مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية (طرابلس ، 2000م) ..

19- ، التحديث العثماني في ولاية طرابلس الغرب (1864-1911م) منشورات جامعة السابع من ابريل (طرابلس ، 2006م) .



20- مختار عثمان عفيف ، مدينة سوكنة دراسة تاريخية للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية 1835-1911م ، مركز جهاد اللجين للدراسات التاريخية (طرابلس ، 2003م) .

21- نغم اكرم الجميلي ، "التعليم في ولاية طرابلس الغرب 1839-1911م" ، مجلة جامعة الانبار للعلوم الإنسانية العدد الرابع (العراق ، كانون أول 2012م) .

بحث بعنوان :

المرحلون الليبيون إلى الجزر الإيطالية 1911-1931م

جزيرة تريميتي، وبونزا، واوستيكا "نموذجاً"

The Deportation of Libyans to the Italian Islands (1911–1931): Tremiti,
Ponza, and Ustica as Case Studies

إعداد :

د. علي عيسى علي الدعب

Dr. Ali Issa Ali Al-Daab

أستاذ مساعد/ جامعة السيد محمد بن علي الإسلامية

د. سعد إدريس سعيد آدم

Dr. Saad Idris Saeed Adam

أستاذ مساعد/ جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

د. عبدالرحيم عبداللطيف مفتاح عبدالقادر

Dr. Abdul Rahim Abdul Latif Miftah Abdul Qader

أستاذ مشارك/ جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

Aliessa20007381@gmail.com

المدقق اللغوي : عبدالحميد محمد حمدان – جامعة السيد محمد بن علي السنوسي

المخلص:

يتناول البحث سياسة الإبادة التي اتخذتها الحكومة الإيطالية ضد الأهالي في ليبيا منذ أواخر أكتوبر 1911م، بعد المعارك الشرسة التي واجهتها في برقة وطرابلس، بترحيل عشوائيين شمل زعماء القبائل، والعمال، وبائعي الخضار، والتجار، والمزارعين، والمسننين، والنساء، والأطفال، وترحيلهم قسراً في سرية تامة إلى الجزر القريبة من إيطاليا، وعن تلك المعاناة والظروف المناخية، والصحية السيئة، التي عاشوها هناك، ما أسفر عن وفاة الكثير منهم، بقصد الإبادة، وقد كانت هذه الإجراءات الانتقامية من أجل أن تسهم في تحقيق انتصارات للجيش الإيطالي، الذي كان يعتقد أن احتلال ليبيا سيتحقق في وقت قصير.

الكلمات المفتاحية: المرحلون - أوستكا - بونزا - تريميتي - المنفيين - إيطاليا

Abstract:

The research deals with the policy of extermination adopted by the Italian government against the people of Libya since late October 1911 AD, after the fierce battles it faced in Cyrenaica and Tripoli, with a random deportation that included tribal leaders, workers, vegetable sellers, merchants, farmers, the elderly, women, and children, and their forced deportation in complete secrecy to the islands near Italy, and about the suffering and bad climatic and health conditions that they lived in there, which resulted in the death of many of them, with the intention of extermination. These retaliatory measures were in order to contribute to achieving victories for the Italian army, which believed that the occupation of Libya would be achieved in a short time.

Keywords: Deportees - Ustca - Ponza - Tremiti - Exiles - Italy

المقدمة :

في 29 سبتمبر 1911م أعلنت الحكومة الإيطالية الحرب علي ليبيا، في محاولة منها لاسترداد هيبتها، بعد هزيمتها المدوية في معركة عدوة 1996م ضد الجيش الإثيوبي، كانت إيطاليا تعتقد إنها اتخذت كل الإجراءات التي ستمكنها من تحقيق انتصارات سريعة، لكنها اصطدمت بمعارك قوية كمعركة الشط، والهاني، وجليانة، ومعارك أخرى في درنة وطبرق، تلقت فيها هزائم كبيرة، وخسائر في الجند، والعتاد، ومن هذا المنطلق استعملت كل ماليبها من أدوات الإبادة، فكانت المشانق للمدنيين، والقتل المتعمد للأبرياء من النساء، والأطفال، ونتيجة لهذه الجرائم، وتخوفها من اطلاع الدول الكبرى على هذه الانتهاكات، قام الإيطاليون بتقييد حركة الصحافة، واتجهوا إلى الانتقام بصورة أخرى، وهي الترحيل القسري للجزر الإيطالية، إذ نقل الأسرى ليلا مقيدون في سرية تامة، إلى جزر لا تتوفر فيها إمكانية العيش الآدمي، هذا عن الأمراض، والظروف المناخية التي لا تتلاءم مع ظروف عيشهم، وقد استمرت هذه العمليات من الترحيل حتى نهاية العشرينات.

وتكمن أهمية الموضوع في الاطلاع على عمليات الترحيل، والظروف العامة، والصحية التي لحقت بهؤلاء في تلك الجزر الإيطالية، وتجدر أهمية أخرى هي أن الإيطاليين في ذلك الوقت قاموا بطمس هذه العمليات تحت مسميات أخرى، تماما كما حدث في إخفاء عمليات الترحيل الداخلي (المعتقلات)، ولكن في الآونة الأخيرة ظهرت دراسات من الإيطاليين أنفسهم مستقاه من الأرشيف الإيطالي غير المعلن.

ويمكن صياغة الإشكالية في محاولة الإجابة عن عدة تساؤلات في مقدمتها، لماذا اتخذت إيطاليا أسلوب الترحيل؟ وهل كان ضمن سياستها قبل الاحتلال، أو أنه جاء وليد اللحظة؟ وكيف تم تجميع المرحلين ونقلهم؟ وإين نقلوا، وماهي ظروف العيش هناك؟ وماهي الأمراض التي اجتاحتهم؟ وهل تم إعادتهم إلى ليبيا؟

وبهذا قسمت الورقة إلى مبحثين للإجابة عن تلك التساؤلات، بشكل مفصل، وفي هذا السياق اتبع الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، واعتمدت الدراسة على مجموعة من

المصادر والمراجع، كان منها: (الوثائق الإيطالية) المنشورة بالمركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، ومحمد إمام الطوير، في كتابه (تاريخ الجهاد في ليبيا ضد الغزو الإيطالي)، وأيضا دراسات سابقة تناولتها المراجع الأجنبية حديثا، منها على سبيل المثال كتاب (Beatricezenaro)، بعنوان (Il colonialismo Italiano in libia ed etiopia tra mito e real)، وكتاب (Francescadi Pasquale)، بعنوان (The “Other” at Home: Deportation and Transportation of Libyans to Italy During the Colonial Era (1911–1943)).

المبحث الأول: إستراتيجية النفي، والترحيل القسري (1911–1931).

انطلقت إيطاليا في مشروعها الاستعماري تجاه ليبيا عام 1911م، بدعم من معظم أعضاء المجلس الوطني الديمقراطي الإيطالي،⁽¹⁾ وبهذه الموافقة قامت ببعض الترتيبات قبل أن تقدم على احتلال ليبيا، حيث إنها اتفقت مسبقا مع حقي باشا رئيس الوزارة في تركيا، الذي كان متواطئاً معها في تسهيل احتلال ليبيا، حيث أقدم هذا الأخير على سحب 40 ألف بندقية من نوع سيندر، بحجة استبدالها بنوع آخر، وقام بإخلاء القلاع من المدافع، وأرسل العساكر إلى اليمن بذريعة القضاء على ثورة هناك.⁽²⁾ ويأتي هذا لضمان احتلال سهل مضمون العواقب، حتى تتمكن الحكومة الإيطالية من ترسيخ مكانتها كقوة عظمى، متخذة في الوقت نفسه سياسة قائمة على الإقصاء، والعنف الممنهج، ومصحوبة بآلة إعلامية ضخمة. وقد أسهمت الصحيفة الإيطالية باتريا (Patria) باستخدام الرسوم الكاريكاتورية، والرسائل المنتقاة بعناية، لإثبات أن ليبيا ذات مستوى حضاري أدنى،⁽³⁾ مما يسمح لها باستخدام العنف المفرط، كما أن هناك سببا آخر كان يحمل مخاوف كبيرة، وهو تأثر القرار السياسي الإيطالي، بهواجس الهزيمة القاسية التي تعرض لها الجيش الإيطالي في معركة عدوة بإثيوبيا عام 1896م، والتي كانت أكبر هزيمة لجيش أوروبي في العصر

⁽¹⁾Daniela Rossini, The National Council of Italian Women, the World War, an the Rise of Fascism, 1911–1922, Journal of Women's History, Volume 26, Number 3, Fall 2014, p 41.

⁽²⁾ مصطفى علي هويدي، إيطاليا وفكرة احتلال ليبيا، مجلة كلية الآداب، منشورات دار رؤية للطباعة والدعاية والإعلان، العدد الخامس والعشرون، الجزء الأول، الزاوية، 2018م، ص ص 64، 65.

⁽³⁾Saima Raza, Italian Colonisation Libyan Resistance The Alsanusi of Cyrenalca 1911-1922, a new journal of African studies, vol 9, 2012, pp 19,20.

Federica Bertagna, la guerra di Libia sulla stampa italiana in Argentina Brasile,

انظر للرباط الإلكتروني <https://historiapolitica.com/datos/biblioteca/bertagna3> بتاريخ 2026-1-13 / الساعة 20:47.

الإمبراطوري. ولهذا فإن إيطاليا سعت جاهدة لإخفاء أي تعثر عسكري في ليبيا، واتخاذ أقصى التدابير الانتقامية ضد السكان، لإثبات سيطرتها، واستعادة هيبة جيشها.⁽⁴⁾

أولاً: المرحلة الأولى 1911-1914م

كل تلك الاجراءات لم تكن لتخفي ضعف الجيش الإيطالي، ففي معركة الشط التي دارت في 23 أكتوبر 1911م، انتهت بهزيمة ساحقة للإيطاليين، ومقتل ما يقرب من 600 جندي، هذا عن الجرحه الذين زاد عددهم عن 125 جريحاً، ولأن الأهالي كان لهم موقف في النصر الذي حققه المجاهدين في هذه المعركة، لالتفافهم على مؤخرة الجيش ، فإن الانتقامات التي وقعت بعد هذه الهزيمة، كانت غير مبررة، ولكن الأوامر العليا للقيادة الإيطالية كانت تتجه باتجاه الانتقام من الأهالي، وهذا يجعلنا نستبعد إن تكون هذه الانتقامات تصرفات فردية، فكانت المجازر في صفوف الأهالي كبيرة، حيث قام الإيطاليون، بتفتيش البساتين، والبيوت بحثاً عن الذخائر، والأسلحة، وقاموا بقتل النساء، والأطفال غير مبالين بكبار السن، والمرضى، حتى وصل العدد إلى ما يقرب من 4000 قتيل.⁽⁵⁾

ومن ثم اتخذت عمليات الترحيل القسري، التي جاءت رداً على الرأي العام العالمي حول عمليات الشنق، والإعدامات العشوائية، التي طالت الأهالي منذ الأيام الأولى من الاحتلال ، ولإيقاف ردود هذه الأفعال اتخذ الإيطاليون قرار الترحيل، الذي جاء بناء على البرقية التي أرسلت من رئيس الوزراء الإيطالي السيد جيوليتي (Giulietti)، إلى قائد الحملة على ليبيا الجنرال كانيفيا (Canivia)، بترحيل كل من يتم القبض عليه إلى جزيرة تريمنتي (Tremiti)، الواقعة في البحر الأدرياتيكي، والتي تتسع فقط إلى 400 سجين، بدلاً من الاستمرار في الإعدامات، وفي الوقت نفسه كلف جيوليتي ضابطاً من الشرطة ليكون مفتشاً، ومسؤولاً عن إقامتهم هناك. ولكننا نلاحظ أن جيوليتي تعمد بقصد إلحاق الإبادة لليبيين، إذ أمر قاداته بإرسال أعداد أخرى إلى هذه

⁽⁴⁾Massimo Zaccaria, **Wage work and mobility in colonial Eritrea 1880 -1920** Article in International Labor and Working-Class History, University of Pavia, September 2014, p 94.

⁽⁵⁾ محمد عبدالسلام الجفاري وآخرون، المنفيون الليبيون إلى سجون الجزر الإيطالية، وثائق وأرقام لأسماء وصور، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، الطبعة الثانية، 1991م، ص 20. محمد عبدالكريم الوافي، الطريق إلى لوزان، الخفايا الدبلوماسية والعسكرية للغزو الإيطالي لليبيا، منشورات جامعة بنغازي، الطبعة الثانية، ليبيا، 1988م، ص 94، 95. مصطفى حامد رحومة، الغزو الإيطالي لليبيا وبداية المقاومة الوطنية 1911-1912م، بحوث ودراسات في التاريخ الليبي 1911-1943، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، الطبعة الثانية، ليبيا، 1998، ص 60-63.

الجزيرة، فتم إرسال إضعاف هذا العدد، وبما أن الجزيرة لا تتسع لهذا العدد، فهذا يعتبر إقراراً بتعمد نية الانتقام، والإبادة.⁽⁶⁾

في 26 أكتوبر 1911م، جرت أول عملية نفي بترحيل 595 شخصاً على متن السفينة صربيا، إلى جزيرة تريميتي. ومع نهاية أكتوبر 1911م، تزايد عددهم ليصل إلى 1367 شخصاً، نقلوا على متن السفينة (ميناس)، و(صربيا). ومن الملاحظ أن عدد المرحّلين إلى هذه الجزيرة تصاعد في هذه الفترة، فمثلاً من مدينة درنة، وضواحيها رحل خلال عشرين يوماً من 27 نوفمبر 1911م، وحتى 17 ديسمبر من نفس العام 643 شخصاً، نقلوا على متن الباخرة بلغاريا، ومندوزا، وواشنطن، وغاريبالدي. ونتيجة لعدم مقدرة الجزيرة على استيعاب مرحّلين جدد، فإنها اضطرت إلى توجيههم جزر أخرى مثل بونزا (Ponza)، وكاسيرتا (Caserta)، وغايتا (Gaita)، وفافينيانا (Faviniana).⁽⁷⁾

امتدت العمليات لتشمل بتاريخ 27 أكتوبر 1911م، ترحيل 920 شخصاً، نقلوا على متن السفينة رومانيا إلى جزيرة أوستيكا (Ostica). وقد قدرت بعض المصادر وصول عدد المنفيين بحلول نوفمبر 1911م إلى قرابة 3000 شخص، وُزِعوا على جزر تريميتي، وأوستيكا، وغايتا. وكان من المفترض، وحسب ادعاءات الحكومة الإيطالية إن هذا الترحيل مؤقتاً، وفقاً لمذكرة عام 1914م، من وزارة الداخلية إلى وزارة المستعمرات. وعلى الرغم من ذلك لم يعد الكثيرون إلى ديارهم.⁽⁸⁾

اتسمت ظروف النقل والاعتقال بالوحشية، حيث كان يتم تكبيل المعتقلين، واقتيادهم، بربط أعناقهم، وتكبيل أيديهم للخلف، واقتيادهم ليلاً، في طوابير تحت حراسة مشددة، وبأضواء خافتة، في هدوء تام لتجنب عدسات الصحافة، وكانوا من مختلف الأعمار، ليُنقلوا في ظروف صحية

(6) رومانين راينيرو، الجوانب المجهولة من المقاومة الليبية (الليبيون المرحّلون إلى إيطاليا)، مجلة البحوث التاريخية، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد الثاني، طرابلس، يوليو، 1985م، ص 98، 99.

(7) الوثائق الإيطالية، المجموعة السابعة، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، إعداد الفرجاني سالم الشريف، محمد الدقالي ترجمة المهدي التريكي شمس الدين عرابي بن عمران، طرابلس، 1990م، الوثيقة رقم 6، 22، ص 27، 70.

Beatricezenaro, Il colonialismo Italiano in libia ed etiopia tra mito e realtl, corso di laurea magistrale in relazioni Internazionali e diplomazia, universita degli studi di padova, 2025, p 39.

(8) محمد عبدالسلام الجفائري وآخرون، المصدر السابق، وثيقة رقم 4، ص 40. الوثائق الإيطالية، المجموعة السابعة، المصدر السابق، ص 70.

Stephanie Malia Hom, historical echoes in italys crisis of migration and detention, cornell univell university press, Ithaca and London, 2019, pp 40, 101.

مزرية إلى جزر مهجورة، يصعب العيش فيها.⁽⁹⁾ ولكنهم حين وصلوا إلى جزيرة تريميتي خضعوا لعمليات استجواب، وقد أجريت هذه التحقيقات على فترتين صباحية، ومسائية،⁽¹⁰⁾ كان كل المرحلين متهمين بحيازتهم للأسلحة، في حين أخذ آخرون من دون دليل. كانت هذه الاعتقالات على عجل؛ وكان المعتقلون خليطاً من الدراويش، وملاك الأراضي الأثرياء، والعمال، وبائعي الخضار، والتجار، والمزارعين، والمسننين، والنساء، والأطفال، والشباب، ولم تُسجل أسماؤهم في القوائم إلا بعد وصولهم إلى إيطاليا، لأن السلطات الإيطالية في ليبيا لم تُعَهِم اهتماماً يُذكر، نظراً للعجلة التي تم بها تحميل المرحّلين على السفن، إذ لا تتوفر بيانات دقيقة بشأن عددهم. والملاحظ هنا أن بعض الحالات، تم تسجيل أسمائهم عند وصولها إلى إيطاليا، ولكن في حالات أخرى، مثل جزر تريميتي، لم يتم تسجيلهم مطلقاً.⁽¹¹⁾

استمر الإيطاليون في الانتقامات، إذ وردت تقارير تفيد بأن القوات الإيطالية قتلت جميع الذكور الذين تزيد أعمارهم عن أربعة عشر عاماً،⁽¹²⁾ حيث استمرت باتباع هذا الأسلوب طيلة فترة المقاومة، وقد شمل طرابلس، وبرقة وفزان، بكل فئاته، من الشيوخ، والأطفال، والنساء، والرجال، كان هذا الإبعاد يتصاعد مع كل مواجهة عنيفة تقع بين الإيطاليين والمجاهدين.⁽¹³⁾ ففي بنغازي قام الإيطاليون بترحيل عدد كبير من الليبيين، بعد معركة جليانة، والتي استمرت خلال يومي 19-20 أكتوبر 1911م، انتهت هذه المعركة بعد أن خلفت خسائر في الأرواح قدرت بـ 200 شهيد، وبما يقرب من 800 جريح، وكان الأسرى الذين تجاوز عددهم 400 شخصاً، رحلوا يوم 24 أكتوبر 1911م إلى نابولي (Napoli).⁽¹⁴⁾

⁽⁹⁾ حبيب وداعة الحسناوي، المنفيون العرب الليبيون إلى إيطاليا خلال المرحلة الاستعمارية الإيطالية في ليبيا دراسة أولية، مجلة الإنصاف، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد الثاني، السنة الثانية، 1989م ص 66. رومان رابينو، المرجع السابق، ص 101، 102.

⁽¹⁰⁾ الوثائق الإيطالية، المجموعة الثامنة، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، إعداد إبراهيم سالم الشريف وآخرون، ترجمة شمس الدين عرابي، خالد زكي، طرابلس، 1991م، الوثيقة 23، 39، ص 87، 103.

⁽¹¹⁾ الوثائق الإيطالية، المجموعة الثامنة، المصدر السابق، الوثيقة 23، 39، ص 87، 103.

Beatrice Zennaro, op, cit, p 39. Stephanie Malia Hom, op, cit, p 101

⁽¹²⁾ Saima Raza, op, cit, p 21.

⁽¹³⁾ أحمد عطية امدلل، التدخل الأجنبي في ليبيا 1881-1915م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ج 3، طرابلس، 2007، ص 821.

⁽¹⁴⁾ مصطفى حامد ارحومة، المقاومة الليبية التركية ضد الغزو الإيطالي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1988م، ص 212.

كان النفي ظاهرة مخزية، تسببت في معاناة إنسانية حقيقية لليبيين الذين أبعادوا عن وطنهم لمجرد دفاعهم عن بلادهم ودينهم. وقد اعتبرت هذه السياسة نوعاً من أنواع الإبادة الجماعية، حيث شملت كافة الأقاليم طرابلس، وبرقة، وفزان، واستهدفت جميع الفئات من شيوخ وأطفال ونساء ورجال.⁽¹⁵⁾ ولم تتوقف عن إرسال الكثير منهم، إذ كانت هناك موجتان من الترحيل إلى أوستيكا. استمرت الأولى، وهي الأقل تنظيماً، من أكتوبر 1911 إلى يونيو 1912م.⁽¹⁶⁾ ومن نفس هذه الفترة رُحل إلى جزيرة بونزا ما يقرب من 450 شخص، اتهموا بمعارضتهم للحكومة الإيطالية، وبالمنحرفين.⁽¹⁷⁾ وكانوا أيضاً يتحجبون بأسباب أخرى أمنية بترحيل النساء، والأطفال الذين أصبحوا مشردين، وبهذا الخصوص فإن إحدى الوثائق تقول إن جيوليتي رئيس الوزراء الإيطالي طلب تأجيل نفي النساء، والأطفال في هذه الفترة بسبب فصل الشتاء، ويرى إن القيام بهذا الإجراء سيكون في أعين الأوروبيون عملاً بربرياً ليليق بمبادئ الحضارة الأوروبية. إلا إن هذا لم يستمر طويلاً، فسرعان مآمر الجنرال كانيفيا بترحيل ما يقرب من 3000 امرأة، وطفل، بحجة لا يوجد من يعينهم، وأنهم خطراً على الأمن، والصحة العامة.⁽¹⁸⁾ وعلى العموم فإن عمليات الترحيل استمرت دون انقطاع، فيرجح أحدهم إن تلك الأعداد، وصلت خلال السنة الأولى من الحرب إلى ما يقرب من 6000 شخص، ويؤكد إن الكثير منهم لم يعد إلى ليبيا، ويُعتقد أنهم قُتلوا.⁽¹⁹⁾

بحلول عام 1912، عاد جميع المرحّلين إلى ليبيا، بفضل عفو عام، توفي منهم في جزيرة أوستيكا ما يقرب 132 شخصاً، نتيجةً لظروف معيشية مزرية. كان أكبر الضحايا سنّاً يبلغ من العمر 70 عاماً، بينما كان أصغرهم يبلغ من العمر 16 عاماً. ومن نفس العام نُقل حوالي 5000 شخص، كانوا ضمن القوات المساندة للجيش الإيطالي إلى صقلية، رفقة عائلاتهم، لتجنب انضمامهم إلى حركة المقاومة. في حين اقترحت لجنة أسرى الحرب، محاكمة جميع الليبيين المتهمين بجرائم مُحَدَّدة، وذلك لإضفاء المزيد من الشرعية على عمليات الترحيل. كما سلّطت اللجنة الضوء على جميع الآثار السلبية

(15) المبروك علي الساعدي، ملاحظات حول ظاهرة النفي، المنفيون الليبيون إلى إيطاليا خلال فترة الاستعمار الإيطالي، المؤتمر الثاني، 4-3 نوفمبر 2001، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2003، ص 52.

(16) Stephanie Malia Hom, op, cit, p 43.

(17) Francesca Falk, Deportations the Spreading of Dissent and the Development of Democracy The Confinement on Ponza and Ventotene during Italian Fascism and its Political Aftermath, journal of migration history, vol 5, Universite de Fribourg, Switzerland, 2019, p

(18) محمد عبدالسلام الجفائري وآخرون، المصدر السابق، ص ص 45، 36.

(19) Saima Raza, op, cit, p 27.

للترحيل، ليس فقط على الأشخاص المنقولين إلى إيطاليا، بل أيضاً على أولئك الذين كانوا في ليبيا. وبسبب نقص السجون في ليبيا، صدر قانون في سنة 1913م ينص على نقل المحكومين بأكثر من 6 أشهر إلى إيطاليا بذريعة انتظار محاكمة جماعية، أو العفو عنهم للمصالحة، أو استخدامهم كأوراق مساومة.⁽²⁰⁾ كما أرسل آخرون خلال هذا العام إلى جزيرة بونزا، بتهمة التجسس، وارتكاب أعمال عدائية،⁽²¹⁾ ولم تقتصر العقوبات على المقاتلين، ففي أعقاب معركة سيدي كريم القرباع، بضواحي مدينة درنة في 16 مايو 1913م، انتقلت القوات الإيطالية باعتقال، وفي 151 شخصاً من كبار السن، والنساء، والعجزة. وفي نفس العام أيضاً، وسعت القوات الإيطالية زحفها، بمهاجمة المناطق الواقعة بين بنغازي ودرنة،⁽²²⁾ ووقع في الأسر الكثير، فقامت المحاكم العسكرية بإصدار أحكاما، كانت تؤدي إلى الترحيل إلى جزر بونزا، وأوستيكا.⁽²³⁾ وقد شملت هذه الأحكام شخصيات بارزة من درنة وبنغازي، واتخاذهم كرهائن للمساومة، وفي الوقت نفسه ضيقت الحكومة الإيطالية على الصحفيين، وقيدت حركتهم، ومارست الرقابة الحازمة حتى لا تكون لهم حرية تقديم وصف دقيق للنزاع، وعلى أن لا يخرج عن الوصف الذي ينشر في النشرات اليومية التي تصدر تحت رقابة الحكومة من طرابلس، ولهذا منعوا من استخدام أي قناة بث غير القنوات الخاضعة لسيطرة القيادة، وفي حالات أخرى كانت الحكومة تغلق مناطق واسعة عن أعين الصحافة، وهذا ما قام به الجنرال بريكولا (Bricola) بإغلاق منطقة برقة بأكملها، أثناء العمليات العسكرية التي كان يقوم بها الجيش الإيطالي.⁽²⁴⁾ إن هذه الإجراءات ضد الصحافة كانت لإخفاء عمليات الإبادة التي كانت تخالف قوانين الحروب، وأيضاً لإخفاء صمود المقاومة، وحقيقة ضعف الجيش الإيطالي، حتى لا يتسبب هذا في إثارة الرأي العام الإيطالي.

⁽²⁰⁾Francescadi Pasquale, The "Other" at Home: Deportation and Transportation of Libyans to Italy During the Colonial Era (1911–1943), Soprintendenza archivistica per la Sicilia, Internationaal Instituut voor Sociale Geschiedenis, Italy, 2018, p 215.

⁽²¹⁾Stephanie Malia Hom, op, cit, p 46.

⁽²²⁾هيئة التحرير ، الفظائع السود الحمر من صفحات الاستعمار الإيطالي في ليبيا أو التمدين بالحديد والنار، منشورات مطبعة الكرنك، ط2، القاهرة، 1948، ص 46.

⁽²³⁾Stephanie Malia Hom, op, cit, p 105.

⁽²⁴⁾Beatricezennaro,op, cit, p 39.

المرحلة الثانية 1914 - 1931

تعتبر فترة الحرب العالمية الأولى المرحلة الأكثر كثافة، وتعقيداً، في تاريخ الترحيل الليبي، فمع اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، بدأت إيطاليا بسحب معظم قواتها من ليبيا للمشاركة في الجبهة الأوروبية، مما أدى إلى ضعف السيطرة الميدانية. وأيضاً إلى دخول الأتراك، والألمان على الخط لدعم المقاومة الليبية، الذي أسهم في انتصار الليبيين في معركة القرضابية سنة 1915م، والتي خسر فيها الإيطاليون عدداً كبيراً من الجنرالات، وكبار الضباط، بالإضافة إلى حوالي ألف جندي بين قتيل، وجريح، وكميات كبيرة من الأسلحة والذخائر.⁽²⁵⁾ كان جيوليتي قد جن جنونه، وطلب معلومات دقيقة حول ما حدث، ولكي يتجنب تشويه سمعة إيطاليا، أمر بعمليات اعتقال واسعة للترحيل، وقد نفذت هذه الاعتقالات بشكل جماعي، ولهذا السبب تم ترحيل الفقراء، والعمال، والفلاحين، والأثرياء، وأصحاب المتاجر بلغ عددهم 2444 شخصاً رحلوا إلى صقلية.⁽²⁶⁾ كما شن العميد إمياني (My love)، بناءً على أوامر حاكم طرابلس تاسوني (Tasoni)، حملات إعدام واسعة طالت النساء، والأطفال، والشيخوخ. وتم ترحيل كل من يُشتبه في تحريضه ضد الإيطاليين، بمن فيهم زعماء القبائل، حيث رحل 778 شخصاً، من بينهم 12 جريحاً، وستة مرضى، هذا عن النساء، على متن السفينة (ري أومبرتو) إلى جزيرة أوستيكا.⁽²⁷⁾ ومن الملفت هنا إن حاكم طرابلس تاسوني، كان يحاول تجميل صورة الترحيل، حيث قام بحذف مصطلحات الترحيل، والحبس، من السجلات الرسمية، واستبدلها بمصطلح الأسرى، زاعماً أن هذا المصطلح لا يثير استياء السكان. والهدف الحقيقي كان استخدام هؤلاء المرحلين كرهائن للضغط على المقاومة، وإطلاق سراح الأسرى الإيطاليين.⁽²⁸⁾

⁽²⁵⁾Saad Bugaighis, **The Italian Invasion of Libya in 1911 and the Nineteen Years of Libyan Resistance**, adissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of, university of Washington, 2011, p 8.

⁽²⁶⁾Silvia Zerboni, **The Italian Migration Policy in Libya**, Master's in Comparative International Relations, Università Ca' Foscari Venezia, 2019, p 17. Anna Maria Di Tolla - Valentina Schiattarella, **Libya between History and Revolution: Resilience, New Opportunities and Challenges for the Berbers**, universita degli studi di Napoli l orientale, Napoli 2020, p 55. Saad Bugaighis, op, cit, p 8. Francescadi Pasquale, op, cit, p 215.

⁽²⁷⁾Massimo Caserta, e Vito Ailara, **I deportati libici: una questione ancora aperta**, Lettera del Centro Studi e Documentazione Isola di Ustica, n. 4, aprile 2000, p 7.

⁽²⁸⁾Francescadi Pasquale, op, cit, pp215, 217, 218. Stephanie Malia Hom, op, cit, p 43.

كما إن مارتيني (Martini) وزير المستعمرات في ليبيا اقترح في عام 1915، نقل 600 لبي من القوات المحلية لأنه كان يخشى تمردهم، أو انضمامهم الى المقاتلين الليبيين، بسبب شعورهم بالذنب لمقاتلة ابناء وطنهم، وأقربائهم، وكذلك عدم ثقة السكان بهم⁽²⁹⁾ للعمل الزراعي في صقلية بمقاطعة باليرمو (Palermo)، لكن وزير الزراعة رأى في هذا تشويها لسمعة إيطاليا دوليا، بظهورها كدولة تمارس تجارة الرقيق، فاتخذ قرار بنقلهم إلى أريتريا للمساهمة في بناء السكك الحديدية، لكن سيرينا فيروني (Serena Ferroni) حاكم أريتريا أكد أن وجود الليبيين في أريتريا سيكون صعبا لمراقبتهم، ناهيك عن تكاليف إنشاء أماكن لاحتجازهم. وقد أدى هذا في النهاية إلى خيار إبقائهم في إيطاليا كحل أسهل للسلطات الاستعمارية.⁽³⁰⁾

مع بداية عام 1916م، رُحِّل 1360 شخصا، إلى جزيرة أوستيكا، كان هؤلاء محتجزين مقابل إطلاق أسرى ايطاليين في قبضة المقاومة، وعلى الأرجح أن هذا هو السبب الذي دفع وزير المستعمرات، بمخاطبة أبرز القادة الليبيين المحتجزين في الجزر الإيطالية، من أجل هذه الصفقة.⁽³¹⁾ وما يؤكد أن هذه المحادثات قد نجحت، هو إعادة المرحلين إلى ليبيا في ديسمبر عام 1916م، إلا أن هذا لايعني بأن عمليات الترحيل قد توقفت، بل أنها تزايدت مع تصاعد المواجهات، حيث استمرت بعد عام 1916م، قضى فيها بعض الليبيين فترات أطول في أوستيكا.⁽³²⁾ وبالمقابل استغلت عمليات الترحيل في استيطان إيطاليين في ليبيا لمشروعات زراعية، ففي البداية كانت هذه الخطوات محدودة نتيجة المقاومة، ولكنها شهدت خلال سنوات 1916-1920م ازدياد أعدادهم، نتيجة المعاهدات التي عقدت بين الحكومة الإيطالية، ومحمد إدريس

⁽²⁹⁾ Alessandro Volterra, the first world war from Tripoli to abada 1911-1924, publisher centre francais des etudes ethiopiennes, place of publication a ddis abeda published on openedition books, 8 octobre 2018, pp 174, 175.

⁽³⁰⁾ Francescadi Pasquale, op, cit, pp215, 217, 218. Stephanie Malia Hom, op, cit, p 43.

⁽³¹⁾ Massimo Caserta, op, cit, p 7. Stephanie Malia Hom, op, cit, p 48.

⁽³²⁾ Galadriel Ravelli, "Gli sfollati libici sull'isola italiana di Ustica, ricordando le espulsioni coloniali nella grande città (marginale)", Memory Studies, Vol. 18, No. 1, University of Bath, 2025, p 3.

السنوسي، ويمكننا ملاحظة أن عدد المهاجرين الذين وصلوا إلى ليبيا خلال الفترة من 1911-1931م قدرت بنحو 651,640 ايطالي.⁽³³⁾

وحين صعد الحزب الفاشستي للسلطة سنة 1922م، تجددت عمليات الترحيل على نطاق واسع، وسُنّت قوانين خاصة تسمح بالترحيل، كإجراء وقائي دون الحاجة إلى محاكمة عادلة، ومن بين جميع الجزر التي استُخدمت للحبس في ظل النظام الفاشي، كانت جزيرة بونزا.⁽³⁴⁾ في حين عُرف السجناء الليبيون، إما باسم دي بورتاتي (المرحّلين)، أو ريليجاتي (المُهمّشين)، مقارنةً بالسجناء المحليين في تلك الجزر.⁽³⁵⁾

كان ينفي كل من يُشتبه في حيازته للسلاح، أو من يحاول الهروب من نظام التجنيد الإجباري، وكذلك عند الهزيمة في كل معركة، ففي معركة بئر بلال في يونيو 1923م، والتي قتل فيها الميجر ميللي (Millie)، ومقتل ما يقرب من 420 جندياً، شنت القيادة الإيطالية حملة اعتقالات واسعة في بنغازي، ودرنة. شملت هذه الحملة أعيان البلاد، ونواباً، وتجاراً، وزعماء قبائل، حيث تم ترحيلهم قسراً.⁽³⁶⁾ وفي عام 1926م، أعاد النظام الفاشي إحياء نظام قديم يُدعى دوميسيليو كواتو (Domesilio Quato) (الإقامة القسرية)، وأطلق عليه تسمية (كونفينو) (Confino) (الحبس). استخدم هذا النظام لعزل المناهضين للفاشية، والمتليين، والغجر، وكل من يُشتبه في معارضته للنظام دون وجود أدلة قضائية كافية للقبض عليه، ولهذا طبق هذا القانون على الليبيين فرحل الآلاف إلى جزيرة أوستيكا، خضع فيها المعتقلون لأحكام تعسفية غير محددة المدة، مما أدى إلى تدهور حاد في صحتهم النفسية والبدنية. إلا أنه في نهاية العشرينات استبدلت عقوبة الترحيل إلى الإعدام، وهذا مايدلل أن الجيش الإيطالي تمكن خلال هذه الفترة من بسط سيطرته على مناطق واسعة من ليبيا، وأصبحت المقاومة محصورة في الجبل الأخضر، وهذا دون

⁽³³⁾ ليلى الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الثالثة، 1992م، ص 289. مصطفى علي هويدي، ظاهرة النفي وأسبابها، مجلة الشهيد، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد العاشر، أكتوبر 1989م، طرابلس، ص ص 80، 79.

⁽³⁴⁾ Francesca Falk, op, cit, p 86.

⁽³⁵⁾ Stephanie Malia Hom, op, cit, p 43.

⁽³⁶⁾ رفعت عبدالعزيز سيد أحمد، محمد إمام الطوير، تاريخ الجهاد في ليبيا ضد الغزو الايطالي 1911-1931م، منشورات مركز الحضارة العربية، القاهرة، 1998، ص 229. وهبي البوري، مجتمع بنغازي في النصف الأول من القرن العشرين، منشورات مجلس الثقافة العامة، 2008، ص 199.

شك قتل من الهزائم، ومن وقوع أسرى، بعكس ماكان في السابق من انتقامات عقب كل هزيمة ، كما أن الإعدامات ستجنب دون شك الخزينة الإيطالية تكلفة النقل والحراسة.⁽³⁷⁾

ومع وصول رودولفو غراتسياني (Rodolfo Graziani) إلى بنغازي، في 27 مارس 1931م، دخل القمع مرحلة أكثر دموية. إذ لخص سياسته في خطابه العامة التي هدد فيها الليبيين بثلاثة خيارات: النفي عبر البواخر، أو المشانق، أو الرصاص، ومن ثم قام في 29 مايو ، بإغلاق الزوايا السنوسية ومصادرة ممتلكاتها، التي قدرت بـ 70 ألف هكتار، ونفى النخبة الدينية، حيث اعتقل غراتسياني 31 شخصا من قادة الزوايا، من بينهم (حسن رضا السنوسي)، ونقلوا جميعا إلى جزيرة أوستيكا.⁽³⁸⁾ وقد مثلت سياسة الأرض المحروقة التي انتهجها الفاشيون الى تراجع عمليات الترحيل، لُستبدل بمعسكرات اعتقال محلية احتجز فيها مايقرب من 120,000 شخص، خلال عامي 1930-1934م، ضمت جميع سكان برقة، من البدو، وشبه الرحل، في عشرين معسكرا، بهدف قطع الدعم عن حركة المقاومة، ومن جراء هذه السياسة توفي مايقرب من 48,000 شخص.⁽³⁹⁾

المبحث الثاني: الظروف الصحية والعامة للمرحلين الليبيين في الجزر الإيطالية.

إن المرحلين الليبيين، - وكما ذكرنا سابقا - نقلوا عبر سفن غير معد لترحيل البشر، فقد حشروا بإعداد كبيرة في اقبية ضيقة، مظلمة، لاتوجد بها تهوية، كان من بينهم الجرحى، وكبار السن، وبسبب هذا الاكتظاظ، توفي عدد منهم بسبب الاختناق، وكلما مر الوقت، وقطعت السفينة

⁽³⁷⁾ هيئة التحرير ، المرجع السابق، ص 199.

⁽³⁸⁾ محمد طيب بن ادريس الأشهب، عمر المختار، طبع على نفقة السيد عبدالله عابد السنوسي، القاهرة، 1957م، ص ص 124،

125.

Costantino Di Sante, Deportation and Concentration Camps in Cyrenaica and Yugoslavia, Vol. 367, No. 252-253, 2008, p550. Francescadi Pasquale, op, cit, p 220.

Saad Bugaighis, op, cit, p 13.

⁽³⁹⁾ Francescadi Pasquale, op, cit, p 219. Saad Bugaighis, op, cit, p 12. Costantino Di Sante, op, cit,

مسافات، يتفقد العسكريون بأمر من الأطباء المساجين، ويقمون برمي الموتى في البحر، كما إنه كانوا يقومون بنفس الإجراء، مع الجرحى الذين يحتاجون إلى فترة طويلة من العلاج.⁽⁴⁰⁾

نفي الليبيون إلى الجزر الإيطالية التي قدرت بحوالي 26 جزيرة، من أبرزها (تريميتي)، و(أوستيكا)، و(بونزا)، لم تكن هذه الجزر صالحة لاستقبالهم، إذ إنها تقتصر إلى أقل الأساسيات الضرورية للحياة، (كالغرف)، و(الأسرة)، و(الغطية)، و(دورات المياه)، ناهيك عن مياه الشرب التي كانت تجلب عن طريق السفن، هذا عن المناخ الذي كان لا يتلاءم مع ما اعتادوا عليه من مناخ حار معتدل، إذ إن الجزر تتصف بشدة البرودة، والرطوبة العالية، والرياح القوية، وجبالها الوعرة المنحدرة اتجاه البحر.⁽⁴¹⁾

ففي جزيرة تريميتي التي وصلها المعتقلون في نهاية أكتوبر 1911م، وهم في حالة سيئة، قامت السلطات بتوزيعهم على إسطبلات، وكهوف مظلمة، كانت جميعها لاتقي البرد القارص، والرطوبة، لاتصلح حتى للإقامة الحيوانات. لقد أثر البرد القارص على صحتهم، فنقلوا إلى غرف كبيرة، تخلو نوافذها من الزجاج، حتى وإن كان هذا ملائم للتهوية، إلا أنه كان ممرا لتيارات باردة تسببت في إصابتهم بأمراض، والتهابات مختلفة، كانت هذه الحجرات تتسع كل منها إلى 180 شخصا، لم تكن مجهزة، وتخلو من أبسط الأشياء الضرورية، مثل: الأغذية، إذ كان فيها السجناء يفترشون أسرهم محشوة بطبقة رقيقة من القش،⁽⁴²⁾ وقد استمر وصول الليبيين إلى هذه الجزيرة بوتيرة متسارعة، فقد استقبلت في وقت قصير 272 شخصا، وضعوا بمجرد وصولهم في كهوف مفتوحة مقابلة للبحر، ويبدو أن هذا اتخذ كأجراء وقائي، لأن هناك من بين المعتقلين مرضى، وكبار في السن.⁽⁴³⁾ وعلى العموم فإن الجزيرة استقبلت حتى تاريخ 9-1-1912م مايقرب من 1367 سجيناً، فهذا العدد يفوق استيعاب الجزيرة، مايعني أن المرحليين بهذا الازدحام ضاقوا ويلات العذاب.⁽⁴⁴⁾ وهذا ماتبين من البرقية التي أرسلت بعد فترة قصيرة، وتحديداً، في 14 فبراير 1912م، إلى المديرية العامة للسجون والإصلاحات، تنص على أن الحالة الصحية للسجناء الليبيين بجزيرة

⁽⁴⁰⁾ محمود الديك، النفي والاعتقال من واقع الوثائق الإيطالية، مجلة البحوث التاريخية، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، السنة 23، العدد الأول، طرابلس، 2001، ص ص 69، 70.

⁽⁴¹⁾ محمد امحمد الطوير، معارك الزاوية بين المجاهدين الليبيين والغزاة الإيطاليين 1911-1931، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، الطبعة الثالثة، طرابلس، 2006م، ص 229. محمود الديك، المرجع السابق، ص 71.

⁽⁴²⁾ Beatricezenaro, op, cit, p 39.

⁽⁴³⁾ محمد عبدالسلام الجفائري، المصدر السابق، ص ص 58، 64.

⁽⁴⁴⁾ الوثائق الإيطالية، المجموعة السابعة، المصدر السابق، الوثيقة 22، ص 70.

تريميتي، في حالة سيئة جدا، ولذا يجب نقل 370 منهم إلى جزيرة سان دومينو، إلا أن الإمكانيات لم تكن كافية لهذه الجزيرة، فاضطروا بشكل مؤقت، بوضعهم في منزلين، وعدد من الإسطبلات، خاصة بمزرعة السجن.⁽⁴⁵⁾ والجدير بالذكر أن العدد الكلي من الليبيين على هذه الجزيرة تناقص إلى 1009 لبيي، من إجمالي العدد المذكور سابقا، وهو 1367 شخصا، ومن الممكن أن يكون هذا العدد تناقص بفعل الأمراض، أو تم نقلهم للجزر الأخرى، والاحتمال الثالث أن يكون تم إعادتهم إلى ليبيا، وبالمثل فإنه وبسبب مثل هذه العوامل المتشابهة في باقي الجزر الأخرى، فلا يمكن معها معرفة العدد الحقيقي الذي نفي فعلا إلى هذه الجزر.⁽⁴⁶⁾

ومن جهة أخرى فإن تلك الأمراض، وخاصة الكوليرا أدت إلى وفاة أعداد كبيرة منهم. ففي جزيرة تريميتي توفي ما يقرب من 198 شخصا في الفترة من أكتوبر 1911م وأوائل يناير 1912م، كما توفي 152 شخصا من أوائل يناير، وحتى 23-2-1912م،⁽⁴⁷⁾ بسبب البرد القارص، والكوليرا، والحمى، وأمراض الجهاز التنفسي، ناهيك عن الضعف العام، بسبب سوء التغذية،⁽⁴⁸⁾ وبالمجمل توفي ثلثا المرحلين، أي 437 من أصل 1366 شخصا.⁽⁴⁹⁾ نتيجة لهذه تخوف سكان الجزيرة، وقدموا احتجاجا يؤيده 25 مواطنا أرسل إلى السيد جوليتي رئيس الوزراء، يرجونه نقل المعتقلين الليبيين إلى مكان آخر، لأنهم تسببوا في نقل الأمراض إليهم، وكذلك أوضحوا له أن جثث المعتقلين التي ترمى في البحر تسببت في تلوث المياه، مما أدى إلى توقعهم عن الصيد، وهو المورد الأساسي الذي يعتمد عليه السكان.⁽⁵⁰⁾

وبالمقابل كانت جزيرة بونزا هي الأخرى إحدى تلك المعتقلات، إذ كانت تضاريسها تخلو من الجبال العالية، فهي عبارة عن صخرة واسعة تعسفها الرياح بشدة خلال فصل الشتاء، في الوقت الذي كان يصعب على السفن الرسو على شاطئها خلال فصل الشتاء، وهذا الأمر زاد من معاناة السجناء بكل تأكيد، بتوقف الإمدادات التي كانت تصل إلي الجزيرة،⁽⁵¹⁾ فهذا المناخ اسهم

⁽⁴⁵⁾ Beatricezenaro, op, cit, p 39.

⁽⁴⁶⁾ المبروك علي الساعدي، المرجع السابق، ص 69.

⁽⁴⁷⁾ حبيب وداعة الحسناوي، المرجع السابق، ص 69.

⁽⁴⁸⁾ الوثائق الإيطالية، المجموعة الثامنة، المصدر السابق، الوثيقة 20، ص 81.

⁽⁴⁹⁾ Francescadi Pasquale, op, cit, p 224. Beatricezenaro, op, cit, p 39

⁽⁵⁰⁾ محمد عبد النبي الدقالي، المنفيون الليبيون إلى أرخبيل جزر تريميتي الإيطالية، مجلة الشهيد، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العددان 16،

⁽⁵¹⁾ الوثائق الإيطالية، المجموعة الثالثة عشر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، إعداد علي عمر الهازل، ترجمة خالد زكي ثابت، طرابلس، 1992م، الوثيقة 24، ص 78.

في منع السجناء من الخروج من حجراتهم لمدة طويلة، وفي الوقت نفسه نواجه صعوبة معرفة العدد الحقيقي للذين سجنوا في هذه الجزيرة بسبب عمليات النقل المتكررة، من الجزر الأخرى، أو إعادة الكثير منهم إلى ليبيا، وعلى العموم فإن الجزيرة استقبلت 348 شخصا في 18-12-1911م، وزاد هذا العدد إلى 450 شخصا خلال فبراير 1912م،⁽⁵²⁾ في حين كانت الظروف التي عاشها الليبيون شبيهة تماما لتلك الظروف التي عاشها إخوانهم على الجزر الأخرى، فعند زيارة روميو نابي (Romeo Nappi) بصفته مفتشا عن الحكومة، خلص تقريره إلى أن هذه الجزيرة غير صالحة للعيش، وأكد على ضرورة نقل السجناء إلى جزيرة أوستكا.⁽⁵³⁾ ومن الملفت هنا أن يقوم الطبيب كويا جنارو (Koya Genaro) المسؤول على السجناء، وهو في الوقت نفسه عميدا للجزيرة بونزا بسرقة التموين والادوية.⁽⁵⁴⁾

وإذ نظرنا إلى المرحلين الليبيين الذين وصلوا إلى جزيرة أوستكا في 29 أكتوبر 1911م، على متن الباخرة رومانيا، والمقدر عددهم بـ 920 شخص، فإنهم لم يختلفوا عن الظروف التي عاشها سجناء تريميتي وبونزا، ونتيجة لأن الجزيرة كانت أكثر الجزر، لاعتقال الليبيين فإن الإيطاليون اضطروا في سنة 1914م، إلى تأسيس سجن آخر على نفس الجزيرة،⁽⁵⁵⁾ حيث ارتفع العدد في أوستكا إلى 1829 شخصا، في حين كان يستقبل على هذه الجزيرة سجناء من الجزر الأخرى مثل: جزيرة بونزا.⁽⁵⁶⁾ فقد وضعوا هم كذلك في سجون مكتظة مغلقة، تسبب فيها الازدحام بانتشار بعض الأوبئة.⁽⁵⁷⁾ كانت الكوليرا أكثر الأمراض فتكا، وهذا مادفع وزارة الصحة في 10-2-1912م إلى إرسال الطبيب بيترو كازولي (Pietro Casoli) الذي وضع تقريراً، أكد فيه أن مايقرب من 97 حالة، أصيبت بالكوليرا، وأن مايزيد عن 90 شخصا توفوا بسبب هذا المرض.⁽⁵⁸⁾

⁽⁵²⁾ الوثائق الإيطالية، المجموعة السابعة، المصدر السابق، الوثيقة رقم 16، 33، ص ص 54، 106.

⁽⁵³⁾ محمد عبدالسلام الجفاني، المصدر السابق، وثيقة 26، ص 137.

⁽⁵⁴⁾ الوثائق الإيطالية، المجموعة الثالثة عشر، المصدر السابق، الوثيقة 21، ص 74.

⁽⁵⁵⁾ رومين راينيرو، المرجع السابق، ص 103.

Francescadi Pasquale, op, cit, p 223.

⁽⁵⁶⁾ الوثائق الإيطالية، المجموعة الرابعة عشر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، إعداد علي عمر الهازل، ، ترجمة خالد زكي ثابت، طرابلس، 1992م، الوثيقة 4، 6، 102، ص ص 45، 60، 317.

⁽⁵⁷⁾ Galadriel Ravelli, op, cit, p 3.

⁽⁵⁸⁾ حبيب وداعة الحسناوي، المرجع السابق، ص 70.

كما ساهمت أمراض أخرى بقتل الكثير منهم، مثل مرض التيفوس، والجذري، والسل، والدوسنتاريا، والزهري، والنزيف الداخلي، والتهاب الشعب الهوائية، والتهاب الكلى، والتهاب السحايا، والالتهاب الرئوي، كما أصيب بعضهم بالجنون، وآخرون بالاكتئاب، وانتشرت بعض الأمراض بين موظفي الحراسة، وأيضاً السكان المحليين. وفي الوقت نفسه لم تكن الجزر الأخرى بأفضل حال، فقد شهدت جزيرة فافينيانا (Faviniana)، خلال شهر مارس 1912م تفشي بعض الأمراض مثل الحلق، والعين، والصدر، إذ كان 150 شخصاً، يترددون على مستشفى الجزيرة بصورة مستمرة.⁽⁵⁹⁾

وفي حالات أخرى يصاب السجين بأكثر من مرض، فمثلاً أحد السجناء واسمه (عبدالله بلاون) من المرحلين من برقة إلى أوستيكا، ظهرت عليه بعض الأعراض، إذ كان يعاني من الحمى، والتهاب الأمعاء المزمن، ومن القي، والتهاب البروستات، وفقدان للبصر، نقل إلى مستشفى باليرمو، وأمضى هناك ستة أشهر، دون أن تتحسن حالته، ثم أصيب بالجنون، فأشاروا أن يرسل إلى ليبيا، وبما أن حالته ازدادت سوءاً، فإنه أدخل مستشفى للأمراض النفسية، ومن ثم تنقل بين عدة مستشفيات أخرى، حتى تحسنت حالته، ومنها أعيد إلى سجنه في أوستيكا.⁽⁶⁰⁾

إن تلك الأمراض تمكنت من أن تنهي حياة 69 شخصاً خلال الفترة من 29 أكتوبر، وحتى ديسمبر 1911م، وظلت تحصد الأرواح بعد هذه الفترة، ليصل العدد إلى 127 شخصاً، من أصل 900 ليبي، أي: ما يُعادل حوالي 17% من الذين نُقلوا في الأصل إلى هذه الجزيرة.⁽⁶¹⁾

كانت الجثث ترمى فالبحر، ولكن حين ارتفع العدد خلال 9 يونيو 1912م إلى وفاة 132 شخصاً، أنشئت لهم مقبرة إسلامية، بنيت خصيصاً لهم، وقام بدفنهم ليبيون على الطريقة الإسلامية، وبحلول عام 1913م، وضعت لوحة على الجدران الداخلية للمقبرة، كُتب عليها عدد المتوفيين، والفترة التي دفنوا فيها، وقد زُيّنت هذه اللوحة بهلال، ونجمة، دلالة للرمزية الإسلامية، ولا تزال هذه المقبرة موجودة إلى اليوم، بجوار المقبرة الكاثوليكية في أوستيكا.⁽⁶²⁾ وخلال الموجة الثانية من عمليات الترحيل خلال سنتي 1915م-1916م دُفن 141 شخصاً بنفس المقبرة.⁽⁶³⁾

⁽⁵⁹⁾Stephanie Malia Hom, **op, cit**, pp 44,45, 49. Francescadi Pasquale, **op, cit**, p 224.

⁽⁶⁰⁾Stephanie Malia Hom, **op, cit**, p 49.

⁽⁶¹⁾Francescadi Pasquale, **op, cit**, p 224. Beatricezennaro, **op, cit**, p 39.

⁽⁶²⁾ محمد عبد النبي الدقالي، المرجع السابق، ص 133.

⁽⁶³⁾Massimo Caserta, **op, cit**, p 10. Stephanie Malia Hom, **op, cit**, p 45. Galadriel Ravelli, **op, cit**, p 6.

ومن الملاحظ هنا أن عمليات الترحيل المتكررة، والاقامة السيئة أدت إلى كثرة الوفيات التي تركت مكانا خاليا لجب آخرين يحلون محلهم.⁽⁶⁴⁾ كما أن التنقلات بين السجون والمستشفيات، ألحقت ضررا بالمعتقلين إذ توفي الكثير منهم، وزج بالباقي في سجون بونزا، وأوستكا المتهالكة لسنوات.⁽⁶⁵⁾

إن الظروف الصعبة داخل تلك السجون المكتظة، تكمن في ضيق المساحة، ونقص الطعام حيث كانت الحصص المقدمة ضئيلة جدا، اقتصرت على حوالي 600 غرام من الخبز صباحا، و130 غراما من الحساء الرديء. المُتَبَل بالملح والزيت عصرا. أمّا المرضى، فقدمت لهم حصص غذائية مختلفة قليلا، تتكون من مرق اللحم، لكن هذا الاختلاف لم يدم طويلا، وسرعان ما عاد المرضى إلى تناول الحصص الغذائية المعتادة. أيضا عانت السجون من درجات الحرارة الباردة. ولم يكن هناك رعاية صحية، ولم تتخذ اجراءات وقائية لعزل المصابين فتسببت هذا في تزايد انتشار الأمراض، ونتيجة لمخاوف الإيطاليين على سكان الجزيرة الأصليين، وعلى السجناء السياسيين المعارضين للحكومة، سمحت برفع جزئي للمساجين بالخروج ساعتين في اليوم، ولكن حين توسع مرض الكوليرا أسرع إلى إقامة مستشفى مؤقت بعيدا عن السجن لعلاج عشرات المرضى، وفيما يبدو خلال هذه الفترة عام 1912م أصبحت الحالة تسوء حتى دفع أحد الأطباء بإغلاق بعض التكنات المستخدمة لليبيين في أوستكا.⁽⁶⁶⁾

وبالمقابل اتخذت عدة تدابير لمنع انتقال العدوى، كان من أبرزها نقل المصابين لشاطئ البحر، وإجبارهم على خلع ملابسهم، والاستحمام بالصابون لفرك أجسادهم، ، دون مراعاة للطقس البارد، وكذلك المياه المجمدة، لم يتمكن السجناء من الدفاع عن أنفسهم من الأمواج المتلاطمة، وحين انتهوا ارتدوا ملابس أخرى جديدة، ولكن نتيجة لما تعرضوا له من هذه المجازفة اصابوا بأمراض أخرى، كالتهاب الشعب الهوائية، والالتهاب رئوي، فزاد من معاناتهم، واكتظ مستوصف الجزيرة المكتظ اصلا. كما اتخذت إجراءات أخرى بحرق الملابس في الساحة المركزية للجزيرة، أمام سكان الجزيرة الذين اذهلوا من المشهد، وكانت الحكومة تقصد من هذا الإجراء العلني، أنها جادة في اتخاذ إجراءات حقيقية لإيقاف الأمراض.⁽⁶⁷⁾

⁽⁶⁴⁾ رومين راينير، المرجع السابق، ص 99.

⁽⁶⁵⁾ Stephanie Malia Hom, op, cit, p 49.

⁽⁶⁶⁾ Stephanie Malia Hom, op, cit, pp 45. Beatricezenaro, op, cit, p 39. Francescadi Pasquale, op, cit, p 22.

⁽⁶⁷⁾ Stephanie Malia Hom, op, cit, pp 45, 46.

وفي سياق المعاناة التي طالت الليبيين في المنفى فإنهم استغلوا كأيدي عاملة، حيث تشير بعض الوثائق إلى أن الإيطاليين استغلوا الليبيين كأيدي عاملة، بمقابل أو من دون مقابل، فتذكر أنهم استغلوا كعمالة رخيصة في ترميم الطرق في جزيرة أوستكا.⁽⁶⁸⁾ وفي مصانع تعليب السردين، كما استغلوا في الزراعة، ويتبين هذا حين أرسل حاكم طرابلس ما يقرب من 600 لبيي، من طرابلس للعمل في أعمال الحصاد. وفي برقية مستعجلة بتاريخ 8 يوليو 1915م تشير إلى موافقة عميد أوستكا على طلب المنفيين في عملية دراسة الحبوب، ويأمل في أن لو نجحوا في مهمتهم، فإنه سيقم المزيد منهم، وهي في سياق أن يتحصل المنفيون على دخل يساعدهم في الحصول على التبغ، والخبز وغيرها من الاحتياجات،⁽⁶⁹⁾ كما أنه في سنة 1916م تم استخدام 100 شخص من المنفيين في أعمال الفلاحة، وقد حققت هذه التجربة نتائج جيدة، وفيما يبدو أن المنفيين كانوا ماهرين في عمليات الزراعة، والحصاد، والدراس، التي كانوا معتادين على ممارستها في ليبيا، وهذا كان أيضا محط إعجاب الإيطاليين الذين استغلوهم كعمالة رخيصة، ولهذا نجدهم في 16- أكتوبر 1917م، يقحمون 1000 سجين، في عمليات الزراعة في أوستكا،⁽⁷⁰⁾ كما أرسل عدد من المنفيين إلى جزيرة فافينايا لحصاد محصول الشعير الذي أصبح ناضجا، ولايحتمل التأجيل.⁽⁷¹⁾ وأيضا استخدم جزء منهم في أعمال إنشاء السكك الحديدية في أريتريا رغم الممانعة التي سبق الحديث عنها،⁽⁷²⁾ وبالمثل تشير وثيقة أخرى إلى أن مايقرب من 4610 من المنفيين، استغلوا كأيدي عاملة في أنشطة مختلفة، في مواقع مثل سابيردارينا، وسيستوسا نجوفاني، وبنياسكو، وميلانو، ودالمي وغيرها.⁽⁷³⁾ في حين تشير وثائق أخرى إلى أن المنفيين احتجوا على المعاملة

(68) الوثائق الإيطالية، المجموعة الرابعة عشر، المصدر السابق، الوثيقة 25، ص 101.

(69) محمد عبدالسلام الجفازي وآخرون، المصدر السابق، وثيقة رقم 30، ص 162. الوثائق الإيطالية، المجموعة الرابعة عشر، المصدر السابق، الوثيقة رقم 12، 103، 104، ص ص 274، 319، 321.

(70) المصدر نفسه، الوثيقة رقم 14، 108، ص ص 317، 331.

(71) محمد عبدالسلام الجفازي وآخرون، المصدر السابق، وثيقة رقم 45، ص 214.

(72) الوثائق الإيطالية، المجموعة الخامسة عشر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، إعداد علي عمر الهازل، ترجمة خالد زكي، طرابلس، 1993م، الوثيقة 8، 9، ص ص 58، 61.

(73) محمد عبدالسلام الجفازي وآخرون، المصدر السابق، وثيقة رقم 73، ص 182.

السيئة، وطالبوا ببعض الحقوق، خصوصا وأنهم استغلوا في أعمال شاقة، وما كان من الحكومة الإيطالية إلا أن قامت بمعاقبتهم، بإرسالهم إلى جزر أخرى تتوفر فيها سجون انفرادية.⁽⁷⁴⁾

أما عن وضع القيادات البارزة من السنوسيين الذين كانوا مسؤولين عن المراكز الدينية في بنغازي، والمناطق المحيطة بها، فكان مختلفاً عن حال هؤلاء، فمثلا حين رُحل السيد حسن الرضى السنوسي، الذي شارك في المفاوضات التي دارت مع الإيطاليين سنة 1929م إلى جزيرة أوستكا،⁽⁷⁵⁾ سمح له بمرافقة زوجته، وابنته، وخادمين، فتلقى منذ وصوله بدل طعام يومي، قدره خمسة ليرات. ناهيك عن أن الحكومة الإيطالية منحتة راتبا شهريا، قدر بـ 4000 ليرة. وهذا مامكن السيد حسن الرضا ومرافقيه، من أن يستأجروا منازل فارهة على أطراف المدينة، كما سمح لهم بحرية التجول، ومخالطة السجناء الإيطاليين، حيث كان هناك مايقرب من 600 سجين إيطالي متهمون بمعارضة الحكومة الفاشية، إذ ارتبطت بينهم صداقة متينة فأصبحوا يقضون أوقاتهم في التنزه سويا، ويستضيفون بعضهم لتناول الشاي، كان من بين هؤلاء الإيطاليين: جوزيبي سكالارينى، (Giuseppe Scalarini) الرسام الكاركاتير، ونيلو روسيلي (Nello Rosselli) الزعيم الاشتراكي، وانطونيو غرامتسي (Antonio Gramsci) الفيلسوف الشيوعي، ومع يونيو 1931م نُقل السيد الرضا إلى جزيرة تريميتي. وفي عام 1934م، رُحل إلى فلورنسا، حيث توفي بعد عامين هناك.⁽⁷⁶⁾

استمرت أوستكا كمقر للاحتجاز بين عامي 1942-1943م، للرجال والنساء، الذين تم اسرهم من البلقان، والذين قدر عددهم بـ 2000 سجين، كانوا متهمين بمعارضة الحكومة الإيطالية، ومع سقوط موسيليني سنة 1943م، احتجز لمدة عشرة أيام في جزيرة بونزا، ومن ثم اتخذت

(74) المصدر نفسه، وثيقة رقم 5، ص ص 42، 44.

(75) Luciano Monzali, Paolo Soave, **Italy and Libya From Colonialism to a Special Relationship (1911–2021)**, Routledge Studies in Modern History, London, 2023, p 103.

(76) Francescadi Pasquale, op, cit, pp 228. 229. Galadriel Ravelli, op, cit, p 4. Stephanie Malia Hom, op, cit, p 48.

الإجراءات بتفكيك مراكز الاعتقال والاحتجاز، ولكن أوستيكا ظلت تستخدم كمقر للإقامة القسرية، تستقبل عصابات المافيا، والمجرمين، والمشردين حتى تم إقفالها سنة 1961م.⁽⁷⁷⁾

الخاتمة

من خلال العرض السابق توصلت الدراسة إلى:

- 1- أن هواجس الهزيمة التي تعرض لها الجيش الإيطالي في معركة عدوة سنة 1896م. كانت سببا في الانتقامات التي كانت تلحق بالأهالي عند انتصار المجاهدين، واضطرتهم لاتخاذ سياسة الترحيل القسري إلى الجزر الإيطالية، حتى يتجنبوا انتقاد الدول الأوروبية.
- 3- اتضح أن عمليات الترحيل تطل البعيدين عن ساحة المعركة من النساء، والشيوخ، والأطفال، حيث كان الترحيل بقصد الإبادة، وهذا لوحظ من عمليات القبض العشوائي، والسرية الكاملة، بعيدة عن الصحافة العالمية، التي جر فيها هؤلاء تحت جناح الظلام مقيدون بسلاسل حول اعناقهم، وفي أقبية السفن المظلمة عديمة التهوية. و نتيجة للاعتقال العشوائي، وسرعة التنفيذ، لم تسجل معلومات شخصية عن المرحلين، ولم تكن هناك تهمة مؤكدة.
- 5- تبين احتجازهم في سجون تقنقر إلى الإقامة الآدمية، تعرضوا فيها إلى الإصابات بأمراض الكوليرا وغيرها، وتوفي من جرائها المئات.
- 6- لوحظ أن جزيرة أوستيكا كانت أكثر الجزر التي رحل لها الليبيون، أو نقلوا لها من الجزر الأخرى.
- 7- استغل الليبيون في أعمال الحصاد، ومصانع تعليب السردين، وإنشاء الطرق، وسكك الحديدية، مقابل أجور زهيدة، وأحيانا أخرى دون مقابل.

⁽⁷⁷⁾Francesca Falk, op, cit, p 86. Galadriel Ravelli, op, cit, p 4. Stephanie Malia Hom, op, cit, p 50.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر.

الوثائق المنشورة.

1- الوثائق الإيطالية، المجموعة السابعة، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، إعداد الفرجاني سالم الشريف، محمد الدقالي ترجمة المهدي التريكي، شمس الدين عرابي بن عمران، طرابلس، 1990م.

2- الوثائق الإيطالية، المجموعة الثامنة، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، إعداد إبراهيم سالم الشريف وآخرون، ترجمة شمس الدين عرابي، خالد زكي، طرابلس، 1991م.

3- الوثائق الإيطالية، المجموعة الثالثة عشر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، إعداد علي عمر الهازل، ترجمة خالد زكي ثابت، طرابلس، 1992م.

4- الوثائق الإيطالية، المجموعة الرابعة عشر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، إعداد علي عمر الهازل، ، ترجمة خالد زكي ثابت، طرابلس، 1992م.

5- الوثائق الإيطالية، المجموعة الخامسة عشر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، إعداد علي عمر الهازل، ترجمة خالد زكي، طرابلس، 1993م.

6- محمد عبدالسلام الجفائري وآخرون، المنفيون الليبيون إلى سجون الجزر الإيطالية، وثائق وأرقام لأسماء وصور، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، الطبعة الثانية، 1991م.

ثانياً: المراجع العربية.

1- أحمد عطية امدل، التدخل الأجنبي في ليبيا 1881-1915م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ج 3، طرابلس، 2007م.

- 2 - رفعت عبدالعزيز سيد أحمد، محمد إمام الطوير، تاريخ الجهاد في ليبيا ضد الغزو الإيطالي 1911-1931م، منشورات مركز الحضارة العربية، القاهرة، 1998م.
- 3- ليلي الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الثالثة، 1992م.
- 4- مصطفى حامد رحومة، الغزو الإيطالي لليبيا وبداية المقاومة الوطنية 191-1912م، بحوث ودراسات في التاريخ الليبي 1911-1943م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، الطبعة الثانية، ليبيا، 1998م.
- 5- ----- ، المقاومة الليبية التركية ضد الغزو الإيطالي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1988م.
- 6- محمد إمام الطوير، معارك الزاوية بين المجاهدين الليبيين والغزاة الإيطاليين 1911-1931م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، الطبعة الثالثة، طرابلس، 2006م.
- 7- محمد طيب بن إدريس الأشهب، عمر المختار، طبع على نفقة سيادة السيد عبدالله عابد السنوسي، القاهرة، 1957م.
- 8- محمد عبدالكريم الوافي، الطريق إلى لوزان، الخفايا الدبلوماسية والعسكرية للغزو الإيطالي لليبيا، منشورات جامعة بنغازي، الطبعة الثانية، ليبيا، 1988م.
- 9- هيئة التحرير ، الفطاع السود الحمر من صفحات الاستعمار الايطالي في ليبيا أو التمدين بالحديد والنار، منشورات مطبعة الكرنك، ط2، القاهرة، 1948م.
- 10- وهبي البوري، مجتمع بنغازي في النصف الأول من القرن العشرين، منشورات مجلس الثقافة العامة، 2008م.

ثالثا: المراجع الأجنبية.

- 1- Alessandro Volterra, **the first world war from Tripoli to abada 1911-1924**, publisher centre francais des etudes ethiopiennes, place of publication a ddis abeda published on openedition books, 8 octobre 2018.
- 2- Anna Maria Di Tolla - Valentina Schiattarella, **Libya between History and Revolution: Resilience, New Opportunities and Challenges for the Berbers**, universita degli studidi Napoli l orientaie, Napoli 2020.
- 3- Beatricezennaro, **Il colonialism Italiano in libia ed etiopia tra mito e realtl**, corso di laurea magistrale in relazioni Internazionali e diplomazia, universita degli studi di padova, 2025.
- 4- Costantino Di Sante, **Deportation and Concentration Camps in Cyrenaica and Yugoslavia**, Vol. 367, No. 252-253, 2008.
- 5- Daniela Rossini, **The National Council of Italian Women, the World War, an the Rise of Fascism, 1911–1922**, Journal of Women's History, Volume 26, Number 3, Fall 2014.
- 6- Francesca Falk, **Deportations the Spreading of Dissent and the Development of Democracy The Confinio on Ponza and Ventotene during Italian Fascism and its Political Aftermath**, journal of migration history, vol 5, Universite de Fribourg, Switzerlan, 2019.
- 7- Francescadi Pasquale, **The “Other” at Home: Deportation and Transportation of Libyans to Italy During the Colonial Era (1911–1943)**, Soprintendenza archivistica per la Sicilia, Internationaal Instituut voor Sociale Geschienis, Italy, 2018.
- 8- Galadriel Ravelli, **"Gli sfollati libici sull'isola italiana di Ustica, ricordando le espulsioni coloniali nella grande città (marginale)"**, Memory Studies, Vol. 18, No. 1, University of Bath, 2025.
- 9- Saad Bugaighis, **The Italian Invasion of Libya in 1911 and the Nineteen Years of Libyan Resistance**, adissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of, university of Washington, 2011.

10- Saima Raza, **Italian Colonisation Libyan Resistance The Alsanusi of Cyrenalca 1911-1922**, a new journal of African studies, vol 9, 2012.

11- Silvia Zerboni, **The Italian Migration Policy in Libya**, Master's in Comparative International Relations, Università Ca' Foscari Venezia, 2019.

12- Stephanie Malia Hom, **historical echoes in Italy's crisis of migration and detention**, Cornell University Press, Ithaca and London, 2019.

13- Massimo Zaccaria, **Wage work and mobility in colonial Eritrea 1880 -1920** Article in International Labor and Working-Class History, University of Pavia, September 2014.

14- Massimo Caserta, e Vito Ailara, **I deportati libici: una questione ancora aperta**, Lettera del Centro Studi e Documentazione Isola di Ustica, n. 4, aprile 2000.

رابعاً: المجالات.

1- حبيب وداعة الحسناوي، **المنفيون العرب الليبيون إلى إيطاليا خلال المرحلة الاستعمارية الإيطالية في ليبيا دراسة أولية**، مجلة الإنصاف، منشورات مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية، العدد الثاني، السنة الثانية، 1989م.

2- رومين راينير، **الجوانب المجهولة من المقاومة الليبية (الليبيون المرحلون إلى إيطاليا)**، مجلة البحوث التاريخية، منشورات مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية، العدد الثاني، طرابلس، يوليو، 1985م.

3- محمود الديك، **النفى والاعتقال من واقع الوثائق الإيطالية**، مجلة البحوث التاريخية، منشورات مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية، السنة 23، العدد الأول، 2001م.

4- مصطفى علي هويدي، **إيطاليا وفكرة احتلال ليبيا**، مجلة كلية الآداب، منشورات دار رؤية للطباعة والدعاية والإعلان، العدد الخامس والعشرون، الجزء الأول، الزاوية، 2018م.

5- مصطفى علي هويدي، **ظاهرة النفى وأسبابها**، مجلة الشهيد، منشورات مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية، العدد العاشر، أكتوبر 1989م.

خامسا: المؤتمرات.

- المبروك علي الساعدي، ملاحظات حول ظاهرة النفي، المنفيون الليبيون إلى إيطاليا خلال فترة الاستعمار الإيطالي، المؤتمر الثاني، 3-4 نوفمبر 2001م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2003م.

سادسا: المواقع الإلكترونية.

-Federica Bertagna, **la guerra di Libia sulla stampa italiana in Argentina Brasile,**

للمزيد انظر الرابط الالكتروني بتاريخ 13-1-2026م/ الساعة 20:47

<https://historiapolitica.com/datos/biblioteca/bertagna3>

بحث بعنوان :

الدولة الليبية والنفط :

بداية التغيير في العهد الملكي

The Libyan State and Oil: The Beginning of Change during the
Monarchical Era

إعداد :

منى عبدالرازق موسى بوبكر

Mona Abdulrazig Musa Bo baker

باحثة بالاكاديمية الليبية للدراسات العليا - طبرق 2025

abdelrazigmona@gmail.com

المدقق اللغوي: محمد صالح بوبركة - جامعة طبرق

المستخلص

يتناول هذا البحث التحول التاريخي الذي شهدته ليبيا خلال العهد الملكي (1951-1969م)، نتيجة لاكتشاف النفط واستغلاله، وتأثير ذلك على بناء الدولة الحديثة، فقد شكّل النفط في أواخر الخمسينيات نقطة فاصلة في تاريخ البلاد، إذ ساهم في انتقال ليبيا من دولة فقيرة تعتمد على المساعدات الدولية إلى دولة ذات موارد مالية ضخمة، ويستعرض البحث الأثر الاقتصادي والسياسي المباشر لعائدات النفط وكيف ساهمت في دعم مؤسسات الدولة وتوسيع سلطاتها، كما يناقش التحديات التي رافقت هذه الطفرة الاقتصادية، مثل ضعف التخطيط التنموي، وتفاوت توزيع الثروة، ويُبرز البحث كيف أن هذه المرحلة مهدت للعديد من التغيرات التي ستشهدتها ليبيا لاحقاً، خاصة في ما يتعلق بتركيبة الحكم والدور المتصاعد للموارد النفطية في رسم السياسات العامة. وقد اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي لسرد الأحداث بتراتبية وتحليلها وربطها بالسياقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أحاطت بها لفهم أعمق لتطور الظاهرة المدروسة.

الكلمات المفتاحية: البنية التحتية، التنمية المستدامة، اتفاقيات الامتياز، التنقيب، العائدات النفطية،

مشروعات تنموية.

Abstract

This research explores the historical transformation experienced by Libya during the monarchical period (1951-1969) as a result of the discovery and exploitation of oil, and its impact on the formation of the modern state. The discovery of oil in the late 1950s marked a turning point in the country's history, enabling Libya to shift from a poor, aid-dependent nation to one with substantial financial resources. The study examines the immediate economic, political, and social effects of oil revenues, highlighting how they contributed to strengthening state institutions and expanding governmental authority. It also discusses the challenges accompanying this economic boom, such as weak development planning and unequal wealth distribution.

The research underscores how this period laid the groundwork for many of the changes that Libya would later undergo, particularly in terms of governance structures and the increasing role of oil in shaping public policy.

The research relied on the historical-analytical method to present the events in chronological order, analyze them, and connect them to the surrounding social, political, and economic contexts, in order to gain a deeper understanding of the development of the studied phenomenon.

Keywords: Infrastructure, Sustainable Development, Concession, Agreements, Exploration, Oil Revenues, Development, Projects.

المقدمة:

شكل اكتشاف النفط في ليبيا خلال أواخر العهد الملكي محطة محورية في تاريخ البلاد، حيث كان لهذا الحدث أثر بالغ في مسار الدولة الليبية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. فقد خرجت ليبيا من حقبة ما بعد الاستعمار، وهي دولة فقيرة تعتمد على اقتصاد محدود والمعونات الأجنبية، إلى مرحلة جديدة امتلكت فيها موارد طبيعية ضخمة غيرت ملامحها بصورة جذرية.

ومع تدفق العائدات النفطية، بدأت الدولة الملكية في تمويل مشروعات تنموية، وتوسيع سلطاتها، وتأسيس مؤسسات إدارية حديثة. إلا أن هذا التحول لم يخل من تحديات، أبرزها كان ضعف الإدارة، وغياب العدالة في توزيع الثروة، والتفاوت الطبقي، وسوء إدارة الموارد.

وتسعى هذه الدراسة إلى تناول مرحلة العهد الملكي باعتبارها البداية الفعلية لعصر النفط في ليبيا، ومحاولة فهم أثر النفط في بنية الدولة والمجتمع، وما إذا كانت تلك التغييرات قد أرسى أسساً لنظام مستقر أم أنها مهدت لتحولات سياسية واجتماعية أعمق في المراحل اللاحقة.

وتكمن أهمية البحث في تسليط الضوء على دور اكتشاف النفط في ليبيا خلال العهد الملكي، بوصفه نقطة انطلاق لتحولات اقتصادية واجتماعية كبرى، أثرت في مسار الدولة الليبية الحديثة داخلياً وخارجياً.

كما يهدف البحث إلى تحليل تأثير اكتشاف النفط على ليبيا وبيان كيف ساهم في إحداث تغييرات على مختلف الأصعدة، فضلاً عن فهم العلاقة الطردية بين الثروة النفطية وبداية تشكيل الدولة الحديثة خلال تلك المرحلة.

ويسعى البحث أيضاً إلى الإجابة عن مجموعة من التساؤلات التي تمثل جوهر إشكاليته: كيف كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في ليبيا قبل اكتشاف النفط خلال العهد الملكي؟ ما السياق التاريخي لاكتشاف النفط في ليبيا، وما الدور الذي لعبته الشركات الأجنبية في تلك المرحلة؟ ما أبرز التحولات التي نتجت عن الطفرة النفطية في تلك الفترة؟ هل ساهم اكتشاف النفط في تعزيز استقلال ليبيا، أم أدى إلى نوع من التبعية الاقتصادية والسياسية للقوى الخارجية؟

كيف ساهمت المتغيرات التي أحدثها النفط خلال العهد الملكي في تمهيد الطريق للتحويلات السياسية اللاحقة ؟ .

و سيحاول البحث الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال المحاور التالية:

1. ليبيا قبل اكتشاف النفط (1951-1959) .

2. اكتشاف النفط : السياق والتطورات .

3. السياسات النفطية و التغيرات الاقتصادية .

أولاً- ليبيا قبل اكتشاف النفط (1951-1959):

شهدت ليبيا عقب الاستقلال عام 1951م أوضاعاً اقتصادية واجتماعية صعبة، إذ كانت من أفقر دول العالم من حيث الدخل القومي ومؤشرات التنمية ، وقد جاء هذا الوضع نتيجة عقود من الاستعمار الإيطالي والحروب العالمية، والتقسيم الإداري بين ثلاث ولايات (برقة، طرابلس، وفزان)، إضافة إلي غياب أي بنية تحتية متقدمة أو موارد اقتصادية كبيرة آنذاك.

شكل هذا الوضع نقطة الانطلاق لفهم عمق التحول الذي أحدثه اكتشاف النفط لاحقاً.

حيث كانت ليبيا أحد تلك الأقطار الأكثر فقراً في العالم من حيث الموارد والدخل بعد خروجها من تحت مظلة حماية الأمم المتحدة في ديسمبر 1951م، ولعل ما أورده بنجامين هينجز الاقتصادي البارز الذي عينته الأمم المتحدة ليضع خطة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية في ليبيا بتقريره (أن ليبيا تجمع في طياتها مظاهر الجهل والفقر)، يمثل الحالة العامة للدولة الليبية حديثة العهد.¹

1-الوضع الاقتصادي بعد الاستقلال:

اعتمدت الدولة الليبية في إعالة سكانها قبل اكتشاف النفط على عدد من الموارد بعضها محلي يعتمد على مواد خام محلية ، والآخر خارجي يتمثل في المساعدات والمعونات الدولية وبصفة عامة يمكن وصف الاقتصاد الليبي في تلك الفترة ، بأنه

¹ -إبراهيم أحمد زرقانه، جغرافية الوطن العربي(المملكة الليبية)، دار النهضة العربية، القاهرة، 1964م، ص 157.

اقتصاد اكتفائي بالدرجة الأولى ولا يصل إلى التصدير لاعتماده بشكل أساسي على مصادر تقليدية بسيطة في حجمها وطريقة إدارتها، فمحور اقتصادها الإنتاج المعاشي Subsistence Econom, بغرض الكفاية الذاتية ، وبعد ظهور البترول أصبح اقتصاداً مزدوجاً Dual Economy على نحو ما يعرف في كثير من دول العالم الثالث.¹

وفيما يخص النشاطات الاقتصادية في ليبيا قبل ظهور النفط كانت على النحو التالي :

- **الزراعة والرعي:** قطاع الزراعة والرعي شكلاً النشاط الرئيسي لمعظم السكان ، و اللذان يتأثرا بشكل مباشر بالظروف الطبيعية العامة للبلاد خاصة في الدواخل والتي يغلب عليها الطابع الصحراوي، مع غياب تام للتقنيات الحديثة ، أن حوالي 85% من الأراضي الليبية صحراء ومعظم السكان تقريباً يعيشون على جزء صغير من المناطق المزروعة 1%-2% بالإضافة إلى أن البلاد كانت لا تزال تعاني من الخراب الذي سببه حرب السنوات الأربع خلال الحرب العالمية الثانية² . إلى جانب مهنة الرعي التي تعد ثاني مهنة رئيسية بالنسبة للسكان ، حيث بلغت جملة الأراضي الرعوية حوالي 11.753.882 هكتاراً منها 8.012.950 هكتاراً في طرابلس، و 3.551.702 هكتاراً في منطقة بنغازي، ومعظم الأراضي الرعوية كانت مملوكة لقبائل البدو، فكل قبيلة الحق في استغلال منطقة معروفة لديهم بحدود طبيعية معروفة، وهناك مناطق حرة حيث يستطيع أي فرد من القبيلة أو من غيرها أن يزرع ويرعى فيها بدون قيود، غير أن ملكية الماء - آبار وعيون وصهاريج - كانت محدودة³ .

- **غياب الصناعة:** غياب شبه تام للصناعة بمفهومها الحديث، فقد وجدت العديد من الحرف اليدوية التقليدية كالصناعات التقليدية المحلية والغزل والنسيج ، وصناعة الجلود والفخار، والتي مثلت ميداناً مهماً من ميادين النشاط الاقتصادي في ليبيا، فالحرف اليدوية التي تمارس في المنازل

¹- جمال حمدان، الجماهيرية العربية الليبية دراسة في الجغرافية السياسية، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة، 1996م، ص212.

² - سالم علي الحجاجي، ليبيا الجديدة دراسة جغرافية، اجتماعية، اقتصادية، سياسية، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، طرابلس، 1989، ص189.

³ - سالم الحجاجي، المرجع السابق، ص205.

تساعد قسماً كبيراً من الأهالي في الحصول على ما يحتاجون إليه من السلع الاستهلاكية والكساء، إلا أنها لا ترقى إلي درجة التصدير خارج البلاد والمساهمة في الميزانية العامة للدولة.¹

ويمكن القول أن الاقتصاد الليبي قبل اكتشاف النفط - إن جاز لنا التعبير - كان اقتصاداً زراعياً بالدرجة الأولى، وأن مستوى رجال الأعمال في ليبيا - في حينها - شأنه شأن العديد من الدول النامية، لم يكن مهياً بما يكفي لتشجيع قيام صناعات كبيرة ومتطورة.

ثم إن الصناعات الحديثة تحتاج إلي قابليات إدارية وتقنية ممتازة يندر وجودها محلياً وقتذاك²

- **ضعف البنية التحتية:** لم تكن هناك شبكات طرق متطورة، ولا مؤسسات تعليمية كافية، أو مستشفيات مجهزة، في حين أن الكهرباء والماء الصالح للشرب لم يكونا متاحين إلا في نطاق محدود داخل المدن.

2- **الوضع الاجتماعي والديمقراطي:** قُدّر عدد سكان ليبيا بنحو 1.1 مليون نسمة عند

الاستقلال، غالبيتهم يعيشون في الأرياف، ويعتمدون على نظم قبلية تقليدية في حياتهم اليومية.

- **التركيب القبلي:** كانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية والسياسية الأهم خاصة في برقة وفزان، وقد حافظت على مكانتها في ظل غياب مؤسسات الدولة القوية، والبداءة والترحل هي النمط السائد في الصحراء والقطاعات شبه الصحراوية وهناك قطاع كبير من أنصاف البدو أو أنصاف الرحل³. "وقد صنف سكان ليبيا إلي: سكان مستقرون وشكلت نسبتهم 78.1%، سكان شبه رحل ويشمل سكان القرى النائية وتبلغ نسبتهم 10.1%، سكان رحل ويشكلون 11.8% من جملة سكان ليبيا"⁴.

- **التعليم:** معدلات الأمية كانت مرتفعة جداً، ولم يكن هناك سوى عدد محدود جداً من المدارس والمعاهد على الأغلب الدينية، معظمها في المدن الكبرى، و نقص حاد في الموارد البشرية المدربة والفنية، إلا أنه كانت هناك عدد من المدارس الأجنبية خاصة بطبقة معينة من السكان والتي لا يرتادها إلا القليل منهم.

¹ - المرجع نفسه، ص 86.

² - عبد الأمير قاسم كبة، المملكة الليبية صناعتها البترولية ونظامها الاقتصادي، المركز العربي للبحوث البترولية، دار الأندلس للطبع والنشر، بغداد، العراق، 1963م، ص 36.

³ - جمال حمدان، مرجع سابق، ص 206.

⁴ - علي المبلودي أعمر، ليبيا تطور المدن والتخطيط الحضري، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 1998، ص 386.

- الحياة السياسية : بعد الاستقلال لم تكن بالحياة الزاهرة سياسياً ، فالخبرة السياسية والإدارية الفنية الليبية كانت محدودة ، والدولة الوليدة كانت محاطة خارجياً وإقليمياً ودولياً بكثير من التيارات السياسية المتضاربة¹، والحياة الحزبية غير مسموح بها، فكل خيوط السياسة في قبضة القصر الملكي، وأصبحت الوزارة هي الأداة المنفذة ومنح الدستور الليبي الذي في وضع قبل الإعلان الرسمي للاستقلال سلطات واسعة للملك²

3- المساعدات الدولية ودور الأمم المتحدة:

تتمثل الموارد الخارجية التي اعتمدت عليها الدولة في المساعدات والمعونات والمنح الاقتصادية المقدمة من الأمم المتحدة والدول الغربية، فبالإضافة إلى الموارد المحلية والتي كانت بالكاد تكفي حاجة السوق المحلي، فكانت ليبيا بحاجة إلى المعونة الخارجية، فلجأت إلى تأجير القواعد العسكرية بموجب المعاهدات الثنائية التي أبرمتها مع كل من المملكة المتحدة في 29 يوليو 1953م، والولايات المتحدة الأمريكية في 9 سبتمبر 1954م.

إلى جانب معاهدات مع كل من فرنسا عام 1955، و إيطاليا عام 1956م، وتلقت مقابل ذلك معونات اقتصادية شكلت الموارد الخارجية للدولة حوالي 58% من جملة الميزانية العامة³، كذلك تلقت الحكومات المتعاقبة المساعدات الفنية من عدد من المنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة كمنظمة الغذاء الدولية، منظمة الصحة العالمية، واليونسكو. فمنذ سنة 1956/1958 كانت المعونة المالية تأتي بمعدل يقرب من 14 مليون جنية في السنة،⁴ ونسبة كبيرة تمثل في الواقع مدفوعات تعاقدية من جانب الحكومتين البريطانية والأمريكية.

ثانياً - اكتشاف النفط : السياق والتطورات.

اكتشاف النفط في العهد الملكي شكل نقطة تحول فارقة في تاريخ البلاد، إذ لم يقتصر أثره على المجال الاقتصادي فحسب، بل أمتد ليشمل البنية الاجتماعية بأبعادها المختلفة، فقد ساهم تدفق

1 - محمد يوسف المقرئ، ليبيا بين الماضي والحاضر صفحات من التاريخ السياسي ، ج1، دولة الاستقلال، المجلد 2 ، الحقبة غير النفطية 1951-1957، مركز الدراسات الليبية، أكسفورد، بريطانيا، 2017م، ص518.

2 - نفسه، ص 285

3 - جمال حمدان، المرجع السابق، ص 87؛ المقرئ، المرجع السابق، ص525.

4 - عبد الأمير قاسم كنة، المرجع السابق، ص57.

الثروة النفطية في تحفيز تطور المدن و تغيير أنماط الحياة التقليدية وظهور طبقات اجتماعية جديدة ، ومع ذلك، لم تكن هذه التحولات خالية من التحديات، إذ واجهت البنية الاجتماعية التقليدية مقاومة جزئية للتغيير. وبذلك يبرز دور النفط كعامل رئيسي في تحديث المجتمع الليبي.

1- التسلسل الزمني للاكتشافات النفطية :

انبثق البترول في ليبيا بعد عشر سنوات من الاستقلال، ولكن معرفة تواجده كانت أسبق في الواقع من الاستقلال، حين ظهر أول دليل على وجود البترول عام 1914م حيث انبعثت الغازات البترولية على عمق 160متراً في بئر يقع في سيدي المصري بطرابلس، ونفس الحدث المماثل في زلطن 1928م، وفي تاجوراء عام 1934م، ثم الملاحه قرب طرابلس عام 1936م، وقد بدأت الشركة الإيطالية العامة للبترول التنقيب في عام 1938م في منطقة جامع الترك ، وقيام الحرب العالمية الثانية توقفت عمليات البحث¹ . و أثناء الحرب العالمية الثانية وبعد انتهاءها مباشرة كان قد أصبح من المعروف لدى الفرنسيين بعد احتلال فزان قادمين من تشاد والكفرة أنها تمتلك احتياطات نفطية واعدة ، ثم توجهت بوصلة البحث إلي حوض سرت والمناطق الساحلية حيث الثروة البترولية الحقيقية Oil Rush² .

أقر البرلمان الليبي قانون المعادن رقم (9) لسنة 1953م، و تم بموجبه منح الشركات النفطية تراخيص للقيام بالاستكشافات الجيولوجية الأولية، ثم صدر أثر ذلك قانون البترول الليبي رقم (25) لسنة 1955م في 21 أبريل 1955م ومن هنا تنافست الشركات النفطية على القدوم لليبيا ومنها على سبيل المثال لا الحصر: خمس شركات أمريكية مثل : شركة تكساكو، وشركة أسو ستاندر أوليل، وشركة موبيل اوبل الأمريكية ، والشركة البريطانية -الهولندية.

كانت ليبيا في بداية استقلالها في حاجة ملحة إلي الموارد المالية فأخذت تشجع الشركات من مختلف الجنسيات على التنقيب في أراضيها وأصبح من اللازم أن تفتح أبوابها للمشاريع الأجنبية ،

¹ - محمد رؤوف مصطفى، تطور انتاج البترول في ليبيا ومستقبله، مجلة دراسات في الاقتصاد والتجارة ، المجلد 2، العدد 1، السنة 1966، كلية الاقتصاد ، جامعة بنغازي، ليبيا، ص5.

² - Dirk Van Uyl , A History of Modern Libya op cit. 2006, p64.

أبرم أول عقدي امتياز للبترول في 1955/11/20 - عهد حكومة بن حليم - مع شركتي أسو الأمريكية و شركة نيلسون بنكرهانت الأمريكية .

إضافة إلى ذلك شجع اكتشاف النفط الجزائري الشركات النفطية على التوجه نحو ليبيا بهدف العثور على النفط في أراضيها، سيما وأن حقل (عجيلة) الجزائري كانت قريبة من الحدود الليبية¹ ، ثم رأت الشركات النفطية ضرورة القيام بعمليات مكثفة لإزالة الألغام وتطهير الأراضي قبل البدء بأية عمليات حفر وتنقيب، فتركزت أعمال الحفر والتنقيب خلال المدة 1955-1961م في المناطق الساحلية والقريبة منها وبتاريخ 29 ابريل 1956 في منطقة جردس العبيد بولاية برقة تم حفر أول بئر من لدن الشركة الليبية-الأمريكية في القسم البترولي الثاني بعقد الامتياز رقم(18) ، لكن النتائج جاءت مخيبة للأمال فقد ثبت أنها غير صالحة.

ثم توالى الاكتشافات ولكنها لا ترتقي إلى المستوى التجاري ومعدل إنتاجها دون المطلوب في ذلك الوقت، وفي 29 ابريل 1959م اكتشفت شركة "اوسيس" حقل الظهرة في القسم البترولي الأول في عقد الامتياز رقم (32)، وكان معدل إنتاجه 1061 ب/ي وبكثافة 41 درجة وعلى عمق 3200 قدم وهو من أهم الحقول النفطية في ليبيا، وبنهاية عام 1959 دخلت ليبيا في إطار الدول المنتجة للنفط بكميات تجارية² .

2- اتفاقيات الامتياز والشركات الأجنبية (نفوذ ومصالح):

"تم منح امتيازات التنقيب عن النفط لعدد من الشركات الأجنبية احد أهم الوسائل التي اتبعتها الحكومات الليبية للتغلب على تردي الأوضاع الاقتصادية بعد الاستقلال، حيث وصفت ليبيا وقتذاك بأنها دولة تبدأ من الصفر، بفقرها الطبيعي ومشاكلها الموروثة والمكتسبة.³

- و يتضح أن هناك العديد من الشركات ذات الجنسيات المختلفة التي كانت تعمل في ليبيا بحثاً عن النفط لكن غالبيتها كانت من الولايات المتحدة الأمريكية - وربما يعود ذلك إلى رغبة واشنطن الشديدة في توسيع أنشطتها الاقتصادية ومن ثم زيادة نفوذها- في ليبيا حيث كان واحداً

¹ - عبدا لمنعم عبدا لوهاب، النفط بين السياسة والاقتصاد تحليل ودراسة جغرافية سياسية، منشورات الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت، 1974، ص 94.

² - شكري غانم، النفط والاقتصاد الليبي 1953-1970، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، 1985، ص 128.

³ - محمد محمد المفتي، زمن المملكة: تطور المجتمع الليبي 1951-1961، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2012م، ص 133

من أهم الأدوات التي استخدمها الاستعمار لتحقيق أهدافه¹، فضلاً عن عدم إغفال أثر التطورات الخارجية ، فمن وجهة نظر الباحثة إن الثورة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي لعبت دوراً مهماً في عزوف الحكومة الليبية (لموقفها الداعم لثورة التحرير الجزائرية) عن تطوير علاقاتها الاقتصادية مع باريس ، إلي جانب العمل على التضييق على الاستثمارات الفرنسية في ليبيا.

- بالإضافة إن هذه الشركات قامت بممارسة العديد من الضغوط على الحكومات الليبية وذلك عبر حكومات دولها، فعلى سبيل المثال ، طالب (جون فوستر دالاس) وزير الخارجية الأمريكي في 24 أكتوبر 1958م، من السفارة الأمريكية بليبيا سرعة التدخل لمعالجة مشكلات كانت تعاني منها شركات البترول الغربية نتيجة لنمو الروح الوطنية بليبيا، - وما يعرف أيضاً بالمد الناصري - أيضاً اعتمدت شركات النفط الأجنبية على سلاح ذو أهمية كبرى ألا هو أن هذه الشركات استوعبت عدداً ليس بالقليل من الليبيين الذين يعملون بها²، وكانت حريصة على خلق طبقة مترفة من الشعب الليبي بفتح المجال أمامها لجمع الأموال بسرعة وبطرق ملتوية عبر إشراكهم في مشاريع وأعمال لا يبذلون فيها الكثير من الجهد، لكن يحققون من خلالها الكثير من الأموال³.

أدركت الحكومة الليبية أنها تسرعت في منح الامتيازات ، ولذا قررت تلافي هذا التسرع في عام 1961م، بإدخال تعديل على قانون البترول الذي نص على أن تدفع شركات النفط العاملة في ليبيا الضريبة على أساس السعر المعلن للنفط ، ومن ثم أدى النجاح الكبير في صناعة النفط في ليبيا إلي حدوث بعض المشكلات بين الحكومة وشركات النفط حول حق حصول الشركات على الواردات دون دفع ضرائب عنها طبقاً للتعديلات التي أجرتها الحكومة الليبية على قانون البترول واللوائح النفطية الأخرى، والتي كانت تصب في مصلحة الحكومة الليبية على حساب مصالح الشركات.⁴

1- محمد كمال أحمد السيد، شركات النفط الأجنبية في ليبيا وإلغاء النظام الاتحادي، مجلة وقائع تاريخية، كلية الآداب، جامعة المنصورة، المجلد، العدد 2، يناير 2023، ص 207 ؛ صلاح العقاد، البترول وأثره في السياسة والمجتمع العربي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1973، ص 86.

2- محمد يوسف المقرئ، المرجع السابق، ص 105-106.

3- محمد بن عبد الله السيف، الطريق صخور النفط ورمال السياسة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت،

4- هند النعيمي، المرجع السابق، ص 93.

3-القوانين النفطية الأولى وبداية الإنتاج:

أن المواصفات النادرة للنفط الليبي من حيث انخفاض محتواه من الكبريت وكثافة نوعيته وخلوه من الشوائب، وقربه من مناطق التصدير وقربه أيضاً الشديد من أكبر المناطق المستوردة للبتترول في أوروبا، وأسواق الاستهلاك وقله تكاليف شحنه جعلته في مكانة عالمية متقدمة¹

لذا توجب من الحكومة الليبية أن تسن التشريعات البترولية والتي تشمل قانون المعادن في 1953م، وقانون البترول رقم (25) لسنة 1955م - سبق التنويه عنه - ، الصادر في 21 أبريل 1955م، والتعديلات اللاحقة التي تهدف إلي تشجيع إنتاجه والمنافسة عن طريق منحه عدداً كبيراً من الامتيازات Concessions لكثير من الشركات ، ويحتوي القانون على 25 مادة ، أكدت مادته الأولى منه على أن جميع النفط الموجود في ليبيا في طبقات الأرض هو ملكاً للدولة الليبية، ومن بين المفارقات أن المبدأ ذاته الذي أقره قانون المعادن السابق الذكر ينص على اعتبار أن ما في باطن الأرض من معادن نفطية وغير نفطية ملك للدولة وليست للأفراد.²

ولتنفيذ القانون صدر مرسوم ملكي بتشكيل لجنة البترول في 21 مايو 1955م، من السيد أنيس القاسم رئيساً، وعضوية كلاً من السيد محمد السيفاط عن ولاية برقة ، والسيد الطاهر البشتي عن ولاية طرابلس، والسيد أبوبكر أحمد عن ولاية فزان، لتتمكن اللجنة المذكورة من تطبيق القانون والأشراف على تنفيذه عقب دخوله حيز التنفيذ³ ، صدر في 30/1/1958م قانون استثمار رؤوس الأموال الأجنبية ، ولاحقاً صدر قانون عوائد البترول رقم (79) لسنة 1958م في 19/7/1958م لتخصيص 70% من العوائد البترولية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، ومن ثم تم إجراء تعديل لقانون النفط (25) 1955 ليكون متفقاً مع المرحلة الجديدة التي كانت تمر بها الصناعة النفطية في ليبيا بموجب مرسوم ملكي صدر في 3 يوليو 1961م، مما حقق فوائد كثيرة للحكومة الليبية.

1 - ياسر وارد د فرحان الحمداني، النظام السياسي في ليبيا 1963-49م، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية - ابن رشد، جامعة العراق، 2014، ص 2

2 - تديم الباجي، سياسة ليبيا البترولية بين الماضي والمستقبل، مجلة البترول العربي ، العدد الثامن، المجلد الأول، 9 سبتمبر 1965م، ص 9 ؛ محمد رؤوف مصطفى، المرجع السابق، ص 16.

3 - مصطفى أحمد بن حليم، صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، دار ريال للنشر، قبرص، 2004م ص 326.

يعتبر عام 1961م، حدثاً تاريخياً في حياة المملكة الليبية، إذ دخلت في ميدان البترول لأول مرة حيث صدرت ما يزيد عن نصف مليون طن، من حقل زلطن، ثم تضاعف الإنتاج في العام التالي خمس عشر مرة فأصبح (9) مليون طن من البترول الخام عام 1962م¹.
أستحدثت وزارة البترول وأسندت إلي السيد فؤاد الكعباري في 1961/5/23 وتواصلت الإنجازات النفطية الاستراتيجية بافتتاح أول ميناء بترولي في منطقة مرسى البريقة 1961/10/25م، وفي فبراير 1962م تم تأسيس الخطوط الجوية الليبية. ثم تم افتتاح الميناء البترولي الثاني ميناء السدرة في 1962/11/24م . وبتاريخ 16 من يوليو 1963م أقر البرلمان الليبي تعديل لقانون النفط للمرة الثانية.

وفي 26 أبريل 1963م، أعلن الملك إلغاء النظام الاتحادي في ليبيا والعمل بنظام الوحدة في عهد وزارة- محي الدين فكيكي 1963-1964م- ، مما أدى هذا الحدث لوجود جهاز دولة موحد يمسك بزمام الأمور²، وقد ألقى ذلك بظلاله على اقتصاد ليبيا و نتيجة لغزارة الإنتاج قامت الحكومة الليبية بتوظيف أرباحها في العمل على تنمية ليبيا على كافة الصعد.

بحلول عام 1965م كانت صناعة النفط في ليبيا قد قطعت أشواطاً بعيدة وحققت إنجازات ضخمة ، وإن احتياطي النفط الليبي يوازي كلا من احتياطيات الكويت والعراق والسعودية وإيران وفنزويلا مجتمعة، وإن دخل النفط سيصل إلي معدل (15) مليوناً من الجنيهات الليبية لليوم الواحد عام 1965م أي ما يعادل ميزانية الحكومة الاتحادية الليبية عام 1957م". وتمتلك ليبيا أكبر مخزون نفطي في أفريقيا، حيث تقدر الاحتياطيات النفطية المؤكدة بنحو 46.6 مليار برميل أي نحو 3.36% من احتياطي العالم، ويمثل نسبة 6.36% مما تنتجه المنظمة المصدرة للبترول- أوبك OPEC - وقتذاك.³

توسعت الاكتشافات النفطية وزادت وتيرة اكتشافاتها وزحفت الآبار والحقول يميناً ويساراً، ثم أخذت باطراد بشدة على الإطلاق تقريباً نحو اليمين نحو برقة، حيث أصبحت معظم وأهم حقول البترول بها بما فيه نواته النووية شرقاً، فحتى عام 1963م، كان حقلان فقط في طرابلس (الظهرة

¹ - محمد رؤوف مصطفى، المرجع السابق، ص 8.

² - Dirk Van Uyl, previous reference, p 65.

³ - محمد عبد الرازق مناع، جذور النضال العربي في ليبيا، دار الفكر، بنغازي، 1972، ص 89 ؛ أنور عمر أبو شينه، ليلى الأبيض، النفط الليبي دراسة جغرافية، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 19، سبتمبر 2019 من ، كلية الآداب، جامعة المرقب، ص 1008.

و المبروك) لا يمثلان أكثر من سبع إنتاج ليبيا مقابل سبع حقول نفطية في برقة فمعظم الكشف الجديدة ظهرت شرقاً بحيث أصبحت برقة من البداية مركز الثقل في ليبيا بترولياً. وتوالى افتتاح الموانئ النفطية من قبل الملك، فتم افتتاح ميناء الحريقة النفطي في 14/2/1967م، وبناء على القانون رقم (13) لسنة 1968م ومواده تم استحداث و إنشاء المؤسسة الليبية العامة للبترول، وتلاها افتتاح ميناء الزويتينة في 26/4/1968م.

ثالثاً- السياسات النفطية والتغيرات الاقتصادية:

في 28 نوفمبر 1959م، أعدت السفارة الأمريكية في ليبيا تقريراً سرّياً يحمل الرقم الإشاري (167) عن حالة الاقتصاد الليبي حتى سبتمبر 1959م جاء فيه: " إن الاقتصاد الليبي، وبفضل العائدات المتوقعة من البترول، يبدو لأول مرة في تاريخ ليبيا أنه قابل للحياة والبقاء.."¹

1- بداية التحول من اقتصاد زراعي إلي اقتصاد ريعي:

أحدث البترول تغييراً جذرياً للمركب الاقتصادي العام للدولة حيث أعاد توزيع القطاعات الأساسية في القوى العاملة، وبالتحديد في القطاع الخدمي، حيث جذبت الأجور العالية والدخول المرتفعة سواء في صناعة البترول أو الوظائف الخدمية التي أتاحها النفط العديد من السكان وتحول قطاع الزراعة والرعي إلى اقتصاد طارد. فقبل اكتشاف النفط كانت نسبة المشتغلين بالزراعة والرعي تمثل 75% على مستوى ليبيا وعند بداية إنتاج النفط كانت نسبة المشتغلين في قطاع الزراعة 63%²، وفي عام 1967م، هبطت وانخفضت إلي 37% فأهملت الزراعة وتناقص الإنتاج وهجرت الواحات وتوسعت الصحراء فيما يعرف بعملية التصحر Desert ification ، أيضاً تغيير عناصر ومكونات الدخل القومي تغييراً كبيراً فمن 15 مليون جنيه إسترليني عام 1950م إلي 56 مليون جنيه ليبي عام 1959م، ثم قفز إلي 633 مليوناً في 1967م، أي أكثر من (11) ضعفاً في 8 سنوات، كذلك ارتفع نصيب الفرد من الدخل القومي من 40 دولاراً في عام 1951م، إلي 116 دولاراً في 1958، ثم إلي 456 دولاراً في 1963م، و 900 دولاراً عام 1966م، وإلي 1062 دولاراً عام 1967م، ليسجل أعلى ارتفاع له 1384 دولاراً عام 1969م³.

1 - محمد يوسف المقرئ، المرجع السابق، ص 597.

2 - إبراهيم زرقا، المرجع السابق، ص 406.

3 - جمال حمدان، المرجع السابق، ص 223. 236.

فيما يخص أهم التأثيرات التي أحدثها ظهور النفط في ليبيا : هو التغيير الكبير في سن الدخول إلى سوق العمل والخروج منه، ففي فترة الستينات من القرن الماضي نجد أن قوة العمل في ليبيا تبدأ في سن مبكرة جداً في ظل غياب شبه كامل للتعليم وتدني مستوى الأوضاع المعيشية، غير أن بداية فترة التصدير شكلت نقطة التغيير في تحسن الأوضاع الاقتصادية إلا أن هذا التغيير لم تظهر آثاره الإيجابية إلا مع نهاية عقد الستينات وبداية عقد السبعينيات... وكانت ليبيا فيما سبق قد طلبت الانضمام إلى منطقة الإسترليني في 1952/1/2م، وفي 1952/3/24م تم إصدار أول عملة ليبية وحدتها الجنيه الليبي ومساوية في قيمتها للجنيه الإسترليني في عهد حكومة محمود المنتصر 1951-1954م (أول حكومة ليبية بعد الاستقلال)، ثم قدمت الحكومة في 1953/8/3م، مشروع خطة خماسية للتنمية في ليبيا للمجلس الاقتصادي للأمم المتحدة ، وتم إنشاء البنك الوطني الليبي والمصرف الزراعي الليبي عام 1955م.

2- أثر العوائد النفطية على بنية الدولة والاقتصاد الوطني:

أصبح النفط عماد الاقتصاد الليبي وبفضله تغيرت إمكانيات البلاد وأصبحت تخرج تدريجياً من دائرة الفقر، نحو دوائر أخرى أكثر قدرة وأكثر قيمة، ويعتمد الاقتصاد الليبي على 95% مما يكسبه من صادرات النفط، رغم أن الرقم يؤكد أن هناك تقصيراً خلال كل السياسات التي تعاقبت على البلاد، فعلى مستوى السكان: أحدث البترول هجرة داخلية واسعة المدى، عميقة الأثر من الداخل إلى الساحل ومن الواحات والصحراء إلى المدن والمقدر أن نحو 40% من الزراع قد هجروا الزراعة إلى المدن، وبالمقابل قفزت نسبة الكثافة السكانية للمدن من : 37% في عام 1960م، إلى 63% عام 1967م. وبدأت طبقة وسطى تتعاظم وتتبلور في المدن الرئيسية، وأصبح الهيكل الطبقي الجديد بارزاً في الحياة الاقتصادية الجديدة، (انفجار معماري من ناحية يتمثل في أحياء العمارات الراقية وضواحي الفيلات ويقابله حزام عريض ومؤسف من العشش الرثة ومستعمرات الأكواخ الصفيح)¹. أيضاً نتيجة للتغيرات الكثيرة والتوسع السكاني والهجرة الداخلية من الريف والبادية إلى المراكز الحضرية أدت إلى توافر الوظائف التي تدر أجراً ثابتاً في كل من طرابلس وبنغازي والحقول النفطية التي اجتذبت العديد من المقيمين في المناطق الزراعية والرعية وبناتقلهم تزايد

¹ - جمال حمدان، المرجع السابق، ص 89 91

سكان مدينة طرابلس من 130 ألف نسمة عام 1951م، إلى 213 ألف نسمة عام 1964م، ومن ثم إلى 400 ألف نسمة عام 1969م.¹

ومن أهم الإنجازات الاقتصادية :

- تسلمت ليبيا أولى الدفعات من عائداتها البترولية والتي بلغ إجماليها خلال السنة المالية 1963/1964 نحو 24 مليون جنيه أو ما يعادل 70 مليون دولار أمريكي تقريباً. فشرعت الحكومة عن طريق البنك الوطني الليبي في شراء كمية من الذهب، بحيث أصبحت العملة الليبية المصدرة مغطاة بالكامل بالذهب بل أصبح ما لدى البنك يغطي ما كان يطبع يومذاك من عملة ورقية، بمعنى أن العملة الليبية مغطاة (125%) من قيمتها بالعملات الصعبة.²

- سجل الميزان التجاري للدولة الليبية لأول مرة في تاريخها فائضاً بلغ نحو 35 مليون جنيه ليبيا أو ما يعادل نحو 98 مليون دولار أمريكي.³

في مطلع عام 1964م، تم إنشاء مؤسسة التنمية الصناعية الليبية بهدف تشجيع الصناعات الصغيرة، و استكمال إنشاء منطقة للتجارة الحرة في ميناء طرابلس وخصّصت للتأجير، وفي 1965/8/4م أعلنت حكومة حسين مازق عن مشروع إدريس للإسكان الحكومي الذي استهدف بناء (100.000 وحدة سكنية، منها (60 ألف وحدة في الدواخل.

3- إشكالية التحديث وضعف البنية المؤسسية في العهد الملكي:

على الرغم من الجهود التي بُذلت في العهد الملكي لإحداث نقلة نوعية في بناء مؤسسات الدولة الليبية وتحديث بنيتها الإدارية والاقتصادية، إلا إن مسار التغيير لم يكن خالياً من الإشكاليات، وهو ما أعاق تطور الحياة السياسية والحزبية بشكل ديمقراطي، إلا أنه كانت هناك بوادر حثيثة لقيام دولة ذات موارد مالية قوية: كمشاريع البنية التحتية من بناء الطرق والموانئ والمطارات، توسعت شبكة الكهرباء والمياه، وفي قطاع التعليم صارت الدولة حثيثة نحو تطبيق مبدأ التعليم

1 - علي عبد اللطيف أحيدة، دولة ما بعد الاستعمار والتحول الاجتماعي في ليبيا، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2012م، ص 14.

2 - يوسف المقرئ، المرجع السابق، ص 157؛ للمزيد من المعلومات يراجع التقرير السري المرسل من السفارة الأمريكية في ليبيا في 1961/2/11م ذو الرقم (343) الموجود بالملف المركزي للخارجية الأمريكية رقم 87300/2-1161 بالمرجع نفسه.

3- المرجع نفسه، ص 217



الإلزامي للمرحلة الابتدائية و توسعت الدولة في بناء المدارس والمعاهد وتأسيس الكليات ككلية الآداب ثم الحقوق والعلوم...الخ، وأرسلت البعثات الدراسية إلي الخارج، وبخصوص قطاع الصحة بناء المستشفيات ودور الرعاية وتحسين مستوى الخدمات الصحية، وتحسنت مستويات المعيشة، وبدأت مظاهر التمدن والتحضر في المدن.

وبهذا شهدت البلاد حراكاً اجتماعياً وسياسياً واسعاً، كظهور قوى جديدة (طلابية، نقابية و عسكرية)، إلا إن عجز الحكومات المتتالية عن أنفاق الأموال (المساعدات) على المشروعات الإنمائية التي كانت البلاد في أمس الحاجة إليه لعدة أسباب نذكر منها غياب الكفاءة الإدارية وضعف التنسيق بين مختلف أجهزة الدولة.¹ وغياب التخطيط الاقتصادي طويل المدى ، وعدم معالجة الفوارق التنموية بين الأقاليم الثلاثة (برقة، طرابلس، وفزان) بصورة فعالة، وانصراف رأس المال عن الاستثمار في الزراعة بحثاً عن فرص الثراء الفاحش و استثمارات ذات عائد سريع مضمون ، وصعود النخب الجديدة المرتبطة بالثروة النفطية والذي نتج عنه تغيير موازين القوى داخل الدولة.

¹ - يوسف المقرئ، المرجع السابق، ص 564.

الخاتمة:

يُعد اكتشاف النفط في ليبيا خلال العهد الملكي نقطة تحول بارزة في تاريخ الدولة الليبية الحديث ، إذ أسهم في انتقال البلاد من حالة الضعف الاقتصادي وقلة الموارد إلى مرحلة جديدة اتسمت بالنمو والتوسع في مختلف المجالات ، وقد انعكست العائدات النفطية فيما بعد على تطوير البنية التحتية وتحسين الخدمات وظهور مظاهر التطور والتحديث العمراني والاجتماعي، كما ساعد النفط على تعزيز مكانة ليبيا الخارجية ، ورغم ما حققه النفط من مكاسب ، فإن الاعتماد عليه أوجد تحديات اقتصادية واجتماعية :

- شكل العهد الملكي(1951-1969)مرحلة تأسيسية في تاريخ الدولة الليبية، حيث تم إعلان الاستقلال 24ديسمبر 1951م وتأسيس نظام ملكي اتحادي بدستور مكتوب.
- ساهمت تلك المرحلة في بناء أولى مؤسسات الدولة الحديثة، بما في ذلك السلطة التشريعية والتنفيذية، إلى جانب تحديد الهوية الوطنية الليبية.
- شهدت البلاد انطلاقة اقتصادية ، خاصة بعد اكتشاف النفط مما ساعد على تمويل مشاريع البنية التحتية والتعليم و الصحة والخدمات العامة، وافتتاح العديد من الموانئ النفطية .
- في تلك الفترة تم بناء قيادات نفطية وطنية ذات كفاءة عالية كانت قادرة على إدارة القطاع النفطي بفاعلية نحو المستقبل. وساهم وجود الشركات الأجنبية في زيادة التأثير الخارجي في الاقتصاد الليبي.
- تم إحداث نقلة نوعية في بناء مؤسسات الدولة وتحديث بنيتها الإدارية والاقتصادية إلا إن سلبيات المرحلة حدّت من فاعلية التغيير بشكل شامل .
- غابت المشاركة السياسية الفاعلة، حيث تم تقييد النشاط الحزبي.
- رغم كل تلك الإيجابيات، فقد ظل النظام مركزيا ، سُجل تفاوت واضح بين الأقاليم الثلاثة.
- يمكن القول إن التغيير في العهد الملكي مثل بداية مهمة لمسار بناء الدولة، لكنه لم يُستكمل برؤية إصلاحية عميقة قادرة على تلبية طموحات المجتمع الليبي.

- التوصيات :
- ضرورة إعادة دراسة تجربة العهد الملكي من منظور تحليلي موضوعي، للاستفادة من الإيجابيات وتفادي السلبيات في بناء الدولة الحديثة.
- الاهتمام بدراسة مرحلة العهد الملكي بوصفها مرحلة مفصلية في تاريخ ليبيا الحديث وتشجيع الباحثين على توثيق التحولات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن اكتشاف النفط
- تعزيز اللامركزية في إدارة شؤون الدولة الليبية، بما يضمن توزيعاً عادلاً للموارد وفرص التنمية بين مختلف المناطق.
- العمل على إعادة بناء مؤسسات الدولة على أسس قانونية ومؤسسية واضحة تضمن الفصل بين السلطات .
- وضع استراتيجية وطنية شاملة لتحقيق العدالة الاجتماعية، تُعالج آثار التهميش وتدعو إلى تكافؤ الفرص بين المواطنين .
- توثيق وتاريخ المرحلة الملكية بشكل علمي ومنهجي، من خلال دعم الدراسات التاريخية والأكاديمية وتوفير المحفوظات الوطنية عن تلك المرحلة. والمحافظة على الأرشيفات والوثائق التاريخية .
- إنشاء مراكز تدريب وطنية متخصصة لتأهيل الكوادر الفنية عملياً وفق المعايير العالمية.
- تعزيز الشراكة مع القطاع الخاص، أيضاً تفعيل التعاون بين الجامعات والشركات النفطية وتطوير مشاريع تخرج مرتبطة بتحديات واقعية في القطاع النفطي، وتشجيع الدراسات والبحوث التطبيقية في تقنيات الاستخراج والطاقة البديلة .

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً- الكتب العربية:

- (1) إبراهيم أحمد زرقانه، جغرافية الوطن العربي (المملكة الليبية)، دار النهضة العربية، القاهرة، 1964
- (2) الطاهر الهادي الجهيمي، أثر البترول على الدخل القومي في ليبيا، مكتبة الخراز، بنغازي، 1969م.
- (3) جمال حمدان، الجماهيرية العربية الليبية- دراسة في الجغرافية السياسية، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة، 1995م.
- (4) سالم علي الحجاجي، ليبيا الجديدة دراسة جغرافية اجتماعية اقتصادية وسياسية، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، طرابلس، 1989م.
- (5) شكري غانم، النفط والاقتصاد الليبي 1953-1970، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1985م.
- (6) صلاح العقاد، البترول وأثره في السياسة والمجتمع العربي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1973م.
- (7) عبد الأمير قاسم كبة، المملكة الليبية صناعتها البترولية ونظامها الاقتصادي، المركز العربي للبحوث البترولية، دار الأندلس للطبع والنشر، بغداد، 1963م.
- (8) عبد المنعم عبد الوهاب، النفط بين السياسة والاقتصاد تحليل ودراسة جغرافية سياسية، منشورات الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت، 1974م.
- (9) علي الميلودي أعمورة، ليبيا تطور المدن والتخطيط الحضري، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 1998م.
- (10) علي عبد اللطيف أحميدة، دولة ما بعد الاستعمار والتحول الاجتماعي في ليبيا، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2012م.

(11) محمد بن عبد الله السيف الطريقي، صخور النفط ورمال السياسة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، 2007م.

(12) محمد عبد الرازق مناع، جذور النضال العربي في ليبيا، مكتبة الفكر، بنغازي، 1972م.

(13) محمد محمد المفتي، زمن المملكة: تطور المجتمع الليبي 1951-1961، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2012م.

(14) محمد يوسف المقرئ، ليبيا بين الماضي والحاضر صفحات من التاريخ السياسي، دولة الاستقلال، المجلد 2، الحقبة غير النفطية، 1951-1957م، مركز الدراسات الليبية، أكسفورد، بريطانيا، 2012م.

(15) مصطفى أحمد بن حليم، صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، دار ريال للنشر، قبرص، 2004.

ثانياً - المجالات العلمية:

(1) أنور عمر أبوشينه، ليلي الأبيض، النفط الليبي دراسة جغرافية، مجلة العلوم الإنسانية، العدد، (19)، كلية الآداب، جامعة المرقب، سبتمبر 2014م.

(2) محمد رؤوف مصطفى، تطور إنتاج البترول في ليبيا ومستقبله، مجلة دراسات في الاقتصاد والتجارة، المجلد الثاني، العدد الأول، كلية الاقتصاد، جامعة بنغازي، 1966م.

(3) محمد كمال أحمد السيد، شركات النفط الأجنبية في ليبيا وإلغاء النظام الاتحادي، مجلة وقائع تاريخية، المجلد الثاني، العدد الثاني، كلية الآداب، جامعة المنصورة، 2023م.

(4) نديم الباجي، سياسة ليبيا البترولية بين الماضي والحاضر، مجلة البترول العربي، المجلد الأول، العدد الثامن، 9 سبتمبر 1965م.

(5) مجلة النفط، المجلد 23، العدد التاسع، لندن، سبتمبر 1956م.

ثالثاً - الرسائل العلمية:

(1) هند عادل إسماعيل النعيمي، سياسة ليبيا النفطية 1955-1974، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، جامعة بغداد، 2015م.

(2) ياسر وارد فرحان الحمداني، النظام السياسي في ليبيا 1949-1963، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة العراق، 2014.

رابعاً - الكتب الأجنبية :

(1) Dirk van uyl , A History of Modern Libya ,Cambridge University Press,2006.

بحث بعنوان :

تاريخ السياسات الاقتصادية في ليبيا من 1979 إلى 2003م

دراسة تحليلية لتاريخ السياسات الاقتصادية وأثرها على التحولات التنموية

The History of Economic Policies in Libya (1979–2003): An Analytical
Study of Their Impact on Development

إعداد :

أ.حسين فرج حسين آدم

باحث في التاريخ الحديث والمعاصر, الأكاديمية الليبية, بنغازي

M.A.Hussien F Hussien Adem

cdoowayltd@yahoo.it

المدقق اللغوي : شاهين عبدالسيد بورواق - التعليم

مستخلص:

يتناول هذا البحث دراسة تاريخية تحليلية للسياسات الاقتصادية في ليبيا خلال الفترة من 1979م إلى 2003م، محددة في إطار تأثير السياسات الاشتراكية والنموذج الريعي النفطي على التنمية ومستوى المعيشة، ويهدف البحث إلى تتبع تطور السياسات الاقتصادية، وتحليل آثارها على النشاط الاقتصادي وتوزيع الموارد، مع إبراز تأثير العوامل الداخلية والخارجية. ويعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي مع الاستعانة بالمنهج الوصفي لعرض السياسات وربطها بسياقها السياسي والاجتماعي، ويظهر البحث أن بدايات الثمانينيات شكلت نقطة تحول اقتصادية، حيث برز التباين بين الأهداف المعلنة والواقع التطبيقي، وظهرت اختلال هيكلي في الاقتصاد نتيجة تراجع دور القطاع الخاص وانكماش القدرة الإنتاجية، وكما يرصد البحث محاولات المراجعة المحدودة للسياسات، ويخلص إلى أن الأزمة الاقتصادية كانت تراكمية، مما يستدعي إصلاحات شاملة لتحقيق تنمية مستدامة وتحسين مستوى المعيشة.

الكلمات المفتاحية : السياسات الاشتراكية , القطاع الخاص , الأزمة الاقتصادية , التنمية

Abstract:

This study provides a historical and analytical examination of Libya's economic policies during the period 1979–2003, focusing on the impact of socialist policies and the oil-dependent rentier economy on development and living standards. The research aims to trace the evolution of economic policies, analyze their effects on economic activity and resource distribution, and highlight the influence of internal and external factors. It employs a historical-analytical approach, supplemented by a descriptive method to present policies within their political and social context. The study shows that the early 1980s marked a pivotal economic turning point, revealing discrepancies between stated objectives and practical implementation, as well as structural imbalances resulting from the decline of the private sector and reduced productive capacity. It also reviews limited policy adjustments and concludes that the economic crisis was cumulative, underscoring the need for comprehensive reforms to achieve sustainable development and improve citizens' living standards

Keywords: Socialist policies, private sector, economic crisis, development

المقدمة :

تُعد دراسة التاريخ الاقتصادي لليبيا خلال الفترة الممتدة من عام 1979م إلى عام 2003م مدخلاً علمياً مهماً لفهم طبيعة التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها المجتمع الليبي في ظل السياسات الاقتصادية التي انتهجها نظام الجماهيرية. وتمثل هذه المرحلة الزمنية نهاية بلورة الأفكار الاقتصادية التي طرحها العقيد معمر القذافي، وبداية تطبيقها الكامل عبر تشريعات وسياسات ملزمة، قد جرى تنفيذها دون إتاحة مجال فعلي للنقاش أو التقييم، الأمر الذي يجعل من هذه الفترة حقلاً مناسباً للدراسة الوصفية والتحليلية ذات البعد التاريخي . وينطلق هذا البحث من خلال تتبع نشأة وتطور السياسات الاقتصادية الليبية خلال فترة الدراسة، ووصف ملامحها وأدواتها وآليات تنفيذها، ثم تحليل آثارها الاقتصادية والتنموية على توزيع الموارد ومستويات المعيشة للسكان، وربطها بالظروف السياسية والاجتماعية الداخلية، وكذلك بالمتغيرات الإقليمية والدولية، ويظهر البحث أن بدايات ثمانينيات القرن العشرين شكّلت نقطة تحول رئيسية في الحياة الاقتصادية الليبية، حيث بدأت النتائج الفعلية للسياسات الاشتراكية في الظهور، وبرز الاختلال بين الأهداف المعلنة والتطبيق العملي، وهو ما انعكس على سمات النشاط الاقتصادي ومستويات المعيشة، وقد واجهت هذه السياسات صعوبات بنيوية ناتجة عن طبيعة الاقتصاد الليبي البسيطة، التي تقوم على هيمنة التركيبة القبلية على المجتمع في البدو وفي الحضر، وهو ما حدّ من فاعلية النموذج الاشتراكي المفروض .

كما ويتناول البحث إخفاقات السياسة الاقتصادية للنظام الليبي، وخصوصاً فشلها في تجنّب الاقتصاد الوطني عن العقوبات الدولية التي فرضتها الولايات المتحدة الأمريكية ثم الدول الغربية لاحقاً، وما ترتب على ذلك من تراجع في القدرة الإنتاجية، وانكماش



اقتصادي، وتزايد الاعتماد على الإيرادات النفطية باعتبارها المصدر الرئيس لتمويل الإنفاق العام ومعالجة اختلال الاقتصاد . ويحلل البحث أيضًا الآثار المترتبة على القضاء شبه الكامل على الرأسمالية المحلية الناشئة نتيجة السياسات الاشتراكية، وما أفرزه ذلك من ضعف مساهمة المجتمع في التنمية الاقتصادية، وتزايد الاعتماد على الدولة في كل مناحي الحياة، وانتشار مظاهر الركود والإفلاس، وبقاء المصارف الليبية في مواجهة تحديات اقتصادية دون بيئة استثمارية حقيقية في المجتمع، كما يرصد البحث التحول التدريجي نحو مراجعة هذه السياسات، ومحاولات الانفتاح الاقتصادي وتشجيع القطاع الخاص، سواء عبر تعديل بعض التشريعات الاشتراكية أو الشراكة مع الدولة، مع تحليل التشوّهات الاقتصادية، مثل الفساد والمحسوبية، وتأثيرها في تعميق هشاشة الاقتصاد الوطني . وفي ضوء ذلك، يسعى هذا البحث إلى تقديم تحليل تاريخي متكامل للسياسات الاقتصادية الليبية خلال الفترة (1979-2003م)، وبيان انعكاساتها على توزيع الموارد بين أفراد المجتمع والتحوّلات التنموية لسكان ليبيا، وصولاً إلى استخلاص نتائج علمية يمكن أن تُسهم في فهم طبيعة الاختلال الهيكلي الذي نشأ خلال هذه المرحلة، وطرح مقترحات وحلول اقتصادية لمعالجة آثارها، وهو ما تمثله خاتمة البحث .

وأهمية البحث تتضح من دراسته لمرحلة مفصلية في التاريخ الاقتصادي الليبي، بما تسهم به في فهم جذور الخلل الاقتصادي وبناء قاعدة معرفية يمكن الاستفادة منها في تقييم التجربة الاقتصادية الليبية وصياغة سياسات مستقبلية أكثر فاعلية.

وتتمثل إشكالية البحث في تحليل طبيعة وفاعلية السياسات الاقتصادية التي انتهجها نظام الجماهيرية في ليبيا خلال الفترة (1979-2003م)، ومدى تأثيرها في تحقيق

التنمية الاقتصادية وتحسين مستويات المعيشة، في ظل تطبيق النموذج الاشتراكي والاعتماد على الاقتصاد الريعي النفطي، والمتغيرات الداخلية والخارجية.

ويهدف البحث إلى تتبع تطور السياسات الاقتصادية الليبية خلال فترة الدراسة، وتحليل آثار السياسات الاشتراكية على النشاط الاقتصادي ومستويات المعيشة، وتوضيح تأثير العوامل الداخلية والخارجية في الأداء الاقتصادي، وإبراز مظاهر الاختلال الهيكلي في الاقتصاد الليبي .

ويعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي، مع الاستعانة بالمنهج الوصفي في عرض وتحليل السياسات الاقتصادية وربطها بسياقها السياسي والاجتماعي

المبحث الأول:

العوامل الداخلية والخارجية المؤثرة على السياسات الاقتصادية :

. العوامل الداخلية وتطبيق النظام الاشتراكي :

كانت ليبيا تتجه قبل تبني الاقتصاد الموجه إلى إصدار تشريعات هدفت إلى تنشيط القطاع الخاص وتشجيع الاستثمارات الوطنية والأجنبية، ومن أبرزها قانون رقم (15) لسنة 1959م بشأن الوكالات التجارية، الذي اشترط سيطرة الملكية الليبية بنسبة لا تقل عن 51% على الأنشطة الاقتصادية (المجمع القانوني الليبي، 1959). كما وأتجهت ليبيا، قبل تبني الاقتصاد الموجه، إلى تشجيع الصناعة والقطاع الخاص عبر تقديم إعفاءات جمركية، من بينها القرار رقم (7) لسنة 1958م الذي منح مصنع بادي لطحن الحبوب وصناعة المكرونة إعفاءً جمركياً على الأدوات المستوردة لمدة خمس سنوات، في إطار دعم النشاط الصناعي الوطني (المجمع القانوني الليبي، 1958). ولكن بعد عام 1969م تركزت السلطة في يد مجلس قيادة الثورة وأصبح الجهة الوحيدة

المخولة باتخاذ القرارات المصيرية في ليبيا، إذ أكد العقيد معمر القذافي امتلاك السلطة المطلقة المستمدة من الثورة، بما يتيح للمجلس التشريع وإصدار القوانين والأوامر الملزمة دون اعتراض، مع القدرة الكاملة على تنفيذها وفرض العقوبات على من يخالفها (القذافي، 1976، ص 368). ثم اتفق أعضاء مجلس قيادة الثورة على حله وإعلان قيام سلطة الشعب عام 1977م، ثم أعلن القذافي في عام 1978م تخليه شكلياً عن ممارسة السلطة باستقالته من أمانة مؤتمر الشعب العام، مكتفياً بمنصب القائد الأعلى للقوات المسلحة، وأصبحت الاشتراكية في ليبيا بوصفها أداة لتحقيق المساواة وضمان مشاركة أبناء الوطن في ثرواته، وأن الثروة الرأسمالية لا تتم إلا على حساب الفئات الفقيرة، وأنها حقوق مسلوقة من الفقراء، وهو ما شكّل الأساس الفكري للتوجهات الاقتصادية اللاحقة (القذافي، 1978، ص 208). وبذلك تبلورت القوى الداخلية المؤثرة في الاقتصاد الليبي من خلال تبني السلطة سياسات وتشريعات اقتصادية جديدة بعد عام 1979م، انعكست على هيكل الاقتصاد الوطني ومستوى معيشة السكان، وأسهمت في إعادة تشكيل علاقات الإنتاج والتوزيع، بما أدى إلى تراجع دور القطاع الخاص وتعظيم دور القطاع العام .

. القوة الخارجية وفرض الحصار والعزلة الدولية على ليبيا :

في إطار تأثيرات القوة الخارجية، شكلت حادثة تفجير طائرة لوكيربي عام 1988م نقطة تحول مفصلية في علاقة ليبيا بالمجتمع الدولي، إذ أسفرت عن مقتل 259 راكباً و 11 من سكان مدينة لوكيربي. وفي عام 1991م وُجّه الاتهام إلى عنصرين من المخابرات الليبية، ما دفع الولايات المتحدة وبريطانيا للمطالبة بتسليمهما، ومع رفض ليبيا، أصدر مجلس الأمن القرار رقم (731) عام 1992م، وتلاه فرض عقوبات دولية بموجب القرار رقم (748) في العام نفسه، لترزح ليبيا تحت حصار سياسي واقتصادي



وعزلة دولية واسعة، وتعززت هذه العزلة بإصدار الولايات المتحدة قانون دامتو، الذي قيد استثمارات الشركات الأجنبية في ليبيا، الأمر الذي انعكس سلباً على قطاعي النفط والغاز، ولاسيما القطاعات الإستراتيجية، واستمر هذا الحصار إلى أن قامت ليبيا في عام 2003م بإعلان مسؤوليتها عن حادثة لوكيربي واستعدادها لدفع التعويضات ما أدى إلى رفع العقوبات الدولية، مع بقاء بعض القيود الأمريكية، كما أعلنت في العام نفسه تخليها طوعاً عن برامج أسلحة الدمار الشامل، في إطار مساعٍ لإعادة الاندماج في النظام الدولي (مسعود، 2010، ص 141).

المبحث الثاني :

السياسات الاقتصادية الداخلية في ظل النظام الاشتراكي عام 1979م-2003م :

في سياق التحولات السياسية والاقتصادية في ليبيا في هذه الفترة التاريخية، نجد قيام السلطة بترسيخ النظام الاشتراكي، الذي طبق منذ أواخر سبعينيات القرن العشرين، وهيمنة الدولة على النشاط الاقتصادي من خلال تشريعات مرتبطة بالملكية العامة وقوانين العمل والضرائب والرواتب، إلى جانب توسيع دور الدولة في إدارة الإنتاج والتوزيع. وأسهمت هذه السياسات في إعادة تشكيل البنية الاقتصادية والاجتماعية في ليبيا، وهو ما انعكس بوضوح في المؤشرات الاقتصادية المرتبطة بمستوى معيشة السكان. غير أن بعد هذه السياسات أخذ السكان في الاعتماد المتزايد على الدولة، إلى جانب ضعف الكفاءة الإنتاجية، مما أدى إلى عجز الدولة عن تلبية الحاجات الأساسية وظهور أزمات في توفير السلع، ولم ينجح دعم الإنتاج المباشر دون تطوير الموارد البشرية أو تنمية السوق المحلي، فضلاً عن استحواذ الدولة على عمليات التسويق، مما أسهم في تعثر القطاعين الزراعي والصناعي عن مواكبة متطلبات



الأسواق المحلية والخارجية، وهذا كشف عن محدودية جدوى هذه السياسات على المدى الطويل .

. تقلص دور القطاع الخاص في الاقتصاد الليبي وتفعيل الاقتصاد الحكومي :

قامت الدولة بالهيمنة على النشاط الاقتصادي، وتقلص دور القطاع الخاص في الاقتصاد الليبي، فأصبح القطاع العام الركيزة الأساسية للتنمية، مع إخضاع القطاع الخاص لتوجيهاته وخطته، وسيطر اعتقاد بأن الاعتماد على القطاع العام يساعد في الإسراع من إنجاز مهام التنمية وفق التخطيط المركزي، غير أن التطبيق العملي كانت تتخلله العديد من المشاكل، حيث تحول اعتباراً من عام 1976م القطاع العام إلى أداة تخدم هيمنة الدولة على مفاصل الاقتصاد والسلطة، وبرزت مظاهر ما عُرف برأسمالية الدولة ورجال الإدارة، مما أفرغ الأهداف التنموية من مضمونها الحقيقي (حمدان، 1976، ص74). وأصبح الإنفاق العام قائماً على قيام الدولة بشراء السلع والخدمات المختلفة وتوزيعها على المجتمع، الأمر الذي جعلها الجهة الوحيدة التي لها الحق في تحديد قيمة السلع والخدمات السوقية داخل الدولة (الشامي، 2014، ص94). وبهذه السياسة الاقتصادية قضت ليبيا بالنظام الاشتراكي على أسس الرأسمالية الناشئة حيث تم إلغاء علاقة رب العمل بالأجير، وإلغاء الإيجار والأجور، لتصبح الدولة الجهة المركزية المسيطرة على كل أشكال الإنتاج والتوزيع للسلع والخدمات في داخل الدولة (القذافي، 1976، ص38). ويعتبر تأميم منبوع بن غشير بموجب القانون رقم 71 لسنة 1970 هو أولى الإجراءات في هذه السياسات في مسيرة تأميم قطاع التصنيع، حيث انتقلت ملكية أحد أهم الموارد الطبيعية الصناعية من شراكة مع أجنبي إلى ملكية

الدولة المباشرة (المجمع القانوني الليبي، 1970). وتحولت ليبيا لاحقاً إلى تأميم شبه كامل للاقتصاد، حيث صدر قرار رقم 735 لسنة 1984م (المجمع القانوني الليبي، 1984). ليكمل المنظومة التشريعية القاضية على النشاط التجاري الخاص، وكان هذا القرار تجسيداً عملياً لفلسفة إلغاء الطبقة الوسطى في ليبيا خلال عقد الثمانينيات، وساهم بشكل حاسم في شل حركة السوق الحرة وتراكم الممتلكات تحت سيطرة الدولة، كما صدر قرار اللجنة الشعبية العامة رقم 219 لسنة 1981م بإنشاء الشركة العامة لصناعة الخبز والحلويات والخبيز، ليكون توتيجاً لسياسة الدولة في السيطرة الكاملة على سلاسل الإنتاج والتوزيع، وكما تم أيضاً تأسيس الشركة العامة للأسواق بقرار رقم 255 لسنة 1986م لتشكيل اللجنة التنفيذية للشركة الوطنية للأسواق، بما يعكس توجه الدولة نحو التنظيم المركزي والتوزيع الاجتماعي للسلع (المجمع القانوني الليبي، 1986). وبالتالي، تم إنشاء الأسواق العامة والجمعيات الاستهلاكية، والقضاء على التجارة الحرة التي تم اعتبارها استغلالية، حيث تم تصنيف مهنة التجارة والمقاولات كمهن غير منتجة تمارس الاستغلال من خلال رفع الأسعار على المستهلك (القذافي، 1978، ص303). وتماشياً مع السياسات الاشتراكية في ليبيا، نص قرار رقم 12 لسنة 1995م على تنظيم توزيع بعض السلع المحلية والمستوردة عبر الشركات العامة التي تم تأسيسها تبعاً، بهدف مكافحة السمسرة والتجارة خارج القنوات الرسمية كالأسواق العامة والجمعيات التعاونية التي صارت هي القنوات المسموح بعملها ومعها الحوانيت العسكرية، مما أنهى التداول التجاري الحر في فترة الثمانينات والتسعينات (المجمع القانوني الليبي، 1995). بدأ التمهيد لذلك بتأسيس نظام جديد لتوزيع السلع عبر الجمعيات التعاونية، وأصدر قانون رقم 60 لسنة

1976م بشأن الجمعيات التعاونية الاستهلاكية، لتعزيز دور الدولة في تنظيم السوق وحماية المستهلك (المجمع القانوني الليبي، 1976). وكان هذا في إطار تطبيق السياسات الاشتراكية في ليبيا، وتم تعديل وتطوير هذا النظام بعدة إجراءات تنظيمية، (القذافي، 1978، ص 303؛ المجمع القانوني الليبي، 1976؛ 1995). ووضعت الأسس القانونية للنظام الاقتصادي الجديد، وتخلل ذلك بعض التشريعات التي تسمح للأفراد بممارسة البيع والشراء حيث تم إصدار قرار رقم 736 لسنة 1984م بشأن بيع المستهلك لمنقولاته المستعملة، كتنويع لسياسة إلغاء التجارة الخاصة والسمسرة، ولكن في أواخر التسعينات بدأت الدولة في تعديل بعض القوانين حيث شرعت في السماح مؤخرًا للقطاع الخاص بممارسة الاستيراد ولكن قيد الاستيراد وربطه بالتصدير بقرار رقم 1207 لسنة 1990م (المجمع القانوني الليبي، 1990). على ألا يُسمح بالاستيراد إلا للشركات التي تصدر منتجات محلية بنظام المقايضة، وهذا التقييد خلق أزمات في توفير السلع وارتفاع الأسعار، وخلق مشكلات تجارية واحتكارية وظهور سوق سوداء في الخفاء

. تدهور الاستثمار الخاص المحلي والأجنبي :

شرعت ليبيا في سياسة تأميم الأنشطة الاقتصادية الأجنبية مع المحلية بعد الثورة، حيث أمتت الوكالات التجارية وشركات التوزيع الأجنبية، بما في ذلك شركات الوقود والتأمين وشركة استكشاف النفط البريطانية، مع حظر تشغيل العمالة الأجنبية وترافق مع ذلك تشجيع الليبيين على العمل لحسابهم الخاص، ودعمهم برفع الحد الأعلى للأجور ومنح أبناء العمال علاوات مماثلة لموظفي الدولة، وقامت ليبيا بتأميم المصارف الأجنبية وشركات التأمين الأجنبية وشركات النفط الأجنبية ومصنع التبغ،



ولكن أدى هذا التأميم إلى تسريح الشركات النفطية الأجنبية لعدد كبير من العمال، مما زاد أعداد الباحثين عن عمل، خصوصاً في القطاعات ذات العوائد المحدودة، وهو وهذا أدى إلى ظهور بطالة مقنعة نتيجة محدودية الفرص وعدم توافقها مع طموحات الباحثين عن عمل .

. سياسات تجميد مرتبات القطاع العام :

ولكي تكلل هدر الموارد المالية العامة وتقليل الأنفاق العام فقد قامت الدولة بتثبيت رواتب القطاع العام عند الحد التي تم وضعه وفق معيشة عام 1981م، مع قيام الدولة بالتوسع في التوظيف الحكومي بعد تقلص نفوذ القطاع الخاص وانعدام سبل النشاط الخاص غير الإنتاجي، وخصصت الميزانية مبلغ اثنين مليار دينار كنفقات عامة للتحويل الاشتراكي عام 1978، ورُصد منها 700 مليون دينار للرواتب والمصروفات الأخرى (القذافي، 1971، ص ص 55-317-232-255). مما يعكس توجهه الدولة إلى التركيز الدولة على توفير فرص العمل فقط ضمن القطاع العام على حساب النشاط الاقتصادي الخاص (القذافي، 1978، ص 133). وظل ثبات رواتب موظفي الدولة السبب الرئيس لتدني مستوى المعيشة، رغم ترافق هذا السبب مع عوامل أخرى، والنتيجة كانت بعد إضعاف سعر صرف الدينار الليبي بنسبة تقارب 130% مع بداية الألفية الثالثة بعد تعديل سعر الصرف مما أدى إلى تراجع قدرة نفقات الأسر بشكل ملحوظ. فقد أظهرت المؤشرات أن نفقات المعيشة، التي تم قياسها أساساً على عام 1999 كمؤشر 100، انخفضت إلى 97 عام 2000 ووصلت إلى 79 عام 2004، ما يعكس تدهور الأوضاع المعيشية نتيجة التضخم وثبات مرتبات القطاع العام وفق قانون 15 لسنة 1981م مع

تغير قيمة الدينار الليبي (المصرف المركزي، 2004). إلى أن ارتفعت تكلفة الخدمات الأساسية للأسرة الليبية عام 2008، حيث بلغ الإنفاق السنوي على الكهرباء 468 دينار (44% من الضروريات الأساسية)، والغاز 32 دينار (3%)، والبنزين 434 دينار (40%)، والصرف الصحي 135 دينار (12%)، بإجمالي 1069 دينار. بالمقابل، حددت الدولة حد الإنفاق الأسري بـ 16830 دينار سنوياً، بافتراض وجود عاملين في كل أسرة بدخل ثابت، وهذا يوضح العجز في النفقات المعيشية للأسر مما يوضح الحاجة الملحة لزيادة دخل الأسرة بنسبة 40% لتغطية النفقات الضرورية دون أعباء إضافية (البحوث الاقتصادية، 2009، ص ص 26-29).

. السياسات الاقتصادية في قطاع الزراعة :

شهدت السياسات التنموية الزراعية في ليبيا سرعة في الإنفاق العام على هذا القطاع، مما أثر على المالية العامة وخلق ائكال متزايد على الدولة. وقد كان قسم كبير من الميزانية التنموية مخصصاً للزراعة، التي عانت من فوضى في التخطيط والتنفيذ بسبب السرعة في التنفيذ والمترافق مع عدم خبرة كبيرة من السكان في مجال الزراعة، وبسبب هذه السرعة في التخطيط فقد تم إصدار توجيهات مركزية بإنتاج محاصيل غير إستراتيجية وفق تعليمات الدولة للمناطق المختلفة، دون مراعاة الاحتياجات الفعلية للسكان والأسواق (القذافي، 1976، ص 259). وعلى الرغم من السرعة والعشوائية في التخطيط الزراعي المترافق مع الاعتماد المتزايد على الدولة، قامت الحكومة بتوزيع المزارع الجاهزة النموذجية، حيث منح المصرف الزراعي قروضاً بقيمة 66 مليون دينار للفلاحين تُسدد بأقساط ميسرة، واستفادت منها 170 ألف أسرة، مع استصلاح 700 ألف هكتار للزراعة وتوزيع خمسة آلاف مزرعة تضمنت 25 ألف مواطن، مما



يعكس محاولة الدولة التوازن بين توجيه الإنتاج الزراعي ودعم السكان مباشرة (القذافي، 1978، ص 337-340). وتم إنفاق حوالي 50 مليار دينار ليبي على المشاريع التنموية خلال الفترة من 1970 إلى 2000، وكان القطاع العام في هذا الإنفاق خلال هذه الفترة التاريخية هو المُحرك الرئيسي للاقتصاد منذ 1977، وعلى الرغم من هذا الإنفاق الضخم، كانت تلك العقود قد شهدت عجزاً واضحاً في تقدم القطاعات الإنتاجية الأساسية، مثل الزراعة وغيرها. فلم تتمكن هذه القطاعات من تحقيق النمو المتناسب مع حجم الأموال الموجهة، مما يشير إلى وجود خلل بالتسرع في التخطيط أو الكفاءة، أو طريقة تخصيص الموارد داخل الإنفاق العام (الغزواني، 2015، ص 14). كما وتعاني التنمية الزراعية في ليبيا الممولة من الدولة من تحديات تتعلق بضعف الرقابة والفساد المالي والإداري، وتم إثارة مخاوف حول وجود تقارير مزورة من جهات الرقابة في متابعة المشاريع الزراعية وتنفيذها، حيث تم تزوير إحصائيات مشاريع تربية الأبقار والأغنام بهدف تغطية الخسائر، كما وتم الإقرار بوجود فساد مالي وإداري، بما في ذلك رشاًوى مقابل منح تراخيص استيراد أو تصدير لتحقيق منافع شخصية (القذافي، 1978م، ص 263)، مما يقوّض جهود التنمية الزراعية ويتم هدر الموارد .

. السياسات الاقتصادية في قطاع الصناعة :

وفي إطار السياسات الاقتصادية لليبيا في قطاع الصناعة، تم تحويل ملكية المصانع إلى الشعب، مع استمرار العمال في العمل داخلها وتقاسم حصتهم من الإنتاج، وإقامة لجان شعبية لإدارتها، وخلال تطبيق سياسة التأمين، تم التعويض عن المؤسسات الخاصة التي سيطرت الدولة عليها، بصورة جزئية بسبب محدودية القدرة المالية للميزانية العامة على تنفيذ هذا التعويض بالكامل. وأما المصانع الصغيرة فقد سمح

لأصحابها بإدارتها بأنفسهم مع أسرهم ومنع توظيف عمال إضافيين من خارج الأسرة، (القذافي، 1978م، ص 299) بينما لم يكن مسموحًا بتعطيل المصانع الكبيرة، إذ تشكلت إدارتها وتشغيلها ضمن إطار المؤسسات الاشتراكية، فيما تم توظيف أصحاب المصانع التي تأممت من قبل أمانة اللجنة الشعبية العامة كمنتجين في إحدى تلك المؤسسات الإنتاجية دون أن يتقلدوا أي مسؤولية إدارية في مؤسساتهم السابقة. غير أن اقتحام المؤسسات الإنتاجية الخاصة والزحف عليها أدى إلى استيلاء بعض المنتجين عليها كما لو كانت غنائم، رغم أن ذلك لم يكن مبررًا، بينما مسؤولية تنظيم تشغيلها تقع على عاتق اللجنة الشعبية المكلفة بذلك، واقتصرت مشاركة العمال على تشكيل لجان عمالية للمنتجين وعقد مؤتمرات عمالية لتحديد حصصهم من الإنتاج فقط (القذافي، 1978، ص ص 67-142-416-417-419). ولكن بدأت مظاهر إخفاق التوجه نحو القطاع العام في إدارة الاقتصاد تتضح مع تحويل المصانع والمؤسسات إلى ملكية عامة، حيث انخفضت كفاءة الأداء وتراجع مستوى الإنتاجية، وفقدت الحوافز على العمل، وانتشرت البيروقراطية والمكتبية، وسيطر الاحتكار وضعف التنافس، كما تعرضت العديد من المشاريع الحكومية للتخريب والإهمال المتعمد، بما في ذلك تكسير المعدات وسوء الإدارة، وساهم تهريب السلع والعملات والذهب خارج البلاد في تفاقم الأزمة (القذافي، 1978، ص 141؛ شررنة والفرجاني، 2006، ص ص 8-23). وأظهرت التجربة الليبية في القطاع العام إخفاقات واضحة من انخفاض الإنتاجية وفقدان الحوافز وانتشار البيروقراطية والاحتكار، ما حال دون تحقيق الأهداف الاقتصادية للتخفيف من هذه الإخفاقات، وشرعت الدولة منذ 1986م في اعتماد الملكية الجماعية الخاصة للأنشطة الاقتصادية عبر طرح أسهم في المصانع العامة ضمن مشروع الاشتراكية الشعبية، مع تساوي الأسهم ومنع ظهور رأسمالية كبيرة وحرمان الملكية الفردية للأرض، وفي هذا الإطار، صدرت عدة قرارات لتنظيم التملك

والاستثمار، منها قرار اللجنة الشعبية رقم 300 لسنة 1993م بتحديد قيمة سهم المنشآت والشركات والوحدات الاقتصادية العامة بـ100 دينار، وقرار رقم 85 لسنة 1994م بشأن حظر استيراد بعض السلع والآلات والمعدات الصناعية، وقرار رقم 273 لسنة 2007م بإنشاء صندوق تصفية الشركات العامة والأجهزة المنحلة، وقرار رقم 89 لسنة 2009م بإنشاء الهيئة العامة للملكية والاستثمار لتشجيع تملك الوحدات الاقتصادية العامة ورعاية الاستثمار الوطني والأجنبي (المجمع القانوني الليبي، 1959؛ مدونة الإجراءات (د.ت)؛ موسوعة التشريعات (د.ت). وتدخلت الدولة أيضاً في القطاعات الإنتاجية من خلال فرض قيود على التجارة الخارجية، حيث صدر قرار رقم 85 لسنة 1994م بشأن حظر استيراد بعض السلع، بما في ذلك الآلات والمعدات الصناعية ومحركات السيارات والإطارات، مما مثل مرحلة التحكم الأمني للدولة في السلع والتجارة مع الخارج (المجمع القانوني الليبي، 1994؛ مدونة الإجراءات (د.ت).

. السياسات الاقتصادية في قطاع الخدمات :

كانت هناك نظرة سلبية من الدولة الليبية تجاه قطاع الخدمات، إذ جرى اعتباره قطاعاً غير منتج من منظور الفكر الثوري، وقد انحصر المفهوم الحرفي للإنتاج في مجالي الزراعة والصناعة، بينما جرى تصنيف العديد من الأنشطة الخدمية بوصفها غير منتجة، مثل أعمال التنظيف، وإعداد القهوة، والعمل في المخازن ومحال البيع والشراء، والعاملين في المقاهي الخاصة، والحلاقة، إضافة إلى العاملين في تشغيل ماكينات طحن الحبوب. في المقابل، تم اعتبار بعض الأنشطة الأخرى، كأعمال الإصلاح في الورش وقطاع البناء والتشييد، ضمن الأنشطة الإنتاجية. وقد انعكست هذه النظرة للإنتاج على أوضاع العاملين في قطاع الخدمات، بالرغم من دوره الحيوي في تلبية احتياجات السكان اليومية وتحريك النشاط الاقتصادي العام (القذافي، 1978،



ص165). والجدير بالذكر أن المجتمع الليبي شهد تحولات سريعة في بنيته السكانية والمعيشية، إذ انتقل خلال فترة وجيزة من نمط البداوة إلى الاستقرار الحضري، بالرغم من بساطة البنية البدوية، بحكم عدم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي، ومع نشوء التجمعات الحضرية في مرحلة متأخرة، بدأت ملامح الرأسمالية الناشئة في الظهور في سياق الدولة الحديثة عقب الاستقلال، من خلال استغلال الفرص والتفاعل مع مؤسسات الحكم. غير أن ثورة عام 1969 واجهت هذه الفئة سياسات مناهضة للبرجوازية والرأسمالية وعاملتها معاملة البرجوازية الإقطاعية في سائر العالم، وأجبرت الرأسمالية الناشئة تحت الرعاية الحكومية السابقة، وأجبرتها على سداد القروض والالتزامات المالية السابقة، مما أدى إلى حالات إفلاس واسعة، وكشفت هذه الإجراءات هشاشة الرأسمالية، لاعتمادها الكبير على القروض المصرفية والدعم الحكومي، سواء عبر تخصيص الأراضي أو الاستفادة من الإنفاق العام، وبعد إجراءات التأميم تبين عجز الحسابات المصرفية للرأسماليين عن تغطية التزاماتهم المالية، في حين غادر بعضهم البلاد تاركين ديونهم دون تسوية (القذافي، 1978، ص292). ومن محاربة قطاع الخدمات في ليبيا فقد تم إلغاء التجارة والقطاع الخاص الخدمي بجميع أنواعه والتركيز على الإنتاج (القذافي، 1976، ص253). وشملت هذه السياسات الاستيلاء على المصانع والمتاجر الخدمية، كمتاجر الملابس والأحذية والأثاث والصيدليات ومحال المواد الغذائية، وبذلك استكملت الدولة سيطرتها على مراكز توزيع السلع، بهدف تولي عملية تسويق وبيع المنتجات بشكل مباشر (القذافي، 1978، ص421-423). كما تم فرض سياسات نقشفية في إطار التوجه الاشتراكي، وتمثلت في الاستغناء عن العديد من السلع غير الأساسية، والتقليل من معايير الجودة في السلع الأساسية، وشمل ذلك تقليص الواردات الخارجية وحصرها في حدود ضيقة تكتفي بتلبية الحاجات الضرورية فقط، مع الاعتماد على سلع منخفضة التكلفة

مستوردة من الدول الاشتراكية، إلى جانب التركيز على تطوير صناعة الملابس المحلية (القذافي، 1984، ص 293). وعلى الرغم من تأميم النشاط الخدمي، أخفقت الدولة في إدارة التجارة بالأسواق العامة بكفاءة، إذ انتشرت مظاهر الفساد والسرقات، مما انعكس سلباً على الأوضاع المعيشية للسكان، وبرزت ممارسات احتكارية تمثلت في قيام بعض مديري الأسواق بتخزين السلع وإدعاء عدم توفرها في الأسواق العامة المملوكة للدولة، وهو ما كان يستوجب فرض العقوبات، (القذافي، 1978، ص 143).

. سياسات التنمية البشرية في الصحة والتعليم :

لم يقتصر التأثير على القطاعات الاقتصادية، بل امتد إلى القطاعات الحيوية، وعلى رأسها القطاع الصحي، حيث بدأت مظاهر الفساد والمحسوبية في الظهور، وخصوصاً في ملفات العلاج بالخارج. وقد سعت الدولة إلى مواجهة هذه الممارسات من خلال إخضاعها لمحاكم خاصة وإحالتها إلى ما هو معروف حينها بمحكمة الشعب (القذافي، 1978، ص 143). وتأثرت أوضاع الصحة في ليبيا بمستويات النمو الاقتصادي للسكان، إذ لم تشهد البنية التحتية للرعاية الطبية تحسناً ملحوظاً، حيث بلغ عدد الأسرة 3.6 سرير لكل ألف نسمة حتى عام 2003م. في المقابل، سجلت الكوادر الطبية تطوراً واضحاً، إذ تحسنت نسبة الأطباء من طبيب واحد لكل 2507 نسمة عام 1970م إلى طبيب واحد لكل 733 نسمة عام 2003م، بما يعكس توسعاً في الموارد البشرية الصحية دون دعم كفاية في التجهيزات الصحية والمستشفيات (العامة للتخطيط، 2004، ص 2). وأيضاً في أهداف تنمية الموارد البشرية في التعليم، اتجهت ليبيا إلى تعزيز التعليم باللغة العربية، والحد من انتشار اللغة الإنجليزية انسجاماً مع التوجه القومي للدولة، وقد أتضح ذلك في إلغاء تدريس اللغة الإنجليزية في المرحلة الابتدائية، إلى جانب إيقاف عمل المدارس الأجنبية داخل ليبيا (القذافي، 1971،

ص269) وكان لهذا القرار تأثير بعيد على الدولة في السنوات التالية شملت جيل كامل أهمل اللغة الانجليزية.

. السياسات اتجاه البنية التحتية والإسكان :

وفي إطار تأثير السياسات الاشتراكية المتعلقة بالإسكان في ليبيا، صدر تشريع يقضي بمنع تأجير المساكن، وإقرار مبدأ البيت لساكنه، بحيث آلت ملكية الوحدات السكنية إلى شاغليها الفعليين، مع إعطاء أولوية السكن لأفراد أسرة المالك متى استوفوا الشروط، وتخصيص باقي المساكن لقاطنيها، انطلاقاً من اعتبار الإيجار شكلاً من أشكال الاستغلال (القذافي، 1978، ص 70-300). كما اتسمت السياسة الليبية بتركيز ثابت على تلبية الحاجات الأساسية وفق معطيات السياسة الإسكانية العامة، ولكن لوحظ في هذا الإطار اعتبارات الحد من التوسع في مشاريع الإسكان رغم النمو السكاني، في سياق السعي إلى مكافحة التضخم وتجنب الأعباء المالية المتجددة المترتبة من القروض الإسكانية، وما يلزمها من التزامات تتعلق بتوفير البنية التحتية للمدن الجديدة، ونتيجة لذلك، كانت سياسة منح القروض الإسكانية عبر المصارف التجارية الحكومية بقيم مالية سنوية ثابتة بغض النظر عن نمو السكان، وهذا أنتج أزمة في السكن، إذ بلغت قيمة القروض العقارية 1.125 مليار دينار عام 1990م، و1.340 مليار دينار عام 1995م، ثم 1.460 مليار دينار عام 2000م، و1.424 مليار دينار عام 2004م، واتسمت سياسة ليبيا في قطاع الإسكان بالثبات النسبي دون زيادة، مع التركيز على تلبية الحاجات الأساسية دون التوسع المفرط رغم النمو السكاني، وذلك في إطار مكافحة التضخم وتجنب الأعباء المالية المتجددة المترتبة على القروض الإسكانية.

وقد سجلت القروض الممنوحة من المصارف الحكومية شبه استقرار بين 1990 و2004م، كما كانت نفقات الدولة على برامج التحول في الإسكان وتنمية المناطق مع تعديل سعر الدينار، في تراجع ملحوظ عام 2003م، ما انعكس سلباً على أوضاع السكان المعيشية، بسبب محدودة قدرة الميزانية العامة على مواكبة التوسع العمراني وزيادة عدد السكان، ولهذا اضطرت الدولة إلى إيقاف برامج الإسكان العام، مما أسهم في تفاقم الصعوبات المعيشية للسكان (المصرف المركزي، 2004).

. تأثير تقلبات إيرادات النفط على السكان :

مكنت البنية التحتية النفطية من تصدير حوالي 1.8 مليون برميل يومياً، مع إمكانية رفع القدرة الإنتاجية إلى 10 ملايين برميل يومياً عند توفر البنية التحتية المناسبة في السنوات اللاحقة لبدء تصدير النفط، وأتاحت شبكة خطوط الأنابيب البحرية التي تم ربطها لاحقاً بالأسواق الأوروبية بسهولة بالغاز، غير أن ليبيا قبل ذلك بكثير غيرت إستراتيجيتها بعد عام 1970م لتتوافق مع السياسات الاشتراكية، مع تطوير البنية التحتية للنفط حسب الاحتياجات الضرورية فقط للدولة، حيث بلغت الاستثمارات الإجمالية الليبية في النفط نحو 5.7 مليار دينار بين 1970 و2003م، وقامت الدولة بقرار حكومي من مجلس قيادة الثورة بتخفيض الإنتاج متعمداً من 3.3 مليون برميل يومياً في 1970م إلى 1.42 مليون برميل يومياً في 2003، كإستراتيجية للحفاظ على الثروة النفطية وضمان الاستدامة المالية (الغزواني، 2015، ص25؛ العماري، د.ت)، ص36؛ العامة للتخطيط، 2004، ص38). واستفادت ليبيا في البداية من احتياطاتها النفطية الكبيرة التي تُقدّر بحوالي 65 مليار برميل، حيث مكنت هذه الثروة الدولة من زيادة الإنتاج لتعويض العجز المالي وتسريع التنمية، مما انعكس إيجابياً على الإيرادات

المالية ومستوى المعيشة خصوصا مع ارتفاع أسعار النفط عالمياً منذ عام 1969م. ولكن لمعرفة التأثير الحقيقي المفترض لأسعار النفط على الأوضاع الاقتصادية فمن المهم توضيح أن أسعار النفط الدولية تؤثر بشكل مباشر على تكاليف الإنتاج والنقل عالمياً، وهو ما ينعكس بالانخفاض بدوره على أسعار السلع والخدمات محلياً ودولياً؛ فارتفاع أسعار النفط يؤدي إلى زيادة تكاليف الطاقة والنقل، مما يرفع أسعار العديد من السلع، والعكس صحيح عند انخفاضها، ولهذا ليس من المبرر رمي كل التأثيرات الاقتصادية على انخفاض أسعار النفط العالمية، خصوصاً بعد تحول ليبيا إلى السياسات الاشتراكية بعد عام 1970م، حيث عمدت الدولة إلى تخفيض الإنتاج النفطي عن قصد، وقامت بتحديد البنية التحتية للنفط بما يتوافق مع ميزانية الدولة المخطط لها، حسب القرار السياسي الليبي، على الرغم من الإمكانيات التي كانت تسمح بتصدير كميات أكبر في الأسواق الدولية والوصول بسهولة إلى الأسواق الأوروبية، وظهر أثر هذه السياسة التقشفية في فترة الثمانينات والتسعينات وتقليص الإنفاق العام، فكانت ليبيا في أوائل العقد الأول من الألفية الثالثة تشهد زيادة سريعة في الأصول النقدية العامة، حيث تضاعفت الأصول المحلية من 5.4 مليار دينار عام 2001م إلى 11.5 مليار دينار عام 2004م، وارتفعت الاحتياطيات الأجنبية لدى المصرف المركزي من 1.5 مليار دولار عام 1995م إلى 26.7 مليار دولار عام 2004م، ولكن دون أن يقابل ذلك توسع في الإنفاق العام ليتناسب مع وفرة الموارد المالية الضخمة، ولم تصاحبها تشريعات كافية لاستثمار الإيرادات في البنية التحتية، وظل القطاع الخاص محدود النشاط بسبب السياسات الاشتراكية السابقة بينما شهدت أسعار السلع تذبذباً ملحوظاً، فبلغ التضخم 1.3% عام 2004م، وارتفع إلى 2.7% عام 2005م، وانخفض إلى 1.5% عام 2006م قبل أن يرتفع إلى 6.3% (التممية الاقتصادية في ليبيا، 2003م، ص 10) وبلغ ذروته 10.4%، ما انعكس على القدرة



الشرائية للمواطنين، وبذلك أثرت هذه السياسات بشكل مباشر على المجتمع الليبي، حيث تجاوزت نسبة محدودي الدخل 70% من السكان، مؤشرة إلى هشاشة الأوضاع الاقتصادية رغم وفرة الموارد المالية للدولة (المصرف المركزي - مصلحة الإحصاء والتعداد، 2004؛ ص 170).

المبحث الثالث:

الأوضاع في ظل السياسات الاقتصادية الاشتراكية :

. مظاهر السياسات الاقتصادية الاشتراكية :

قامت الدولة بتبني النهج الاشتراكي وترسيخ مفهوم السلطة الشعبية، وإعلان الثورة الشعبية سنة 1973م من خلال خطاب زوارة، الأمر الذي رافقه تطبيق سياسة جمهرة الإدارة وإخضاعها لتغييرات متواصلة وفق تصور سلطة الشعب، وقد أسهم ذلك في إضعاف التنظيم الإداري للدولة وغياب الانسجام التشريعي، حيث تداخلت الاختصاصات بين الأجهزة الحكومية، وتعددت الإدارات التي تؤدي الإجراءات والخدمات ذاتها دون مرجعية تنظيمية موحدة، كما أدى تمسك كل إدارة بصلاحياتها إلى التوسع غير المبرر في طلب المستندات بوصفه أداة لفرض النفوذ الإداري، مما ترتب عليه ارتفاع تكاليف المعاملات من حيث الزمن والمال والجهد على المواطنين والإدارة على حد سواء، وأسهم في إعاقة نمو اقتصاد حر ومؤثر، فضلاً عن تعزيز مظاهر الفساد الإداري (أبوزقية، 2022، ص 14؛ القذافي، 1976، ص 223). وتم اتهام قطاع الخدمات والتجارة بالاستغلال بالرغم من دورها الحيوي في اعتبارها قناة يتنفس معها القطاع الإنتاجي فقد تم تسميتها بالسمسرة (القذافي، 1978، ص 264). وسعت ليبيا في ظل تبنيها للنظام الاشتراكي، إلى تسريع التحول الاقتصادي عبر ما أطلق

عليه باختصار الزمن الثوري، القائم على تجاوز المراحل التقليدية للتنمية وقطع مسافات التخلف في فترة زمنية وجيزة، وقد تم تصوير الثورة بوصفها عملية استيعاب سريع للتجارب السابقة والبناء عليها لتحقيق التقدم، وهذا السياسات المتسارعة انعكست على سياسات الإصلاح الزراعي التي ركزت على التنفيذ السريع على حساب التخطيط المتدرج، وفي هذا الإطار فقد شرعت الدولة يعد ذلك بتبرير الأخطاء والأضرار الناتجة عن التعجيل باعتبارها ثمنًا حتميًا للتقدم، كما تم التغاضي عن الالتزام بالنظم الإدارية والمالية وإضعاف الدور الرقابي للأجهزة المختصة، بما في ذلك ديوان المحاسبة، الأمر الذي أفرز خلل مؤسسي رافق تجربة التحول الاشتراكي (القذافي، 1971، ص 327-328). كما ورافق تنفيذ السياسات التنموية قيام الدولة بفرض سياسة تقشفية تمثلت في تقليص بنود الإنفاق العام وتخفيض إنتاج وتصدير النفط، وتبنت السلطة خطابًا أيديولوجيًا يدعو إلى تحويل الطاقات الاستهلاكية إلى قوى إنتاجية، باعتبار ذلك أحد مرتكزات التوجه الاقتصادي في تلك المرحلة، مما أثر هذا التقشف على جعل الاقتصاد غير قادر على استيعاب الأنفاق، الذي بلغ نحو عشرين مليار دولار خلال سبع سنوات من عام 1975 إلى 1981م، الذي خلق ضغوط متزايدة على الميزانية العامة، لاسيما في ظل اعتماد الدولة شبه الكلي على الإيرادات النفطية، وعلى الرغم من تخصيص أغلب هذه المبالغ لقطاعات الزراعة والصناعة والتعليم والصحة والمواصلات والإسكان والطاقة والمياه، إلى جانب رصد سبعة مليارات دينار للخطة الخمسية اللاحقة وتوسيع مظلة الضمان الاجتماعي، فإن تسارع الإنفاق دون تنويع لمصادر الدخل أدى إلى تزايد الأعباء المالية على الخزنة العامة، وكبح قدرة الميزانية العامة على الاستدامة لمواجهة التقلبات الاقتصادية (القذافي، 1976، ص 2-187-192-194). وأدى الخلل في السياسة الاشتراكية إلى تراجع الثقة بين العاملين في قطاع الخدمات التي يحتاج إليها المجتمع والدولة، وهو ما انعكس سلبيًا على الأداء

الاقتصادي، وقد تبين ذلك في لجوء بعض الأفراد إلى تهريب العملة الصعبة أو اكتناز الذهب، فضلاً عن إخفاء السلع والمساهمة في إهمال المنشآت الإنتاجية، مما أسهم في تعميق مظاهر الاختلال الاقتصادي وإضعاف كفاءة النشاط الخدمي والإنتاجي (القذافي، 1978، ص 263). وعلى الرغم من التركيبة الشبابية للمجتمع الليبي، لم تنجح خطط التنمية الخمس المتعاقبة (1963-1968م، 1973-1975م، 1976-1981م، 1981-1985م، 2001-2005م) في إيجاد بدائل حقيقية للنفط لتمويل الاقتصاد والميزانية العامة، فقد تجاوز حجم الإنفاق خلال الفترة 1973-1993م أكثر من 100 مليار دولار، وفي ظل قوة سعر صرف مرتفعة للدولار وانخفاض السلع الأجنبية بسبب تدني أسعار النفط لفترات طويلة، فإن هذا الإنفاق رغم الظروف المواتية لذلك لم ينعكس على تحسن ملموس في مؤشرات الناتج المحلي الإجمالي، ورغم توجيه أغلب هذا الإنفاق إلى قطاعات الزراعة والصناعة، فقد ظل الاقتصاد الليبي قائماً على الاستيراد، وفشلت سياسات التوجه نحو الإنتاج والتصدير في إحداث تحول هيكلي مؤثر، بل تحولت العديد من المشروعات إلى عبء على الميزانية العامة، في حين لم تتجاوز مساهمة القطاعات غير النفطية في الناتج القومي الإجمالي نحو 16% بحلول عام 2001م، (مسعود، 2010، ص 96). وواجهت الخزينة العامة ضغوطاً مالية نتيجة الإنفاق المباشر وسياسات الدعم، حيث أدى اعتماد الدولة على النفط كمصدر وحيد للإيرادات إلى عجز متكرر لدى المصرف المركزي، مما أثر على استقرار النقود وسعر صرف الدينار وعزز الانكماش الاقتصادي، وزاد ذلك مع ارتفاع الإنفاق على الدعم، إذ ارتفعت مخصصات السلع التموينية من 140 مليون دينار عام 2001م إلى 807 ملايين عام 2006م، فيما بلغ إجمالي دعم الدولة 1.37 مليار دينار عام 2001م و9.1 مليار دينار عام 2006م، دون أن تواكب هذه الإنفاقات نمواً حقيقياً في الاستثمار أو الإيرادات المستدامة، رغم النمو الكبير في موارد الدولة على مدى

العقود، وبقيت مؤشرات التحسن المعيشي للسكان محدودة، إذ انخفض مؤشر الاستهلاك الإجمالي من 67% من الناتج المحلي عام 2001م إلى 36% عام 2006م، وبينما ارتفعت مساهمة النفط والغاز في الناتج المحلي من 27% إلى 71%، نتيجة زيادة الأسعار العالمية للصادرات، بينما ظل الإنفاق الرأسمالي شبه ثابت، من 6.2 مليار دينار عام 2001م إلى 15 مليار دينار عام 2006م، مع تركيزه على الكهرباء والمياه والاتصالات والأنشطة النفطية. وتعكس هذه المؤشرات في أن الوفرة المالية الناتجة عن الصادرات وسياسات التقشف لم تنعكس على الاستهلاك النهائي للسكان أو تحسين مستوى المعيشة (المصرف المركزي، أعداد 2003؛ 2004؛ 2005؛ 2006؛ اللجنة العامة للتخطيط، 2006، ص ص 8-54). ونظرًا للتوسع النقدي وتقليص الإنفاق على رواتب ومعاشات القطاع العام من عام 1981 إلى 2003م، فقد شهدت ليبيا ارتفاعًا في الأسعار ونقصًا في السيولة، بينما بقيت مرتبات الموظفين ثابتة، مما أدى إلى انكماش اقتصادي هدفه ترشيد الاستهلاك وزيادة الاحتياطات النقدية للدولة، ولجأت الدولة لأول مرة عام 1982م إلى نظام الدعم للتخفيف من أثر التضخم، مخصصًا للسلع الأساسية مثل السكر والزيت والدقيق والمكرونة، مع تثبيت أسعار منتجات إستراتيجية كالوقود والكهرباء وحديد البناء، فيما تتحمل الخزنة الفارق بين التكلفة والقوة الشرائية للأسر، إضافة إلى تقديم دعم كامل للصحة والتعليم (العامة للتخطيط، 2004، ص 57). وتعكس البيانات المالية تقلص أوضاع المعيشة للسكان على مر العقود، مع أخذ في الحسبان التغير في قوة الدينار حيث أنخفض الدينار مقابل الدولار من 3 دولار للدينار إلى 70 سنت للدينار، وهذا ينعكس على قياس تقلص الأوضاع المعيشية بالدينار الليبي بين سنوات هذه الفترة، وكان متوسط دخل الفرد بالأسعار الجارية قياسًا بالناتج المحلي الإجمالي قد بلغ 107 دینارات عام 1962م، و304 دینارات عام 1965م، ثم 656 دینارًا عام 1970م،

و1369 ديناراً عام 1975م، و3251 ديناراً عام 1980م، قبل أن يتراجع إلى 2169 ديناراً عام 1985م و1822 ديناراً عام 1990م، ثم ارتفع مجدداً إلى 2224 ديناراً عام 1995م و3246 ديناراً عام 2000م، مما يعكس تقلبات الدخل الفرد على خلال مراحل النمو الاقتصادي والسياسات المختلفة (التخطيط العام، 2000، ص49).

. أساليب مواجهة ليبيا للأزمة الاقتصادية :

في أعقاب التضخم النقدي الناجم عن خلل هيكلي بين الإنفاق العام والإيرادات، اتجهت الدولة لمعالجة ذلك عبر سياسات انكماشية تضمنت تقليل السيولة، ومن تلك التوجهات قيام المصارف بفرض ادخار إجباري على الأفراد ، مع تشجيع الصادرات وتقليص المشاريع التنموية والوظائف العامة، في الوقت الذي أدت فيه هذه السياسات إلى خلل اقتصادي، تمثل في هشاشة النشاط الإنتاجي واستمرار الاعتماد شبه الكلي على تصدير النفط عبر دعم من الخزنة العامة، بالرغم من تراكم الاحتياطات النقدية، فبينما ارتفعت الصادرات الكلية من 3 مليارات دولار عام 1995 إلى 31 ملياراً عام 2005، ظلت الصادرات غير النفطية دون 8%، كتعبير عن فشل الدولة في تحقيق نمو حقيقي في القطاعات الغير نفطية، الناتج عن انخفاض الدخل الحقيقي للمواطن بسبب ضعف الدينار وتدهور القوة الشرائية للعملة المحلية، مما عمق مظاهر الفقر وأعاق تحقيق تنمية اقتصادية مستقرة (القذافي، 1984، ص325؛ الغزواني، 2015، ص103). كما واتخذت ليبيا إجراءات تدريجية لتحويل سياساتها الاقتصادية من النظام الاشتراكي الصارم نحو السماح بالملكية الخاصة وتشجيع النشاط الاقتصادي الفردي، فقد أتاح قرار رقم 427 لسنة 1989م الأساس القانوني للملكية الجماعية للوحدات الاقتصادية، مما سمح بتمليك الوحدات العامة وخصخصتها لصالح شركات جماعية خاصة، مع إمكانية تشغيل العمالة بأجر. وتبع ذلك قرار رقم 340 لسنة 1991م الذي



نظم توظيف العاملين في الأنشطة الاقتصادية الفردية والتشاريكات، بدل اعتبارهم شركاء بلا أجر. كما أصدر قرار رقم 393 لسنة 1993م اللائحة التنفيذية للقانون رقم 11 لسنة 1992، التي نظمت الملكية العقارية والسكنية، وأتاحت الاستثمار العقاري من خلال التأجير والبناء لغرض البيع (المجمع القانوني الليبي، 1990؛ 1992). في إطار إعادة تنظيم القوانين الاشتراكية وتكييفها مع التحولات الاقتصادية، أصدر قرار رقم 188 لسنة 1993م لإعادة تشكيل اللجنة الإدارية للشركة الوطنية للأسواق، حيث اقتصرت مهامها على الاستيراد وبيع الجملة إلى الموزعين الأفراد للتجزئة عبر القطاع الخاص. كما تم معالجة الخلل في التوظيف بالمشروعات التي تم خصصتها، بنقل ملكية 626 مشروعاً إلى المساهمين، مع دخول 580 مساهماً جديداً، بقيمة تقديرية بلغت 7.4 مليون. ومنذ عام 2002م، بدأت إعادة هيكلة شركات القطاع العام الإنتاجية والخدمية، والسماح للقطاع الأهلي، المحلي والأجنبي، بالمشاركة في إدارتها وتمويلها مباشرة، بما يعكس الانتقال التدريجي نحو اقتصاد أكثر انفتاحاً وتنوعاً (المجمع القانوني الليبي، 1993؛ المصرف المركزي، 2004).



الخاتمة

خلص هذا البحث إلى أن الأزمة الاقتصادية الليبية لم تكن حدثاً طارئاً ، بل جاءت نتيجة تراكمات تاريخية ارتبطت بطبيعة البنية الاقتصادية للدولة الليبية والقائمة أساساً على الاعتماد شبه الكلي على الإيرادات النفطية إلى جانب السياسات النقدية والمالية التي اتسمت بالتوسع النقدي وضعف التخطيط طويل المدى ، وخاصة منذ مطلع ثمانينات القرن العشرين وقد أسهمت هذه العوامل إلى جانب المتغيرات السياسية والضغوط الخارجية في بروز خلل في السياسات المالية والنقدية انعكست سلباً على الميزانية العامة والدين العام . كما وبين البحث أن الأزمة النقدية والمالية كان لها تأثير مباشر في دخل المواطن الليبي ومستوى معيشته ، حيث تراجعت القدرة الشرائية وازدادت الأعباء الاقتصادية ، الأمر الذي عمق من الآثار الاجتماعية للأزمة ، وفي هذا السياق حاولت الدولة الليبية تبني مجموعة من السياسات لمعالجة هذه الأوضاع ، ومن أبرزها سياسات الدخل الأساسي ودعم السلع الأساسية التي أسهمت جزئياً في التخفيف من حدة الأزمة ، إلا أنها لم تنجح في تحقيق حلول جذرية مستدامة بسبب استمرار الخلل الهيكلي في الاقتصاد . وفي ضوء ذلك يبرز أهمية تجاوز الأزمة الاقتصادية الليبية بتبني إصلاحات شاملة تقوم على إعادة هيكلة السياسات النقدية والمالية وتنويع مصادر الدخل وتعزيز التخطيط الاقتصادي وتحسين مستوى معيشة المواطن ، ويؤكد البحث في الختام على أهمية دراسة الأزمة الاقتصادية الليبية في إطارها التاريخي لفهم جذورها العميقة واستشراف آفاق سبل معالجتها الجذرية في المستقبل

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر :

- (1) القذافي, معمر, السجل القومي بيانات وخطب وأحاديث العقيد معمر القذافي ج 10, أمانة الإعلام, الإدارة العامة للثقافة, 1979م .
- (2) القذافي, معمر , السجل القومي بيانات وخطب وأحاديث العقيد معمر القذافي ط.1, ج 15, المركز العالمي لأبحاث الكتاب الأخضر, 1984م .
- (3) القذافي, معمر , السجل القومي بيانات وخطب وأحاديث العقيد معمر القذافي. ج 3, تحت إشراف المكتب الشعبي بباريس, 1972م .
- (4) القذافي, معمر , السجل القومي بيانات وخطب وأحاديث العقيد معمر القذافي, ج.8, أمانة الإعلام والثقافة, الإدارة العامة للثقافة والإرشاد القومي, 1977م .
- (5) اللجنة الشعبية العامة للتخطيط, نشرة الحسابات القومية للفترة 2001م-2006م, الإدارة العامة للتخطيط الاقتصادي والاجتماعي, قسم الحسابات القومية, 2008م .
- (6) اللجنة الشعبية العامة للتخطيط, نشرة الحسابات القومية لفترة 2004م, الإدارة العامة لتخطيط الاقتصادي والاجتماعي, قسم الحسابات القومية, 2004م .
- (7) اللجنة الشعبية العامة للعدل, (دب), موسوعة التشريعات المتعلقة بالحقوق العينية العقارية وتسجيلها بالسجل العقاري الاشتراكي والتشريعات الاشتراكية الأخرى ذات العلاقة, (الجزء الأول, القسم الثاني), دار الكتب الوطنية, بنغازي .
- (8) اللجنة الشعبية العامة للتخطيط, التنمية الاقتصادية في ليبيا 1970م-2003م, مطابع الهيئة الوطنية للمعلومات والتوثيق, 2004م .
- (9) المجمع القانوني الليبي, الجريدة الرسمية, العدد 15, السنة الثامنة, 1958م .
- (10) المجمع القانوني الليبي, الجريدة الرسمية, العدد 15, السنة التاسعة, 1959م .
- (11) المجمع القانوني الليبي, الجريدة الرسمية, أعداد 33-46, السنة الثامنة, 1970م .



- (12) المجمع القانوني الليبي، الجريدة الرسمية، العدد 54، السنة الرابعة عشر، 1976م .
- (13) المجمع القانوني الليبي، الجريدة الرسمية، العدد 33، السنة الثانية والعشرون، 1984م .
- (14) المجمع القانوني الليبي، 1986. الجريدة الرسمية. أعداد 8-13-14. السنة الثانية والعشرون - الرابعة والعشرون، 1986م .
- (15) المجمع القانوني الليبي، 1990. الجريدة الرسمية. أعداد 7-10. السنة الثامنة والعشرون - التاسعة والعشرون، 1990م .
- (16) المجمع القانوني الليبي، الجريدة الرسمية، العدد 27، السنة الثلاثون، 1992م .
- (17) المجمع القانوني الليبي، الجريدة الرسمية، أعداد 11-13، السنة 11، 1993م .
- (18) المجمع القانوني الليبي، الجريدة الرسمية، العدد 18، السنة الثانية والثلاثون، 1994م .
- (19) المجمع القانوني الليبي، الجريدة الرسمية، العدد 7، السنة الثالثة والثلاثون، 1995م .
- (20) مصرف ليبيا المركزي، النشرة الاقتصادية، مجلد 44، إدارة البحوث والإحصاء، طرابلس، 2004م .
- (21) مصرف ليبيا المركزي، ميزان المدفوعات 2009م، إدارة البحوث والإحصاء، 2009م .
- (22) مصرف ليبيا المركزي، الإحصاءات النقدية والمالية خلال الفترة (1966م - 2017م)، إدارة البحوث والإحصاء، 2017 .
- (23) مصرف ليبيا المركزي، النشرة الاقتصادية، مجلد 41، إدارة البحوث والإحصاء، 2001م .
- (24) مصلحة الإحصاء والتعداد، الرقم القياسي لأسعار المستهلك والتضخم 2003م، وزارة التخطيط، 2003م .
- (25) مصرف ليبيا المركزي، ميزان المدفوعات لعام 2004م (الطبعة الخامسة المنقحة)، إدارة البحوث والإحصاء، 2004م .
- (26) مصرف ليبيا المركزي، ميزان المدفوعات لعام 2006م ، إدارة البحوث والإحصاء، 2006م .



المجلد الخامس عشر العدد (1) 2026م

(27) مجلس التخطيط العام، المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية 1962م-2000م، إدارة الخطط والبرامج، مركز المعلومات والتوثيق الاقتصادي، 2001م .

(28) مركز البحوث الاقتصادية، دراسة تكاليف إنتاج المحروقات والكهرباء والمياه والصرف الصحي، معهد التخطيط، 2009م .

ثانيا: المراجع :

(29) أبوزقية، عبدالناصر محمد، (دب)، إستراتيجيات ومفاهيم حول التنوع الاقتصادي والأمن المائي والغذائي في ليبيا، وزارة الاقتصاد والتجارة .

(30) حمدان، كمال، التطورات النفطية الاقتصادية بعد عام 1973م، التقارير الاقتصادية للنفط العربي، (ط1)، معهد الإنماء العربي فرع لبنان، 1976م .

(31) شررنة، فرحات صالح ؛ الفرجاني، سالم أحمد، الخصخصة والشراكة، (ط1)، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، درا الكتب الوطنية، 2006م .

(32) الغزواني، ناصر، الاقتصاد الليبي خلال مسيرة نصف قرن (بالتركيز على القطاع السياحي ، جامعة الإسكندرية، 2015م .

(33) مسعود، حسين أمحمد، الدور الإقليمي الليبي تجاه أفريقيا بعد انتهاء الحرب الباردة 1990م-2005م، مجلس الثقافة العام، 2010م .

ثالثا: المجالات :

(34) الشامي، سلام، تحليل العلاقة السببية بين الإنفاق العام والتضخم في الاقتصاد الليبي للسنوات 1990م - 2009م، مجلة العلوم الاقتصادية، مجلد9، جامعة كربلاء، 2014م .

بحث بعنوان :

الحرف الصناعية وأنواعها في مدينتي البصرة والكوفة

(40 – 132 هـ / 660 – 750 م)

"Industrial crafts and their types in my cities Basand Kuf"

40_120 هـ / 660_750 م

اعداد الطالب:

عبدالباسط حسن الكيلاني

AbdulBasit Hussein kilan

الملخص باللغة العربية

يتناول هذا البحث دراسة الحرف الصناعية في مدينتي البصرة والكوفة خلال الفترة الإسلامية المبكرة، مركزاً على تنوعها، تطورها، وأهميتها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. يستعرض البحث الصناعات اليدوية مثل النسيج، الفخار، الحدادة، صناعة السفن، والجلود، إلى جانب حرف أخرى كان لها دور بارز في ازدهار النشاط الاقتصادي للمدينتين كما يناقش تأثير الموقع الجغرافي والتبادل التجاري على تطور هذه الصناعات، بالإضافة إلى دور الحرفيين في دعم الاقتصاد المحلي ويبرز البحث الدور المحوري لهذه الحرف في صياغة الهوية الثقافية والحضارية للمنطقة.

الكلمات الافتتاحية : النشاط الاقتصادي، الحرف الصناعية، الكوفة، البصرة

Second: Abstract (English)

This research examines the industrial crafts and their various types in the cities of Basra and Kufa during the early Islamic periods. It focuses on their development, economic significance, and social impact. The study highlights traditional industries such as textile production, pottery, metalwork, shipbuilding, and leather manufacturing. It also analyzes the role of geographical location and commercial exchange in promoting these crafts. Furthermore, the research emphasizes the contribution of craftsmen to the local economy and the importance of these industries in shaping the cultural and civilizational identity of the region.

Keywords (English): Economic activity, industrial crafts, Kufa, Basra

المقدمة

تُعَدُّ الحِرَفُ الصناعية من أهم المظاهر الحضارية التي تعكس مستوى التقدم الاقتصادي والاجتماعي لأي مجتمع. وقد حظيت مدينتا البصرة والكوفة بمكانة بارزة في التاريخ الإسلامي، لما تمتعتا به من نشاط تجاري وثقافي وعلمي واسع. وأسهم هذا النشاط في ازدهار العديد من الصناعات والحِرَفِ اليدوية التي لَبَّتْ حاجات السكان وساعدت في دعم الاقتصاد المحلي.

ويهدف هذا البحث إلى دراسة هذه الحِرَفِ، وتحليل أنواعها، والكشف عن العوامل التي ساعدت على تطورها، مع بيان أثرها في الحياة اليومية للسكان وفي الحركة التجارية داخل العراق وخارجه.

أهمية البحث

تتمثل أهمية هذا البحث فيما يلي:

1. إبراز الدور الاقتصادي للحِرَفِ الصناعية في مدينتي البصرة والكوفة.
2. توثيق جانب مهم من التراث الحضاري الإسلامي.
3. المساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمدينتين.
4. تسليط الضوء على مكانة الحِرَفِيِّين ودورهم في بناء المجتمع.
5. الاستفادة من التجربة التاريخية في دعم الصناعات التقليدية المعاصرة.

أهداف البحث

يسعى البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. التعريف بأهم الحِرَفِ الصناعية في البصرة والكوفة.
2. دراسة تطور هذه الحِرَفِ عبر العصور الإسلامية المبكرة.
3. تحليل العوامل الجغرافية والاقتصادية المؤثرة في ازدهار الصناعات.

4. توضيح العلاقة بين الحرف والنشاط التجاري.

5. بيان أثر الصناعات التقليدية في الحياة الاجتماعية والثقافية.

أسباب اختيار الموضوع

يرجع اختيار هذا الموضوع إلى عدة أسباب، من أهمها:

1. قلة الدراسات المتخصصة في الحرف الصناعية في البصرة والكوفة.

2. أهمية المدينتين التاريخيتين في الحضارة الإسلامية.

3. الرغبة في إبراز دور الصناعات اليدوية في بناء الاقتصاد المحلي.

4. الاهتمام بتوثيق التراث الصناعي والحرفي.

5. ارتباط الموضوع بمجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

أولاً : النشاط الحرفي والصناعي في البصرة

اشتهرت البصرة منذ القدم بحرف ومهن وصناعات مختلفة، لعدة أسباب منها: موقعها الجغرافي والظروف المناخية وخصوبة أرضه ووفرة مياهه حيث جعلت من خيراته وموقعه بيئة خصبة لازدهار النشاط الحرفي ونشوء الصناعات، وما أن أصبحت مدينتي البصرة والكوفة جزءاً من الدولة الإسلامية في فترة صدر الإسلام والدولة الأموية بعد الفتوحات واتساع رقعتها الجغرافية، أسهم الخلفاء المسلمون وولاتهم بالعمل على تنشيط الحياة الاقتصادية وتطورها، فالصناعات والحرف تشكل جزءاً مهماً في حياة المدن، حيث تأثرت الحرف والصناعات فيهما بالبيئة الاقتصادية المحيطة بها، كما وتأثرت الصناعات والحرف بطبيعة ما تنتجه أراضي البصرة والمدن والأقاليم المحيطة بها، حيث كان النشاط الزراعي هو النشاط الرئيسي فيه، حيث يعد نشاط بدائي لا يرتقي أن يدخل بحرف وصناعات تحويلية لمنتجات النشاط الزراعي، فظهرت وتطورت نتيجة لذلك حرف وصناعات تعتمد في موادها الخام على القطاع الزراعي، مثل: صناعة النسيج وصناعة السكر وعسل التمر وانتشار المطاحن كما واكبت الصناعة حركة التطور العمراني من هاتين المدينتين، فظهرت وتطورت

صناعة مستلزمات البناء واتقان هذه الحرفة ، إضافة إلى تأثر الصناعة بالآزمات السياسية والعسكرية التي رافقت هذه الفترة ¹.

ويقدم ابن مالك تلخيص في شرح التسهيل قائلاً: وقصد الحرف بفعالة كالنجارة والخياطة والنساجة والحياسة والصناعة والحراثة والفلاحة والكتابة، والمراد بشبه الحرف الولايات كالإمارة والعرافة والوزارة والنقابة، وكون فعال لما فيه تأب والصراف ².

إن التطور في الحياة الاقتصادية الذي أصاب مدينة البصرة في النشاط الزراعي بشقيه التنظيمي والإصلاحي لم يتوقف عند الزراعة فقط، وإنما كان أهل الأمصار الجديدة مثل: البصرة الذي يغلب عليهم طابع البداوة والزراعة وجزء كبير منهم كانوا من المقاتلين، إلا أن النشاط الحرفي كان في خضم التطور ضمن عجلة الحياة الاقتصادية في البصرة ، فموقعها الجغرافي جعل منها قبلة ومركزاً مهما لكثير من الحرف والصناعات واشتهرت البصرة بعدد من الحرف اليدوية والصناعية والمعمارية ، فكانت حرف ومهن تدعم النشاط الأهم وهو النشاط الزراعي الذي كان يعد من أهم الأنشطة في تلك الفترة، وتطورت هذه الحرف مع تطور الحياة الاقتصادية.

النشط الحرفي في البصرة

حرفة البناء

نالت حرفة البناء في البصرة تطوراً ملموساً عند اختطاط مدينة البصرة، فقد رافقت التمسير وظاهرة التمدن، حيث كان لابد من البناء والإعمار والتطور، ومن هنا بدأت هذه الحرفة تشتهر في البصرة، يذكر البلاذري قائلاً: هذه أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب وكتب إليه أن أنزلها الناس، فأنزلهم إياها، فبنوا مساكن بالقصب وبنى عتبة مسجداً من قصب، وذلك في سنة أربع عشرة، فيقال أنه تولى اختطاط المسجد بيده ويقال اختطه محجر بن الأدرع البهزي ⁽³⁾ ويقال اختطه نافع بن الحارث بن كلدة ⁽⁴⁾ حين بنى داره وبنى عتبة دار الإمارة دون المسجد في الرحبة التي يقال لها اليوم رحبة بنى هاشم وكانت تسمى الدهناء ⁽⁵⁾ وفيها السجن والديوان فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فإذا رجعوا أعادوا

بناءه فلم تزل الحال كذلك، ثم أن الناس اختطوا وبنوا المنازل وبنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الأمانة باللين والطين وسقفها بالعشب وزاد في المسجد، وكان الإمام إذا جاء للصلاة بالناس تخطاهم إلى القبلة على حاجر، فخرج عبد الله بن عامر ذات يوم من دار الأمانة يريد القبلة وعليه جبة خز دكناء فجعل الأعراب يقولون على الأمير جلد دب⁶.

تظهر رواية البلاذري أن البصرة تم تخطيطها ومن ثم بناؤها بأيدي أهلها وساكنيها، وهذا يدل على مهارتهم واتقان حرفتهم في البناء، حتى وإن تضاربت في الرواية الأقوال من الذي بنى المسجد فهذا يدل على كثرة من امتهنوا هذه الحرفة، وقد استعملوا في بناء بيوتهم القصب والبردي، ثم الأجر والجص.

ويكمل البلاذري توصيف حرفة البناء في البصرة، وكيف تطورت في هذه الفترة قائلاً: وحدثني أبو محمد الثوري عن الأصمعي قال : لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة، ولد بها عبد الرحمن بن أبي بكرة، وهو أول مولود بالبصرة فنحر أبوه جزوراً⁷ أشبع منها أهل البصرة، ثم لما استعمل معاوية بن أبي سفيان زياداً على البصرة زاد في المسجد زيادة كثيرة وبناء بالأجر والجص وسقفه بالساج، وقال: لا ينبغي للإمام أن يتخطى الناس، فحول دار الإمارة من الدهناء إلى قبلة المسجد فكان الإمام يخرج من الدار في الباب الذي في حائط القبلة، وجعل زياد بن أبيه حين بني المسجد ودار الإمارة يطوف فيها وينظر إلى البناء ثم يقول لمن معه من وجوه أهل البصرة أترون خلا فيقولون ما نعلم بناء أحكم منه فقال: بلى هذه الأساطين⁸ التي على كل واحدة منها أربعة عقود لو كانت أغلظ من سائر الأساطين

وقال الوليد بن هشام بن قحذم لما بنى زياد بن أبيه المسجد جعل صفته المقدمة خمس سواري⁹ ونرى مدح الشعراء بوصف المسجد بناه لذكر الله وأنه من الحجارة وليس من الطين ويستغرب الشاعر لولا تعاون الناس بالبناء، لقلت أنه من صنع الشياطين وبني منارته ونقل دار الإمارة إلى قبلة المسجد وكان بناؤه إياها من لبن وطنين حتى بناها صالح بن عبد الرحمن السجستاني مولى بني تميم في ولايته خراج العراق لسليمان بن عبد الملك بالأجر والجص وزاد فيه عبيد بن زياد بن أبيه وفي مسجد الكوفة (انظر ملحق 5) وقال دعوت الله أن

يرزقني الجهاد ففعل، ودعوته أن يرزقني بناء مسجدي الجماعة بالمصريين ففعل، ودعوته أن يجعلني خلفا من زياد بن أبيه ففعل¹⁰.

إن هذه الروايات تبين لنا مدى تطور حرفة البناء من القصب والبردي بداية اختطاط بيوت البصرة ثم الأجر والجص ثم من الحجارة والسقف من الساج، ومنارة المسجد تحديدا بنيت من الحجر، حتى أبدوا استغرابهم ودهشتهم من حرفة البناء كيف بنيت ولولا تعاون الناس لقلنا كما كانت من أعمال الشياطين

حرفة النقش بالحجر

تطورت حرفة البناء لتكون أكثر دقة من السابق، حيث أصبحت نقشا بالحجر، إن هذا النوع يعد من أصعب الحرف، وأدقها، ولربما تأثرت مدينة البصرة بمن حولها بهذه الحرفة، وتحديدا جاء هذا التأثير من بلاد فارس التي كانت مشهورة بالنقش على الحجر وبناء قصورهم شاهدة على ذلك، حيث يذكر الحموي قائلاً: إن أرض المسجد كانت تربة فكانوا إذا فرغوا من الصلاة نفضوا أيديهم من التراب، فلما رأى زياد بن أبيه ذلك قال: لا أمن أن يظن الناس على طول الأيام أن نفض اليد في الصلاة سنة، فأمر يجمع الحصى والقائه في المسجد الجامع، ووظف ذلك على الناس، فاشتد الموكلون بذلك على الناس وأروهم حصى انتقوه فقالوا: أتونا بمثله على قدره وألوانه وارتشوا على ذلك فقال: يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة فذهبت مثلاً¹¹.

ويتابع الحموي قوله: أدخلوا الحجارة والحصى الملونة لأرض المسجد فادخلوا الزخارف والنقوش على هذه الحجارة بأرض المسجد، فأمر بإدخال الزخارف والنقوش وطلب منه أن ينقش الأمانة على الحجارة"، ويذكر الحموي أيضا "ولما قدم الحاج خبر أن زيادا بنى دار الأمانة فأراد أن يذهب ذكر زياد بن أبيه منها فقال: أريد أن أبنيتها بالأجر، فهدمها، فقليل له: إنما غرضك أن تذهب ذكر زياد بن أبيه منها، فما حاجتك أن تعظم النفقة وليس يزول ذكره عنها.. فقال له سليمان أهداها، فأعادها بالجص والأجر على أساسها الذي كان ورفع سمكها، فلما أعاد أبوابها عليها قصرت¹²

يفهم من ذلك أنه لو أراد إعادة ترميم وتغيير بعض المعالم لزوال اسم زياد فرد سليمان له أنه سوف تزيد اسمه ثباتاً وتوكيداً لأنه سوف يدوم عمر هذا البناء إضافة لدقة الاتقان في العمل فاستعمل صالح بن عبد الرحمن

على خراج العراق فحدثه صالح حديث الحجاج وما فعل في دار الأمانة فأمره بإعادتها فأعادها بالأجر والجص على أساسها ورفع سمكها، فلما ولي عمر بن عبد العزيز وولى عدى بن أرطاة الفزاري البصرة أراد عدى أن يبني فوقها غرفاً¹³.

وقد تطورت هذه الحرفة في النقش والبناء، لبناء من عدة أدوار ذوي طوابق متعددة بالأجر والجص، أن هذا التطور الملحوظ في حرفة النقش على الحجر يوضح حقيقة مفادها أن هذه الحرفة ليست وليدة اللحظة وإنما تطورت وتأثرت بالأقاليم وثقافات الحضارات المجاورة.

حرفة الحمامات :

اشتهرت البصرة أيضا بحرفة الحمامات ، فكانت تدر دخلاً كبيراً على من يعمل بها، حتى وإن كانت هذه الحرفة دخيلة على المجتمعات العربية والإسلامية، إلا أنها تطورت وازدهرت في البصرة، فهذه الحرفة تعكس اهتمام أهل البصرة بالجانب الصحي ومدى انتشاره بينهم، ويذكر البلاذري مسترسلاً بأقواله عن حرف البصرة في هذه الفترة كان أول حمام اتخذ بالبصرة حمام عبد الله بن عثمان ابن أبي العاصي الثقفي، وهو موضع بستان سفيان بن معاوية الذي بالخريبة وعند قصر عيسى بن جعفر ثم الثاني حمام فيل مولى زياد ثم الثالث حمام مسلم بن أبي بكر في بلاالباد، وهو الذي صار لعمر بن مسلم الباهلي، فمكنت البصرة دهرًا وليس بها إلا هذه الحمامات¹⁴.

يتبين أنه لم تكن البداية إلا ثلاث حمامات وقد ذكرها البلاذري لكن العدد الكلي للحمامات في البصرة قد تجاوز أربعة عشر ،حمام، وهذا كله بفعل تطور هذه المهنة أو الحرفة وكذلك التنافس على العمل فيها، وذكر البلاذري: قال أبو بكر لابنه :مسلم يا بنى والله ما تلي عملاً وما أراك تقصر عن إخوتك في المنفعة، فقال: إن كتمت على أخبرتكَ ، قال فإني أفعل، قال: فإني أغتَل من حمامي هذا في كل يوم ألف درهم وطعامًا كثيرًا ، ثم أن مسلماً مرض فأوصى إلى أخيه عبد الرحمن بن أبي بكر وأخبره بغلة حمامه، فأفشى ذلك واستأذن السلطان في بناء حمام، وكانت الحمامات لا تبني بالبصرة إلا بإذن الولاة فأذن له فاستأذن عبيد الله بن أبي بكر فأذن له، واستأذن الحكم ابن أبي العاصي فأذن له، واستأذن سياه الأسوارى فأذن له، واستأذن الحصين ابن أبي الحر العنبري فأذن له واستأذنت ربطة بنت زياد فأذن لها واستأذنت لبابة بنت أو في الجرشي فأذن لها في

حمامين أحدهما في أصحاب البقاء، والآخر في بني سعد، واستأذن المنجاب بن راشد الضبي فأذن له. وأفارق مسلم بن أبي بكر من مرضه وقد فسدت عليه غلة حمامه فجعل يلعن عبدالرحمن ويقول ما قطع الله رحمه

15.

تبين هذه الرواية حرفة الحمامين ومهنتهم في حمامات البصرة حتى أن مسلم قال لأبيه أنه يغتسل من حمامه ألف درهم في اليوم، حتى أنه طلب من أبيه الكتمان، حتى لا ينافسه أحد بحرفته التي كانت تدر عليه خيراً، ويبدو أن مهنة العمل في الحمامات لم تقتصر على الرجال فقط، فقد كان للنساء نصيب من هذه الحرفة والعمل في الحمامات، فلربطة حمام ولبابة¹⁶ حمامين بعد استئذانهم؛ لأن إقامة الحمامات لم تكن مسموحة إلا بإذن الخليفة (السلطان)¹⁷.

ويوجد في البصرة حماماً يعرف بحمام الأمراء حيث جاء أنه من المظاهر الحضارية في رحبة بني هاشم¹⁸ حمام الأمراء¹⁹

إلا إن الحسد قد أدرك هذه الحرفة بين ممتهنيها، وذلك نتيجة لما تدره من أموال ونفع على من يعملون فيها.

يقول البلاذري: "فأدركهما الحسد، فقال أنس: أجزيا أبا الأسود قال هات، فقال:

لعمر أبيك ما حمام كسرى على الثلثين من حمام فيل

وكلامه يدل على أن مهنة الحمامات هي عادات دخيلة وليس من سنة الرسول ﷺ، ومن الحمامات أيضاً حمام أفرادادان²⁰، وذكر الجاحظ وحمام أفرادادان في قنطرة قرّة²¹.

حرفة استصلاح البطائح وتنشيفها (النباطين)

اختص بهذه الحرفة أناس معينون يسمون بالنبط، وحرفتهم هي استصلاح أرض البطائح المغمورة بالمياه وتجفيفها ثم استصلاحها، حتى أنهم كانوا يتقاضون ثمن استصلاحهم وأجورهم كانت جزء من الأراضي المستصلحة، فلما ولي معاوية بن أبي سفيان ولي عبد الله بن دراج مولاه خراج العراق، واستخرج له من

الأرضين بالبطائح ما بلغت غلته خمسة آلاف ألف (5 ملايين درهم). وذلك أنه قطع القصب وغلب الماء بالمسنيات ثم كان حسان النبطي مولى بني ضبة وصاحب حوض حسان بالبصرة، والذي تنسب إليه منارة حسان بالبطائح - فاستخرج للحجاج أيام الوليد، ولهشام بن عبد الملك أرضين من أراضي البطيحة ... واستخرج حسان النبطي لهشام أرضين من أرضي البطيحة أيضاً²²، تحولت هذه الحرفة فيما بعد من حرفة عادية إلى أحد أدوات الإصلاح الزراعي الذي طال أرض البصرة والبطائح خاصة.

حرفة صرامين²³ التمور

تتجلى أهمية هذه في كونها تعد الحرفة عملية حماية للتمور من الغربان في ذلك الوقت، ولغاية الآن تستخدم هذه الطريقة والحرفة لأجل حماية التمور من جائحات الطيور المهاجرة وخاصة أن البصرة تعتمد اعتماد شبه كلياً سابقاً ولاحقاً على إنتاج التمور، حيث كان لابد من وجود هذه الحرفة وانتشارها لحماية هذا الإنتاج، يذكر الحموي عن الجاحظ بذكره ثلاث أعجوبات عن البصرة التي ليست في غيرها من البلدان فيذكر الأعجوبة الثالثة، أن الغربان القواطع في الخريف يجيئ منها ما ينتشر على جميع نخل البصرة وأشجارها حتى لا يرى غصن واحد إلا وقد تأطر²⁴ بكثرة ما عليه منها ولا كربة غليظة إلا وقد كادت أن تتدق لكثرة ما ركبها منها، ثم لم يوجد في جميع الدهر غراب واحد ساقط إلا على نخلة مصرومة ولم يبق منها عذق واحد، ومناكير الغربان معاول وتمر الأعذاق في ذلك الإبان غير متماسكة، فلو خلاها الله تعالى ولم يمسكها بلطفه لاكتفى كل عذق منها بنقرة واحدة ولك يبق عليها إلا اليسير ثم هي في ذلك تنتظر أن تصرم فإذا أتى الصرام على آخرها عذقاً.

رأيتها سوداء ثم تخللت أصول الكرب فلا تدع حشفة²⁵ إلا استخرجتها²⁶ ولا يقتصر عملهم على صرم التمور وحمايتها من الحر والطيور المهاجرة وإنما امتازوا بتكريب النخيل وهي إزالة الأدغال عن النخلة وهذا ما يزيد من وفرة إنتاج النخيل.

حرفة صيد السمك واستخراج اللؤلؤ :

إن موقع البصرة الممتد بجوار النهر إلى البحر جعل منها موقعا مهما لصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ، على مدار الزمن ومنذ القدم حتى يومنا هذا، وبشرح بسيط عن موقع البصرة النهري والبحري، حيث يلتقي في مدينة البصرة نهري دجلة والفرات بنهر واحد يسمى شط العرب في منطقة القرنة وهي أحد أقضية البصرة، فالبصرة هي المدينة الوحيدة في العراق التي تقع على النهر والبحر، وكانت ولا زالت حرفة صيد الأسماك متوارثة آلاف السنين، حيث تشكل رافد تجاري مهم للمدينة وأهلها، ويوجد من الأسماك السمك النهري والسمك البحري بأنواعه واللؤلؤ الذي يتركز في هذه المنطقة من الخليج، الذي كان يستخدم في صناعة الحلي، وهذه الحرفة جمعت بين الهواية والحاجة والصناعة والتجارة معا.

يقول الجاحظ : فأما بحرنا هذا فقد طم على كل بحر وأوفي عليه؛ لأن كل بحر في الأرض لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئا إلا بحرنا هذا، الموصول ببحر الهند إلى ما لا تذكر وأنت تسمع بملوحة ماء البحر، وتستسقطه وتزري عليه والبحر هو الذي يخلق الله تعالى منه الدر الذي بيعت الواحدة منه بخمسين ألف دينار ؛ ويخلق في جوفه العنبر، وقد تعرفون قدر العنبر. فشيء يولد هذين الجوهرين كيف يحقر ؟ ولو أنا أخذنا خصال هذه الأجمة وما عظمنا من شأنها، ففقدنا بها في زاوية من زوايا بحرنا هذا لضلت حتى لا نجد لها حسا، وهما لنا خالصان دونكم وليس يصل إليكم منهما شيء إلا بسببنا وتعدينا فضل غنا²⁷ وهذه الرواية تبين مدى فائدة بحر البصرة لسكانها، وخاصة ان الجاحظ قد امتاز بمدح البصرة في أماكن كثيرة، وما ينقل عن رجالها تفاخرهم بمدينة البصرة وخيراتها، وبعيدا عن رواية الجاحظ وتفاخره بالبصرة فالحق يقال أن البصرة لغاية الآن هي سلة العراق الاقتصادية بأكثر من 90% من وارداته الاقتصادية.

أشهر الصناعات في البصرة :

كانت للصناعة في البصرة شهرة واسعة وتأثرت بباقي الحرف والمهن لتكون هنالك صناعة في البصرة، تتداخل مع بعض النشاطات الاقتصادية، لكي تحول ما تنتجه هذه الأنشطة وعلى رأسها النشاط الزراعي إلى منتجات صناعية تساهم قدر الإمكان في تطور الحياة الاقتصادية، يذكر المقدسي: وقال عبد الرحمن بن أخي الأصمعي دخلت على الجاحظ فقلت: أفدني في البلدان فائدة، قال: نعم الأمصار عشرة المروءة ببغداد والفصاحة بالكوفة

والصنعة بالبصرة²⁸، ولعل ما ذكره المقدسي من أوجه المقارنات التي تحصل دائماً بين مدينتي البصرة والكوفة بأسواقهما ومدارسهما النحوية وإلى غيره الكثير من المقارنات التي عرفت عبر التاريخ.

وقال البلاذري: وقد كان خالد بن صفوان والياً على البصرة من قبل عبد الملك ابن مروان فوافق عنده وفود جميع الأمصار وقد اتخذ مسلمة مصانع له، فسأل عبد الملك أن يأذن للوفود في الخروج معه إلى تلك المصانع، فأذن لهم، فلما نظر إليها مسلمة أعجب بها فأقبل على وقد أهل مكة فقال: يا أهل مكة هل فيكم مثل هذه المصانع؟ فقالوا: لا إلا أن فينا بيت الله المستقبل، ثم أقبل على وفد المدينة فقال: هل فيكم مثل هذه المصانع؟ فقالوا: لا إلا أن فينا قبر نبي الله المرسل، ثم أقبل على وفد الكوفة فقال: يا أهل الكوفة هل فيكم مثل هذه المصانع؟ فقالوا: لا إلا أن فينا تلاوة كتاب الله المرسل، ثم أقبل على وفد أهل البصرة: فقال: يا أهل البصرة هل فيكم مثل هذه المصانع؟ فتكلم خالد بن صفوان وقال: أصلح الله الأمير، إن هؤلاء أقرأوا على بلادهم ولو أن عندك من له ببلادهم خبرة لأجاب عنهم، قال: أفعدك في بلادك غير ما قالوا في بلادهم قال: نعم، أصلح الله الأمير، أصف لك بلادنا؟ فقال هات قال: يغدو قانصنا فيجبي هذا بالشبوط والقيم ويجبي هذا بالطبي والظليم، ونحن أكثر الناس عاجا وساجاً وخزاً وديباجاً وبرزونا²⁹ هملاجاً³⁰ وخريدة مغناجاً بيوتنا الذهب ونهرنا العجب أوله الرطب وأوسطه العنب وآخره القصب، فأما الرطب عندنا فمن النخل في مباركه كالزيتون عندكم في منابته هذا على أفنانه كذاك على أغصانه، هذا في زمانه كذاك في إبانته، من الراسخات في الوحل المطاعم في المحل الملقحات بالفحل يخرجن أسفاطاً عظاماً وأقساطاً ضخاماً، وفي رواية يخرجن أسفاطاً وأقساطاً كأنما ملئت رباطاً، ثم ينطلقن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ الأبيض ثم تنتذل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الأخضر ثم تصير ياقوتاً أحمر وأصفر ثم تصير عسلاً في سنة من سحاء ليست بقربه ولا إناء حولها المذاب ودونها الجراب لا يقربها الذباب مرفوعة عن التراب ثم تصير ذهباً في كيسة الرجال يستعان به على العيال، وأما نهرنا العجب فإن الماء يقبل عنقا فيفيض مندققاً فيغسل عنها

ويتضح من هذه الرواية أن خالد بن صفوان يصف حال البصرة ونخلها وعجب النهر فيها بحركة المد والجزر وأنهم يأخذون حاجتهم منه وهم نيام على فرشهم بدون حجاب، وكيف حال نخل البصرة وتمورها ورطبها وكيف يصنعون عسل التمر منها (الدبس)، وقدم إليها الكثير من الصنائع المهرة من مختلف الأمصار، وبقدوم الصنائع

والحرفيين كثرة الحرف والصناعات، ومنها صناعة الحلي فأشتهر أهل البصرة بصناعة الحلي التي كانت قائمة على استخراج الحلي من البحر كونها مطلة على البحر (الخليج)، واشتهرت مدينة البصرة أيضا بإتقان وصناعة الخزف التي نقلوها إلى سامراء، وهذا ما ذكره اليعقوبي عندما أراد المعتصم أن يبني مدينة سري من رأى (سامراء) حيث قال: وأقدم المعتصم من كل بلد من يعمل عملا من الأعمال، أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل، والغرس، وهندسة الماء، ووزنه، واستنباطه، والعلم، وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر³¹.

ويذكر الحموي نهر يسمى الجوبة حيث قال: وفي كتاب البصرة لأبي يحيى الساجي: نهر الجوبة³² من أنهار البصرة القديمة، وكان ماء دجلة ينتهي إلى فوهة الجوبة فيستقع فيه الماء مثل البركة الواسعة فكان أهل البصرة يدنون منه أحيانا ويغسلون ثيابهم وكانت فيه أجاجين وأنقرة وخزف وآلات القصار فلذلك سمي نهر الإجاجة³³ ، وهذا نهر سمي بالبصرة بالإجاجة لكثرة الخزف والأجاجين فيه وهو دليل على صنعة أهل البصرة واتقائهم للخزف وصنع الإجاجة، ولغاية الآن تطلق هذه المفردة الإجاجة أو الانجاجة في العراق ويتفق عليها أكثر العراقيين بلهجة واحدة وهي الاناء الذي يعجن فيه الدقيق يدويا، كما كان يصنع في البصرة والأبلة المراكب والزوارق الخشبية التي تجوب مياه البصرة والأبلة وبين أنهارها ومجاريها وفي حدود البصرة وبين عماراتها وقراها أجام كبيرة وبطائح ماء معمورة وتسير عليها السماريات والزوارق بالمدافع لقرب قعرها وارترام مجاريها بالتراب وربما زادت الأمطار في أوقات الشتاء فحملت دجلة والفرات وصبت في هذه الأنهار سيولها فحفرت منها موقعا³⁴ وردمت آخر.

صناعة المنسوجات

اهتم زياد بن أبيه بصناعة المنسوجات النسيجية، إذ يعتبر أول من أدخل صناعة المنسوجات الكتانية إلى البصرة التي شهدت توسعا ملحوظا، واشتهرت البصرة بصناعة أجود أنواع الخز³⁵ والبز³⁶، وذكر المقدسي: "وأما البطائح فنبط لا لسان ولا عقل، ولا بأس بالتجارات فيه ألم تسمع

بخز البصرة وبزها وطرائفها وبارزها هي معدن اللآلئ والجواهر وفرضة البحر ومطرح البر وبها يصنع الراسخ³⁷ والزنجفر³⁸ والمرداسنج³⁹ ومنها تحمل التمور إلى الأطراف والحناء، ولهم خز وبنفسج وما ورد وبالأبله تعمل ثياب الكتان الرفيعة على عمل القصب⁴⁰.

ويتبين مدى تأثر وتطور النشاط الصناعي في البصرة بالمناطق المحيطة بها. قال ابن الفقيه وقالوا: أبعد الناس نجعة في الكسب بصري، وحميري، ومن دخل فرغانة القصوى، والسوس 41 لأقصى، فلا بد أن يرى فيها بصريا، أو حميريا على أن أهل أصبهان والخوز معروفون بذلك، ويجد في كل بلد منهما صفا قائماً 42 وهناك من يذكر أن هذه الفترة قد شهدت صناعات أخرى كانت من مستلزمات الحياة الاجتماعية، ومنها العمائم واللحف والقوط ونشطت كذلك صناعة الزيوت والشموع والصابون المستخرج من زيت بذور السمسم والزيتون وهناك روايات تاريخية تؤكد ظاهرة التخصص في البصرة، حيث كان أصحاب كل مهنة يجتمعون معا في محل واحد مكونين سوقا فرعية صغيرة داخل السوق الكبير⁴³.

ويذكر أن البصرة قد وصلت في هذه الفترة إلى مستوى عالي من الرخاء حتى أصبحت المساكن لا تبنى إلا من خشب الساج، وتقنن كذلك أهل البصرة في صنع أبواب البيوت وجعلوا سقفوها من جذوع النخيل⁴⁴.

لعل هذه الثقافة قد امتدت للزمن الحاضر فتعرف بيوت البصرة القديمة المصنوعة أبوابها وسقفوها ونافذاتها من الخشب بالشناشيل⁴⁵ أو المشربية وتبنى المشربية من الخشب المنقوش والمزخرف والمبطن بالزجاج الملون، وتعدّ المشربية كذلك إحدى عناصر العمارة التقليدية الصحراوية في البلاد العربية الحارة.

وذكر الاصفهاني قائلاً: أحرق دار ابن الزبير من عبد الرحمن بن أم الحكم إلى معاوية فتظلم منه وقال: أحرق لي دارا قد قامت علي بمائة ألف درهم، فقال معاوية: ما أعلم بالكوفة دارا أنفق عليها هذا القدر، فمن يعرف صحة ما ادعيت؟ قال: هذا المنذر بن الجارود حاضر ويعلم ذلك، فقال معاوية للمنذر: ما عندك في هذا؟ قال: إنني لم أبه لنفقتة على داره ومبلغها ولكني دخلت الكوفة وأردت الخروج عنها، أعطاني عشرين ألف

درهم وسألني أن ابتاع له بها ساجاً⁴⁶ من البصرة⁴⁷ ، والبيت كان في الكوفة لكن شراء الساج كان من البصرة وهذه دلالة على شهرة البصرة بصناعة الساج، وذكر السمعاني كلمة الساجي: بفتح السين المهملة وبعدها الجيم، هذه النسبة إلى الساج وهو خشب يحمل من البحر إلى البصرة يعمل منه الأشياء، انتسب إلى بيعه أو عمله جماعة قديما وحديثا، منهم أبو يعلى زكريا بن يحيى بن خالد المساجي البصري⁴⁸.

ثانيا : النشاط الحرفي والصناعي في الكوفة

لا تختلف الحرف والصناعة في الكوفة كثيراً عن مدينة البصرة؛ وذلك لعدة أسباب منها : الموقع الجغرافي كونهما يقعان في إقليم واحد وهو إقليم العراق، بالإضافة إلى التقارب الزمني في فترة تأسيس وتمصير المدينتين، وأنهما على مسار واحد من الوسط إلى الجنوب الشرقي، فيجعل من هذا المسار والمحيط الإقليمي المحيط بالمدينتين تشابه الحرف والصناعات لدرجة كبيرة ، ومن هذه الحرف والصناعات :

أولاً : الحرف في الكوفة :

حرفة البناء والاختطاط :

نالت حرفة البناء في الكوفة (أنظر ملحق رقم 1) نصيباً مهماً من تطور هذا النشاط فبدأت هذه الحرفة بداية بسيطة ثم تطورت مع مرور الوقت، فبيوت الكوفة عند تأسيسها كانت خياماً، وهذا ما يناسب حياة المقاتلين فيها، ثم تطور بناء البيوت فيها من القصب، لكن سرعان ما احترقت هذه البيوت أو الأكواخ التي كانت تسمى الأخصاص، وحول هذا يذكر الطبري قائلاً: فاحترق ثمانون عريشاً، ولم يلق فيها قصبه في شوال فما زال الناس يذكرون ذلك قبعث سعد منهم نفراً إلى عمر يستأذنون في البناء بالبن، فقدموا عليه بالخبر عن الحريق، وما بلغ منهم... فقال: أفعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنين⁴⁹.

يتبين أن البيوت في الكوفة كان يدخل في بنائها القصب والبردي وكانت تسمى أخصاص قال: الأخصاص بيوت عندنا من قصب⁵⁰ ، فتطورت هذه الحرفة لتكون اختطاطاً وهندسة معمارية، فبدأ اختطاط الكوفة وهي خطط لقبائل العرب⁵¹ ، وخصصت لكل قبيلة خطة، أي منها أراضي محددة تسمى باسم القبيلة، واحتفظت

هذه الخطط بأسماء قبائلها لعدة قرون، وظهر البناء في الكوفة بشكل أكثر تطوراً ودقة، حيث يذكر البلاذري: ... أن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل فارتد لهم موضعاً عدنا ولا تجعل بيني وبينهم بحراً، وولى الإختطاط للناس أنا الهياج الأسدي... فلما انتهى إلى موضع مسجدها أمر رجلاً فعلاً بسهم قبل مهب القبلة فاعلم على موقعه ثم علا بسهم آخر قبل مهب الشمال وأعلم على موقعه ثم علا بسهم قبل مهب الجنوب وأعلم على موقعه ثم علا بسهم قبل مهب الصبا فاعلم على موقعه، ثم وضع مسجدها ودار أمارتها في مقام العالي وما حوله، وأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين على أنه من خرج بسهمه أولاً فله الجانب الأيسر وهو خيرهما، فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي وصارت خطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات⁵². وكان هذا الإختطاط بمثابة عمل هندسي وأساس متين للبناء فلم يكن بناءها واختطاطها من فراغ بل تم اختيار المكان والاتجاهات وهبوب الرياح، متفقاً مع متطلبات مدينة جديدة مهيأة أن تكون معلم حضاري وإسلامي واقتصادي.

تطورت هذه الحرفة في الكوفة فيما بعد لتشمل أبنية أكثر وأجزاء أوسع في المدينة، وفي هذا السياق يذكر ابن كثير: فكان أول بناء وضع فيها المسجد... فرمى من المسجد إلى الأربع جهات فحيث سقط سهمه بنى الناس منازلهم، وعمر قصرًا تلقاء محراب المسجد للأمانة وبیت⁵³.

كان المسجد أول بناء في الكوفة، وبناء المساجد أصبحت سنة متبعة من قبل بناء المدن، حيث يتصدر بنائها أولويات خطط المدينة، ويذكر البلاذري: ثُمَّ أَنَّ الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَسَعَهُ وَبَنَاهُ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ فَاحْكَمَهُ وَبَنَى دَارَ الْأَمَارَةِ (انظر: ملحق 4)، وكان زياد بن أبيه يقول: أنفقت على كل أسطوانة⁵⁴ (انظر ملحق 7) من أساطين مسجد الكوفة ثمانين عشرة ومائة، وبني فيها عمرو بن حريث المخزومي بناء، وكان زياد بن أبيه يستخلفه على الكوفة إذا شُخص إلى البصرة، ثُمَّ بَنَى الْعَمَالُ فِيهَا فَضَيَّقُوا رَحَابَهَا وَاقْنَيْتُهَا ... زَادَ الْمَغِيرَةُ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ وَبَنَاهُ ثُمَّ زَادَ فِيهِ زِيَادٌ، وَكَانَ سَبَبُ إِقَاءِ الْحَصَى فِيهِ⁵⁵.

إن تطور حرفة البناء والإختطاط في الكوفة منذ بناء الخيام إلى تطورها، وبناءها بالقصب والبردي إلى اختطاط المدينة بشكل معماري وبناءها بالأجر والجص، في فترات متعاقبة بسيطة ما هو إلا شاهداً على تطور هذه الحرفة وبيان مدى أهميتها للناس في تلك الفترة.

حرفة الحمامات

رسمت الحمامات في الكوفة مظهر حضاري آخر، كما هو الحال في مدينة البصرة، كما كانت الحمامات ومهنتها موروثاً عن الساسانيين والرومان، ويؤكد ذلك أن مهنة الحمامات هي موروث غير عربي لكنها اشتهرت ببلاد العرب حديث أبو داود وابن ماجه عن ابن عمر - أن رسول الله ﷺ قال: "إنكم ستفتح لكم أرض العجم، وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات، فلا يدخلنها الرجال إلا بإزار، وامنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء"⁵⁶. وكانت هذه الحمامات تلبي حاجات الناس خاصة في الوضوء والاعتسال .

ومرت حمامات الكوفة بمراحل تطورها حالها حال أغلب الحرف والمهن، ويذكر البلاذري حول هذا الموضوع: وأخبرني أبو الحسن علي بن محمد وأبو مسعود قالوا: حمام أعين نسب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص، وأعين هذا هو الذي أرسله الحجاج ابن يوسف إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَارُود... وسمعت أن الحمام قبله كان لرجل من العباد يقال له جابر أخو حيان الذي ذكره الأعشى وهو صاحب مسناة جابر بالحيرة فابتاعه من ورثته، وقال ابن الكلبي وبيعة بني مازن بالحيرة لقوم من الأزدي من بني عمرو ابن مازن من الأزدي وهم من غسان، قال: وحمام عُمر نسب إلى عُمر بن سعد بن أبي وقاص. قالوا وشهار سوج بحيلة بالكوفة إنما نسب إلى بني بجلة وهم ولد مالك⁵⁷.

حرفة الخط والنسخ

كان للخط الكوفي والخطاطون بصورة عامة نصيب من حرف ومهن الكوفة حيث كانت هذه الحرفة تجمع بين إتقان التركيب وجمال الصورة، ومهارة الأداء، وكذلك دقة الصنعة اليدوية التي يتمتع بها الخطاطون البارعون

في الكوفة، حتى وإن كان أصل الخط الكوفي ليس بكوفي الأصل حسب ما تورده الروايات ونسب إلى الكوفة لظهوره لأول مرة بها في الإسلام⁵⁸.

والواقع أن هذا الخط الكوفي قد سمي بهذا الاسم لعناية الكوفة به وليس لأنه نشأ فيها، إلا أنهم لما وصل إليهم هذا الخط وأصبحت مهنتهم، فإنهم اتقنوها وكانت مصدر رزق وشهرة لهذه المدينة. فكان كثير من الخطاطين يكتبون المصاحف بأجر، ثم زادت نسخ المصاحف بأجر في هذه الفترة، وأصبحت هناك مراكز تعمل فيها مجموعة من الكتبة والخطاطون المتميزون بالخط الواضح، لنسخ القرآن الكريم للناس بأجر، ومما يزيد في ترجيح ذلك أن الحاج بن يوسف الثقفي عندما أمر بحرق أو إتلاف المصاحف عند المسلمين التي لم تكن تتطابق مع المصاحف الأئمة المعتمدة التي كانوا يجدونها في المساجد الجامعة في الكوفة والبصرة والمدن الكبيرة، وتعويض كل واحد منهم بستين درهما ليتمكنوا من نسخ مصاحف جديدة لهم)

وأهم الخطاطين في هذا العصر خالد بن أبي الهياج قال محمد بن إسحاق أول من كتب المصاحف في الصدر الأول ويوصف بحسن الخط خالد بن أبي الهياج رأيت مصحفا بخطه وكان سعد نصبه لكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك وهو الذي كتب الكتاب الذي في قبلة مسجد النبي ﷺ بالذهب من: (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا) ⁵⁹. ، إلى آخر السورة ويقال أن عمر بن عبد العزيز قال أريد أن تكتب لي مصحفا على هذا المثال فكتب له مصحفا تتوق فيه فأقبل عمر يقلبه ويستحسنه واستكثر ثمنه فرده عليه ومالك بن دينار مولى أسامة بن لؤي بن غالب ويكنى أبا يحيى وكان يكتب المصاحف بأجرة ومات سنة ثلاثين ومائة⁶⁰. ومالك ابن دينار كان يكتب المصحف بأجر في البصرة.

و أول من كتب في أيام بني أمية قطبة وهو استخرج الأقلام الأربعة واشتق بعضها من بعض وكان قطبة أكتب الناس على الأرض بالعربية⁶¹.

النشاط الصناعي في الكوفة :

اشتهرت الكوفة بالصناعة ومهنة الحدادين، والحدادة أو القين أحد المهن والحرف الصناعية المشهورة بالكوفة فقد لاقت نشاطا وتطورا سريعا بهذه الفترة نظرا للحاجة إليها.

وكان الهالك أول من عمل الحديد وكان يعيرون بذلك، فقال سماك للأخطل : ويحك ما أعيالك أردت أن تمدحني فهجوتني⁶²

ويعرف الحداد بالقين كذلك عند الجاهليين وهو الذي يعد للزراع الأدوات التي تستعمل في حرث الأرض، مثل: المحراث والمنجل والأدوات... ولذلك قيل لبني أسد: القيون... وعرف القين الذي يقوم بطبع السيوف وصقلها بـ الطبايع والصقل⁶³، وتشتهر الكوفة حتى عصرنا الحالي بالحدادة والصناعة في العراق في مهن بغاية التعقيد كنظيرتها من الشمال الموصل والأخرى في الشام حلب، واشتهرت الكوفة أيضا بمهنة الدهان وصنعتة بدليل حمل الدهانين لأعمار مدينة سامراء التي شيدها الخليفة العباسي المعتصم، حيث يذكر اليعقوبي وحمل من الكوفة من يعمل الأدهان، ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة فأنزلوا بعيالهم بهذه المواضع وأقطعوا فيها وجعل هناك أسواقا لأهل المهن بالمدينة⁶⁴.

صناعة المنسوجات

اشتهرت الكوفة كذلك بالنسيج وصناعة الثياب حيث ذكر الجاحظ وخير (الوشي⁶⁵ في الثوب) السابري والكوفي⁶⁶، وعرفت الكوفة بصناعة العمائم وبالكوفة عمائم الخز والبنفسج في غاية الجودة⁶⁷، ومن الصناعات الأخرى التي وجدت في الكوفة صنع الخيام، وهي: على عدة أنواع عندهم، فالخيمة المصنوعة من الصوف تسمى خباء، والخيمة المصنوعة من الشعر تسمى بالفسطاط والخيمة المصنوعة من الوبر تسمى بالبجاد، والخيمة المصنوعة من القطن بالسراشق والخيمة المصنوعة من الجلد تسمى الطراف، وقد ذكر الشيباني برواية حول أحد أنواع هذه الخيام حيث يقول: "باب إجازة الفسطاط والخيمة والأوتاد والجُزْب⁶⁸ والبيوت ومتاع مكة وإذا

استأجر الرجل فسطاطا يخرج به إلى مكة ذاهبًا وجائئًا ويحج ويخرج من الكوفة. صناعة الصاغة ظهرت في الكوفة الصياغة وهي صناعة الذهب والفضة وقد تأثرت بهذه الصنعة من مدينة الحيرة قبل تمصير الكوفة، وبعد بناء مدينة الكوفة لاقت هذه الصناعة رواجًا شديدًا وإقبالًا كبيرًا، وكانت أدوات الزينة للنساء أهم هذه الصناعة، فكان يتم صناعة الأكاليل والأساور والخلاخيب⁶⁹ والعقود

والخواتم والقلايدات، وكان لهذه الصناعة سوقا خاصة في الكوفة قرب المسجد الجامع يسمى بسوق الصاغة⁷⁰. يبدو أن الحرف والصناعة في مدينتي البصرة والكوفة شهدتا تطورا ملحوظا في الحياة الاقتصادية فواكبنا عجلة التطور الاقتصادي والحركة العمرانية التي شهدتها المدينتين، وإن هذه الفترة المراد دراستها في بحثنا هذا، كانت الفاصل بين بدائية الحياة الاقتصادية وتطورها في مهن وحرف وصناعات مهمة في حياتهم، رغم كل الظروف التي مرت بها المنطقة في ذلك الوقت.

ويلاحظ أيضا أن تطور المهن والحرف والصناعات في البصرة خلال فترة وجيزة وكذلك في الكوفة. ولعل تمصير المدينتين كان عاملا أساسيا لظهور مهن وحرف وصناعات تحاكي تمصير المدينتين، ويبدو كذلك أن بالرغم من وجود بعض التفاوت في النشاط الحرفي والصناعي بين البصرة والكوفة، إلا أنه بالمجمل العام لهذا النشاط ترى تقارب وتشابه كثير في الحرف والصناعات لأسباب ذكرت سابقا منها: الموقع الجغرافي والبيئة المحيطة اقليميا، بالإضافة إلى أن هذه الفترة لم تكن عهد ازدهار واضح كما حدث في القرون التي تلتها.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث حول الحرف الصناعية وأنواعها في مدينتي البصرة والكوفة، يتضح أن الصناعات الحرفية كانت تشكل جزءا أساسيا من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهاتين المدينتين. لم تقتصر هذه الحرف على توفير الاحتياجات المعيشية للسكان فقط، بل تخطى دورها ليشمل دعم التجارة والحركة الاقتصادية محليا ودوليا، مما ساهم في ازدهار المدينتين خلال العصور الإسلامية المختلفة.

أظهرت الدراسة تنوعا كبيرا في الصناعات، شمل النسيج والفخار والجلود والمعادن وصناعة السفن، مما يعكس مستوى راقيا من المهارة والتنظيم لدى الحرفيين. كما يظهر هذا التنوع قدرة

المجتمع المحلي على استغلال الموارد الطبيعية المتاحة لتحويلها إلى منتجات تخدم الحياة اليومية وتلبي احتياجات الأسواق. وكان للموقع الجغرافي المميز للبصرة والكوفة، واتصالهما بطرق التجارة البرية والبحرية، أثر كبير في دعم هذه الأنشطة الصناعية وتنميتها.

سلط البحث الضوء أيضًا على الأبعاد الاجتماعية لهذه الحرف التي ساهمت في تشكيل طبقة مهنية واسعة كان لها دور فاعل في النسيج الاجتماعي. هذه الطبقة كرّست قيم العمل والإبداع والتعاون، وكانت بعض الحرف جزءًا من التقاليد والعادات المحلية، مما جعلها رمزًا للهوية الثقافية والحضارية ومرآة لاستمرارية التراث عبر الزمن.

مع ذلك، أظهرت الدراسة أن تطور الحرف الصناعية لم يكن مستقرًا دائمًا؛ فقد تأثر بالحالة السياسية والاقتصادية والتحولات الاجتماعية. ففي الفترات التي شهدت اضطرابات أو أزمات اقتصادية، تراجعت بعض الصناعات التقليدية أو ضعفت. وفي المقابل، شهدت الفترات المستقرة ازدهار هذه الحرف وتوسعها. كما أدى إدخال أنماط إنتاج جديدة، خاصة في مراحل لاحقة، إلى تقليل أهمية بعض الحرف اليدوية أو اختفائها تمامًا.

بناءً على ما سبق، تظهر أهمية دراسة هذا الجانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لفهم أعمق لمسار التطور الحضاري في العراق الإسلامي. تسهم مثل هذه الدراسات في الحفاظ على التراث الحرفي وإبراز دوره الثقافي والاقتصادي، بالإضافة إلى دراسة إمكانيات دعم الصناعات التقليدية وإحيائها في العصر الحديث.

يوصلنا البحث إلى أن الحرف الصناعية في البصرة والكوفة لم تكن مجرد نشاط ثانوي أو محدود التأثير، بل كانت ظاهرة متكاملة لعبت دورًا جوهريًا في ازدهار المدينتين وتقدمهما. هذا المجال البحثي يحظى بأهمية علمية وثقافية كبرى، حيث يساهم في توثيق الذاكرة التاريخية وتعزيز الوعي بقيمة التراث الصناعي في بناء الحاضر والتخطيط لمستقبل أكثر ارتباطًا بجذور الماضي.

الهوامش

- (1) كج جي : صباح اسطفيان ، الصناعة في تاريخ وادي الرافدين (د.د) ، بغداد 2002م، ص 86-88
- (2) الصراف: من يبدل نقداً بنقد، والصرافة مهنة الصراف والمستأمن على أموال الخزنة، يقبض ويصرف يستحقها، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة (د. ت) ص 513
- (3) ابن مالك : محمد بن عبدالله ابن مالك الطائي الجبائي ، شرح تسهيل الفوائد، مج 4 تح عبد الرحمن السيد محمد بدوي المختون، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، 1990م، ج 3، ص 469
- (4) محجر بن الأدرع البهزي: هو محجر أو محجن بن الأدرع الأسلمي، من بني أسلم بن أفقا بن حارثة بن عمرو بن عامر، كان قديم الإسلام عداؤه في البصرين، ويقال أنه من اختط مسجد البصرة ابن الأثير جامع الأصول، ص 840
- (5) نافع بن الحارث هو نافع ابن الحارث أبو عبد الله الثقفي سكن البصرة، وهو أول من اقتنى الخيل بالبصرة وسال عمر بن الخطاب أن يقطعه بالبصرة، فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يقطعه عشرة أحبريه، ليس فيها حق مسلم ولا معاهد ففعل فنزل بالبصرة، الأصبهاني : أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران معرفة الصحابة 7 مج، تح: عادل يوسف الفراري، دار الوطن الرياض، 1998م، ص 678،
- (6) الدهناء : الفلاة، والدهناء موضع كله، رمل، وقيل: الدهناء موضع من بلاد بني تميم مسيرة ثلاثة أيام لا ماء فيه، يمد ويقصر ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص 163
- (7) البلاذري: احمد بن يحيى بن جابر ، (1992) ، فتوح البلدان، تحقيق ابراهيم بيضون ، دار اقرأ ، بيروت ، ص 373.
- (8) جزورا : بعيرا ذكر كان أو أنثى، إلا أن اللفظة مؤنثة. ابن الأثير (أبو السعادات)، جامع الأصول، ج 7، ص 490.
- (9) الأساطين: الحجارة المنحوتة من الرخام النقي ، الفاسي، محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، 2 مج، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج 2، ص 309،
- (10) السواري: السارية مفرد، والجمع سواري، مثل جارية جواري، وهي الاسطوانة انظر: التميمي، أبو عبد الرحمن عبدالله بن عبد الرحمن بن صالح بن محمد بن حمد بن إبراهيم البسام، توضيح الأحكام في بلوغ المرام، 7 مج مكتبة الأسد، مكة المكرمة، ط 5، 2003، ج 2، ص 118
- (11) البلاذري: المصدر السابق، ص 338-339
- (12) الحموي : شهاب الدين ابو عبدالله الحموى ، (2008) معجم البلدان، ج2، تحقيق محمد عبدالرحمن ، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، ج1، ص 434
- (13) الحموي : المصدر السابق، ج1، ص 434
- (14) البلاذري : المصدر نفسه، ص 340
- (15) البلاذري : المصدر نفسه ، ص 343
- (16) البلاذري: المصدر نفسه ، ص 344
- (17) لبابة: هي لبابة بن أوفي الجرشي، فأذن لها في حمامين أحدهما في أصحاب البقاء، والآخر في بني سعد ، البلاذري، فتوح البلدان، ص 344
- (18) ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري ، الطبقات الكبرى، 8 مج، تح محمد عبد القادر عطاء الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ج 7، ص 124
- (19) رحبة بني هاشم رحبة أرض واسعة بني هاشم، نسبة إلى هاشم بن عبد المناف أحمد مختار، معجم اللغة، ص 869.
- (20) ابن الفقيه: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني، (1996) ، البلدان، مكتبة عالم الكتب ، بيروت ، ص 174
- (21) حمام أفرادادان أحد الحمامات التي بنيت بالبصرة ذكره الجاحظ، الجاحظ البرصان والعرجان والعميان والحولان ، تح: عبد السلام محمد ، هارون دار الجبل بيروت 1990م، ص 261
- (22) قنطرة قره: منسوب إلى قره بطن من عبد قيس فهم مسلم العنزي وقيل : كان ينزل قنطرة قره فنسب إليها، وهي منطقة في البصرة، ابن الأثير ، جامع الأصول، ج 12، ص 805

- (23) البلاذري: المصدر السابق ، ص 358-259
- (24) الصرامين الصرح الكدس المصروم من الزرع ونخل، والصرمة بالضم ما صرم من النخل عن اللحياني، وقد تطلق الصرام على النخل نفسه. الزبيدي، تاج العروس، ج 32، ص 506
- (25) تأطر وتأطر بالمكان تحسيس وتأطر الرمح تتنى، أي انثنى أو ثناه بكثرة ما عليه من حمل، الزبيدي، تاج العروس، ج 10، ص 64
- (26) حشفة التمرة اليابسة. الزبيدي، تاج العروس، ج 11، ص 146
- (27) الحموي: المصدر السابق ، ج 1، ص 440
- (28) الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر البصري ، رسائل الجاحظ ، ج 4، ص 147
- (29) المقدسي : احسن التقاسيم ص 33
- (30) برذوناً : والجمع براذين، والأنثى برذونة، من الخيل ما كان من غير نتاج العرب ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص 51 (عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوي الأرجل عظيم الحوافر)..
- (31) هملاًجاً: (السير في سرعة وبخثرة) ابن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 350
- (32) اليعقوبي : احمد بن اسحاق ابو يعقوب ، البلدان، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2002 ج 1، ص 109
- (33) نهر الجويرة: محله بأصبهان، وبالبصرة الجويرة وهو نهر معروف بها ابن عبد الحق مراصد الإطلاع، ج 1 ، ص 354
- (34) الاجانة: إناء يغسل فيه الثياب والانجانة لغة تمتنع الفصحاء من استعمالها، ثم استعير ذلك وأطلق على ما حول العراس، وهو ما يحوط على الشجر كالحوض ليستقر الماء فيه عند سقيه ويقال له بالفارسية إكانة والجمع أجاجين ابن منظور، لسان العرب، ج 8، ص 13، الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (660هـ - 1261م) مختار الصحاح مكتبة لبنان بيروت، 1986م، ص 14
- (35) الحموي: معجم البلدان، ج 5، ص 317
- (36) الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 2 مج، عالم الكتب، بيروت، 1989م، ج 1، ص 385
- (37) الخز: هو الحرير ، والجزار هو بائع الخز أي بائع الحرير. الحمداني، ياسر بن أحمد بن محمود بن أحمد بن أبي الحمد الكويس حياة التابعين، ص 1450
- (38) البز: الثياب والبخار بائع الثياب الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم ، مجمع الأمثال 2 مج تح محمد محيي الدين عبد الحميد دار المعرفة ،لبنان، (د.ت)، ج 2، ص 78
- (39) الراسخت: حجر من مادة أنثيمون. رينهارت دوزي، تكملة المعاجم، ج 3، ص 72
- (40) الزنجفر: صبغ، أي معروف، وهو أحمر يكتب له ،ويصبغ الزبيدي، تاج العروس، ج 11، ص 458
- (41) المرادسانج : المرتك (الركوه) المقعد الزبيدي، تاج العروس، ج 27، ص 170
- (1) المقدسي : شمس الدين ابو عبد الله محمد ،(1991) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ط 3 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ص 128
- (42) السوس: بلد في المغرب كانت الروم تسميها قمونية وقيل: السوس كورة مدينتها ،طنجة، وهناك السوس الأقصى والسوس الأدنى، الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 281
- (43) ابن الفقيه : المصدر السابق، ص 109
- (44) جواد علي (ت: 1408هـ - 1988م)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 20 مج، دار الساقى، بيروت، ط 4 ، 2001م ، ج 13، ص 228
- (45) سعدون : بن حسين ، البصرة ذات الوشاحين (التاريخ والسياسة والثقافة) (2500 ق. م 191م)، مكتبة مدبولي، القاهرة 2006م ،(د.ص)،

- (46) الشناشيل: هو عنصر معماري يتمثل في بروز الغرف في الطابق الأول أو ما فوقه، يمتد فوق الشارع أو داخل داخل فناء المبنى في البيوت ذات الأفنية الوسطية universalis.fr . مؤرشف من الأصل في 27 سبتمبر 2013م، تمت زيارة الموقع 1 رمضان 1442 هـ الموافق 2021 413 الساعة العاشرة والنصف مساء.
- (47) الساج: ضرب من الشجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً وله ورق كبير واحدته ساحة، الأصفهاني، الأغاني، ج 7، ص 253
- (48) الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصفهاني، (2016)، الأغاني، تحقيق د. إحسان عباس ود. إبراهيم السعافين والأستاذ بكر عباس. دار صادر. بيروت، ج 7، ص 253
- (49) السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي (ت: 562 هـ - 1666م)، الأنساب 13 مج، تح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، الناشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد 1962م، ج 7، ص 10
- (50) الطبري: محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم، ج 5، دار المعارف، القاهرة (د. ت.)، ص 44
- (51) ابن حجر العسقلاني: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، 19 مج، تح: سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشثري، دار العاصمة، دار الغيث السعودية، 1998م، ج 17، ص 150
- (52) المنجم إسحاق بن الصين ت 4 هـ - 1010م) آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان عالم الكتب، تح فهمي، سعيد، بيروت، 1988م، ص 38
- (53) البلاذري: المصدر السابق، ص 270
- (54) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصري ثم الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، البداية والنهاية، 21 مج، تح عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، السعودية 1997م، ج 10، ص 34.
- (55) اسطوانة: وهي مفردة أساطين وتعني الرخام التقى الفاسي شفاء الغرام، ج 2، ص 309.
- (56) البلاذري: المصدر نفسه، ص 271-272
- (57) أبو داود: سنن أبي داود، ج 4، ص 39
- (58) البلاذري: المصدر نفسه، ص 276
- (59) جواد: (2001م) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 20 مج، دار الساقى، بيروت، ط 4، ج 13 ص 172
- (60) صالح عبد العزيز حميد: تاريخ الخط العربي عبر العصور المتعاقبة، 3 مج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971م، ج 1، ص 219.
- (61) سورة الشمس: آية (1)
- (62) ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي (ت: 4385 - 1047م) الفهرست تح إبراهيم رمضان، ط 2، دار المعرفة، بيروت، 1997م، ص 17
- (63) ابن النديم: المصدر السابق، ص 17
- (64) البلاذري: المصدر نفسه، ص 278
- (65) جواد: المفصل في تاريخ العرب، ج 10، ص 242-244
- (66) اليعقوبي: أحمد بن إسحاق أبو يعقوب، (2002)، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 65
- (67) الوشي: النقش في الثوب، كمثل الوشي في الثوب الديباج، فإنه إذا كان ملونا أحسن منه إذا كان من لون واحد ابن الأثير، أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، ضياء الدين (ت: 637 - 1240م)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور تح مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراق 1938م، ص 56،
- (68) الجاحظ: التبصرة بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة تح: حسن حسني عبد الوهاب التونسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1994م، ص 19
- (69) المقدسي: المصدر السابق، ص 128

- (70) الجرب : الرقة من الثوب القطعة من القماش الزبيدي تاج العروس، ج 21، ص 113.
- (71) الخلايب: هو الخلخال الذي تلبسه المرأة نوع من الحلبي له صوت يلبس في الساق، ابن منظور، لسان العرب، ج 11، ص 221
- (72) الزبيدي: محمد حسين الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول هجري، القاهرة، 1965م ص 205

المصادر والمراجع

- (2) ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات، (1969) جامع الأصول، دار صادر، بيروت
- (3) ابن الفقيه: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني، (1996)، البلدان، مكتبة عالم الكتب، بيروت
- (4) ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي، (1997م)، الفهرست تح إبراهيم رمضان، ط 2، دار المعرفة، بيروت
- (5) ابن حجر العسقلاني: (1998م) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، 19 مج، تج: سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشثري، دار العاصمة، دار الغيث السعودية، ج 17
- (6) ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري، (1990م)، الطبقات الكبرى، 8 مج، تج محمد عبد القادر عطاء الكتب العلمية، بيروت ج 7
- (7) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، (1997م)، البداية والنهاية، 21 مج، تج عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، السعودية
- (8) ابن مالك: محمد بن عبدالله ابن مالك الطائي الجياني، (1990م)، شرح تسهيل الفوائد، مج 4 تج عبد الرحمن السيد محمد بدوي المختون، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ج 3
- (9) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، (2016) لسان العرب، دار صادر، بيروت
- (10) أبو الأسود أبو الأسود الديلي، ويقال الدولي البصري إيمه ظالم بن عمرو بن سفيان، ويقال: عمرو بن عثمان أو عثمان بن عمرو، خليل محمود محمد، وآخرون، موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله، عالم الكتب، (د.م)، (1997م)، ج 4
- (11) أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، (2001م) مجمع الأمثال 2 مج تج محمد محيي الدين عبد الحميد دار المعرفة، لبنان، (د.ت)، ج 2،
- (12) الفاسي، محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي، (2003م) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، 2 مج، دار الكتب العلمية، بيروت ج 2
- (13) الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، (1986م) مختار الصحاح مكتبة لبنان بيروت
- (14) الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي (1989م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 2 مج، عالم الكتب، بيروت ج 1،
- (15) الاصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، (1998م) معرفة الصحابة 7 مج، تج: عادل يوسف الفراري، دار الوطن الرياض،
- (16) الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصفهاني، (2016)، الأغاني، تحقيق د. إحسان عباس ود. إبراهيم السعافين والأستاذ بكر عباس.، دار صادر. بيروت ج 7،
- (17) البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر، (1992)، فتوح البلدان، تحقيق إبراهيم بيضون، دار اقرأ، بيروت
- (18) التميمي، أبو عبد الرحمن عبدالله بن عبد الرحمن بن صالح بن محمد بن حمد بن إبراهيم البسام، (2003) توضيح الأحكام في بلوغ المرام، 7 مج مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ط 5، ج 2،
- (19) الجاحظ: (1994م)، التبصرة بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة تج: حسن حسني عبد الوهاب التونسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3،

- (20) الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر البصري ، (1990م) رسائل الجاحظ، تح :عبد السلام محمد هارون دار الجيل بيروت، ص 261
- (21) الحمداني، ياسر بن أحمد بن محمود بن أحمد بن أبي الحمد الكويس ، (2006) ، حياة التابعين، دار المعرفة للطباعة والنشر ، القاهرة
- (22) الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله الحموي ،(2008) معجم البلدان، ج2، تحقيق محمد عبدالرحمن ، دار احياء التراث العربي ، بيروت
- (23) الزبيدي: محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي (1965م) ، تاج العروس من جواهر القاموس، دار المعرفة للطباعة والنشر ، القاهرة،
- (24) السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي ،الأنساب 13 مج، تح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، الناشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد (1962م)، ج 7
- (25) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (1966م)، شرح شواهد المغني، دار أقر ، القاهرة
- (26) الأصبهاني : أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران ،(1998م)، معرفة الصحابة 7 مج، تح: عادل يوسف الفراري، دار الوطن الرياض
- (27) الطبري: محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ج 5، دار المعارف ، القاهرة (د . ت)
- (28) المقدسي : شمس الدين ابو عبد الله محمد ،(1991) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ط 3 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة
- (29) المنجم إسحاق بن الصين ،(1988م)، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان عالم الكتب، تح فهمي ،سعيد، بيروت،
- (30) اليعقوبي : احمد بن اسحاق ابو يعقوب،(2002) ، البلدان، دار الكتب العلمية ، بيروت
- (31) جواد علي ،،(2001م) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 20 مج، دار الساقى، بيروت، ط 4 ، ج 13
- (32) سعدون : بن حسين ، (2006م) البصرة ذات الوشاحين (التاريخ والسياسة والثقافة) مكتبة مدبولي، القاهرة
- (33) صالح عبد العزيز حميد : (1971م)، تاريخ الخط العربي عبر العصور المتعاقبة، دار الكتب العلمية، بيروت
- (34) كج جي : صباح اسطفيان (2002م)، الصناعة في تاريخ وادي الرافدين (د.د)، بغداد

بحث بعنوان :

التنظيم المالي لبيت المال في البصرة والكوفة في العصر الأموي

الموارد وأوجه الإنفاق

من (40 – 132 هـ / 660 – 750 م)

"The financial organization of the Treasury (Bayt al-Mal) in Basra and Kufa during the Umayyad era: resources and aspects of expenditure."

40_132 / 750-660

إعداد :

أ.مجدى سليمان إبراهيم علي

Mr.Magdy Suleiman Ibrahim ail

ماجستير، الدرجة العلمية: محاضر مساعد

Ministry of finance researcher

mjdalqtrany1@gmail.com

المراجعة اللغوية: د. رجب عبد الله خليفة (عضو هيئة التدريس بكلية اللغة العربية الجامعة السنوسية)

المخلص:

يتناول هذا البحث التنظيم المالي لبيت المال في مدينتي البصرة والكوفة خلال العصر الأموي، بوصفه أحد الركائز الأساسية للإدارة الاقتصادية في الدولة الإسلامية. ويسعى إلى إبراز طبيعة الموارد المالية التي اعتمد عليها بيت المال، وفي مقدمتها الخراج، والجزية، والعشور، والغنائم، إلى جانب أوجه الإنفاق المختلفة التي شملت رواتب الجند والولاة، والإنفاق على المرافق العامة، ودعم النشاط الإداري والعسكري. كما يناقش البحث آليات إدارة هذه الموارد وأساليب ضبطها وتوزيعها، في ظل التحولات السياسية والإدارية التي شهدتها العصر الأموي. ويعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي، مع الاستفادة من المصادر العربية المبكرة، للكشف عن مدى كفاءة التنظيم المالي في البصرة والكوفة، وأثره في تحقيق الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي في هاتين المدينتين، بوصفهما مركزين حضاريين وإداريين مهمين في الدولة الأموية.

الكلمات المفتاحية: بيت المال، التنظيم المالي، البصرة، الكوفة،

Abstract:

This study examines the financial organization of the Bayt al-Māl in the cities of Basra and Kufa during the Umayyad period, considering it a fundamental pillar of economic administration in the early Islamic state. The research highlights the main financial resources of the Bayt al-Māl, including land tax (kharāj), poll tax (jizya), tithes ('ushūr), and spoils of war, as well as the various expenditure channels such as soldiers' and governors' salaries, public services, and administrative and military expenses. It also analyzes the mechanisms of financial management, regulation, and distribution in light of the political and administrative developments of the Umayyad era. Relying on a historical-analytical approach and early Arabic sources, the study aims to assess the efficiency of the financial system in Basra and Kufa and its role in achieving economic and social stability in these two important administrative and urban centers of the Umayyad state.

Keywords (in English): Bayt al-Māl, Financial Organization, Basra, Kufa,

مقدمة البحث:

يمثل التنظيم المالي لبית المال أحد الركائز الأساسية التي قامت عليها الإدارة الاقتصادية في الدولة الإسلامية خلال العصر الأموي، إذ اضطلع بدور محوري في إدارة الموارد العامة وتنظيم أوجه الإنفاق بما ينسجم مع متطلبات الدولة والمجتمع. وقد اكتسبت مدينتا البصرة والكوفة مكانة بارزة في هذا الإطار، لكونهما من أهم المراكز الحضرية والإدارية في العراق، إضافة إلى ما تمتعتا به من ثقل عسكري واقتصادي، جعلهما محوراً رئيساً لتطبيق السياسات المالية الأموية.

وتتبع أهمية تناول التنظيم المالي لبית المال في البصرة والكوفة من كونه يعكس طبيعة الفكر الإداري والاقتصادي الذي ساد تلك المرحلة، ويكشف عن الأساليب المعتمدة في جمع الموارد المالية وضبطها وتوزيعها. كما تسهم هذه الدراسة في تعميق الفهم بتاريخ المالية العامة في العصر الأموي، من خلال تحليل العلاقة بين التنظيم المالي والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي، في ظل التحولات السياسية والإدارية التي شهدتها الدولة آنذاك.

أهمية البحث

تتجلى أهمية هذا البحث في تسليطه الضوء على جانب جوهري من تاريخ الإدارة المالية الإسلامية، يتمثل في دراسة التنظيم المالي لبית المال في البصرة والكوفة خلال العصر الأموي. ويكتسب البحث أهميته من محاولته تقديم معالجة تحليلية مقارنة لآليات إدارة الموارد والنفقات في المدينتين، فضلاً عن إبراز دور بيت المال في دعم الاستقرار الاقتصادي، وتنظيم شؤون الدولة المالية في واحدة من أكثر المراحل التاريخية حيوية وتأثيراً.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، من أبرزها:

1. توضيح الإطار المفاهيمي والتنظيمي لبית المال في العصر الأموي.
2. تحديد مصادر الموارد المالية المعتمدة في البصرة والكوفة.
3. بيان أوجه الإنفاق العام وأولوياته في المدينتين.
4. تحليل أساليب التنظيم المالي وإدارة الموارد والنفقات.
5. استجلاء أثر التنظيم المالي لبית المال في تحقيق الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي.

إشكالية البحث

ينطلق البحث من إشكالية رئيسة تتمثل في التساؤل الآتي:

ما مدى فاعلية التنظيم المالي لبيت المال في البصرة والكوفة خلال العصر الأموي، وأثره في تحقيق الكفاءة المالية والاستقرار الاقتصادي؟

وينتزع عن هذه الإشكالية عدد من التساؤلات الفرعية، من أهمها:

• ما طبيعة الموارد المالية التي شكّلت دعائم بيت المال في المدينتين؟

• كيف جرى تنظيم النفقات العامة وتحديد أولوياتها؟

• ما أوجه التشابه والاختلاف في التنظيم المالي بين البصرة والكوفة؟

• إلى أي مدى تأثر التنظيم المالي بالسياسات الإدارية والاقتصادية الأموية؟

منهج البحث

يعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال تتبع الروايات والنصوص الواردة في المصادر التاريخية العربية المبكرة، وتحليلها تحليلاً نقدياً يراعي السياقين الزمني والإداري. كما يستعين البحث بالمنهج الوصفي المقارن لإبراز أوجه الاتفاق والاختلاف في التنظيم المالي لبيت المال بين البصرة والكوفة، بما يتيح تقديم رؤية علمية متكاملة حول طبيعة الإدارة المالية في العصر الأموي.

1- إن الواردات المالية في البصرة والكوفة لم تكن واضحة المعالم في كل الفترات وكانت تجبى باسم واردات العراق، بحيث لم يكن هناك التحديد بدقة لأبواب الجباية ومصادرها فهل اقتضت على الخراج وحده أم شملت أيضاً ما يجبى من أراضي العشر، والجزية، والتجارات، والمكوس والهدايا وغيرها، وهل شملت ما ترسله الأقاليم الأخرى، ولم تحدد بدقة الأقاليم أو المناطق التي جبيت منها هذه المبالغ، وهل شملت الكور القريبة من البصرة والكوفة، إن أكثر المصادر التي ذكرت أرقام الجبايات وقد ذكرت سابقاً حيث أشارت إلى أنها جباية السواد ولم تحدد هل كان السواد الذي جبيت منه يشمل العراق كله، أم أنه يقتصر على ما يتبع الكوفة فحسب. ولعل عدم التحديد بدقة كان من أكثر الصعوبات التي واجهت البحث، فلم نقف كثيراً على روايات مفصلة بجبايات البصرة أو الكوفة إلا ما ندر، إن الأحوال السائدة في عصر الراشدين والفترة الزمنية المحددة لدراستنا هذه كانت تقضي أن تصرف موارد الجباية على مقاتلة الكوفة والبصرة بعد إرسال خمسها إلى الحجاز، وهذا يتطلب

التمييز بين ما يجبي للكوفة وما يجبي للبصرة، ولقد أشارت بعض المصادر إلى وجود سوادين متمايزين هما سواد الكوفة وسواد البصرة، كما أشارت إلى العراقيين وإلى ولاية خراج على كل من البصرة والكوفة (العلي: 1986، ص 234).

تفاوتت مساهمة الإيرادات المالية في مدينتي البصرة والكوفة من نشاط إلى آخر، وكان النشاط والقطاع الزراعي من أكبر المساهمين بهذه الإيرادات، حيث اكتسبت أهمية الأراضي التي عرفت بأرض سواد العراق، لما فيه من خصوبة ووفرة مياه وإنتاج، وتأتي أهمية الإيرادات المالية لما لها من أهمية واضحة في تطور الحياة الاقتصادية في البصرة والكوفة. أولا الواردات المالية في البصرة والكوفة.

اتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان قراراً بتعريب الدواوين ضمن مشروع إصلاح شامل هدفه تعزيز مركزية الدولة وتوحيد نظامها الإداري. وقد بدأ تطبيق هذا القرار في ديوان العراق على يد القائد والإداري الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي أمر بنقل سجلات الديوان من الفارسية إلى العربية بعد إعداد كوادر قادرة على القيام بهذه المهمة.

استلزم هذا التحول إعداد كتاب عرب يتقنون الحساب والإدارة، كما احتاج إلى إعادة تنظيم السجلات المالية بطريقة تتلاءم مع اللغة العربية. ولم يكن الأمر مجرد ترجمة حرفية، بل شمل إعادة صياغة النظام الإداري والمالي بما يتناسب مع متطلبات الدولة الإسلامية المتسعة (أحمد شلبي: 1991، ص 215)

أدى نقل الدواوين إلى العربية إلى تحسين إدارة الموارد المالية للدولة، إذ أصبحت سجلات الخراج والضرائب مفهومة للسلطة المركزية وللكتاب العرب الذين تولوا إدارتها. وقد ساعد ذلك في ضبط عملية تحصيل الضرائب وتقليل الأخطاء التي قد تنشأ نتيجة الترجمة أو سوء الفهم.

كما أدى تعريب الدواوين إلى توحيد المصطلحات المالية والإدارية، وهو ما أسهم في تسهيل عملية التواصل بين الأقاليم المختلفة ومركز الخلافة. فبدلاً من وجود أنظمة متعددة بلغات مختلفة، أصبحت الإدارة المالية تعمل ضمن إطار لغوي واحد، الأمر الذي عزز كفاءة الجهاز المالي للدولة (جرجي زيدان: 1993، ص 187)



كان من أهم نتائج تعريب الدواوين تعزيز قدرة الدولة على مراقبة مواردها المالية. فقد أصبح الخليفة والمسؤولون في العاصمة قادرين على الاطلاع المباشر على السجلات المالية دون الحاجة إلى مترجمين أو وسطاء. وهذا بدوره قلل من احتمالات التلاعب في الحسابات أو إخفاء الإيرادات.

2- كما أدى التعريب إلى إدخال عناصر عربية في الإدارة المالية، الأمر الذي حدّ من احتكار بعض الفئات غير العربية للمناصب الإدارية الحساسة. وقد ساعد ذلك على تحقيق قدر أكبر من الشفافية في إدارة الأموال العامة (طقوش: د. ت، ص 142)

أولاً: الواردات المالية في البصرة والكوفة:

إن القاعدة العامة في النظام المالي الإسلامي أن تتضمن التخصيص لكل مصر ما يجبي من المقاطعات التي فتحها مقاتلة ذلك العصر، إضافة إلى واردات أخرى وهي كالآتي:

جباية الأموال:

كان الدخل الرئيسي للبصرة والكوفة، يأتي من جباية أراضي الخراج والمقاطعات التي فتحها مقاتلة البصرة والكوفة والتي كانت تابعة في إدارتها إلى مدينتي البصرة والكوفة. فأما البصرة فقد فتحت مقاطعاتها تدريجياً فكور دجلة فتحت بين سنة (15-17هـ / 636-638م)، والأهواز بين سنة (17-19هـ / 638-640م)، وأصفهان (22هـ / 642م)، وفارس (25-28هـ / 645 - 648م)، وكرمان (30هـ - 650م)، وسجستان (31-34هـ / 651-654م)، ومكران (45هـ - 665م) وخراسان (30 - 32هـ / 650 - 652م).

في حين أن الضرائب لا تفرض على المقاطعات بل على المدن الرئيسية. (عبد الشافي: 1998م، ص 261)

إن هذه المدن والمقاطعات بدأت ترفد إيرادات الدولة بأموال الخراج والضرائب والهدايا.

فكانت البصرة هي أحد مدن سواد العراق بل أهمها وكان خراج العراق قد بلغ حوالي مائة مليون سنوياً، في العصر الراشدي أشار ابن الفقيه إلى ذلك قائلاً: وكان "خراج العراق أيام زياد بن أبيه مائة ألف وخمسة وعشرين ألف درهم وأيام عبيد الله بن زياد أكثر منه أيام زياد بن أبيه بعشرين ألف ألف. وكان في أيام ابن هبيرة مائة ألف ألف سوى طعام الجند وأرزاق الفعلة الذين يكونون في العسكر.... وذكر بعض كتاب الفرس: إن العراق كان يجبي في أيام أنوشروان ستمائة ألف ألف مثقال، وزعم أنه جبي في آخر أيام أبرويز تسعمائة ألف ألف مثقال وترك في أيدي الناس



كلهم من جميع غلاتهم مائة ألف ألف (مائة مليون)، فهلك الناس حتى أن الجارية النفيسة كانت تباع بدرهم. وجبى بعض أمراء خراسان ثمانية وعشرين ألف ألف مثقال، وجبى الجنيد بن عبد الرحمن أرض الهند خمسة وعشرين ألف ألف مثقال، وكانت جباية البصرة خمسة وسبعين ألف ألف درهم، وأرض الكوفة خمسة وعشرين ألف ألف درهم (المقدس: 1991، ص 133)

إن هذه الرواية تبين ما تم جبايته من قبل الولاة فلم يكن الخراج ثابتاً فزادت على عهد ولاية ونقصت على عهد ولاية آخرين كانت جباية الأراضي عند الفتوح وتمصير البصرة والكوفة، أشبه بالوقتية فكل جباية حسب المكان والأرض التي تجبى منه فليس هناك شيء ثابت وقد تداخلت الأراضي العشرية مع الخراجية في البصرة والكوفة، وحدثت الخلافات الفقهية فيها ولقد أشارت الباحثة إلى هذه الخلافات في نظم ملكية الأراضي، وللمقارنة على ما كان يجبى من أراضي البصرة وما يدخل إليها من إيرادات مالية في عصر الراشدين وزمن الفتوحات والتوسع وفيما بعده.

فرض ولاية البصرة على بعض المناطق والمدن عند دخولهم إياها مصالحة، وصالح أهل نهر المرأة، خالد بن الوليد. وذكر خليفة ابن خياط: "صالحه أهل نهر المرأة على اثني عشر ألف درهم" (خليفة: 1977، ص 118)

ويتبين لنا أن بعض المناطق قد تم فتحها صلحاً حيث تقدر جبايتها تقديراً وفق ما تصالحوا عليه بين أهل الأرض والفاثحين.

أما بعض الأراضي فقد فتحت عنوة، مثل: كور تابعة للأهواز، وهذه الكور كانت تتبع إدارياً ومالياً للبصرة وسوف يأتي التفصيل عنها لاحقاً، وقيل أن هذه الكور فتحت صلحاً وقيل عنوة. ويبين ذلك خليفة بقوله: فأتى الأهواز فافتتحها يقال عنوة ويقال صلحاً فوظف عليها عمر عشرة آلاف ألف وأربع مائة ألف (خليفة: 1977، ص 126)

إن هذه الرواية تبين أن افتتاح الأهواز إن كان قد تم صلحاً أو عنوة فقد كان الرقم هو عشرة ملايين وأربعمائة ألف درهم، أما أهل سرق وأهل راهمرز فقد صالحوه على عينات أو أشياء عينية وبلغت قيمة هذه الأشياء هي ثمانمائة ألف درهم.

ونذكر البلاذري أيضاً قالوا وهادن أبو موسى أهل راهمرز، ثم انقضت هذنتهم فوجه إليهم أبا مريم الحنفي فصالحهم على ثمانمائة ألف درهم... قال: حدثني يعقوب عن أبي عاصم الزاهرزمي، وكان قد بلغ المائة أو قاربها، قال: صالح أبو موسى أهل



رامهرمز على ثمانمائة ألف أو تسعمائة ألف، ثم أنهم غدروا ففتحت بعد عنوة ففتحها أبو موسى في آخر أيامه (البلاذري: 1992، ص 368)

إن ما ذكر من روايات لكور الأهواز وغيرها التي فتحت صلحا أو تلك التي فتحت عنوة تبين لنا كيف آلت إليه أرض البصرة وكيف تمت الجباية إن كانت صلحا بعد مهادنة أو عنوة بعد غدر، إن مثل هذه الأرقام والروايات تعطي دلالة واضحة على أن أمور الجباية في هذه الحالات كانت أقرب ما يكون إلى الاجتهادات الشخصية أو الأنية، بمعنى أن التقدير كان يترك للوالي حسب حالة كل أرض.

ومن ضمن واردات جباية الأموال على سبيل المثال لا الحصر كانت الغنائم والصوافي جميعها توضع تحت اسم خراج العراق.

الغنائم:

إن الفتوحات وما ترتب عليها من غنائم للمقاتلين في البصرة والكوفة وأرض السواد عامة جعل من هذه الغنائم أن تكون موردا ماليا يرفد بيت المال والمقاتلة على حد سواء، وفي هذا الصدد يذكر الطبري: "قامت الحكم بن عمرو وكان قد غزا طخارستان، فغنم غنائم كثيرة، واستخلف أنس بن أبي أناس بن زنيمة وكان كتب إلى زياد: أني قد رضيت له وللمسلمين ولك، فقال زياد: اللهم إني لا أرضاء لدينك ولا للمسلمين ولا لي وكتب زياد بن أبيه إلى خلد بن عبد الله الحنفي بولاية خراسان، ثم بعث الربيع بن زياد الحارثي إلى خراسان في خمسين ألفا، من البصرة خمسة وعشرين ألفا، ومن الكوفة خمسة وعشرين ألفا، على أهل البصرة الربيع، وعلى أهل الكوفة عبد الله ابن أبي عقيل، وعلى الجماعة الربيع بن زياد (الطبري: د . ت، ص 226)

إن هذه الرواية تشير إلى نوع من الواردات ويتمثل بالغنائم وكانت كثيرة، فأرسل الحكم بن عمرو إلى زياد بن أبيه يستخلف أنس بن أبي أناس فرفض زياد، فجعل ولاية خراسان إلى خلد بن عبد الله الحنفي، وأرسل من البصرة خمسة وعشرين ألفا ومن الكوفة مثلها، وعلى الجماعة البالغ عددهم خمسين ألفا من البصرة والكوفة الربيع بن زياد.

الصوافي

تعد الصوافي من الواردات المالية لمدينتي البصرة والكوفة في العهد الأموي، فقد قام معاوية بن أبي سفيان بعدة تغييرات هامة في النظام المالي، فقد فصل الصوافي عن بيت المال وجعلها للخليفة، وكانت صوافي العراق أراضي واسعة وكبيرة تدر دخلا يبلغ سبعة ملايين درهم سنوياً، وذكر أبو يوسف: "وكان خراج ما استصفاه عمر الله سبعة آلاف ألف (أبو يوسف: 2009، ص 69) ولكنها لم تستمر على هذا الحال فبعد أن استقرت أمور البصرة وتغيرت أحوال هذه الأراضي من المهادنة والصلح والنظر فيمن فتحت صلحا أو عنوة إلى تغيير جنسها للخراج، قام أبو موسى الأشعري استقرى (قرأ وضع) كور دجلة فوجد أهلها مذعنين بالطاعة، فأمر بمساحتها ووضع الخراج على قدر احتمالها (البلاذري: 1992، ص 370)

وبعد ذلك قام التنظيم الإسلامي بعد استقرار الفتوح على أساس تقدير الضرائب تبعا لموقفها من الفتوح، فأراضي الأقاليم المفتوحة عنوة يوضع عليها الخراج، حيث كان لمشكلة ملكية الأراضي، وامتلاك العرب الأراضي اقطاعاً أو شراء أن أدى إلى نشوب كثير من الخلافات (جواد : 1969، ص 314)

وحين جاء عمر بن عبد العزيز أوقف بيع الأراضي الخراجية وإقطاعها، إلا أنه قد توارثها الناس وباع من باع واشترى من اشترى، وكتب رسالته بعام المائة أما مقدار جباية هذه الأراضي، فإن واردات البصرة والكوفة منذ تمصيرهما في فترة صدر الإسلام والعصر الذي يليها لم تكن هناك استقلالية تامة في الواردات تسمى باسم هذا المصير دون الآخر إلا ما ندر، وفي حالات خاصة، وإنما كانت تسمى بواردات العراق أو جباية العراق، وذلك نتيجة للتوسع في الفتوحات الإسلامية حتى فترة ما بعد عصر الراشدين واعتماد هذه الامصار على ما يجبي من أراضي الفتوح، فقد تكون جباية خاصة لمدينة البصرة قريبة من الكوفة والعكس صحيح، وكان هناك ديوان للخراج لضبط هذه الواردات والحسابات التي تدخل إلى هذه المدن وقد ولي عليها ولاية مختصون بجمع الخراج، وأول نشأتها كانت في العصر الراشدي وظلت بعد الفتح الإسلامي على ما كانت عليه؛ لأن ديوان خراج البصرة والكوفة أو خراج العراق كان آنذاك مكتوب باللغة الفارسية (الزيات : 1968، ص 20)



كان من أبرز إصلاحات عمر بن عبد العزيز في العراق إعادة تنظيم نظام الخراج، وهو الضريبة المفروضة على الأراضي الزراعية. فقد لاحظ أن بعض الولاة كانوا يفرضون الضرائب بصورة لا تتوافق مع القواعد الشرعية أو مع القدرة الإنتاجية للأرض.

لذلك أصدر الخليفة تعليمات تقضي بالالتزام بالقواعد العادلة في جباية الخراج، بحيث يُراعى حال الأرض وإنتاجها الحقيقي. كما شدد على عدم تحميل السكان أعباء مالية إضافية لا يقرها النظام المالي الإسلامي.

وفي هذا السياق أمر الولاة في البصرة والكوفة بمراجعة سجلات الخراج وإعادة تقييم الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية، بما يضمن تحقيق العدالة بين السكان وعدم إرهاقهم بالجبايات. وقد أدى ذلك إلى تخفيف الضغط المالي على كثير من المزارعين، الأمر الذي ساعد على تنشيط النشاط الزراعي في تلك المناطق. (طقوش: د. ت، ص 198)

من الإصلاحات المهمة التي قام بها عمر بن عبد العزيز معالجة مسألة الجزية المفروضة على غير المسلمين، وكذلك موقف الدولة من الموالى الذين اعتنقوا الإسلام. فقد كان بعض الولاة يستمرون في فرض الجزية على من أسلم من أهل البلاد المفتوحة حفاظاً على الموارد المالية للدولة. إلا أن عمر بن عبد العزيز رفض هذا الأسلوب، وأصدر أوامره بإسقاط الجزية عن كل من يعتنق الإسلام، لأن الجزية لا تُفرض إلا على غير المسلمين. وقد أدى هذا القرار إلى زيادة عدد الداخلين في الإسلام في العراق، خاصة في البصرة والكوفة.

وعلى الرغم من أن هذا القرار أدى في البداية إلى انخفاض بعض الإيرادات المالية، فإن الخليفة رأى أن تحقيق العدالة والالتزام بالمبادئ الشرعية أهم من الحفاظ على موارد مالية غير مشروعة. كما عوّض هذا النقص لاحقاً من خلال تنشيط الاقتصاد وزيادة الإنتاج الزراعي والتجاري. (جرجي زيدان: 1993، ص 226)

عمل عمر بن عبد العزيز على إعادة تنظيم بيت المال في مختلف الأقاليم، بما في ذلك البصرة والكوفة. فقد شدد على ضرورة تسجيل الإيرادات والنفقات بدقة، ومنع أي تصرف في الأموال العامة دون سند إداري واضح.



كما حرص على اختيار ولاية وموظفين يتمتعون بالنزاهة والكفاءة لإدارة الشؤون المالية في العراق. وكان يوجه إليهم رسائل يؤكد فيها أهمية العدل في إدارة الأموال العامة وعدم استغلال المناصب لتحقيق مكاسب شخصية.

وقد أسهمت هذه الإجراءات في تقليل مظاهر الفساد المالي وتعزيز ثقة السكان في الإدارة المالية للدولة. كما ساعدت في تحقيق قدر أكبر من الانضباط في إدارة الموارد المالية في البصرة والكوفة (حسين مؤنس: 1998، 291)

وأوكل أمر خراج العراق إلى أحد موالى معاوية، حتى تكون هناك له عليه سلطة تامة، ويضمن أن لا تهدر من أموال جباية الخراج شيء، ففصل ولاية الخراج عن الولاية العامة، وعزل المغيرة بن شعبه عام (42هـ / 662م)، فأصبحت ولاية الخراج لعبد الله بن دراج. وذكر ابن عساكر عبد الله بن دراج مولى معاوية بن أبي سفيان ولاء معاوية على خراج الكوفة (ابن عساكر: د. ت، ص 35)

واستعمل الدهاقين في جباية الخراج لما لهم خبرة في جمع الأموال والتجارة والقدرة على جباية الأموال بدون ضياع حق.

وذكر ابن مسكويه حول هذا الموضوع قائلاً: "وأما استعمال الدهاقين... وبلغ خراج العراق مائة ألف ألف (100.000.000) بضمانها، فخيرني معاوية بين الضمان والعزل، فكرهت العزل فكنت إذا استعملت العرب كسروا الخراج، وإن أقدمت على الرجل منهم أوغرت صدور عشيرته، وإن أغرمت قومه أضرت بهم، وإن تركته ضاع لي حق وأنا أعرف مكانه، فوجدت الدهاقين أعرف بالجباية، وأوفى بالأمانة، وأهون على المطالبة منكم، مع أنني قد جعلتكم أمناء عليهم (ابن مسكويه: 2003، ص 99)

إن عمل الدهاقين سهل هذه المهمة فكان الولاة يعانون من استعمال العرب حيث واجهتهم مشاكل كثيرة منها: كسر الخراج أي نقص قيمته وذلك لعدة أسباب منها قلة الخبرة في حساب هكذا أمور تردف إيرادات الدولة بحسابات مالية عالية جداً، إضافة أنه حصلت بعض المشاكل بين الجابي العربي وقومه فكان إن فرض الجباية على قومه أضربهم وإن تركهم ضاع الحق، فكان خيار الدهاقين مناسب جداً للجباية.



وعلى الأغلب كان مقدار جباية الأراضي والإيرادات المالية بشكل عام، باسم جباية العراق إلا في حالات نادرة ومحددة إذ تكون فيها الأرقام مفصلة والسنوات أيضاً، وذكر ابن الفقيه وكان خراج العراق أيام زياد بن أبيه مائة ألف ألف وخمسة وعشرين ألف ألف درهم، وأيام عبيد الله بن زياد بن أبيه أكثر منه أيام زياد بن أبيه بعشرين ألف ألف، وكان في أيام ابن هبيرة مائة ألف ألف سوى طعام الجند وأرزاق الفعلة الذين يكونون في العسكر ... وذكر بعض كتاب الفرس: إن العراق كان يجبي في أيام أنوشروان ستمائة ألف ألف مثقال، وزعم أنه جبي في آخر أيام أبرويز تسعمائة ألف ألف مثقال وترك في أيدي الناس كلهم من جميع غلاتهم مائة ألف ألف، فهلك الناس حتى أن الجارية النفيسة كانت تباع بدرهم وجبي بعض أمراء خراسان ثمانية وعشرين ألف ألف مثقال وجبي الجنيد بن عبد الرحمن أرض الهند خمسة وعشرين ألف ألف مثقال، وكانت جباية البصرة خمسة وسبعين ألف ألف درهم (ابن الفقيه : 1996، ص 391)

ونرى تزايد وتناقص الجباية من قبل الإسلام وبعد التصيير لكن الفارق أنه كانت تجمع الجباية في الكور سابقاً بالمثقال ومن ثم أصبحت الجباية بالدرهم، ولعل من هنا بدأت ملامح تعريب النقود تتضح بغض النظر عن ما ذكر من روايات على نقش العملات النقدية.

ونلاحظ أيضاً تقارب الأرقام بين ما سمي بجباية العراق أو عندما فصلها بجباية البصرة والكوفة، فالأرقام قريبة من مائة ألف وهي لا تشمل البصرة وحدها أو الكوفة وحدها وإنما تشمل البصرة وما يتبعها إدارياً ومالياً من كور ومساقى المياه، وكذلك الحال ينطبق على مدينة الكوفة.

كذلك كان الحال الذي حصل في عهد عمر بن عبد العزيز، حيث يذكر ابن الفقيه جباية العراق في هذه الفترة قائلاً: وجباه "عمر بن عبد العزيز مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم، وجباه الحجاج بن يوسف ثمانية عشر ألف ألف فقط وأسلف الفلاحين للعمارة ألفي ألف فحصل له ستة عشر ألف ألف وأرض الكوفة خمسة وعشرين ألف ألف درهم (ابن الفقيه : 1996، ص 392)

غلات السواد بالبصرة والكوفة:

ذكرت روايات عدة جباية العراق أو جباية السواد أو السوادين والعراقين، ويلاحظ من تلك الروايات أن المقصود بأرض السواد مدينتي البصرة والكوفة، لذلك لم تقف الباحثة على روايات عديدة ومفصلة تحدد واردات البصرة والكوفة بأسماء المدن تحديداً، فتارة يذكر المؤرخون سواداً وتارة عراقاً



وسوادين والبصرة والكوفة، ولربما لأن اسم الإقليم كان له تأثير أكبر من اسم المدينة أو المصر، إضافة إلى ذلك بدائية العملية الاقتصادية برمتها على الرغم من كثير الإيجابيات التي ذكرت سابقا وسوف يتم ذكرها لاحقا.

ذكر الماوردي شرحا مفصلا في أرض السواد والعراق وموقع البصرة والكوفة منه قائلا: القسموا خضرة العراق سوادًا، وسمي عراقا ؛ لاستواء أرضه حين خلت من جبال تعلو وأودية تتخفض، والعراق في كلام العرب هو الاستواء، قال الشاعر:

سقتهم إلى الحق لهم وساقوا سياق من ليس له عراق

أي ليس له إستواء؛ وحد السواد طولاً من حديثة الموصل (الماوردي: 2008، ص 259) إلى عبادان، وعرضه من عذيب (الحموي: 2008، ص 92) إلى حلوان، يكون طوله مائة وستين فرسخا، وعرضه ثمانين فرسخا، فأما العراق فهو في العرض مستوعب لأرض السواد عرفا، ويقصر عن طوله في العرف؛ لأن أوله من شرقي دجلة العلف، وفي غربها حربي، ثم يمتد إلى آخر أعمال البصرة من جزيرة عبادان، فيكون طوله مائة وخمسة وعشرين فرسخاً يقصر عن السواد بخمسة وثلاثين فرسخا، وعرضه مع تبعه في العرف ثمانون فرسخاً كالسواد (الدينوري بن قتيبة: 1992، ص 556) إن هذه الرواية تحدد أطوال السواد وحدوده طولاً وعرضا، وقد ذكرت حدود البصرة والكوفة حتى وإن لم يسمها فهي من عذيب القادسية إلى حلوان، وسوف تذكر الباحث روايات أخرى تثبت أن المقصود بالسواد هو البصرة والكوفة. سواد البصرة وما يتبعه وسواد الكوفة وما يتبعه وحدود الأراضي الإدارية التابعة للسوادين "السواد هما سوادان سواد البصرة، وسواد الكوفة. فأما سواد البصرة: فالأهواز ودست، ميسان، وفارس وأما سواد الكوفة: فكسكر إلى الزاب وحلوان إلى القادسية (أبو يوسف: 2009، ص 59) أما العراقيين فقد ذكر الجاحظ كان يوسف بن عمر الثقفي يتولى العراقيين لهشام بن عبد الملك (الجاحظ: 2003، ص 79)، إن خراج كل من البصرة والكوفة منفصلين عن بعضهما البعض، يظهر لنا أن هذا التمييز قائم على أسس إدارية لها علاقة بموارد الجبايات، إذ كان لكل من البصرة والكوفة إدارة خاصة، وموارد من مناطق محددة تذهب إلى المقاتلين في مصر، علما أن إدارة العراق كله كانت في أغلب الأوقات يتولاها وال واحد، حيث يجمع في ولايته إدارة البصرة والكوفة معا، فيقال في كل منهما أنه والي العراقيين.



وذكر أبو يوسف كذلك: "وأما أرض البصرة وخراسان فإنهما عندي بمنزلة السواد (أبو يوسف : 2009، ص 60)

ومسحت أرض السواد الأراضي المحيطة والتي ترتوي من الفرات ودجلة، فسقى الفرات يمثل الجانب الغربي من السواد وتشمل الكوفة والأراضي المحيطة بها، أما دجلة فتمثل الجانب الشرقي من أرض السواد وتشمل البصرة والأراضي المحيطة بها، علما أن الفرات يدخل إلى البصرة ويلتقي بنهر دجلة في البصرة مكونا ما يعرف بشط العرب، ويشير ابن خرداذبة إلى هذا الموضوع بقوله: وأمر عمر بن الخطاب الله بمسح السواد وطوله من العلت وحربي إلى عبادان وهو مائة وخمسة وعشرون فرسًا وعرضه من عقبة حلوان إلى العذيب وهو ثمانون فرسًا فبلغ جربانة ستة وثلاثين ألف ألف جريب فوضع على كل جريب الحنطة (القمح) أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وعلى جريب النخل ثمانية دراهم وعلى جريب الكرم ستة دراهم وعلى جريب الرطاب سنة دراهم وختم على خمس مائة ألف إنسان للجزية على الطبقات فجبى عمر بن الخطاب السواد مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم (ابن خرداذبة : 1989، ص 14)

تبين هذه الرواية طول السواد وعرضه، وتظهر لنا كذلك الأراضي التي تقع ضمن مدينتي البصرة والكوفة إداريًا ومالياً، وعلى ضوء هذا المسح والمساحة تم وضع الطريقة التي تتم فيها الجباية، وهي كم درهم على الجريب إن كان حنطة أو شعير أو نخيل، ويظهر لنا أيضاً أنه كانت هناك جزية تفرض على الرؤوس أي الأشخاص، وقد بلغ عددهم نحو 500 ألف إنسان.

هدايا النيروز:

تعتبر هدايا النيروز من الواردات المالية التي يطالب بها الحاكم، أما أصل نيروز فقد جرت العادة تقديم هدايا في عيد النيروز، وهذا المهرجان عادة قديمة كانت لدى الفرس، وقد ذكر القلقشندي في هذا الصدد قائلاً: وأما عوام الفرس فكانت عادتهم فيه رفع النار في ليلته، ورش الماء في صبيحته؛ ويزعمون أن إيقاد النيران فيه لتحليل العفونات التي أبقاها الشتاء في الهواء.. (القلقشندي: 1992،

ص 447) وذكر الرئيس فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد، والنيروز إذن بدخول فصل الحر ذكر النويري (ت: 733هـ - 1333م) قائلاً فأما النيروز، فهو أعظم أعيادهم وأجلها. يقال إن أول من اتخذ جمشيد أحد ملوك الفرس الأول. ويقال فيه جمشاد... ومدته عندهم ستة أيام، أولها اليوم الأول من شهر أفريدون ماه، الذي هو أول شهور سنتهم. ويسمون اليوم السادس النيروز

الكبير؛ لأن الأكاسرة كانوا يقضون في الأيام الخمسة حوائج الناس ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم مع خواصهم (النويري : 2003، ص 185)

هذه الروايات تبين لنا أصل عيد النيروز أو كما يطلق عليه في العراق عند الأكراد خاصة أعياد النوروز، ووجدت هذه الهدايا (النيروز) أثناء الفتوح في العصر الراشدي، وقد صالح الأحنف بن قيس أهل بلخ على أربعمئة ألف، ثم تطور الأمر إلى أن تكون هذه الهدايا هي جزء من الموارد المالية لمدينة البصرة والكوفة ومقاطعاتهما والكوثر التي ألحقت بهما إدارياً ومالياً.

وفيما بعد تطور الأمر فتحول من ركن الهدايا إلى أن يكون مورداً مالياً يتم جمعه عن طريق العمال في الأقاليم، تحت اسم الذهب والفضة، فكانت هناك رغبة لمعاوية في زيادة الموارد حيث طلب من الحكم بن عمرو عامله على خراسان أن يقوم بجمع الذهب والفضة، ولكن عامله أبي أن يجيب إلى طلبه، وذكر ابن سعد أن زياداً بعث الحكم بن عمرو على خراسان، ففتح الله عليهم، وأصابوا أموالاً عظيمة، فكتب إليه زياد أما بعد: فإن أمير المؤمنين كتب إلى أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة، فكتب: فاتق الله ليجعل الله له منهما مخرجاً، والسلام عليك، قال: ثم قال للناس: «اعدوا على فيئكم، فاقسموه» (ابن سعد: 2001، ص 28)

إن هدايا النيروز كانت إحدى موارد الدولة بغض النظر عن كمية المبالغ والعينات التي كانت تجمع عن طريق هذا المورد، فلربما كانت عادةً أو وضع هذه المبالغ لردع الناس عن هذه العادات كونها مخالفة للشريعة الإسلامية عندما كانت تعامل كمعتقد ديني.

وكان لمعاوية كاتب يقال له عبد الرحمن بن الدراج، كان من مواليه، فقلده خراج العراق لما قلد المغيرة الحرب بها، وطالب أهل السواد بأن يهدوا إليه في النوروز، والمهرجان. ففعلوا ذلك قبل عشرة آلاف ألف درهم (ابن مسكويه : 2003، ص 22) هذا فيما يتعلق بما جرى في عهد معاوية بن أبي سفيان ولكن اختلف الأمر في عهد عمر بن عبد العزيز، والذي يعد عهد الإصلاحات المالية حيث رفعت هذه الرسوم، فكانت جزء من الإصلاح الذي طال مفاصل كثيرة في الدولة وأمصارها شرقاً وغرباً، ثم انتكست هذه الإصلاحات بعد سنة (101هـ/ 719م)، أي ما بعد وفاته وعادت الأمور إلى حالها في فترة ما قبل الإصلاح.

وأما أول من فرض الرسوم على الهدايا فقد ذكر القلقشندي رواية تشير إلى أن الحجاج هو أول من فرضها وليس معاوية بقوله: أن أول من رسم هدايا النيروز والمهرجان في الإسلام الحجاج



بن يوسف الثقفي، ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز (القلقشندي : 1992، ص 447) ويبدو أن مصادر الواردات المالية للبصرة والكوفة خاصة والعراق عامة من عام (40هـ - 132هـ / 660 - 750م)، كانت تسير على نفس خطى العصر الراشدي، فمنها مصادر الجباية والخراج والعشور وأراضي زراعية وأرض السواد وحتى هدايا النيروز، وجميع هذه المصادر لم تستحدث في هذه الفترة وإنما هي مصادر وطرق الجمع وجباية الأموال كانت موجودة أساساً ويلاحظ على واردات الأموال في البصرة والكوفة في هذه الفترة أنها مرت بعدة مراحل مرحلة فتوح المقاطعات والكور والأقاليم المجاورة لمدينتي البصرة والكوفة، فجباية الأموال لم تكن منظمة بقانون جباية معين وإنما نوعية الفتوح كانت تحدد هذه المبالغ إن كانت فتحت مهادنة وصلحاً أو عنوة، ثم تطورت عملية جبي الأموال بعد الاستقرار والاستقرار لأموال المقاطعات والكور وتم تنظيم قانون لجباية هذه الأموال إن كانت خراجية أو عشرية تجارية أو حتى ما يفرض على رؤوس الأشخاص، وبعد استقرار ورواية كثير من الروايات التاريخية للواردات المالية في البصرة والكوفة في تلك الفترة، وجدت الباحثة أنه نادراً ما كان يجمع أو ترد رواية تحدد كمية الأموال التي جمعت من مدينة البصرة أو الكوفة منفردة، فكانت تجبي وتجمع وتورد هذه الأموال تحت اسم إقليم العراق أو السواد ثم من بعدها تعود إلى نفس هذه المقاطعات والمدن لكي تكون مصدر نفقات وعطاء لسكان أراضي السواد والمدن.

مفهوم الضرائب غير الشرعية في النظام المالي الإسلامي

يقوم النظام المالي في الإسلام على موارد محددة نصت عليها الشريعة، مثل الزكاة والخراج والجزية والعشور، وهي موارد تهدف إلى تحقيق العدالة المالية وتنظيم العلاقة الاقتصادية بين الدولة والمجتمع. أما الضرائب غير الشرعية فهي الأموال التي تُفرض على الناس دون سند شرعي أو دون أن تكون جزءاً من الموارد المالية المقررة في النظام الإسلامي.

وقد ظهرت هذه الضرائب في بعض فترات العصر الأموي نتيجة الضغوط المالية التي واجهتها الدولة، خاصة مع توسعها العسكري وتزايد نفقات الإدارة. وفي بعض الأحيان لجأ بعض الولاة أو العمال في الأقاليم إلى فرض رسوم إضافية على الأسواق أو الأراضي الزراعية لزيادة الإيرادات.

(الحسيني : 2017م، ص 126)

وقد كان لهذه الممارسات أثر سلبي في نظرة السكان إلى الإدارة المالية، إذ اعتبرها كثير من الفقهاء والمؤرخين خروجاً عن القواعد التي ينبغي أن يقوم عليها بيت المال في الدولة الإسلامية.



شهد العراق خلال العصر الأموي بعض التجاوزات في مجال الجباية المالية، خاصة في البصرة والكوفة، نظرًا لأهميتهما الاقتصادية وكثرة النشاط التجاري والزراعي فيهما. فقد فرض بعض العمال رسومًا إضافية على التجار في الأسواق، أو زيادات على الخراج المفروض على الأراضي الزراعية.

كما أشارت بعض المصادر التاريخية إلى فرض رسوم على بعض الأنشطة التجارية أو على نقل البضائع بين المناطق، وهي رسوم لم تكن جزءًا من النظام المالي الأصلي. وقد عُرفت هذه الرسوم في بعض المصادر باسم المكوس، وهي جبايات تُفرض على السلع أو على المعاملات التجارية.

وقد أدت هذه السياسات إلى زيادة الأعباء المالية على السكان، خاصة المزارعين والتجار، مما انعكس على النشاط الاقتصادي في تلك المناطق. كما ساهمت هذه الممارسات في زيادة التوتر بين سكان العراق والسلطة الأموية في بعض الفترات (حسن إبراهيم حسن: 1985، 341).

على الرغم من أن فرض هذه الضرائب كان يهدف إلى زيادة موارد بيت المال، فإن آثارها لم تكن دائمًا إيجابية على المدى الطويل. فقد أدت زيادة الأعباء المالية على السكان إلى تراجع بعض الأنشطة الاقتصادية، خاصة في المجال الزراعي والتجاري.

كما أن فرض الضرائب غير الشرعية أدى إلى انتشار التهرب من دفع الضرائب، إذ حاول بعض السكان تجنب الجباية المرتفعة أو إخفاء جزء من إنتاجهم أو تجارتهم. وهذا بدوره أدى إلى ضعف كفاءة النظام المالي وانخفاض فعالية تحصيل الموارد.

ومن ناحية أخرى، أثارت هذه السياسات انتقادات من قبل العلماء والفقهاء الذين أكدوا أن بيت المال يجب أن يعتمد على الموارد الشرعية التي حددها النظام المالي الإسلامي. ولذلك كان كثير من الإصلاحيين في العصر الأموي يدعون إلى إلغاء هذه الضرائب والعودة إلى القواعد المالية الأصلية (طقوش: د. ت، ص 173)

مع تزايد الانتقادات لهذه الممارسات، ظهرت بعض المحاولات لإصلاح النظام المالي في العراق. ومن أبرز هذه المحاولات الإصلاحات التي قام بها الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي سعى إلى إزالة كثير من المظالم المالية التي ظهرت في بعض الأقاليم.

فقد أمر بإلغاء عدد من الجبايات غير المشروعة، وشدد على ضرورة الالتزام بالموارد المالية التي يقرها النظام الإسلامي. كما وجّه الولاة إلى مراعاة العدل في جباية الأموال وعدم إرهاب السكان بالضرائب.

وقد ساعدت هذه الإجراءات في تحسين الأوضاع المالية في بعض المناطق، كما أعادت قدرًا من الثقة بين السكان والإدارة المالية للدولة. ومع ذلك فإن تأثير هذه الإصلاحات كان محدودًا بسبب قصر مدة خلافته (جرجي زيدان: 1993، ص 214)

ثانياً: النفقات المالية

أسهمت الموارد المالية التي تم تحصيلها من مدينتي البصرة والكوفة أو أراضي السواد في تحول هذه الموارد المالية إلى نفقات مالية كبيرة، حيث كانت النفقات تمثل واجباً أخلاقياً وشرعياً من الدولة تجاه سكان هاتين المدينتين والكور المحيطة بها، وتتنوع النفقات وفقاً للحاجات المطلوبة والإيرادات التي تُخصص لكل منها، وفي قوانين الأنظمة المالية للدولة الإسلامية التي كانت مبتدأة بطبيعة حالها، إلا أنها كانت تستقي هذه الأنظمة والقوانين وفق قوانين الشريعة الإسلامية وما وجد قبلهم في عصر الخلفاء الراشدين، فتتقسم النفقات إلى نفقات حدّدت لها الشريعة الإسلامية موارد مخصصة ونفقات على المصالح العامة للدولة، ووضعت لهذه النفقات أحكام يتم العمل ضمنها لتنظيم عملية الإنفاق في الدولة. حيث كانت نفقات الجيش والجند كبيرة قياساً بغيرها، كون طبيعة المدن لا زالت تغلب عليها الصبغة العسكرية رغم التمسير، إضافة إلى رواتب الموظفين والإداريين فنفقاتهم تختلف عن نفقات المقاتلين (حسين مؤنس: 2008، ص 289) وفي ما يلي توضيح أهم جيات النفقة المالية في البصرة والكوفة:

العطاء والرزق

كانت هناك نفقات كبيرة تصرف للمقاتلين وعلى تجهيز الحملات في البصرة والكوفة وكانت هذه النفقات تسدّ ما يحصلون عليه في المعارك والفتوحات من الغنائم، والتي يوزع أربعة أخماسها على المقاتلين بالتساوي، بحيث يصيب الراجل سهم والفراس سهمان، أما الخمس الباقي من الغنيمة فيصل بيت المال على إعداد الحملات في المستقبل أو يرسل للمدينة، ولما كان المقاتلين يحتاجون إلى ما يديم ودهم وما يشتررون به من أشياء لسد متطلبات الحملات العسكرية، فقد حرصت الدولة الإسلامية، ومنذ زمن



الرسول على توفير احتياجات الجنود، عبر تسليم المقاتل مبلغا من المال سنوياً يسمى (العطاء)، إضافة الى تجهيزات غذائية تسمى (الرزق)، إن أول من وضع حجر الأساس لهذا المصرف في النظام المالي هو الرسول، حيث كان يعطي العطاء ويوزع على المسلمين، وقد تحدث ابن الأثير عن ذلك قائلاً: عن عوف بن مالك: قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الفيء قسمه في يومه، فأعطى الأهل حظين، وأعطى العزب حظاً. وزاد في رواية: فدعينا، وكنت أدعى قبل عمار، فدعيت فأعطاني حظين، وكان لي أهل، ثم دعي بعدي عمار بن ياسر، فأعطى حظاً واحداً (ابن الأثير : 1969، ص 712)

يتبين لنا أن رسول الله ﷺ وزع العطاء ونظمه حسب العازبين والمتزوجين، فللعازب سهم وللمتزوج سهمان، إلا أن مساهمة العطاء تطورت من مساهمات فردية إلى وجود مؤسسة إدارية تقوم بأعباء العطاء، وقد كان ذلك أحد أبرز الدوافع التي ساهمت في خلق إدارة مالية تعمل على تنظيم عائدات الخلافة، وتوزيعها وفق جداول ثابتة على نحو تخرج معه هذه المؤسسة من دائرتها الضيقة في الإطار العام الشامل، وذلك في ما يعرف باسم (ديوان العطاء)، وأول من أنشأ ديوان العطاء عمر بن الخطاب، وقد ذكر الطبري: قرص "عمر" للمسلمين الفروض، ودون الدواوين وأعطى العطايا على السابقة (الطبري : 2003، ص 613)

ويقصد بالسابقة على الإسلام ممن دخلوا الإسلام أولاً وليس على الأحساب والأنساب، غير أن لم يبق هذا الشرط على ما هو عليه في العهد الأموي، فبدأ توزيع العطاء على القبائل. كان العطاء في عهد زياد بن أبيه يوزع سنوياً، فذكر البلاذري قال: ما بلغ الناس عاشوراء قط في أيام زياد بن أبيه إلا وطائفة يأخذون العطاء، ولا رأينا الهلال إلا مضينا إلى دار الرزق فأخذنا الأرزاق لعيالاتنا (البلاذري : 1996، ص 219)

وتظهر رواية البلاذري أن الناس كانوا يأخذون العطاء والأرزاق من دار الرزق، غير أن دفع العطاء لم يكن ميسوزا دائماً، وخاصة إذا لم يصل الخراج في وقته المعين، ولما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان وولي زياد بن أبيه أمر الكوفة والبصرة أجرى تنظيمات واسعة، منها: أن الكوفة جعلت أربعاً بعد أن كانت أسباعاً وهي أصبحت فيها أربع رؤساء قبائل بعد أن كانت سبعة وتحت كل ربع أو اسم توجد ثلاث إلى أربع قبائل، وثبت التنظيم الإداري للقبائل وجعل لكل قبيلة عريف، (والراجع أن كل قبيلة أصبحت تضم ألف مقاتل، ودققت السجلات على هذه الأساس، واهتم زياد بن



أبيه بضبط أحوال الریف والجباية، فاستقرت موارد الجبايات مما يسر تنظيم العطاء والرزق، وفي زمنه تم بناء دار الرزق في الكوفة والبصرة وثبت مقدار الرزق (العلي: 1972، ص 192) وأمر الخليفة الأموي معاوية لأهل الكوفة زيادة في العطاء وقدره عشرة دنانير، وذكر البلاذري حول ذلك: واستعمل معاوية النعمان بن بشير على الكوفة فكتب إليه معاوية يأمره أن يلحق لأهل الكوفة في أعطياتهم زيادة عشرة دنانير (البلاذري: 1996، ص 14)، وكانت هذه الزيادة أو مكرمة العطاء مؤقتة لأم ينفذ بعضها ويرد بعضها، وأهتم عمر بن عبد العزيز بأمر العطاء، وذكر الأصبهاني وزاد" الناس في عطاياهم عشرة عشرة العرب والموالي (الأصبهاني: 1989، ص 331)، وكان رسول الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز يأتي إلى البصرة فإذا سمع به تلقاه الناس فليس يقدم إلا بزيادة في عطاء أو قسم أو خير يأمر به أو شر ينهى عنه (ابن عبد الحكم: 1994، ص 63) والراجح ان هذا الأمر كان ينطبق كذلك إلى الكوفة (العلي: 1972، ص 198)

إن ما ذكر من العطاء فقد أصبح لأن يكون بمثابة التكافل والضمان الاجتماعي، وليس بغريب على مؤسسات الدولة الإسلامية أن تقوم بمثل هذا العمل من تكافل وضمان اجتماعي الأفراد المجتمع، فالإسلام دين التكافل والتأصر بين المسلمين فكانت تدخل مصارف الزكاة ونحوها في هذا النوع من النفقات، حيث كان في إقليم العراق والذي يشمل البصرة والكوفة، فقراء هذه المدن والإقليم كانوا يحملون بطاقات محدد لهم فيها الكمية المخصصة لكل فرد من المعونات العينية (نجدة: 1980، ص 335)، وكانت هذه خلال الفترة من عام (45-53هـ / 673 - 673م)، ثم أصبحت في عهد عمر بن عبد العزيز (99-100هـ / 717 - 718م)، مزيجاً من العطاء والرزق نقدي وعيني، ومن الأمثلة على المعونات النقدية قضاء دين من أدان في غير سفه، فقد ذكر الماوردي حول ذلك قائلاً: وهو أن يكون قد أدان في حق فكرجل أدان في جوائح أصابته أو نفقات لزمته أو معاملات أضرت أو زكوات وجبت وحج أدي وفرض قضي إلى ما جرى مجرى ذلك من واجبات (الماوردي: 1999، ص 508)، فالعطاء يجب في هذه الحالات إذا كان دين في حق، أو أصابته جائحة أو أي معاملة مالية أو تعرض لها من غير قصد الإساءة، فيعطى من هذه النفقات وتزويج الرجل الذي ليس له مال وله رغبة في الزواج وينطبق على البصرة والكوفة من عطاء ما ينطبق على باقي الولايات والأقاليم والمدن،



وذهب العطاء لأبعد من ذلك ليشمل الأطفال لمن هم دون السابعة عشر فيحصلون على مبلغ مائة درهم في السنة تدفع لهم عند الفطام، ونرى أن العطاء ارتقى لأن يكون نظام مالي تكافلي فيه ضماناً اجتماعياً مسؤول عن جميع الأفراد، فكان العطاء جزءاً مهماً من الإصلاحات والمبادرات التي قام بها الولاة في العراق، والبصرة والكوفة كجزء من هذه المبادرة والإصلاح.

رواتب الموظفين:

اشتمل إقليم العراق عامة والبصرة والكوفة خاصة، على عدد كبير من العمال والموظفين كانت تصرف لهم رواتب ونفقات مالية تختلف عن عطاء المقاتلين ورواتب الجند، فرواتب الولاة والعمال والقضاة وموظفو الدواوين ورؤساء الكتاب كلها تتدرج تحت طائلة النفقات المالية للدولة، وذكر المبرد عن ذلك في قوله: "وبلغ زيادا" عن رجل يكنى أبا الخير .. فولاه جند يسابور . وما يليها، ورزقه أربعة آلاف درهم في كل شهر، وجعل عمالته في كل سنة مائة ألف (المبرد : 1980، ص 191)

أما موظفو الدواوين فأغلبهم كانوا من الأعاجم، ولابد أن عددهم قد ازداد بازدياد أهمية المدينة والمصر الإدارية (العلي : 1972، ص 144)، حيث ازداد عدد العمال والموظفين في مدينة البصرة وهذه الزيادة بالتأكيد سوف تكون زيادة طردية مع حجم النفقات ورواتب الموظفين والعمال، وقد خاطب الخليفة الأموي معاوية أهل البصرة أن ديوان عمالكم كان تسعون ألفاً والآن عددهم مائة وأربعون ألف عامل بين موظف وكاتب وعامل سوق وقد ذكر الطبري هذه الرواية قائلاً: وما أحصى ديوان عمالكم إلا تسعين ألفاً، ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً (الجهشياري : 1988، ص 21)

إن طبيعة أي عمل قائم على تقاضي أجور مالية لقاء تقديم خدماتهم إن كانوا كتاباً أو عمالاً أو رؤساء دواوين أو قضاة، لكن تتفاوت نسب ومعدل رواتبهم من عمل إلى آخر، ويذكر الجهشياري سبب إقامة ديوان الخاتم قائلاً: "وكان معاوية أول من أتخذ ديوان الخاتم، وكان سبب ذلك: أنه كتب لعمر بن الزبير بمئة ألف درهم إلى زياد، وهو عامله على العراق، ففض عمرو الكتاب وجعلها مئتي ألف درهم، فلما رفع زياد بن أبيه، حسابه، قال معاوية: ما كتبت له إلا بمئة ألف درهم، وكتب إلى زياد بن أبيه بذلك، وأمره أن يأخذ المئة الألف منه، فحبسه بها، فاتخذ معاوية ديوان الخاتم وقلده عبدالله بن محمد الحميري وكان قاضياً (الجهشياري : 1988، ص 23)



وهذه الرواية تبين حجم النفقات الخاصة بالرواتب التي يتقاضاها الكتاب والعمال في مدينتي البصرة والكوفة في العراق، وإن النفقات المالية لرواتب الموظفين بجميع مسمياتهم، تظهر لنا مدى اهتمام القائمين على إدارة الدولة والنظام المالي، بالجانب المدني في البصرة والكوفة بعيداً عن عطاء ورواتب المقاتلة والعساكر القاطنة في هذه المدن، فرغم كل الاحداث التي صاحبت الفتوحات والتمصير وما بعدها، وتبين لنا أن هذه الرواتب أظهرت لنا جانباً من التنظيم المالي والتميز بين المدنيين والمقاتلة وأنه كانت هناك دواوين وكتاب يقومون بهذا العمل في تسمية وتوزيع هذه الرواتب لمستحقيها.

النفقات العسكرية والحربية:

تعد النفقات العسكرية أحد أهم أبواب ومصارف النفقات المالية في البصرة والكوفة، وتتضح معالم النفقات العسكرية في هذه الفترة بالاهتمام بالصناعات الحربية ونفقات الجند، فكانت رواتب للجند تختلف عن العطاء، وأصبحت الجندية عملاً دائماً، وأصبح الجند يرابطون في الثغور وكان لهم ديوان الجند، وقد حددت لهم، ولذويهم، رواتب ونفقات منظمة، وقد ذكر الصولي أنه قال: كان بالبصرة والكوفة ديوانان لإعطاء الجند والمقاتلة والذرية (الجهشياري : 1988، ص 24) فكانت القاعدة المتبعة أن يخصص لكل ولاية ما كان يجبي من الأموال منها فتتفق في مصالحها ومصالح المقاتلة فيها، وكانت النفقات العسكرية والحربية قد نالت اهتماماً كبيراً من واجبات الدولة.

أما في البصرة فقد كانت أعداد الجنود تتراوح ما بين ستين ألفاً إلى ثمانين ألفاً وهذه الأعداد تحتاج إلى نفقات ورواتب واهتمام خاص من الدولة، فذكر الطبري أن معاوية قال: يا أهل البصرة انسيوني ولقد وليتكم وما أحصى ديوان مقاتلكم إلا سبعين ألف مقاتل ولقد أحصى اليوم ديوان مقاتلكم ثمانين ألفاً (الصولي : 1923، ص 192)، ويلاحظ أن هناك تناسباً بين أعداد المقاتلة في الولاية ومبلغ جبايتها، وأن عدد من في الديوان من المقاتلين فيها يتأثر بالإمكانات المادية لها، وقد يفسر هذا نقل المقاتلة من البصرة والكوفة إلى خراسان (الطبري : 2003، ص 504) وديوان الجند ورواتبهم يختلف عن ديوان العطاء حتى وإن كانوا الجند مستفيدين من العطاء، كما ذكر سابقاً، فديوان العطاء أوسع شمولاً من ديوان الجند، فقد شمل حتى الأطفال والنساء والذريات والقبائل أما ديوان الجند فقد انحصر بالجنود المقاتلين القادرين على حمل السلاح والذين يحرسون الثغور ويشاركون في الحملات.



أما النفقات الحربية فقد كانت نفقة الصناعات الحربية تتزايد إذ كان اهتمام الدولة بسلاح البحرية واضح، حتى وصل عدد المراكب البحرية في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ألف وثمانمائة سفينة كبيرة وإن لم تكن لمدينة البصرة والكوفة أعداد واضحة من هذه السفن، إلا أن الدور الذي كان يقوم به العراق بصورة عامة ومدينتي البصرة والكوفة خاصة من فتوحات ونسبة الجبايات، يجعلنا نتصور أن للبصرة والكوفة كانت لهما نسبة عالية من النفقات الحربية ومن هذه السفن والمراكب الحربية، كيف ولا وأن مدينة البصرة وموقعها الجغرافي بين المياه الإقليمية والتي تربط بين الأنهار والأبحار فقد كانت طرقها المائية ممرا للسفن الحربية باتجاه الشرق.

نفقات البنى التحتية والخدمات الاجتماعية:

تم الحديث عن هذه النفقات في الفصل الأول في جانب الإصلاح الزراعي والري والمحاصيل الزراعية، حيث شملت نفقات البنى التحتية مثل السدود والمسنيات وحفر الأنهار وكري الجداول وإقامة القناطر وبناء المساجد والأسواق، في كل من مدينتي البصرة والكوفة إذ يعتبر من نفقات البنى التحتية والخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة، فخير مثال على ذلك البطائح التي عجز عن ردم فتقها كسرى قبل تمصير البصرة، حيث استصلحت هذه الأراضي وتحولت من أرض يكثر فيها السبخ والقصب والأجام إلى أرض زراعية إنتاجية، وكذلك هو حال فيما يتعلق بحفر الأنهار، وذكر البلاذري قالوا: ولما قدم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عاملا على العراق من قبل يزيد بن الوليد أتاه أهل البصرة فشكوا إليه ملوحة مائهم وحملوا إليه قارورتين في أحدهما ماء البصرة وفي الأخرى ماء من ماء البطيحة فرأى بينهما فصلا فقالوا: إنك إن حفرت لنا نهرا شربنا من هذا العذب. فكتب بذلك إلى يزيد فكتب إليه يزيد أن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق ما كان في أيدينا فأنفقه عليه، فحفر النهر الذي يعرف بنهر عمرو قال رجل ذات يوم في مجلس بن عمرو الله أنى أحسب نفقة هذا النهر تبلغ ثلاثمائة ألف أو أكثر فقال ابن عمر، لو بلغت خراج العراق لأنفقه عليه (البطائنة: 1980، ص 172)

والأمثلة كثيرة على ما تم بناءه من بنى تحتية وخدمات اجتماعية في مدينة البصرة والكوفة في هذه الفترة رغم كل التحديات التي واجهت الدولة في هذه الفترة.

حصة بيت المال:

كانت ترسل البصرة والكوفة ما يتبقى من أموال بعد صد نفقات المصر، وكانت الأموال المتبقية تختلف من عام إلى آخر تبعاً لمقدار الدخل والمصروفات في البصرة والكوفة، لكن تحويل الأموال من قبل الولاة إلى بلاد الحجاز قبل سد حاجة المدينتين كان يسبب مشاكل وهذا ما حدث في البصرة مع الوالي زياد بن أبيه، حيث أراد تحويل الأموال قبل دفع عطاء المقاتلين، وذكر المقدسي عن ذلك قائلاً: جباى العراق مائة ألف ألف درهم (مائة مليون درهم) وجعل يخطب الحجاز (البلاذري : 1996، ص 359)، فقد أجبر السكان دفع العطاء وسدد نفقات البصرة ثم بعدها يحول الفائض من أموال الجباية.

ويروي البلاذري قائلاً: أن زياداً كان يجبي من كور البصرة ستين ألف ألف فيعطي المقاتلة من ذلك ستة وثلاثين ألف ويعطي الذرية ستة عشر ألف ألف درهم (16 مليون) وينفق نفقات السلطان ألف ألف درهم، ويجعل من بيت المال للبوابق والنواب ألفي ألف، ويجعل إلى معاوية ثلثي الأربعة آلاف ألف؛ لأن جباية الكوفة ثلثي جباية البصرة، وحمل عبيدالله بن زياد بن أبيه إلى معاوية ستة آلاف درهم فقال اللهم أرض عن ابن أخي (المقدسي: 1993، ص 20)

وهذه الرواية تظهر لنا حجم الأموال التي كانت تحمل كحصة لبيت المال في بلاد الحجاز على الرغم من اعتراض أهل العراق على ذلك، ولا تقتصر نفقات الأموال في البصرة والكوفة على ما ذكرناه من نقاط محددة وإنما كانت النفقات تصرف حسب حاجة كل مصر من الأمصار والكور والأقاليم التابعة لها، لكن يلاحظ على النفقات المالية في البصرة والكوفة أن العطاء ورواتب الجند والنفقات العسكرية والحربية قد نالت نصيباً كبيراً من هذه الأموال، ولعل طابع المدينتين التي ارتبط تمصيرهما بالفتوحات الإسلامية والحملات العسكرية جعل من سكان المدينتين وخاصة مدينة الكوفة، ذات طابع عسكري وأكثر العوائل التي تقطنها هم من عوائل الجنود المقاتلين، لذلك قد نالوا نصيباً وافراً من العطاء.

مقارنة بين الموارد المالية في البصرة والكوفة

الموارد المالية في البصرة والكوفة

اعتمدت الموارد المالية في البصرة والكوفة على مصادر متعددة، كان أهمها الخراج المفروض على الأراضي الزراعية في العراق. فقد كانت الأراضي المحيطة بهاتين المدينتين من أكثر مناطق العراق خصوبة، الأمر الذي جعلها مصدرًا مهمًا لإيرادات الدولة.

وفي البصرة أسهم الموقع الجغرافي للمدينة في تعزيز مواردها الاقتصادية، إذ كانت ميناءً مهمًا يربط العراق بالخليج العربي وبالمناطق الشرقية مثل الهند وفارس. وقد أدى هذا الموقع إلى ازدهار النشاط التجاري فيها، مما وفر موارد إضافية لبيت المال من خلال الرسوم التجارية والعشور المفروضة على البضائع (البلاذري : 1996، ص 219)

أما الكوفة فقد تميزت بكونها مركزًا إداريًا وعسكريًا مهمًا، إذ استقر فيها عدد كبير من الجند العرب منذ الفتوحات الإسلامية الأولى. ولذلك اعتمدت مواردها المالية بدرجة أكبر على الخراج والجزية المفروضة على الأراضي والسكان في المناطق المجاورة، إضافة إلى ما كانت تتلقاه من إمدادات مالية من الدولة المركزية لدعم النشاط العسكري فيها (حسن إبراهيم حسن: 1985، ص 332)

وعلى الرغم من هذا الاختلاف النسبي في طبيعة الموارد، فإن كلتا المدينتين كانتا تمثلان ركيزة مالية مهمة للدولة الأموية، إذ كانت إيراداتهما تسهم في تمويل العديد من أنشطة الدولة في العراق والأقاليم الأخرى.

أوجه الإنفاق في البصرة والكوفة

تنوعت أوجه الإنفاق في البصرة والكوفة وفقًا للدور الذي كانت تؤديه كل مدينة في النظام الإداري والعسكري للدولة. فقد كان الجزء الأكبر من الإنفاق موجَّهًا إلى رواتب الجند، إذ كانت المدينتان من أهم مراكز التجنيد في العراق.

وفي البصرة خُصص جزء كبير من موارد بيت المال لتمويل الحملات العسكرية التي كانت تنطلق منها نحو المشرق، إضافة إلى الإنفاق على شؤون الإدارة المحلية ومرافق المدينة. كما احتاجت المدينة إلى موارد مالية لتطوير منشآتها التجارية والمينائية التي دعمت نشاطها الاقتصادي. (طقوش: د . ت ، ص 165)

أما الكوفة فقد كان الإنفاق فيها مرتبطاً بدرجة أكبر بطبيعتها العسكرية والسياسية. فقد كانت المدينة مقراً لكثير من القبائل العربية التي شاركت في الفتوحات، ولذلك استحوذت رواتب الجند والعطاءات التي تقدمها الدولة للمقاتلين على جزء كبير من موارد بيت المال فيها.

كما شمل الإنفاق في الكوفة إدارة الشؤون الإدارية والقضائية، إضافة إلى دعم الأنشطة الدينية والعلمية التي اشتهرت بها المدينة، إذ أصبحت مركزاً مهماً للفقهاء والعلوم الإسلامية خلال تلك الفترة (جرجي زيدان، 1993، ص 205)

أوجه التشابه والاختلاف بين المدينتين

تكشف المقارنة بين البصرة والكوفة في العصر الأموي عن وجود عناصر مشتركة في النظام المالي لكلا المدينتين، إذ اعتمدت مواردهما الأساسية على الخراج والجزية والعشور، كما تشابهت أوجه الإنفاق في تخصيص جزء كبير من الموارد لرواتب الجند وإدارة الشؤون العامة. إلا أن الاختلاف الرئيس بين المدينتين تمثل في طبيعة النشاط الاقتصادي السائد في كل منهما. فقد تميزت البصرة بطابعها التجاري والبحري، مما جعلها مركزاً اقتصادياً نشطاً يرتبط بالتجارة الدولية. أما الكوفة فقد احتفظت بطابعها العسكري والإداري، إذ كانت قاعدة مهمة للجند ومركزاً للقيادة السياسية في العراق.

وقد انعكس هذا الاختلاف في طبيعة الإنفاق العام، حيث احتاجت البصرة إلى دعم الأنشطة التجارية والمرافق الاقتصادية، في حين ركزت الكوفة على تلبية احتياجات الجند والإدارة العسكرية. ومع ذلك فإن المدينتين ظلتا تشكلان معاً قاعدة مالية وإدارية مهمة للدولة الأموية في العراق (حسين مؤنس، 2008، ص 277)

توضح المقارنة بين البصرة والكوفة في العصر الأموي أن المدينتين لعبتا دوراً أساسياً في النظام المالي للدولة الإسلامية. فقد أسهمت البصرة بمواردها التجارية والزراعية في تعزيز الإيرادات المالية للدولة، في حين أدت الكوفة دوراً مهماً بوصفها مركزاً عسكرياً وإدارياً يعتمد على موارد الخراج والجزية لدعم نشاط الجند والإدارة.

كما تكشف هذه المقارنة عن تنوع البنية الاقتصادية في العراق خلال العصر الأموي، حيث تكامل الدور التجاري للبصرة مع الدور العسكري والإداري للكوفة، الأمر الذي ساعد الدولة على إدارة مواردها المالية وتوجيه نفقاتها بما يحقق الاستقرار الاقتصادي والسياسي في تلك المنطقة.

خاتمة البحث

خلص هذا البحث إلى أن التنظيم المالي لبيت المال في مدينتي البصرة والكوفة خلال العصر الأموي مثل أحد الأعمدة الأساسية التي استندت إليها الإدارة الاقتصادية للدولة الإسلامية، إذ أسهم في ضبط الموارد المالية وتنظيم أوجه إنفاقها بما ينسجم مع متطلبات الدولة السياسية والعسكرية والاجتماعية. وقد كشفت الدراسة أن بيت المال لم يكن مجرد مؤسسة مالية تقليدية، بل كان جهازاً إدارياً منظماً يعكس تطور الفكر المالي والإداري في تلك المرحلة.

وأظهرت نتائج البحث أن تنوع الموارد المالية، مثل الخراج والجزية والعشور والغنائم، شكّل عاملاً رئيساً في دعم الاستقرار المالي في البصرة والكوفة، في حين ساعد تنظيم النفقات، ولا سيما رواتب الجند والولاء والإنفاق على المرافق العامة، في ترسيخ دور المدينتين كمركزين إداريين واقتصاديين مهمين في الدولة الأموية. كما بيّنت الدراسة أن كفاءة التنظيم المالي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بقدرة الإدارة الأموية على تحقيق التوازن بين الموارد المتاحة والاحتياجات المتزايدة، في ظل التحديات السياسية والإدارية التي واجهتها الدولة.

كما أكدت الخاتمة أن التنظيم المالي لبيت المال في البصرة والكوفة لم يكن بمعزل عن السياق العام للدولة الأموية، بل تأثر بالسياسات الإدارية المركزية وبأداء الولاة والقائمين على الشؤون المالية. وأسهم هذا التنظيم، بدرجات متفاوتة، في تحقيق قدر من الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي، على الرغم من التباينات التي شهدتها المدينتان تبعاً للظروف المحلية وطبيعة الدور الذي اضطلعت به كل منهما.

وفي ضوء ما توصل إليه البحث، تتضح الحاجة إلى مزيد من الدراسات المتخصصة التي تتناول التنظيم المالي في الأقاليم الإسلامية الأخرى خلال العصر الأموي، بما يسمح بإجراء مقارنات أوسع تسهم في تعميق فهم تاريخ المالية العامة في الإسلام، وتبرز الأبعاد الاقتصادية والإدارية للدولة الأموية في سياقها التاريخي العام.

أولاً: نتائج البحث

1. أظهرت الدراسة أن بيت المال في البصرة والكوفة خلال العصر الأموي كان مؤسسة مالية منظمة، تقوم على أسس إدارية واضحة هدفت إلى ضبط الموارد العامة وتنظيم أوجه إنفاقها بما يلبي احتياجات الدولة والمجتمع.

2. كشفت النتائج عن تنوع الموارد المالية التي اعتمد عليها بيت المال، وفي مقدمتها الخراج والجزية والعشور والغنائم، وهو ما أسهم في تحقيق قدر من الاستقرار المالي، وعكس اتساع القاعدة الاقتصادية في المدينتين.
3. بيّنت الدراسة أن النفقات العامة لبيت المال اتسمت بالتعدد، حيث شملت رواتب الجند والولاء، والإنفاق على الإدارة والمرافق العامة، فضلاً عن دعم الأنشطة العسكرية، وهو ما يدل على الدور المحوري للبصرة والكوفة في البنية الإدارية للدولة الأموية.
4. أوضحت النتائج أن التنظيم المالي لبيت المال تأثر بالسياسات المركزية للدولة الأموية، وبكفاءة الولاة والعاملين على الشؤون المالية، الأمر الذي أدى إلى تفاوت في مستوى الأداء المالي بين البصرة والكوفة تبعاً للظروف المحلية والإدارية.
5. أثبت البحث أن التنظيم المالي أسهم، بدرجات متفاوتة، في تحقيق التوازن بين الموارد والنفقات، مما ساعد على دعم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي في المدينتين، رغم التحديات السياسية والإدارية التي واجهتها الدولة الأموية في بعض الفترات.
6. أظهرت الدراسة أن التجربة المالية في البصرة والكوفة تعكس تطوراً ملحوظاً في الفكر الإداري والاقتصادي الإسلامي المبكر، وأسهمت في إرساء ممارسات مالية استمرت تأثيرها في العصور الإسلامية اللاحقة.

ثانياً: توصيات البحث

1. يوصي البحث بضرورة توسيع نطاق الدراسات التاريخية الاقتصادية المتعلقة ببيت المال في العصر الأموي، مع التركيز على الأقاليم المختلفة، بما يتيح إجراء مقارنات شاملة تسهم في تعميق الفهم العلمي لتاريخ المالية العامة في الإسلام.
2. التأكيد على أهمية اعتماد المناهج التحليلية المقارنة في دراسة التنظيم المالي الإسلامي، لما لها من دور في إبراز أوجه التطور والاستمرارية بين العصور المختلفة.
3. الدعوة إلى إعادة قراءة المصادر التاريخية المبكرة قراءة نقدية واعية، بهدف استخلاص مزيد من المعطيات المتعلقة بالإدارة المالية، وربطها بالسياقات السياسية والاجتماعية التي أفرزتها.
4. تشجيع الباحثين على دراسة أثر التنظيم المالي لبيت المال في تحقيق العدالة الاجتماعية والاستقرار الاقتصادي، وربط ذلك بالسياسات الإدارية للدولة الأموية.



5. الاستفادة من التجربة التاريخية لبيت المال في البصرة والكوفة بوصفها نموذجًا مبكرًا للإدارة المالية العامة، يمكن توظيفه في إثراء الدراسات المعاصرة في مجال الاقتصاد الإسلامي.
6. الدعوة إلى توظيف الدراسات التاريخية الاقتصادية في بناء رؤية متكاملة لتطور المؤسسات المالية في الحضارة الإسلامية، بما يعزز من حضور هذا الحقل البحثي في الدراسات الأكاديمية الحديثة.

المصادر والمراجع

- (1) ابن الأثير : ابن الأثير المبارك بن محمد، (1969) جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ، مكتبة الحلبي، القاهرة.
- (2) ابن الفقيه : أبو عبدالله محمد بن أحمد، (1996) البلدان، تحقيق يوسف الهادي، دار العلم للكتب، بيروت.
- (3) ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (1989) المسالك والممالك، دار صادر، بيروت.
- (4) ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الزهري (2001) الطبقات الكبرى، ج 7، تحقيق على محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- (5) ابن عبد الحكم : عبد الله بن عبد الحكم، (1994) سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تحقيق محمد عبدالقادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (6) ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي (د . ت) تاريخ مدينة دمشق، ج 28، دار الفكر، بيروت
- (7) ابن مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه أبو علي، (2003) تجارب الأمم وتعاقب الهمم، دار الكتب العلمية، بيروت
- (8) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم، (د.ت) الخراج، دار المعرفة، بيروت.
- (9) أحمد شلبي، (1991)، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- (10) الأصبهاني: (1989م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 10 مج، دار الكتب العلمية، بيروت



- 11) البطاينة، محمد ضيف (1980م) الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى دار طارق عمان
- 12) البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر، (1996) انساب الإشراف، ج 5، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق
- 13) البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر، (1992) فتوح البلدان، تحقيق إبراهيم بيضون، دار أقرأ، بيروت
- 14) الجاحظ : (2003م) المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال القاهرة.
- 15) الجهشياري: أبو عبدالله محمد بن عبدوس، (1988) الوزراء والكتاب، تحقيق حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت.
- 16) الحسيني: محمد طه حسين (2017م) التنظيم المالي للدولة منذ صدر الإسلام حتى سقوط الدولة العثمانية المركز العربي للنشر، مصر.
- 17) الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي، (2008) معجم البلدان، ج2، تحقيق محمد عبدالرحمن، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 18) الدينوري بن قتيبة: (1992م) المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة.
- 19) الزيات: أحمد حسن باشا، (1953) مجلة الرسالة، (ع).
- 20) الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، (1923م) أدب الكتاب، صححه محمد بهجة الأثري المكتبة العربية ببغداد.
- 21) الطبري: محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج 5، دار المعارف، القاهرة (د . ت)
- 22) العلي: صالح أحمد، (1972) الكوفة وأهلها، دار الحرية للطباعة، بغداد.
- 23) العلي: صالح، (1986م) خطط البصرة ومنطقتها دراسة في أحوالها العمرانية والمالية في العهود الإسلامية الأولى، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد.
- 24) القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (1992م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 15 مج، دار الكتب العلمية، بيروت.

- (25) الماوردي : أبو يعلى محمد بن الحسين، (2008) الأحكام السلطانية، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
- (26) الماوردي: على بن محمد، (1999) الحاوي الكبير فى فقه مذهب الإمام الشافعى، تحقيق على محمد عوض، ج 8، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (27) المبرد : على بن محمد، (1980) الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد على المكي، ج 3، دار الفكر، بيروت.
- (28) المقدسي : المطهر بن طاهر، (1900) البدء والتاريخ، دار صادر، بيروت.
- (29) المقدسي: شمس الدين ابو عبد الله محمد، (1991) أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم، ط 3، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- (30) النويري : أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين (2003م) نهاية الأرب في فنون الأدب 33 مج، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة.
- (31) جواد : على (1969) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج9، دار العلم للملايين، بيروت.
- (32) جرجي زيدان، (1993) تاريخ التمدن الإسلامي، بيروت: دار الهلال.
- (33) حسن إبراهيم حسن، (1985)، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- (34) حسين مؤنس، (1998)، التاريخ الإسلامي، القاهرة: دار المعارف.
- (35) خليفة: أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري، (1977م) تاريخ خليفة بن خياط أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق.
- (36) عبد الشافي، محمد عبد اللطيف، (1998م) السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دار السلام، القاهرة.
- (37) نجدة: خماش (1980م) الإدارة في العصر الأموي، دار الفكر، دمشق.